

من ينابيع الثقافة الإسلامية في العصرين الإسلامي والأموي

من ينابيع الثقافة الإسلامية في العصرين الإسلامي والأموي

د. إبراهيم عوض

مكتبة جزيرة الورد

١٤٣٧هـ - ٢٠١٥م

كلمة

في الفصول التالية حديث عن بعض ينابيع الثقافة الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي. وقد بدأت أولاً بتحديد كل من مصطلحي "الثقافة" و "الإسلام" حتى يكون القارئ على بينة مما نحن بسبيل الحديث عنه، وشفعت ذلك بالكلام عن القرآن الكريم، ثم الحديث النبوي الشريف، ثم الشعر بأغراضه المختلفة، وكذلك النشر بخطبه ورسائله وقصصه وأمثاله، متوقفاً أمام كل قضية من القضايا الهامة المتعلقة بهذا الموضوع أو ذاك. وأرجو ألا تكون إساءة كثيرة رغم أنني لم أَلْ جهداً في نطاق استطاعتي. كما أدعو الله أن يتقبل عملي هذا بقبول حسن وأن يغفر لي أخطائي، التي لا يبرأ منها أي عمل بشري. وهو سبحانه ولي التوفيق.

الثقافة الإسلامية

فى هذا الفصل سنقف لدى مصطلح "الثقافة الإسلامية" نفككه إلى عنصريه: "الثقافة" و"الإسلام" لتعرف إلى معناه. ونبدأ أولاً بـ"الثقافة، التى تعودتُ منذ وقت طويل على استعمالها للدلالة على النشاط المعنوى للإنسان وما يتمثل فيه هذا النشاط من لغةٍ ودينٍ وفكرٍ وأدبٍ وفنٍّ وقيمٍ وسلوكٍ وعاداتٍ وتقاليِدٍ وقوانينٍ ونظمٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وتربويةٍ... إلخ. والثقافة، كما أفهمها، هى جزء من "الحضارة"، وهذه تشمل عندى "المدينة" و"الثقافة" جميعاً، أى النشاط الإنسانى فى جانبيه الاثنين: الجانب المادى، والجانب المعنوى. صحيح أن هناك من العلماء من يضع "الثقافة" فى مقابل "الحضارة"، ومنهم من يقسم "الثقافة" إلى "ثقافة معنوية" و"ثقافة مادية"، مما يجعل هذه الأخيرة تترادف "الحضارة" كما أخذ بتعريفها، ومنهم...، ومنهم... حتى لقد ذكرتُ شارلت سيمور سميث فى معجمها: "Dictionary of Anthropology" (تحت عنوان "Culture") أن اثنين من الباحثين فى هذا المجال قد استطاعا أن يرصدا عام ١٩٥٢م نحواً من ٣٠٠ تعريف لذلك المصطلح.

هذا عن "الثقافة"، أما "الإسلام" فهو فى الأصل مصدر للفعل "أَسْلَمَ يَسْلِمُ أَسْلِمًا". وأصل المادة "س ل م"، و"سَلِمَ": برئ من العيوب والآفات والخطر، و"السلام" من ثم هو البراءة من العيوب والأخطار والآفات. و"السلام" أيضاً صيغة من صيغ التحية، ومعناها طلب السلام لمن تحيه. وهناك حديث عن عمران بن حصين يقول فيه إنه كان يَسَلِّمُ عليه، أى تسَلَّم عليه الملائكة، إلى أن اكتوى، أى مارس الكَيَّ طلباً للشفاء من داء ألم به، فحيثُ كفت الملائكة عن السلام عليه. ولست أفهم السبب فى أن تكف الملائكة عن السلام على من يتداوى مما ألم به من داء. وفى "لسان العرب" أن هذا الحديث لا يقدر فى الكى، بل القَدَح فى أن عمران ترك التوكل، وهو مرتبة أعلى من التداوى. وهذا أيضاً كلام غير مقنع، فليس فى

الإسلام توكل بهذا المعنى أبداً، بل التوكل لا يكون، كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا بعد أن يتخذ الإنسان الأسباب والاحتياطات، فإذا كان صاحب ناقة فعليه أن يعقلها، أى يربطها، قبل أن يتوكل. وفي العصور التى يسود فيها السرقة مثلاً لا يكفى أن يربط الإنسان ناقته بل عليه أن يوكل بها حارساً أو أن يستبقها فى يده لا يتخلى عنها حتى لا تسرق.

أما أن يظن ظان أن التوكل الحقيقى على الله إنما يكون بترك الأسباب فهذا هو الضلال المبين، وهو من وساوس الشيطان بكل يقين. فالإسلام دين العقل والمنطق والنظام واتخاذ التدابير فى كل شأن. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الصدد: "لكل داء دواء". فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل. ولم يحدث قط أن مرض رسول الله فترك التدوى توكلًا على الله، بل كان يستعمل الدواء الموصوف لهذا المرض حتى لقد جمع العلماء كل ما أثر عنه فى هذا الصدد قولاً أو فعلاً، وهو ما يعرف بـ "الطب النبوى". فالبحث عن التدوى هو التوكل الحقيقى، أما تركه فهو التواكل بعينه، وهذا مذموم أشد الذم فى الإسلام.

وفى "الموطأ" عن عبد الله بن عباس "أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فقال عمر: ادع لى المهاجرين. فدعاهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام، فاختلفوا عليه، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه. وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن نُقَدِّمهم على هذا الوباء. فقال: ارتفعوا عنى. ثم قال: ادع لى الأنصار. فدعوتهم، فاستشارهم، فسلخوا سبيل المهاجرين واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عنى. ثم قال: ادع لى من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح. فدعوتهم له، فلم يختلف عليه منهم رجلان،

فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقَدِّمهم على هذا الوباء. فنادى عمر في الناس: إني مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ، فَأُصْبِحُوا عليه. فقال أبو عبيدة: فرارا من قَدَرِ الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. نعم، نَفَرَّ من قدر الله إلى قدر الله. أرايت لو كانت لك إبل، فهبطت بها واديا له عُدْوَتَان: إحداهما خِصْبَةٌ، والأخرى جَدْبَةٌ، أليس إن رعيت الخصبَةَ رعيتهَا بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتهَا بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان غائبا في بعض حاجاته، فقال: إن عندي من هذا علما. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه. فحمد الله عمرُ ثم انصرف".

وعندنا أيضا "السلام" الذى هو ضد الخصام والحرب والمعادة. وهذه الكلمة يكررها المسلم مرات في صلاته: في التشهد وفي التسليم الأخير وفي كثير من آيات القرآن التى يتلوها بعد الفاتحة. ومن أسماء الله تعالى "السلام"، أما في العهد القديم فمن أسمائه "إله الجنود، وإله الجيوش وإله صفوف إسرائيل"، أى إله الحرب. والحرب في العهد القديم هى في العادة حرب تدمير وإبادة واستئصال لا تُبْقَى على بشر أو حيوان صغيرا كان أو كبيرا. أما في الإسلام فلا يجوز التعرض للنساء والشيوخ والأطفال والرهبان وأمثالهم ممن لم يشتركوا في العدوان على المسلمين. بل إن الحرب في الإسلام لا تقوم على العدوان بل على رد العدوان بمثله. ونهى الرسول المسلمين عن تمنى لقاء العدو، ولكن متى تم اللقاء فليثبتوا. وهذا معناه أن خيار الحرب هو آخر الخيارات. كما أن العدو إن جَنَحَ للسلام فعلى المسلمين أن يجنحوا هم أيضا للسلام. وإذا كانت هناك معاهدة بينهم وبين غيرهم فلا بد من التزامهم بها. فإن خافوا من عدوهم خيانة فلينبذوا المعاهدة إليه صراحة ولا يأخذوه غدرا.

وأما الآية الخامسة من سورة "التوبة"، وهى الآية التى يظن بعض أنها وضعت حداً للتسامح مع المشركين وأسست لقتلهم، والتى سميت بناء على ذلك بـ"آية السيف"، فهى أبعد ما تكون عن هذا الفهم. إنها تمثل غاية التسامح والإنسانية، إذ تعامل المشركين معاملة راقية وتعطيهم مزيداً من الفرص. ذلك أنها ليست عامة للمشركين جميعاً بل تخص فقط أولئك الذين كانت بينهم وبين الإسلام معاهدة فغدروا بها وخانوا المسلمين وقتلوا فريقاً منهم غيلة وختلاً. فماذا كان رد القرآن على هذا التصرف البشع؟ لقد أمهلهم أربعة أشهر منذ ذلك التاريخ ينتقلون فيها فى البلاد آمنين مطمئنين لا يتعرض لهم أحد من المسلمين بشئ. بل لقد أوجب الله على المسلمين أنه متى أتاهم أحد من المشركين مستجيراً بهم خلال تلك المدة فعليهم إجارته حتى يسمع كلام الله ثم فليبلغوه مأمنه رغم كفره. فإذا انسلخت الشهور الأربعة، شهور السماح، فعندئذ يمكن المسلمين أن يأخذوا بثأر قتلاهم ويقتلوا المشركين الغادرين القاتلين جزاء وفاقاً على غدرهم بالمسلمين وقتلهم للأبرياء الأوفياء المسالمين الذين وثقوا بهم. وكان هذا حق المسلمين منذ اللحظة الأولى التى وقع فيها غدر المشركين بهم، لكن القرآن تسامح معهم ولم يسارع بالثأر منهم. على أنه لا بد من العلم بأن المعاهدة التى كانت بين المسلمين والمشركين كانت تحجف بالمسلمين أيما إجحاف حتى لقد اعترض عليها بعض الصحابة لولا أن الرسول هدأ من روعهم. ومع هذا فليس المسلمون هم الذين نقضوها بل المشركون. وذلك من أعجب العجب!

وهذه هى الآيات التى تناول ذلك الموضوع من السورة المذكورة: "بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ

اللَّهُ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُواهُمْ وَاحْصِرُواهُمْ وَاغْلُظُوا عَلَيْهِمْ كُلٌّ مِرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ * أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

ليس هذا فحسب، بل إن الأمر بقتل المشركين ردا على ما فرط من خيانتهم لم يأخذ مجراه في التنفيذ، وكأن الآية إنما نزلت للتهديد والتخويف ليس إلا. ثم تتالت الأحداث بما تخطاها وكأنها لم تكن، وشرع المشركون بعد هذا يتتابعون في الدخول إلى دين الله أفواجا عقب فتح مكة، إلى أن أتى عام الوفود، فأقبلت الجزيرة العربية كلها ممثلة في مشايخ قبائلها وكبار رجالها على المدينة المنورة تعلن مبايعة الرسول على النبوة والزعامة.

فهذا هو الجذر الأول لكلمة الإسلام، التي قلنا إنها مصدر الفعل: "أسلم". ومعناها إسلام الشخص نفسه وأمره لله. ولكن ما معنى إسلام الشخص هنا نفسه؟ يظن كثير من الناس أنه إنكار الشخص لذاته وعقله وإرادته. وهذا غير صحيح، إذ الإسلام حريص أشد الحرص على أن يكون للمسلم شخصيته المستقلة وأن يستخدم دائما عقله. كما يظن كثير من المسلمين أن الأمر يتعلق بأداء الصلاة والصيام والانتهاز عن شرب الخمر وممارسة الزنا فقط. ولا شك أن إسلام الشخص نفسه وأمره لله يتضمن هذا، لكنه لا يقف عند الفروض والمحرمات التقليدية. ذلك أن الإسلام في جوهره نظام لتحضير المجتمعات والأفراد والأمم. إنه دعوة إلى النظام والنظافة والعلم والتخطيط والإبداع والعمل المتقن المستديم والسعى الحار وراء الرزق والتعاون مع الآخرين والاجتهاد في مساعدة الفقراء والمساكين والتمسك بالذوق الراقى. فأنت حين تسلم أمرك لله ينبغي أن تضع هذا كله في اعتبارك وتنقله من أفق النظر إلى أفق الإنجاز والتطبيق. ومن هنا يمكنك أن تدرك حجم تخلفنا المزمى رغم ظننا أننا متمسكون بالإسلام. إن ما نحن متمسكون به إنما هو بعض الجانب الشكى من الدين. إن الرسول، عندما أخبرنا بأن الله لا ينظر إلى صورنا وأموالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، وأن التقوى تكمن في القلوب لا في اللحى ولا في التتمات ولا في الثياب القصيرة ولا حتى في كثرة الصلوات والأصوام إذا أريد بها الشهرة بين الناس، فإنه يبين لنا أن الإسلام جوهر قبل أن يكون مظهرا. إن الإسلام يريد منا أن نحول حياتنا إلى خلية للإنتاج والإبداع وألا نضيع وقتنا هدرًا، ويبين لنا أن كل شيء في حياتنا محسوب علينا، وسوف نقدم عنه يوم القيامة كشف جرد عنه.

وإنى، في ظل هذا الفهم للدين المحمدى العظيم، أقف أمام ما أقرؤه أحيانا في اللافتات الموجودة في المصالح الحكومية وأمثالها من أنه ينبغي أن نحول وقت الانتظار إلى وقت

للاستغفار بدلا من القول بأننا ينبغي أن نحول ذلك الوقت الذى نهدره فى العادة إهدارا آثما إلى وقت للتفكير والتخطيط ومراجعة ما نكون بسبيله من عمل اكتشافا للثغرات التى يمكن أن تكون قد تسربت إليه وتمتينا لنقاط القوة التى فيه، فنكسب ثوابين بدلا من ثواب واحد: ثواب التفكير، وثواب الاستغفار والتوبة. إن هذا لون من الاستغفار، لكنه استغفار عملى، أما الاستغفار الذى نهارسه عادة فهو استغفار لفظى. وهو، رغم أهميته، يقل عن ذلك الاستغفار العملى كثيرا. ومعروف فى الإسلام أن "الحسنات يذهبن السيئات". وهل هناك حسنات أفضل من التفكير والتخطيط ومراجعة ما نكون بصدده من عمل؟ إن العمل فى القرآن المجيد يكاد أن يكون دائما قرين الإيمان. والظن بأن العمل الصالح هو فقط الصلاة والصيام وما أشبه هو ضيق فى الأفق، إذ العمل الصالح يشمل كل عمل من شأنه ترقيتنا وترقية مجتمعنا. وأنا أنظر دائما إلى تحصيل العلم على أنه أفضل ثوابا من نوافل الصلاة والصيام والحج. ذلك أن فائدة النوافل تنحصر فى الشخص ذاته، أما العلم ففائدته تعم المجتمع كله، وبخاصة إذا كان مجتمعا متخلفا مثل مجتمعاتنا يسوده الجهل والتبلىد.

والآيات التالية تدل على أن معنى "الإسلام" هو إسلام المرء نفسه وأمره لله تعالى. قال عز شأنه: "فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ"، "وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"، "فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا"، "وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ". وكان الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا ركع قال: اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ... وإذا سجد قال: اللَّهُمَّ لَكَ سَجْدَةٌ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ". وقد سئل صلى الله عليه وسلم: ما الإسلام؟ فقال: "أَنْ تُسْلِمَ قَلْبَكَ لِلَّهِ، وَأَنْ تُوجَّهَ وَجْهَكَ إِلَى اللَّهِ، وَأَنْ تُصَلِّيَ الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ". ومن أَدْعِيَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ،

رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ. لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ. آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبَنِيكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ..."

والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، فكلهم مأمورون أن يسلموا أمرهم ووجههم لله رب العالمين، وكلهم أسلم فعلاً أمره ووجهه لله رب العالمين، بل كانوا أول المسلمين، وإلا فلم اختيروا ليكونوا أنبياء؟ إن بعض الأديان تصور الأنبياء على أن من الطبعي ارتكابهم للكبائر والفواحش من قتل وزنا وحقد وتدليس وتآمر وغدر وخمر، أما الإسلام فيقول: "الله أعلم حيث يجعل رسالته"، ويقول الله لنبيه موسى المتهم عند غير المسلمين بقتل الرجل المصري بدم بارد وعن سبق عمد وإصرار: "وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي". وكان على بن أبي طالب، فيما تذكر الروايات، يهدد بإقامة الحد على من يقول، كما يقول بعض أهل الأديان الأخرى، بزنا داود عليه السلام بزوجة قائده العسكري.

ومن الآيات القرآنية التي تصف الأنبياء السابقين على محمد بأنهم مسلمون قول نوح: "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"، وقول إبراهيم وإسماعيل: "رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ"، وقوله سبحانه عن إبراهيم: "قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"، وقول إبراهيم لذريته: "يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"، وقول ملائكة العقاب عن مساكن قوم لوط: "فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"، وحوار يعقوب مع بنيه: "قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، وابتهاال يوسف لربه: "تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"، ودعاء سحرة فرعون بعدما آمنوا بموسى وهارون: "رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ"، وقول موسى لقومه:

"إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ"، وقول الحواريين لعيسى حين دعاهم إلى الإيمان برسالته: "نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ".

فهذا هو الإسلام بمعناه العام. أما بالمعنى الاصطلاحي فهو دين محمد عليه الصلاة والسلام. وبمناسبة ما نحن فيه فقد لاحظت أن محمد أسد، الصحفي اليهودي النمساوي الذي أعلن اعتناقه الإسلام في منتصف عشرينات القرن الماضي، دائما ما يترجم كلمة "الإسلام"، في ترجمته الإنجليزية للقرآن المسماة: "The Message of the Qur'ân" بـ "تسليم النفس لله"، أما "الإسلام" بمعنى "اتباع دين محمد" فهو استعمال استُجِدَّ بعد النبي عليه السلام حسب دعواه. وهذا تمييع للأمر. لقد رأينا كيف استخدم القرآن المجيد مرارا في الحديث عن منهج الرسل جميعا كلمة "الإسلام"، إلا أن هذا هو الاستعمال العام فقط، وسببه أن منهجهم جميعا، عليهم صلوات الله وسلامه، واحد رغم اختلاف شرائعهم في تفاصيلها، أما المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة فهو دين محمد.

والدليل على ذلك من الحديث النبوي النصوص التالية: "بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..."، "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"، "المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يسلّمه ولا يخذله"، "المسلم على المسلم حرام"، "المسلمون على شروطهم"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم"، "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله" إلا الغرق، فإنه من شجر اليهود"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم: يسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم. يردّ مُشِدّهم على مُضعفهم، ومتسرّهم على قاعدتهم"، "معاشر المسلمين، أنشدكم بالله وبحقّي عليكم: من كانت له قبلى مظلمة فليقم فليقتصّ

مِنِّي"، "إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيءٍ لم يحرم على المسلمين، فحرم عليهم من أجل مسألتِهِ"، "لكل مسلم ثلاث: ما من رجلٍ من المسلمين يرمى بسهمٍ في سبيل الله في العدو، أصاب أو أخطأ، إلا كان أجر ذلك السهم له كعدل نسمة. وما من رجلٍ من المسلمين أبيضت منه شعرة في سبيل الله إلا كانت له نوراً يوم القيامة يسعى بين يديه. وما من رجلٍ من المسلمين أعتق صغيراً أو كبيراً إلا كان حقاً على الله أن يجزيه بكل عضوٍ منه أضعافاً مضاعفة". وفي رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك عصره كان يقول لكل منهم: "أَسْلِمَ تَسْلَمَ". كما استعمل في صحيفة المدينة كلمة "المسلمين" (هكذا نصّاً) في مقابل اليهود حسبها هو معروف. وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يعرف عدد أتباعه فأمر بإجراء إحصاء لهم. فعن حذيفة بن اليمان: "قال النبي صلى الله عليه وسلم: اكتبوا لي من تَلَفَّظَ بالإسلام من الناس. فكتبنا له ألفاً وخمسمائة رجلٍ، فقلنا: نخاف، ونحسب ألفاً وخمسمائة؟ فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصليّ وحده وهو خائفٌ". وعن معاوية بن الحكم السلمي: "قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام...". وقال رسول الله عليه السلام: "أتاني ناسٌ من عبد القيس بالإسلام من قومهم، فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر". وقال صلى الله عليه وسلم لصعصعة جد الفرزدق الشاعر الأموي عن منعه عدداً من العرب وأدبناهم مقابل مال يدفعه لأهلهم: "هذا باب من البر، ولك أجر إذا من الله عليك بالإسلام".

أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن "الإسلام" في قوله جل جلاله: "يؤمنون عليك أن أسلموا. قل: لا تتموا على إسلامكم، بل الله يؤمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين" لا يمكن إلا أن يكون الدين الذي أتى به محمد صلى الله عليه وسلم. وبمستطاعنا أن نستشهد بالآيات التالية أيضاً: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم

الإسلام ديناً"، "أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ؟"، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ؟"، "فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ"، "رَبِّمَا يُوَدِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ"، "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ... أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا".

وقال النابغة الجعدي، وهو من الشعراء الذين وفدوا على النبي مع شيوخ القبائل وشعرائها وخطبائها العام التاسع للهجرة يبايعون النبي على نبوته وزعامته:

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى لَبِسْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرْبًا لَا

وَلَبِسْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَوْبًا وَاسِعًا مِنْ سَيْبٍ لَا حَرِمٍ وَلَا مَنَانٍ
وقال حسان بن ثابت:

اللَّهُ أَكْرَمَنَا بِنَصْرِ نَبِيِّهِ وَبِنَا أَقَامَ دَعَائِمَ الْإِسْلَامِ

كُنَّا مُلُوكَ النَّاسِ قَبْلَ مُحَمَّدٍ فَلَمَّا أَتَى الْإِسْلَامُ كَانَ لَنَا الْفَضْلُ

يَتَابُنَا جَبْرِيلُ فِي أَيْاتِنَا بِفَرَائِضِ الْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ
وقال كعب بن مالك، وهو مثل حسان من شعراء الرسول عليه السلام:

نُجَالِدُ مَا بَقِينَا أَوْ تُنَبِّئُوا إِلَى الْإِسْلَامِ إِذْ عَانَا مُضِيفًا

وَإِنْ تَرَوْا أَمْرَنَا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهًا فَرَأَى مَنْ خَالَفَ الْإِسْلَامَ تَضْلِيلُ
وقال العباس بن مرداس:

وَكُنَّا عَلَى الْإِسْلَامِ مَيِّمَنَةً لَهُ وكان لنا عَقْدُ اللَّوَاءِ وَشَاهِرُهُ

وهذا كله يبين بأجلى بيان أن استخدام كلمة "الإسلام"، بوصفه المصطلح الخاص بالدين الذى أتى به محمد عليه الصلاة والسلام، قد كان معروفاً في عهد النبى ونصت عليه آيات القرآن وأحاديث المصطفى والأشعار المعاصرة له صلى الله عليه وسلم، وليس من إنتاج فترة لاحقة كما زعم محمد أسد.

أما جولدتسيهر، في كتابه: "Introduction to Islamic Theology and Law"، فيعزو إطلاق هذا المصطلح إلى سيدنا محمد، الذى يرى أنه هو مؤسس الإسلام. ونحن لا نوافق على هذا ولا نراه صحيحاً، فمحمد عليه السلام ليس هو صاحب هذا المصطلح، بل الله هو الذى أطلقه، كما أنه عليه السلام ليس مخترع الإسلام بل هو الشخص الذى اختاره الله سبحانه وأوحى إليه هذا الدين وكلفه تبليغه للعالم، وهو ما صنعه فى الحال حين قام ينذر عشيرته الأقربين أولاً، ثم قبائل العرب جميعاً من بعد، ثم ملوك العالم من حوله تالياً، إلى أن توفي عليه السلام فقام أصحابه من بعده يبلغون رسالته إلى الدنيا جميعاً وفتحوا كثيراً من البلاد، التى دخلت عقب ذلك فى الإسلام واتخذت من القرآن والحديث مصدراً لتشريعاتها. والملاحظ أن الترجمة العربية لهذا الكتاب قد صاغت الفعل الخاص بإطلاق ذلك المصطلح بصيغة المبنى للمجهول فراراً مما قاله جولدتسيهر، فذكرت "الاسم الذى أُطلق عليه منذ بادئ الأمر" بدلاً من "the very name that its founder gave it at the beginning"، حسبما جاء فى الترجمة الإنجليزية للكتاب، وهى الترجمة التى اعتمد عليها ناقلوه إلى العربية. وكنت أحب أن يَبْقَى المترجمون على أصل العبارة دون التصرف فيها على هذا النحو حتى يعرف القراء ماذا يقول المؤلف بالضبط، ثم لهم بعد ذلك مندوحة واسعة فى الهامش يعقبون

فيها على رأى المستشرق اليهودى المجرى الذى لا يعجبهم مثلما لا يعجبنا، وذلك نزولا على مقتضى الأمانة العلمية.

ويمضى جولدتسيهر فى مزاعمه العجيبة فيقول مثلا إن محمدا لم يأت فى دينه بشىء جديد فى مفهوم الألوهية، رغم كل ما يميز الألوهية فى الإسلام عنها فى الأديان والمذاهب السابقة. فالله فى ديننا هو رب العالمين ليس له شبيه ولا شريك، وهو خالق كل شىء، ولا يقع شىء فى الكون إلا بإذنه ومشيتته. كما أنه مجرد لا تناله الحواس ولا تدركه الأبصار. أما خارج الإسلام فكان عند العرب الأوثان حيث نجد لكل قبيلة إلهها المحلى. وعند الفرس إلهان: واحد للخير هو النور، وواحد للشر هو الظلمة، وبينهما صراع طويل. ولدى النصارى ثلاثة أقانيم: الأب والابن والروح القدس، كما نجد القول بتجسد الإله وموته على الصليب، وهو ما ينفيه القرآن ويدينه تماما. وفى دين اليهود نجد أن يهوه إله خاص بنى إسرائيل وحدهم يفضلهم على كل من سواهم من البشر لا لشيء إلا لأنهم بنو إسرائيل وكفى. وفى العهد القديم أيضا نشاهد يعقوب وهو يصارع الله ويحكم ساعديه حوله إحكاما شديدا بحيث لا يستطيع الله الفلفصة منه إلا بضربه على حُقّ فخذه بعدما فشلت توسلاته إليه طَوَّال الليل أن يطلق سراحه. كما نقرأ عن ندمه لخلقه جنس الإنسان... إلخ. هذا، ونحن لم نبرح بُعدُ منطقة بلاد العرب وما حولها، وإلا فألوان الألوهية المنحرفة أكثر مما نتصور. فكيف يقول جولدتسيهر ما قال؟

ولا يقف أمر المستشرق المجرى عند هذا الحد بل يدعى أن النبى قد استقى مواد دينه من اليهود والنصارى وغيرهم مع أن أحدا من اليهود والنصارى أو من غيرهم لم يفتح فمه بكلمة عن أى اتصال تم بينه وبين محمد علّمه فيه شيئا. ومعروفة العداوة العنيفة التى كانت بين اليهود والنصارى وبين الإسلام، فلو كان هناك شىء من هذا القبيل لكنت فرصة عظيمة

لفضح حقيقة محمد المخزية وكشف كذبه وتدليسه وتوجيه ضربة ساحقة إليه تدمره وتدمر دينه وتكفيهم شره. ثم أين كانت مثل تلك الاتصالات تتم يا ترى؟ ومن الذى شاهدها وأخبر جولدتسيهر بما تم فيها؟ اللهم إلا إذا تَحَلَّوْا عن كل عقل ومنطق وقالوا إن محمدا كانت لديه مكتبة عالمية فيها كتب عن كل الأديان والمذاهب والفلسفات والشرائع والعقائد والأخلاق وتاريخ الأمم يعكف عليها ليل نهار وصباح مساء يقلب فيها ويسرق منها وينقل ما يسرقه إلى دينه الذى وَلَّفَه بهذه الطريقة توليفا. غريب أن ينزل بعض المنتمين لعالم الكتابة إلى هذا المستوى المتدننى من التفكير وكأنهم ضرائر أعمتهن الغيرة عن تحرى الحق وأتباعه. إن جولدتسيهر حين يقول هذا إنما يحركه الحقد والنقمة على سيد الأنبياء والمرسلين، ولهذا لا يكتب بعقل ولا حكمة.

تَعَالَوْا مثلا إلى بحيرا، ذلك الراهب النصرانى الذى يقال إن محمدا الغلام قد قابله مرة واحدة لدقائق معدودات حين كان مصاحبا لعمه أبى طالب فى سفرة من سفراته إلى الشام، وإنه قد حذر عمه من المضى به قدما إلى نهاية الرحلة تجنباً للأذى على يد يهود لو عرفوا أنه هو النبى المنتظر، والذى يدعى كثير من الباحثين الكتابيين أنه قد لقن محمدا أصول دينه فَوَلَّفَ منها دينه الجديد. فكيف يا ترى تم تلقين بحيرا للغلام دينه المقبل فى تلك المقابلة السريعة، وهو الدين الذى اقتضى من الزمن ثلاثة وعشرين عاما كى يكتمل، فضلا عن أنه لم يبدأ إلا بعد المقابلة بأكثر من خمسة وعشرين عاما؟ بل كيف يمكن أن يستفيد صبى فى العاشرة ونيف من راهب نصرانى غريب؟ وهذه إحدى النقاط التى استند إليها توماس كارلايل فى نفى هذا الاتهام الأرعن. وهذا إن كان بحيرا عربيا أصلا يمكن أن يقع تفاهم بينه وبين ذلك الصبى. ثم كيف لم يتذكر ذلك اللقاء القرشيون الذى كانوا مع محمد فى تلك السفرة حين شرع يدعوهم إلى دينه الجديد فيقولوا له: كيف تظن أنك قادر على خداعنا والزعم بأنك نبى يوحى

إليه من السماء بينما نعرف نحن كما نعرف أنت أن بحيرا هو من لقنك ذلك الدين؟ كذلك كيف لقنه بحيرا الإسلام، وكثير جدا مما يحتويه القرآن لم يكن قد وقع بعد؟ ثم كيف لقنه بحيرا دينه، وكثير جدا مما في هذا الدين يناقض مناقضة شديدة ما تقوله النصرانية دين بحيرا؟ ولنفترض أن التلقين رغم استحالاته قد تم، فكيف سكت بحيرا فلم يفضح محمدا حين أعلن النبوة ويذكره بأنه ليس نبيا من عند رب العالمين بل مجرد تلميذ صغير له، أو يفضحه أحد من الرهبان الذين يعرفون بأمر تلك المقابلة وما دار فيها؟ ثم إن هذا كله يغفل حقيقة جد هامة من شأنها أن تنسف هذه الخزعبلات تماما، إذ تقول الرواية التي يعتمد عليها هؤلاء الزاعمون في اتهام النبي بأخذ دينه عن مصدر نصراني إن بحيرا نفسه قد أقر بنبوة محمد بعدما اكتشف علامات في جسده، ومن ثم حذر عمّه المضيّ به قُدُماً إلى حيث يفدُ على يهود، الذين يتربصون به سرا. إذن فقد كان بحيرا يؤمن بمحمد نبيا، وقبل الهنا لا بسنة بل بعقود، ولم يعلم محمدا شيئا من لدنه. وهل يتعلم الأنبياء من أتباعهم المؤمنين بهم؟

وتعالوا أيضا إلى السيد والعاقب أكبر زعماء النصارى فى اليمن حين وفدا على النبى فى المدينة، ودار بين الطرفين حوار دينى انتهى بعرض النبى عليهما المباهلة لِلْعَن الكاذب منهما، فما كان منهما إلا أن خَنَسَا وآثرا دفع الجزية على المباهلة رغم ما يقوله القرآن عما وقع من عبث فى كتابهم. والآن لماذا لم يجبهاه بـ "الحقيقة المرة" التى يزعمها الكذابون ويقولوا له إن بعض رجال ديننا هم الذين علموك الإسلام ولم يوحه الله إليك؟ لقد كان هذا كفيلا بإحراج محمد ووضع حد لدعاواه فى النبوة وفى اتهامه إياهم بالعبث فى كتابهم حسبما يهرف الهارِفون. وكل ما قَدَرَا عليه هو محاولتهم إلقاء الريب فى نفوس الصحابة الذين لَقُّوهم قبل مقابلتهم للنبي عليه السلام، إذ قالوا لهم: كيف يقول القرآن إن مريم هى أخت هارون بينما يفصل هارون

عن مريم مئات السنين؟ فلما علم النبي بالسؤال المريب قال إن بنى إسرائيل كثيرا ما كانوا يتسمّون بأسماء صالحهم.

ولقد وقفت في البداية أمام هذا الجواب في شيء من الحيرة لِوَجَازَتِهِ وَخُلُوِّهِ مِنْ الاستشهاد بأمثلة من تاريخ القوم رغم أنى لا أشك في صحة ما قاله رسول الله أبداً، وأكثر ما كان يمكن أن يدور في ذهني هو أن الرواية قد تكون غير صحيحة، إلى أن تمحّضتُ لبحث تلك النقطة منذ سنين، فتبين لى من دوائر المعارف الكتابية ذاتها أن كلمة "ابن" و "ابنة" و "أخ" و "أخت" كثيرا ما تطلق في الكتاب المقدس مجازا على نحو عشرين صورة بحيث يمكن أن يقال إن فلانة ابنة فلان أو أخته رغم ما يفصل بينهما من مئات الأعوام، مع إعطاء تلك الموسوعات شواهد من الكتاب المقدس من شأنها أن توضح الغامض وتزيل حيرة الحائر، وبخاصة أنها صادرة عن أهل ذلك الكتاب أنفسهم لا من قِبَل المسلمين. والآن ها نحن أولاء نرى كيف صدق كلام النبي عليه السلام رغم عدم إلمامه بما في ذلك الكتاب لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولأنه لم يثبت عنه اتصاله بقسيسيهم ورهبانهم غير بحيرا، الذى لم يمكث معه سوى دقائق، وفي ذات الوقت جَهْلُ السَيِّدِ وَالْعَاقِبَ أَوْ كَذَّبَهُمَا.

والحالة الثالثة هى يهود المدينة. لقد تحدى القرآن في المرحلة المكية بنى إسرائيل وفضح أخلاقهم وتقلباتهم وعنادهم وكفرهم، وزاد في المدينة فاتهمهم بالعبث بكتابهم. وكانت الآيات تجلجل في الآفاق وتُصمّ آذانهم، فلم يفتحوا فمهم بكلمة تكذيب. وكانوا يستطيعون، لو كان كلام جولدتسيهر وأمثاله صحيحا، أن يصكّوه في فمه صَكًّا وَيَبِينُوا لَهُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ حَقِيقَتَهُ جَيِّداً وَأَنَّهُ إِنَّمَا اسْتَقَى دِينَهُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. فلماذا خرسوا يا ترى؟ لقد تأمروا، بدلا من ذلك، عليه وانضموا إلى معسكر الكفر وأكدوا لمشركى مكة أن وثنيتهم أهدى من توحيد محمد. فانظر إلى مدى الفجور والتدليس والكفر في الخصام. فلماذا، عوضا عن هذا

الكذب الكافر، لم يكشفوا الأستار عن تلمذته لرجال دينهم، وكفى الله الكذابين المدلسين شر الكفر والفجور؟

ولأزيدك، أيها القارئ العزيز، من الشعر بيتا بل بيتين أسوق لك الحكايتين التاليتين:
فقد قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وعبد الله بن سلام العالم اليهودي في نخل له
فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتباحث معه في أشياء أعلن بعدها إيمانه به وبدينه، "ثم
قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن سمعوا بإيماني بك بهتوني ووقعوا في،
فأحبب أنى أبعث إليهم. فبعث، فجاؤوا فقال: ما عبد الله بن سلام؟ قالوا: سيدنا وابن
سيدنا، وعالمنا وابن عالمنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال صلى الله عليه وسلم: رأيتم إن أسلم
أتسلمون؟ فقالوا: أعاده الله أن يقول ذلك! ما كان ليفعل. فقال: اخرج يا ابن سلام. فخرج
إليهم فقال: أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: بل هو شرنا وابن
شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا. قال: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بُهت؟". وفي الحكاية
الأخرى تقول أم المؤمنين اليهودية الأصل صفية بنت حبي للنبي صلى الله عليه وسلم:
"جاء أبى وعمى من عندك يوماً، فقال أبى لعمى: ما تقول فيه؟ قال: أقول إنه النبی الذي
بشّر به موسى. قال: فما ترى؟ قال: أرى مُعَادَاتِهِ أيام الحياة".

وأخيرا وليس آخرا فقد بعث النبي، وهو بالمدينة المنورة، إلى الملوك من حوله رسائل
يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام، فلماذا لم يكن ردهم عليه هو: كيف تظن أن
بمستطاعك خداعنا والضحك علينا وإقناعنا بأنك نبي، ونحن وأنت نعرف جيدا أن رجال
ديننا هم الذين علموك، فأخذت ما علموكه وولّفت منه دينا حسبت أنه سوف يجوز علينا
فنؤمن به؟ كما أن عشرات من صحابته صلى الله عليه وسلم كانوا قد هاجروا قبل ذلك
بأعوام غير قليلة من مكة إلى الحبشة فرارا من الاذى والاضطهاد، فطاردهم القرشيون إلى

هناك، ولم يشاؤوا أن يتركوهم في مهاجرهم آمنين مطمئنين، وأرسلوا وراءهم مَنْ دَسَّ لهم عند النجاشي قائلاً إن هؤلاء اللاجئين يقولون في مريم وابنها قولاً عظيماً. فاستدعى الملك الحبشي الضيوف وسألهم، فقرأوا عليه صدر سورة "مريم"، وفيها أن عيسى مجرد عبد لله ونبي من أنبيائه. وتقول الرواية إنه لم يجد في آيات القرآن ما يمكن أن يعترض عليه، أما القساوسة فقد هاجوا وماجوا. أليس من السخف الساخف أن يخرس كل أهل الكتاب في عصر الرسول فلا يفتح أحدهم فمه بكلمة يبين بها أنه قد استقى دينه من كتبهم، ثم يأتي في آخر الزمان مستشرق مجرى يعيش على بعد آلاف الأميال من بلاد العرب في بيئة تختلف عن بيئة العرب وجيران العرب فيردد هذا التنطع الماسخ؟

وبعد فأين في الكتاب المقدس مثلاً وصف نعيم الجنة على النحو الذي ورد في القرآن الكريم؟ الحق أن العهد القديم، وهو الجزء الأضخم جداً من ذلك الكتاب، لا يحتوى على شيء من هذا القبيل بتاتا. أما العهد الجديد فليس فيه إلا أن الناجين سوف يشربون من عصير الكرمة في العالم الآخر، ولن يكون هناك زواج ولا نساء في الملكوت. وأما في القرآن فهناك أنهار اللبن والعسل والخمر التي لا فيها غَوْل ولا هم عنها ينزفون. كما أن فيه الكوثر، وهو ما هو؟ وهناك الحور العين، والظلال الوارفة، والأنهار التي تجري من تحت أقدام ساكني الجنان، والرضا الإلهي، والسكينة والأمان والسعادة، وفوق ذلك كله التنعم برؤية وجه الله، وغير ذلك. ونفس الشيء يقال عن جهنم. فالعهد القديم لا يتطرق إلى الكلام بشأنها، أما المسيح في الأناجيل فلا يشير إلا إلى الزمهرير واصطكاك الأسنان الذي ينتظر من حُرِّمُوا دخول الملكوت، بخلاف القرآن المجيد، الذي فصّل القول في ألوان العذاب المعدة للكفار والعصاة المجرمين تفصيلاً. كما يفصل القرآن الكلام عن الحساب الأخروي مما لا وجود له في الكتاب المقدس. فكيف يقال إن محمداً قد اقتبس هذا كله من اليهود والنصارى؟ ثم أين نُلفِي، في

كتب اليهود والنصارى أو غيرهم، العبادات والمواarith الإسلامية أو الحدود أو مبدأ التعزير أو القوانين المنظمة للحرب والقتال حسبما شرعها الإسلام؟

ثم ماذا نقول فى القساوسة والأخبار والمتحفين العرب الذين أسلموا وأسلمت أسرهم معهم أو من بعدهم وأمنت بمحمد، الذى يتهمه جولدتسيهر بالأخذ عن أديانهم؟ وهذا مستمر على مدى التاريخ حتى الآن، وفى بلاد الغرب نفسه، رغم كل ما عليه المسلمون حاليا، سواء الباقون فى بلادهم أو المهاجرون إلى بلاد الغرب نفسه، من الضعف والهوان والتشردم والتخلف مما لا يغرى أحدا باعتناق دينهم، بل بالعكس ينفر الناس منه، ورغم الدعاوة المجرمة القاسية التى يقوم بها تلامذة جولدتسيهر ذاته من مستشرقين ومبشرين وإعلاميين وساسة وأساتذة جامعيين من الزراية على الإسلام واتهامه بكل الموبقات وتشويه صورته بكل سبيل كذبا وزيفا وتدليسا؟ إن دين محمد لا يزال حتى هذه اللحظة يسحر بجماله ونبله وروعته وصدقه وعمقه وإلهيته كثيرا من الساسة والرياضيين والعلماء والإعلاميين وأساتذة الجامعات ورجال الدين والناس العاديين فى بلاد الغرب، الغرب الذى كان إلى وقت قريب جدا يحتل بلاد الإسلام ويسوم أهلها سوء العذاب والهوان والصلوصية والاستبداد والقمع والاحتقار. فكيف يعلل جولدتسيهرنا ذلك؟

وبالمناسبة فليس فى الأناجيل كلها، فى ميدان التشريعات والأخلاق، شىء آخر غير موعظة الجبل، وهى تركز الكلام حول التسامح التام مع المعتدى عليك بل إتحافه بمزيد من التسامح بحيث إذا ضربك على خدك الأيمن فعليك أن تدير له الخد الأيسر أيضا. وفى هذه النقطة نجد للإسلام شخصيته المتميزة، فقد أجاز لأتباعه الرد على العدوان بمثله، مع تفضيل التسامح لمن يقدر عليه، فراعى الطبيعة البشرية وعمل فى ذات الوقت على الارتقاء بها ما

أمكن دون أن يفكر في تجاهلها وإلغائها حتى لا يصير الكلام في التسامح مجرد حبر على ورق لا أحد يلتزم به كما هو الحال في أتباع موعظة الجبل حسبما ترى أعيننا ويحدثنا التاريخ. حتى قصص الأنبياء تختلف في القرآن عنها في الكتاب المقدس اختلافا جذريا. ويكفى أن نعرف أن الأنبياء، الذين يجسدون المثال الأعلى في الخلق والسلوك والعقيدة، يصورهم ذلك الكتاب خونة مارقين وقتلة مجرمين وزناة قراريين لاضمير عندهم يكبح شهواتهم وأحقادهم: فإبراهيم يقدم زوجته هدية لأبيمالك لقاء بعض المواشى، ولولا أن ذلك الملك عرف الحقيقة في المنام لكان قد زنى بها. ولوط يمارس زنا المحارم مع بنتيه. ويعقوب يسرق البركة الإلهية من عيصو بمعونة أمه زوجة النبي إسحاق بحيلة من حيل الأفلام الهندية، ويصارع الله طوال الليل ويمسكه على نحو لا يمكنه التفلفص معه. ويهوذا يمارس الزنا مع زوجة ابنه، وداود يزنى بأرملة قائده العسكرى المخلص بعد أن قتله في مؤامرة دنيئة، وهى أم سليمان. وابن داود يعتدى على عرض أخته. وهارون يساعد بنى إسرائيل على عبادة العجل الذهبى. وسليمان يتزوج نساء وثنيات ويبنى لهن الأصنام فى قلب بيته... وهكذا. وفى مفتتح العهد القديم يذكر مؤلفه أن الرجال، وعلى رأسهم آدم، هم أولاد الله، أما النساء فبنات الناس. ودعنا من الأخطاء العلمية والتاريخية والحسابية العجيبة التى لا وجود لها فى القرآن العظيم. واضح أن جولدتسيهر إنما يهرف بما يعرف أنه كذب، وهو يفعل ذلك عن عمد وحقد غليظ.

على أن جولدتسيهر لم يتوقف فى تنطعه عند هذا الحد بل استمر قائلا إنه يتصور أن محمدا كان يؤمن بأن القوة العسكرية كفيلة بنشر دينه خارج بلاد العرب، لكنه لم يكن قد استعد بما يكفل لدينه بعد ذلك النجاح فى مواجهة الظروف المستجدة، إذ كان كل همه هو التفكير فى اللحظة الحاضرة ليس إلا. ولقد فات محمدا، فى غمرة انشغاله باللحظة الراهنة، أن

يستعين بجولدتسيهر خبيراً عسكرياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً ودينياً حتى ينجح فيما فشل فيه. إذن لكان الإسلام قد وصل إلى القمر والمريخ والزهرة وعطارد منذ أزمان واكتسح المجرة الشمسية بكاملها، ويفكر الآن في اختراق المجرات الأخرى. لكن للأسف فاته هذه النقطة! يريد جولدتسيهر اتهام الإسلام بأنه اتبع سياسة القوة والإكراه مع الشعوب الأخرى حتى أسلمت عن غير طيب خاطر. ترى ما الذى جعل تلك الشعوب تَبَقَى على إسلامها حتى الآن، وقد ضَعُف العربُ منذ وقت طويل ولم يعد باستطاعتهم إجبارها على البقاء في دين تكرهه؟

ولكن أولاً علينا أن نعرف موقف الإسلام من القوة العسكرية والحروب وكيفية نشر الدين وما إلى هذا لنعرف إلى أى مدى يعتمد جولدتسيهر وأمثاله التضليل مبدأً يجرون عليه. وسأكتفى هنا بإيراد النصوص تاركاً إياها تتحدث بنفسها: "إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"، "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"، "وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"، "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ"، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"، "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"، "مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"، "لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ"، "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"، "الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"، "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ"، "وَإِنْ

جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ". والقرآن مُفَعَّمٌ بمثل تلك الآيات.

وقد يعترض معترض بما يلي: فما القول إذن في هذا النص القرآني: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"؟ أليست هذه دعوة شاملة إلى مقاتلة أهل الكتاب؟ والرد سهل ميسور، فقد نزلت الآية في الروم حين كانوا يتآمرون على دولة الإسلام في أواخر حياة النبي عليه الصلاة والسلام، فشجذ القرآن همم المسلمين إلى عدم التقاعس عن رد هذا العدوان وتلقين الخونة المتآمرين درسا لا ينسونه ولا ينساه التاريخ أبداً، وهو ما كان. فأين دولة الروم، وكانت ملء سمع التاريخ وبصره وفؤاده وعقله وكيانه كله، وكانت تحتل بلاد الشرق الأوسط وتنكل بشعوبها وتسومهم سوء العذاب، فظنت أن كل الطير يؤكل لحمه، فشرعت تتحرش بالدولة المحمدية حسبانا منها أنها، لشحة إمكاناتها وحادثة سنها، لن تأخذ في يدها غلوة، فكان أن اقْتُلِعَتْ، بعد سنوات معدودات، نهائياً من بلادنا، وصارت في خبر كان؟ وهذا ما يؤلم أمثال جولدتسيهر، فيتنطعون ويقيم كل منهم من نفسه أستاذاً في الإستراتيجية العسكرية والسياسية ويأخذ في نفص أحقاد قلبه على صفحات الكتب متصوراً أنه سوف ينجح فيما فشل فيه الروم والفرس. كان غيره أشطر!

أما ما يزعمه جولدتسيهر من أن محمداً لم يكن يشغله فيما يتصور مستشرقنا إلا فتح البلاد دون أن يكون مستعداً بالتخطيط اللازم والأنظمة المطلوبة لمواجهة ما يستجد من أمور بعد ذلك الفتح، فجوابه أن ما كان يشغل محمداً عليه الصلاة والسلام هو تبليغ الدعوة مثلاً أمره ربه منذ بداية الوحي في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ". أما إذا تابعت الأحداث بعد وفاته عليه السلام وفتح

أصحابه البلاد فذلك موضوع آخر يجرى عليه ما يجرى على فتح أية قوة جديدة البلاد الأخرى إذ تواجهها أوضاع طارئة عليها أن تجد لها حلاً وتضع لها قوانين ولوائح ترى أنها كفيلة بمواجهتها تستنبطها من المبادئ العامة التي روعى فيها قمة العدل والتسامح والإنسانية والتحضر. لقد وضع القرآن دستوراً للحياة، ويستطيع المسلمون أن يستلهموا هذا الدستور في وضع القوانين التفصيلية. وفي التجربة والخطأ باب للتصرف والعمل. على أن القرآن والسنة قد احتويا، إلى جانب المبادئ العامة، على كثير من التشريعات التفصيلية التي واجهت وحلت ما نَجَمَ في عهد الرسول عليه السلام من مشاكل آنية. وهذه التشريعات من شأنها أن تساعد المسلمين بعد الفتوح على استلهم الدستور العام في استنباط التشريعات التي تحتاجها الأوضاع الجديدة مما لم يكن للمسلمين به عهد أيام انحصارهم في شبه جزيرتهم.

ولنفترض أنه لم يكن هناك دستور لاستلهم القوانين منه، فهل وضعت أمريكا قبل غزوها العراق مثلاً اللوائح والأنظمة والقوانين الكفيلة بمواجهة ما استجد من مشاكل؟ فلماذا لا يزال العراق حتى الآن يعاني من المتاعب ما يقصم ظهور الجبال؟ ولماذا لم يخرج من الدوامة التي أوقعه فيها الغزو الأمريكي؟ إن كل ما صنعه الأمريكان ويصنعونه إنما يهدف إلى تفتيت ذلك البلد وإرجاعه إلى عصور التخلف والتطاحن وإشعال نيران الصراع بين السنة والشيعة والأكراد وسرقة نفطه وثرواته وآثاره. أما الفتح الإسلامي فلم يتَعَيَّ شيئاً من تلك الغايات الشيطانية الخبيثة، بل أنشأ المسلمون إمبراطورية تقوم على العلم والإبداع والعدل، وإن لم يصلوا بطبيعة الحال إلى مستوى الكمال، ذلك المستوى الذي لا يصل إليه البشر أبداً، إلا أن حكمهم للبلاد التي فتحوها، رغم عيوبهم التي لا يبرأ منها بشر، كان أفضل مرات ومرات من الغزو الغربي للبلاد التي اكتسحها الأوروبيون في القرون الأخيرة وكان كل همهم منها كسح ثرواتها الطبيعية إلى بلادهم واستعباد شعوبها وإذلالها وتخلفها بقوة السلاح

والجيوش والشرطة وبالتعاون مع الخونة من بين أظهرها. ورغم هذا فسوف يقول مستشرقنا بعد قليل كلاما جميلا عن التسامح الذى عامل به المسلمون أصحاب البلاد المفتوحة والذى ظلوا يعاملونهم به حتى العصر الحديث اتباعا لأوامر دينهم التى وضعت موضع التنفيذ منذ اللحظات المبكرة فى الفتوح.

أما بالنسبة لتشنيعات جولدتسيهر على الرسول والإسلام فهو يجرى فيها على سنة اليهود من معاصرى النبى، إذ كانوا موقنين أنه نبى من عند الله، لكن أحقادهم قد أعمت قلوبهم ولوت ألسنتهم عن أن تشهد بالحق مما طالعناه فى قصة عبد الله بن سلام وقصة حى بن أخطب والد السيدة صفية أم المؤمنين وعمها. ترى هل كان محمد بن عبد الله مريضا مثلا بالهلوس السمعية والبصرية حتى نتهمه بأنه كان يتوهم رؤية جبريل وسماع صوت الوحي توهما؟ كلا بكل تأكيد، بل كان صلى الله عليه وسلم طوال عمره مثال الإنسان المتزن العاقل الحكيم، ولم يعهد عليه العيش فى الأوهام أو الإخبار بها أو الركون إليها أو تصديقها. وهل يمكن أن ينجح شخص مريض بهذا الداء فى مهمته التاريخية العالمية الفريدة على النحو الذى نجحه محمد مع وثوقه التام طوال الوقت على مدى ثلاث وعشرين سنة منذ أول لحظة فى دعوته إلى الدين الجديد إلى لحظة وفاته بنجاح تلك المهمة وتحديه العالم كله بذلك، ومجىء الحوادث كلها مصدقة لكل ما قال وأكد؟

ولقد كان حوله رجال يمثلون صفوة مجتمعاتهم، وقلما يكون فى العالم رجال يضاهونهم رجاحة عقل وكياسة ووقارا ودهاء، ومع ذلك لم يمسك أحدهم عليه زلة تشككهم فى سلامة عقله أو صحته النفسية. ثم إنهم استمروا بعده على ما كانوا عليه معه لم يغيروا ولم يبدلوا، ولم يقولوا فيه، ولو جمجمة خافتة، كلمة واحدة تنتقده أو تلمزه أو تؤمى إلى خلل فى جهازه الفكرى والعاطفى كما يفعل حواريو الزعماء الآخرين وأعوانهم فى مثل هذه الظروف مثلما

رأينا في عصرنا هذا ما قاله أتباع كارل ماركس ولينين وستالين وهتلر وموسوليني وماوتسى تونج وعبد الناصر والسادات ومبارك والقذافي مثلاً بعد رحيلهم. أقول ما قلت عن استحالة مرضه بالهلاوس رداً على جولدتسيهر، الذى لَحَنَ بالقول يومئذٍ إلى أن عظماء الرجال تصيبهم الأمراض التى تعينهم فى مهمتهم التاريخية، وكأن مستشرقنا البلجيكى قد ترك لسيدنا رسول الله مهمة تاريخية يؤدّيها بعد كل ما وجهه إليه من تهم خبيثة خسيصة. خيبة الله عليه!

وقد لاحظ الرجال الذين كانوا يلتفون حول محمد أمارات الوحي، وكلها تشير إلى مدى المعاناة والثقل الذى كان يبهظ محمداً جسماً ونفساً عند تنزّل القرآن عليه. لقد كان بعضهم، عند ذاك، يسمع عند وجهه دوياء كدوى النحل. كما كان عليه الصلاة والسلام راكباً ناقته ذات مرة حين هبط الوحي، فعجزت الدابة عن البقاء قائمة من ثقل ما اعترأها وبركت على الأرض فى الحال. وكان أحد الصحابة واضعاً بالمصادفة فخذه تحت فخذ الرسول وهما جالسان، وما إن شرع الوحي ينزل عليه حتى شعر الصحابى المسكين أن فخذه سوف تنفصم. وهذا يشير إلى أن الوحي لم يكن مجرد رؤى وأصوات بل كان له أثر مادى ملموس.

ثم ماذا كان محمد يريد من ادعاء النبوة؟ الرياسة مثلاً؟ المال والجاه؟ لقد كان عليه السلام بسيط النفس متواضعاً غاية التواضع، فتراه ينزل القبر ليُحدّ مسلماً مغموراً، وتراه يجلس مع أصحابه على الأرض يأكل معهم ما تيسر من الطعام مع إقلاله من الأكل دائماً. ولم يكن له جلاوزة يبعدون الناس عن طريقه بالسياط أو يحيطون به لزوم الوجاهة والزعامة كما يصنع الزعماء فى كل مكان وزمان. وكان يقول عن نفسه إنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة. وكان ينهى أتباعه عن النهوض له إذا أقبل عليهم. وكان يؤكد أنه مجرد بشر يوحى إليه. وكان ينفى عن نفسه علم الغيب بل وينفى أيضاً معرفته بما سوف يفعل به أو بقومه. وكان يتحمل سخافات الأعراب وجلافتهم دون تدمير تفهماً منه للبيئة والظروف

الخشنة التى نشأوا فيها. وفى القرآن آيات تعاتبه وتقول إن عكس ما صنع فى هذا الموقف أو ذاك كان أولى بأن يصنع. كما لم يتكرر اسمه فى القرآن إلا ثلاث مرات لا غير رغم تكرار اسم موسى مرات كثيرة جدا، وكذلك إبراهيم ونوح ولوط وغيرهم من الأنبياء. وكان عليه السلام لا يتنفج فى كلامه أبدا ولا يكرر: "أنا، أنا" أبدا. وليس فى القرآن آية واحدة تعزو إليه أى انتصار أو إنجاز، بل كل ذلك ينسب إلى الله تعالى. بل ليس لمحمد فيه كلام مباشر من تلقاء نفسه، بل كل ما يقوله إنما هو أمر من الله له بنطقه مسبقا بكلمة "قل: ...": "قل: لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو فسقا أهل لغير الله به"، "ويسألونك عن الجبال، فقل: ينسفها ربي نسفا"، "قل: إني نهيْتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي ... وفوق ذلك فإن القرآن ليخلو تماما من اسم أمه وأبيه وجده وعمه وخديجة وعائشة وحفصة وسائر زوجاته الأخريات مثلما يخلو من الحديث عن أفراحه أو أتراحه تمام الخلو. وكان يعلن أنه يستغفر الله مائة مرة فى اليوم، ويظل يبتهل إلى الله ليله ونهاره داعيا حامدا شاكرا مقرا بنعمة الله عليه وطالبا منه أن ينزل به رحمته وبره ولطفه. وكان زاهدا فى المال والترف والفخامة تمام الزهد حتى حين دان له العرب جميعا وانصبت فى حجره الأموال، وظل هو هو نفس الرجل البسيط الزاهد فى الثروة والتسلط والبريق. وكان يعيش مع كل زوجة من نسائه فى غرفة فقيرة لا تحتوى من الرياش إلا على فراش رخيص وبعض الأنية البدائية التى لا تقدم ولا تؤخر. ولم يؤثر عنه أنه ضرب أحدا من أتباعه أو شتمه أو أهانه، أو حتى أخرجهم دون داع، بل كان حريصا على كرامة أولئك الأتباع غاية الحرص، وينصحهم بالتمسك بتلك الكرامة على الدوام. وكان، رغم تمسكه الصارم بمبادئ دينه وأخلاقه، يعطف أشد العطف على الضعف البشرى.

ويوم كسفت الشمس لدن موت صغيره إبراهيم، وحسب أصحابه أنها إنما كسفت تعاطفا مع أحزانه، أعلنها مدوية أن الشمس والقمر هما مجرد آيتين من آيات الله لا تكسفان لموت أحد أو لحياته. وكان كلما طالبه مشركو قومه بمعجزة رد عليهم بما أمره الله أن يرد به فقال: "سبحان ربى! هل كنت إلا بشرا رسولا؟" مع أنه كان بإمكانه أن ينفى وقوع المعجزات على يد من سبقه من الأنبياء حتى يسد هذا الباب الذى يأتى منه الريح ويستريح، لكنه لم يفعل. ولقد كان محمد صادقا أميناً، فلم يجرب أحد عليه ولو كذبة واحدة أو خيانة فردة على الإطلاق. أقول هذا رداً على من يقولون إنه ادعى النبوة عامداً متعمداً وعن سبق إصرار رغم معرفته أنه ليس نبي. وأخيراً فلم يحدث أن ورث محمد الحكم أحدًا من أهل بيته. ودعونا مما يقوله الشيعة، فهو كلام لا يدخل العقل، ولا يتماشى مع مبادئ الإسلام أصلاً. ولأمر ما مات ابنه إبراهيم ولم يعيش بعده. وعلى أية حال لقد عرض عليه القرشيون أن يؤلّوه حاكماً على مكة كي يتخلصوا من إزعاج الدعوة التى أتاهم بها والتى تهدد أوضاعهم المستقرة لأجيال وأجيال وتنذر بالقضاء على تقاليدهم وعاداتهم ومصالحهم، بيد أنه رفض. ولو كان الحكم غايته لقد كانت هذه أعظم فرصة سنحت كي يحقق بها ذلك الطموح. فلماذا رفضها وأعلن تمسكه بالدعوة إلى الدين الجديد إلا أن يكون الله هو مَنْ أمره بهذا؟

كذلك قام كاتب هذه السطور بالمقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث فالفيت الأسلوبين مختلفين تمام الاختلاف بما يؤكد تأكيداً يتجاوز كل شك أن محمداً ليس هو مؤلف القرآن بأى حال. فهناك كثير جداً من الألفاظ والمصطلحات موجودة في الأحاديث ولا وجود لها البتة في القرآن، وهناك عبارات وتراكيب وصور، وأبنية لفظية وقصصية وقسمية، توجد هنا ولا توجد هناك، والعكس بالعكس. وهى سمات جد كثيرة، وتدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون من صنع محمد. وهذه المقارنة العلمية الإحصائية متاحة في كتابي: "القرآن

والحديث - مقارنة أسلوبية "المكون من ٦٠٠ صفحة. وهو موجود على المشباك لمن أراد تنزيله.

ومن ذلك أن القرآن يخلو تماما من كلمة "نية" ومشتقاتها ك"نوى، انتوى، ناو، منوى" رغم أنها تمثل في الإسلام محور العمل قبولاً أو رفضاً، في حين تكثر هذه الكلمة في الحديث كقوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات. وإنما لكل امرئ ما نوى". كما تتكرر في الأحاديث صيغة "مَظْلَمَة"، لكنها في القرآن تختفى تماماً، ولا نرى فيه إلا صيغة "ظلم". وبالمثل نلفى الأحاديث قد ذكرت ألواناً من الملابس لا يأتى القرآن على ذكرها أبداً كالرداء والإزار والبرد والبرنس والقميص والكساء والخُفّ والشَّعَار والدُّثَار والجُبَّة والقَسِيّ والحُلل والعمائم والأطهار والسراويل والقلائس والقَبَاطِي. كذلك لا نجد في القرآن من الأوزان والمكاييل سوى "القنطار" بينما نجد في الأحاديث معه الأوقية والرطل والنَّشّ والصاع والمُدّ والفرق والعَرَق والقَدَح والحِلْس والوَسَق. كما يخلو القرآن مثلاً من كلمتي "الداء والدواء" برغم أهميتهما في الحياة، في الوقت الذي تتكرر فيه في أحاديث رسول الله عليه السلام. ويقول القرآن في الآية التالية: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة" بالغابا بعد "لو" أقصى حد في القوة والمنعة، إذ البروج المشيدة هي أقوى شيء يمكن أن يعتصم به من يظن أنه سينجو من الموت، على حين نجد في الحديث: "أولم ولو بظلف شاة" بالغابا بعد "لو" أقل شيء في القيمة والجاذبية. وفي القرآن كذلك يتكرر القسم بمظاهر الطبيعة وما إليها كالشمس والليل والضحى والتين والزيتون والطور... إلخ في الوقت الذي يخلو فيه الحديث الشريف من هذا اللون من القسم تماماً. وبالمثل يكثر في القرآن المجيد استعمال "إذ" في كثير من القصص: "وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعلٌ في الأرض خليفة"، "وإذ قال يوسف لأبيه: يا أبت، إني رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، رأيتُهم لى ساجدين"، ولا وجود

لهذا الملمح الأسلوبى فى الحديث النبوى الشريف. وفى القرآن نجد فى المواضيع الحساسة تقنية، بينما لا نعدم أحيانا فى أحاديث النبى فى تلك المواضيع ذاتها ألفاظها الصريحة. وهناك ثنائيات لفظية تكررت فى الحديث ولا وجود لها فى القرآن أو كلمات وردت فى القرآن مفردة، وفى الحديث مجموعة، والعكس بالعكس... وهكذا، وهكذا على مدار مئات الصفحات.

وإلى جانب كل ما مضى فإن مضمون القرآن لا يعكس البتة ملامح الشخصية البشرية، إذ يسوده الجلال والعظمة من مطلعته إلى منتهاه، ومن أصغر سورة فيه إلى أضخمها. وعبثا تبحث بين آياته عن شعور بشرى بالفخار عند النصر أو بالانكسار عند الانتكاسة فلا تجد. وكم مر بمحمد من مباهج وأحزان، لكن القرآن لا يشير إلى شىء من ذلك أبدا: خذ مثلا زواجه من عائشة، هل هناك آية واحدة تصور سروره به؟ أبدا. وخذ موت خديجة وأبى طالب، وقد سُمى العام الذى وقع فيه بـ"عام الحزن"، هل هناك إشارة مجردة إشارة إليه؟ وخذ واقعة الإفك، تلك الواقعة التى ألفت الضيق فى قلب النبى وأرقته، هل هناك عبارة واحدة تتناول تلك المشاعر الزوجية الفطرية؟ كلا. ونفس الشىء قل عن انتصار بدر وانكسار أحد والرعب الذى سيطر على قلوب المسلمين عشية غزوة الأحزاب، إذ القرآن لا يحتوى على أى شعور مرتبط بها...

ولدينا كذلك النبوءات التى يتضمنها القرآن ولم يحدث أن تخلفت نبوءة واحدة عن الوقوع فى الزمن الذى حدده. وأول تلك النبوءات والتحديات نبوءة انتصار الإسلام التى تكررت منذ اللحظات الأولى للدعوة المحمدية حتى النهاية. وقد انتصر الإسلام رغم أنف الشرك والمشركين واليهود والنصارى والمجوس انتصارا مدويا مع ضعف الإمكانيات لدرجة الصفر أحيانا كثيرة فى جانب المسلمين، وقوة الخصم وتفوق أعداده وعُدده كما وكيفا. وعندنا نبوءة انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين، تلك النبوءة التى حدثت كما حددها القرآن،

وفي الوقت الذى حددها القرآن. وهناك الآيات التى تتحدث عن حقائق علمية لم يكن لأحد علم بها فى ذلك العصر ولا فى العصور التالية حتى العصر الحديث. ومنها قول المفسرين مثلاً إن النحل يأخذ الرحيق بفمه فيمجم العسل منه بينما تقول الآية القرآنية إنه يخرج من بطونها. ثم يتضح فى عصرنا هذا أنه لا يَمَجّ من الفم بل يخرج من البطن. ومن هذا كله يظهر لنا بأجلى بيان أن محمداً لا يمكن أن يكون هو مؤلف القرآن لا عمداً ولا توهماً، وأنه نبي رسول من لدن رب العالمين على عكس ما يريد جولدتسيهر إيهام القارئ به.

والآن بعدما انتهينا من تعريف "الثقافة" و"الإسلام" نحب أن نتعرف إلى مظاهر الثقافة فى ذينك العصرين: العصر الإسلامى والعصر الأموى. وقد سبق فى كتابنا: "فصول فى ثقافة العرب قبل الإسلام" أن تريثنا لدن الشعر والخطابة والأمثال والقصص وسجع الكهان وعادات العرب وتقاليدهم وقيمهم ومعتقداتهم فى ذلك العصر. وها نحن أولاء ننوى أن نقف إزاء الشعر والخطب والقصص والرسائل والأمثال، وقبل ذلك كله: القرآن والحديث، فهما اللذان أعطيا هذين العصرين طعمهما وميزاهما عن العصر الجاهلى رغم اشتراكهما معه فى بعض السمات فى نفس الوقت.

وقد كان العرب الجاهليون يدينون بالوثنية ويعبدون الأصنام مع وجود نصارى ويهود وحنفاء أيضاً ولكن بنسبة ضئيلة بالنسبة لعابدى الأوثان. أما الآن فصاروا فى الأغلب الأعم مسلمين موحدين لله رب العالمين. كما كانوا ينظمون الشعر مديحاً وهجاءً وافتخاراً وغزلاً ووصفاً للخمر وتغنياً بالانتصار على القبائل المعادية وتحقيراً لها منطلقين من قيم معينة كانت تحركهم وتدفعهم إلى القول، وهى قيم الاعتزاز القبلى والتنفج بالكرم وشرب الخمر وما إلى ذلك. أما بعد الإسلام فقد ظهر أثر الدين الجديد قويا ساطعاً، ورأينا الشعراء يفاخرون

باعتناقهم الإسلام وخوفهم من ربهم بعدما كان هذا العنصر غائبا تماما من أشعارهم قبل مجيء محمد عليه السلام بدينه الجديد.

كما رأينا شعر الغزوات ثم الفتوح وانطلاق الجيوش الإسلامية تفتح البلاد وتنتصر على الفرس والروم مما لم يكن للعرب به عهد من قبل، إذ كانت معاركهم محلية محدودة ضيقة الأفق تدور حول خلاف على الماء والكلا أو انتقاما لعرض مهتوك مثلا. ثم إن أشعار الخمر قد خفت في البداية فلم نجد من يهتم بوصفها فضلا عن الاعتزاز باحتسائها، اللهم إلا على سبيل الشذوذ والندرة كما هو الحال لدى أبي محجن الثقفي، الذي سرعان ما أفاق من إدمانه وأقلع عن أم الخبائث وباهى بذلك. أما في العصر الأموي فرأينا الوليد بن يزيد، وهو حالة خاصة وفريدة لم تطل أو تنتشر. وظهر في الشعر كذلك مدح الرسول عليه السلام والتغنى بقيم التقوى وذكر الجنة والنار ورثاء الخلفاء الراشدين.

أما في العصر الأموي فنجد شعر الأحزاب السياسية من أمويين وعلويين وخوارج. وفي الغزل نرى عمر بن أبي ربيعة وأشباهه من شعراء اللهو والتنقل بين زهور النساء الفواحة، وجيلا وكثيرا وقيسا ممن قصروا حياتهم على امرأة واحدة وأغلقوا أفئدتهم عن كل امرأة سواها واجدين نشوة علوية في حبها ومصطلين نار الجحيم جراء بعدها عن منالهم وهجرانها لهم... إلخ.

وبالمثل فإن الخطب التي كانت موجودة في العصر الجاهلي ظلت تمارس بعد الإسلام مع الفارق التالي، وهو أنهم في الجاهلية كانوا يخطبون فقط في المنافرات والأعراس وما إلى ذلك، أما في الإسلام فانضمت إلى الخطب خطب السياسة والإدارة مما لم يكن يعرفه الجاهليون. كما ظهرت الرسائل السياسية في ذلك العصر كرسائل النبي عليه السلام إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام، ورسائله إلى ولاته على الأقاليم، ورسائل أبي بكر وعمر مثلا إلى

قوادهما في معارك الفتوح، وهو مما لم نعلم بشيء مثله في الجاهلية، وإن كانت هناك رسالة شعرية بعث بها لقيط بن يعمر من ديوان كسرى يعلم فيها قومَه بما انتواه العاهل الفارسي من غزو بلادهم والتنكيل بهم وإذلالهم. كما ظهرت في عصر الأمويين كتاب الرسائل الديوانية الذين كانوا يتأنقون ويدعون في تحبيرها كسالم وعبد الحميد الكاتب وابن المقفع.

وهناك طبعا الأمثال، وإن كان الذهن ينصرف عادة عند ذكرها إلى أمثال الجاهلية متصورا أنه بعد العصر الجاهلي لم تعد هناك أمثال تضرب، مما استحثني إلى كتابة صفحات غير قليلة في هذا الموضوع من كتابي عن "تاريخ الأدب العربي من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي"، فكتبت مبينا أن الأمثال لا تتوقف أبدا، وأوردت عددا كافيا من الشواهد الإسلامية والأموية مشفوعة بالظروف التي قيلت فيها والقصص التي أحاطت بها وموقعها منها.

وأما سجع الكهان فقد اختفى إلى الأبد بتخلفه وظلماته وبهلوانياته، إذ أزاحه القرآن الشريف والحديث الكريم من طريق العقول بما فيهما من دعوة إلى الإيمان بالله وتقواه ويقظة العقل والضمير وتجريم الكهانة والاعتقاد في مصداقية مدعيها والبعد عن كل ما يخامر العقل من خمر وخرافات ودعاوى خاصة بمعرفة الغيب وما إلى ذلك بسبيل، وهجر الكتاب والخطباء السجع الغامض المتنوع الثقيل الظل الموهم بأن في جعبة صاحبه شيئا، على حين ليس في جعبته أى شيء، والتزم الكتاب والمتحدثون بالنثر السهل السلس المباشر الواضح المترسل. ويبقى القصص، وقد كان معروفا في الجاهلية، إلا أنه لم يصلنا شيء مكتوب منه، وإنما تم تسجيله كتابة في العصر العباسي، بالإضافة إلى القصص الشعرى الذى كان العرب يتلونه عن ترديد هم لأشعار الجاهلية. أما في الإسلام فهناك أيضا القصص القرآنى والنبوى.

كما أن بعض الخلفاء استعانوا بالقُصّاص في المساجد والجيوش لاعتبارات سياسية وتربوية مما لا نجده في الجاهلية.

القرآن الكريم

"القرآن" هو اسم الكتاب الذى نزل على محمد عليه الصلاة والسلام من السماء. والكلمة مشتقة من الفعل: "قرأ يقرأ اقرأ". بيد أن بعض المستشرقين ممن يعملون دائما على معاكسة الحقائق والتأسيس لأوضاع جديدة تخدم غاياتهم يزعمون أن اللفظة إنما أُخِذَتْ من كلمة "قرانا" السريانية على ما جاء فى المادة الخاصة بالقرآن من "Encyclopaedia of Islam". وهو قول متهافت. ذلك أن كلمة "قرآن" قد ظهرت فى اللغة العربية مع الوحي المحمدى، وإن عرفت لغة الضاد مادة "القراءة" كما يظهر من استعمال القرآن لمشتقات تلك الكلمة قريبا من عشرين مرة غير كلمة "قرآن" ذاتها، التى تكررت فيه نحو من ستين مرة. بل إن أول كلمة نزلت من القرآن طبقا لبعض الروايات هى كلمة "اقرأ"، التى تكررت مرتين فى أول نص قرآنى، وهو قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذى خَلَقَ * خلق الإنسان من عَلقٍ * اقرأ وربك الأكرم". ومن شعر الجاهلية قول كعب بن زهير:

يَسْقِينَ طُلُوسًا خَفِيَّاتٍ تَرَاظُنُهَا كَمَا تَرَاظُنُ عُجْمٌ تَقْرَأُ الصُّحُفَا

فكيف، فى ظِلِّ هذا كله يا ترى، يمكن القول باستعارة العربية لتلك الكلمة من السريانية؟ هل كانت العربية بحاجة إلى تلك الاستعارة، وفيها مادة "قرأ"، التى اشتقت منها تلك اللفظة؟ كذلك لم تكن هناك أية صلة بين العرب فى مكة والسريان آنذاك، بل لم يكن للسريان وجود فى بلاد العرب كلها، فكيف يا ترى يمكن أن يتم الاتصال بين اللغتين واقتباس العربية تلك الكلمة من السريانية من ثم؟ إن بعض المستشرقين يعملون بكل سبيل على نسبة كل لفظ دينى وإسلامى إلى لغة سامية أخرى غير العربية، ولا يخطئون مرة فيردوا أصل أية كلمة سامية إلى اللغة العربية. بل العربية دائما هى الفقيرة المحتاجة لا العكس. وإذا

كانت السريانية والعبرية والآرامية والعربية لغات سامية فلماذا، إذا كان هناك لفظ مشترك بين العربية وغيرها من اللغات السامية، ينبغي أن تكون العربية هي المدينة لا الدائنة؟

إن العربية لغة قديمة ضاربة في أغوار التاريخ، وليست لغة مستحدثة مع الإسلام أو قبله بقليل حتى نقول دوماً بأخذها من تلك اللغات دون أن تعطى أبداً. بل إن هناك من يقول إنها أقرب أخواتها الساميات إلى أن تكون هي اللغة السامية الأم ذاتها. ثم إن صيغة "فُعِلان" متوافرة بكثرة في العربية كـ "قربان وعنوان وحسبان وخسران وبنيان وجثمان وجُسمان وسُبلوان وعُميران وبُخِران وسلطان ونقصان". ولقد كان الإسلام حريصاً دائماً على أن يكون مستقلاً عن غيره في مثل تلك الأمور: فمثلاً لم يأخذ بناقوس النصارى أو شبور اليهود عند التفكير في النداء إلى الصلاة وفضّل عليهما الصوت البشرى. كما لم يختَر السبت أو الأحد لتأدية الصلاة الجماعية الأسبوعية فيه بل الجمعة. وبالمثل غير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة... وهكذا.

ونفس الشيء يقال في الرد على "دائرة معارف كنز إسرائيل"، التي تقول في المادة المخصصة للقرآن إن تسمية "القرآن" تتطابق مع "المُقرأة"، أحد أسماء العهد القديم عند اليهود، مع أنه لا تطابق هناك كما هو واضح، وإلا فأين "المقرأة" من "القرآن"؟ لو كان هذا صحيحاً، وهو غير صحيح على الإطلاق، لقالوا: "مُقرأة" مثلاً. وبالإضافة إلى ذلك لم يحدث أن سُمي المسلمون كتاب اليهود إلا باسم "التوراة"، فلا مقراءة ولا يحزنون! ولو كانوا يعرفون هذا الاسم لجاؤوا ذكره في رواياتهم وكتاباتهم، وهو ما لم يحدث. فكيف عرفه محمد، وهو لم يكن متخصصاً في الدراسات التوراتية ولا كانت عنده معاجم أو موسوعات كتابية يبحث فيها عن اسم للقرآن مأخوذ من التراث الإسرائيلي؟ ثم لو كان هذا الزعم صحيحاً لكان المسلمون أول من ذكروه على عادتهم في حكاية كل شيء في تاريخهم. ونحن

إنما ننكره لما فيه من سخف وتهافت ومجافاة للمنطق والتاريخ والوثائق. وهل كان اختيار اسم لكتابهم يشكل عبثاً هائلاً على هذا النحو؟ وهذا لو كانوا هم الذين اختاروا التسمية، وليس الله سبحانه.

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد: "خالفوا اليهود والنصارى، فإنهم لا يصلُّون في خِصافهم ولا في نِعَالهم". كما عاتب صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب عتاباً شديداً حين رآه يمسك بورقة من أوراق العهد القديم وينظر فيها، ونهاه عن ذلك مؤكِّداً أن لو كان موسى حياً لكان قد تبعه هو نفسه. من هنا نرى بكل قوة أنه لم يكن من السهل على الإسلام أن يختار كلمة سريانية أو عبرية تتعلق بكتاب النصارى أو اليهود، الذى يؤكد أنه قد تم العبث به. لكل هذا نرى أن ما قاله المستشرقون عن الأصل السريانى أو العبرى لكلمة "قرآن" هو السخف مجسِّداً، وينبغى إهماله للتوّ دون أدنى تردد أو تريث.

ومن يقرأ القرآن الكريم يجد أن المتحدث فيه دائماً هو الله سبحانه وتعالى، أما حين يكون المتحدث هو الرسول فإن الله يأمره بـ "قل كذا وكذا": "قل: ما كنت بِدْعاً من الرسل، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم"، "يسألونك عن الخمر والميسر. قل "فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما"، "ويسألونك عن الجبال، فقل: ينسفها ربى نسفاً* فيذرُّها قاعاً صفصفاً"، "قل: إني نُهيْتُ أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى... أما ما يقوله كاتب مادة "القرآن" فى "Encyclopaedia of Islam" من أن بعض الآيات تبدو وكأن الرسول هو المتحدث فيها حديثاً مباشراً، أى دون التمهيد له بكلمة "قل"، فهى دعوى بلا أساس. ومن تلك النصوص المدَّعاة بعض آيات سورتي "التكوير" و"الانشقاق" رغم أنه لا يوجد فى السورتين على الإطلاق ما يبدو معه وكأن الرسول هو المتحدث.

كما أن القسم بمظاهر الطبيعة، وكذلك استعمال عبارة "لا أقسم" بدلا من "أقسم" في قوله تعالى من "التكوير": "فلا أقسم بالحنس * الجوارى الكنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس * إنه لقول رسول كريم"، هو ملمح أسلوبى لا وجود له فى أحاديث الرسول عليه السلام. وفوق هذا فالآيتان اللتان تقولان عنه صلى الله عليه وسلم فى سورة "التكوير": "وما صاحبكم بمجنون * ولقد رآه (أى رأى جبريل) بالأفق المبين" لا يمكن أن تكونا صادرتين عن محمد، إذ المتحدث فيهما يستخدم للرسول ضمير الغائب لا المتكلم. ومثلها قوله تعالى

وبالمثل لا نجد فى أى من أحاديث النبى عليه السلام عبارة "يا أيها الإنسان"، التى نقابلها فى سورة "الانشقاق". كما تشتمل هذه السورة على قسم بالمظاهر الطبيعية كما هو الحال فى السورة الأخرى: "فلا أقسم بالشفق * والليل وما سيق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبعا عن طبق". وهناك أيضا قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه الصلاة والسلام: "فبشرهم بعذاب أليم"، ولا يمكن أن يقال إن الرسول هنا يأمر نفسه. وهو ما يجعلنا ننكر كلام المستشرق العجيب أشد الإنكار. ثم إن القرآن يفيض كالسيل بآيات جند كثيرة تشبه تلك التى يزعم فيها المستشرق أنها صادرة عن الرسول، فلم يختص هذه الآيات بالذات بالتشكيك دون سائر الآيات المشابهة؟

ونحن المسلمين نؤمن أن القرآن كله وحى سماوى نزل على محمد من عند ربه سبحانه وتعالى. وكان المشركون يتهمونهم صلى الله عليه وسلم بأنه يستمد الوحى من بعض البشر الذين يعلمونه، وقد فند القرآن تلك التهمة السخيفة التى بينا فيما مضى وجه سخفها وافتقارها التام إلى أى دليل. إلا أن كاتب مادة "القرآن" فى "Encyclopaedia of Islam" يقول إن القرآن لم يرد قط على هذه التهمة، بل ويبدو فى بعض الأحيان وكأنه يوافق على أن

محمدًا كان له معلمون بشريون من أهل الكتاب. ومن بين الآيات التي تحكى تلك الاتهامات قوله تعالى من سورة "الفرقان": "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَبَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصْتِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا". ومع أن الآية الأخيرة قد ردت قائلة إنه إنما نزل من عند الله وحده نرى المستشرق يزعم أنها لم تنكر التهمة. فهل هناك إنكار للتهمة أقوى من أن يقال إن صاحبها ظالم مزور؟ ومن تلك الآيات أيضا التي زعم مستشرقنا الهمام أنها سككت عن التهمة فلم تنكرها قوله سبحانه في سورة "النحل": "وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمِيهِ يُشْرُ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَيَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ". ومع أن القرآن قد رد على التهمة في آخر الآية قائلا إن المعلم المزعم أعجمي لا يعرف كيف يتفاهم مع محمد فإن المستشرق يدعى أنه إنما نفى معرفة المعلم البشرى للغة العربية ليس إلا. لكن إذا كان القرآن يسلم بتلك التهمة فلم ذكرها أصلا ما دام لا رد عنده عليها؟ وهل إذا قال إن ذلك المعلم المزعم لا يعرف العربية يكون المقصود أنه قد علّم محمدًا فعلا القرآن؟

واضح تماما أن السياق هو سياق إنكار تام للأمر، وإلا فلماذا لم يرد المشركون قائلين إنه، وإن كان أعجميا لا يعرف العربية، فقد علمه رغم ذلك مضمون الوحي؟ ولو افترضنا أنهم ردوا بذلك، وهم بكل يقين لم يردوا ولم يفتحوا فاهم بنأمة ولا كان بإمكانهم ذلك، فإن الرد على الرد هو: كيف يمكن أن يتم تعليمٌ دون لغة مشتركة بين المعلم والمتعلم؟ هذا ما يقوله القرآن، وهذا ما يعرفه المستشرق الخبيث، لكنه يتجاهله. ثم إن المسألة أهون من ذلك كثيرا. لقد اتهم المشركون النبي بأن هناك من يعلمه القرآن. ومن ثم فهذا المعلم لا بد أن يكون من سكان مكة، فلماذا لم يأتوا به ويجعلوه يشهد بصحة ما يقولون؟ هل هناك من يكره

أن يوصف بأنه يعلم الآخرين؟ وإذا كان هذا المعلم يعرف العربية فلماذا لم يأتوا به ويجعلوه يتحدث بالعربية على مرأى ومسمع من الجميع فيضعوا محمداً في ركن صعب وينهوا أسطورة الوحي السماوي إلى الأبد؟ بل لماذا لم يتقدم هو نفسه معلناً على الملأ ما علمه محمداً؟ كما كانت هذه فرصة سانحة ينبغي اغتياها لتوضيح ما أدخله محمد على ما تعلمه منه من تغييرات أفسدت الأمر على أصحاب الكتاب المقدس كما في ثنائيه مثلاً على أخلاق الأنبياء ونفيه أن يكونوا قد ارتكبوا أية كبيرة أو صغيرة على عكس ما جاء في كتابهم من أن هذا النبي قد قتل إنساناً عمداً وسبق إصراراً، وهذا زنى بزوجة قائده وجاره، وهذا تزوج بوثنيات وأقام لهن الأصنام في بيته كي يعبدنها على راحتهم... إلخ.

هذه أسئلة بسيطة في منتهى البساطة، إلا أن كفار قريش في العصر القديم وكفار أوروبا في عصرنا هذا يتجاهلوننا تجاهلاً تاماً رغم أنها تحل المشكلة من جذورها. إن المستشرق يزعم أن القرآن لا ينكر أن يكون هناك من يعلم الرسول من اليهود والنصارى. وهذا زعم كاذب تماماً. ولو أن القرآن فعل ذلك لقضى على نفسه بيده ولانتهى أمره. إنه على طول المدى كان يتحدى الإنس والجن ويسخر ممن يقولون بكذب محمد أو جنونه وهلوساته أو تعلمه على يد البشر، فكيف يتخلى بكل بساطة وسذاجة عن هذا الذي يقوله ويكرره في مواضع كثيرة منه؟ ثم لماذا آمن الكفار واليهود والنصارى بالقرآن بعدما أقر ذلك القرآن بأنه فعلاً بشرى المصدر؟ أيكذب القرآن نفسه بنفسه ويعطيهم أعظم برهان على صدقهم فيأتوا هم ويرجعوا في كلامهم كأنهم عيال صغار ويؤمنوا به بدلاً من انتهاز هذه الفرصة التاريخية الحاسمة للإجهاز على محمد وعلى دينه الذي كان يؤرقهم وينغص عليهم حياتهم؟ ولا يتوقف كذب المستشرق عند هذا الحد، بل يدعى أن هناك نصوصاً قرآنية مدنية تشير إلى أن محمداً كان يسعى إلى التعلم من كتب اليهود والنصارى، وأن القرآن حين

هاجمهم بأنهم يخفون كثيرا مما في كتبهم كان يقصد أنهم يخفون ما عندهم عن محمد بغية منعه من تعلم ما عندهم. والدليل على ذلك لدى مستشرقنا الهمام هو قوله تعالى: "قل: من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورًا وهُدًى للناس تجعلونه قراطيس تُبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا؟". ذلك أنه يفسر هذا النص بأنهم كانوا يَطْلَعُونَ محمدا وأصحابه على ما في كتبهم ثم إذا بهم قد توقفوا بغتة فلم يطلعوهم على الباقي، فانتقدتهم محمد من أجل ذلك إذ حَرَمُوهُ من المنبع الثَّرِّ الذى كان يغرف منه العلم غَرْفًا، مع أن النص إنما يتهممهم بأنهم يخفون كثيرا من نصوص التوراة التى لا تتسق مع أغراضهم الدنيئة تلاعبا بها وتطويعا لها لتماشى مع ما يريدون لا مع ما يريد الله منهم أن يفعلوه. وبالمناسبة فإنهم لم يردّوا كالعادة.

ولكن انظر إلى التفسير العبرى الذى أتى به مستشرقنا اللوذعى! ومن هنا يفسر المستشرق بأن محمدا غضب من موقف اليهود هذا وانقلب عليهم متهما إياهم بالعبث بكتابهم ما داموا لم يتركوه يتعلم منهم، قائلا في حقهم: "فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله!"، "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ؟"، "وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون".

ومن المعروف أن القرآن كان ينزل منجّما لا دفعة واحدة كما نزلت ألواح موسى أو الإنجيل، إذ كانت الآيات أو السور القصيرة تماشى الأحداث وتعلق عليها وتعرض الأحكام المتعلقة بها أو تحيب على التحديات التى يضعها المشركون والكتّابيون أمام الرسول أو ترد على الاستفسارات التى يتقدم بها المسلمون إلى نبيهم كلما حزبهم أمر وغمت عليهم مشكلة، أو تذكر ما كان ينبغى عمله بدلا مما عُمل فعلا، فضلا عن أن هناك أحكاما نزل بها القرآن أولا ثم تغيرت مع تغير الظروف بعد ذلك، فنزلت آياته بالأحكام الجديدة. وهو ما يسمى بـ"النسخ"، والمقصود به مراعاة أحوال المسلمين فى ميدان التشريع والأخذ

بيدهم في الطريق الجديدة على نحو متدرج كما هو الحال مثلاً في مسألة تحريم الخمر، الذي لم يتم في نفس واحد بل أخذ وقتاً تصاعد معه التنفير من الخمر والتضييق على شاربها حتى انتهى الأمر بتحريمها تحريماً مغلظاً لا يعرف الهوادة.

وقد تكفل الله بحفظ القرآن في قوله تعالى بسورة "الحجر": "إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون". ولكن بكل أسف هناك روايات متهافئة تقول ما يمكن أن يناقض هذا التعهد الإلهي ولو بشكل محدود. ومن هذه الروايات الرواية التالية المنسوبة إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لقد نزلت آية الرّجم ورضاعة الكبير عَشْرًا، ولقد كان في صحيفة تحت سريري. فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وتشاغلنا بموته دخل داجنٌ فأكلها". ولن أدخل في مسألة الإسناد والجرح والتعديل بل سوف أتناولها بالمنطق المجرد وبالنظر إلى الأوضاع التاريخية والاجتماعية التي أحاطت بتلك الحادثة إن كانت قد وقعت فعلاً ولم تكن من صنع خيال بعض الناس.

وأول شيء أن الرواية تقول إن الداجن قد أكلت الورقة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن القرآن لم يحفظ كما ينبغي على النقيض مما تعهد به الله سبحانه كما رأينا آنفاً. فكيف لم يهجم المسلمون للواقعة وتركوها تمر وكأن أمراً جليلاً لم يقع ينسف هذا التعهد من الأساس؟ لقد كان الآخري بهم أن تتزلزل الأرض تحت أقدامهم. لكننا ننظر فلا نرى انفعالا ولا ضجة ولا غضبا وكأن نصاً قرآنياً لم يضع في بطن الداجن إلى الأبد. وأين عمر مثلاً من تلك المصيبة وقت حدوثها أو وقت علمه بها؟ أترأه كان سيلوذ بالصمت، وهو الغيور العنيف الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يبالي بأحد متى كان هناك خطأ أو تقصير؟ فهل هذا مما يعقله العاقلون؟

الغريب أن يسكت عمر حتى يموت أبو بكر ويتولى هو الخلافة بعده ثم يوشك أن يموت، وهنا، وهنا فقط، يتذكر عمر قصة اختفاء نص الرجم حسبما تقول الحكاية التالية: "لما صدر عن عمر بن الخطاب من مَنَى أناخ بالأبطح، ثم كَوَّم كومة بطحاء ثم طرح عليها رداءه واستلقى، ثم مد يديه إلى السماء فقال: اللهم كبرت سنى، وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفترط. ثم قَدِم المدينة فخطب الناس فقال: أيها الناس، قد سَيِّئْتُ لكم السنن، وفُرِضَت الفرائض، وتُرِكْتُم على الواضحة إلا أن تضلُّوا بالناس يمينا وشمالا. وضرب بإحدى يديه على الأخرى ثم قال: إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم أن يقول قائل: لا نجد حَدِّين في كتاب الله. فقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رجمنا. والذي نفسى بيده لولا أن يقول الناس: "زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله" لكتبْتُها: "الشيخ والشيخة فارجموها ألبتة". فإنا قد قرأناها. قال مالك: قال يحيى بن سعيد: قال سعيد بن المسيب: فما انسلخ ذو الحجة حتى قُتِل عمر رحمه الله".

فهل نصدق أن عمر كان يعلم أن هذه آية من القرآن ثم يخشى أن يعيدها إلى كتاب الله؟ ترى ما الذى منعه من ذلك؟ تقول الحكاية: لقد خاف أن يقول المسلمون عنه: زاد فى القرآن. فهل صحيح أنه لو كتبها فى المصحف سيكون قد زاد شيئا على القرآن؟ بطبيعة الحال لا. ثم لقد صرح أمام المسلمين بأنها من القرآن، فهل أنكر عليه أحد ذلك؟ لا. فلم الخوف إذن من الانتقال إلى الخطوة التالية وكتابتها، ونحن نعرف أن الكتابة ليست شيئا آخر غير القول مُثَبَّتًا فى ورق؟ فهل هناك فرق بين هذا وذاك؟ وهل كان عمر وحده هو الذى يعرف أن هناك نصا قرآنيا برجم الشيخ والشيخة الزانين؟ طبعاً لا. فلماذا لم يستشهد بمن يشاطرونه هذه المعرفة ليحسم الأمر ويعيد كتابة الآية فى موضعها؟

ترى هل يمكن أن يهمل عمر اختفاء نص قرآنى طوال هاتيك السنين دون أن يُجَرَّج ضميرُه فيعيش خالى البال وكأن شيئاً لم يكن؟ فما الذى جد يا ترى فجعله يتذكر الأمر بغتة ويخشى توابعه؟ إن معنى هذا أن عمر قد مات وهو يعرف أن هناك نصاً قرآنياً ضاع، ولا سبيل لإعادته إلى مقره، ولم ير فى هذا ما ينبغى تصحيحه. فهل هذا مما يعقله العاقلون؟ لقد كان عمر أشجع من هذا وأحزم وأعزم، ولم يكن ممن يعملون للمعترضين حساباً متى اقتنع بشىء. لقد أوقف مثلاً سهم المؤلفة قلوبهم بعد قوة الإسلام دون أن يتردد لحظة. ومن قبل حين أراد الهجرة من مكة رأيناه يذهب إلى الكعبة حيث كانت قريش تعقد مجالسها فيصارعهم بنيتة متحدياً إياهم بقوله: من أراد أن تشكله أمه أو تترمل زوجته أو ييتم ولده فليلقنى وراء هذا الوادى. كما اعترض فى البداية على نصوص معاهدة الحديبية رغم موافقة الرسول عليها.

ترى هل يمكن عمر، الذى يثور لمثل ما ثار له فى الرواية التالية على قلة شأن المسألة بالقياس إلى موضوعنا الحالى، أن يكون موقفه من هذا الموضوع الخطير بهذا الهدوء بل بهذا البرود؟ تقول الرواية على لسانه: "سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ "الفرقان" فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعتُ لقراءته، فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ لم يقرئها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كذلك، فكدتُ أساورُه فى الصلاة، فانتظرتُه حتى سلّم، ثم لَبَّيْتُه بردائِهِ أو بردائى، فقلتُ: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. قلتُ له: كذبت. فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنى هذه السورة التى سمعتك تقرأها. فانطلقتُ أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ: يا رسولَ الله، إنى سمعتُ هذا يقرأ بسورة "الفرقان" على حروفٍ لم تُقرئها، وأنت أقرأتنى سورةَ "الفرقان". فقال رسول الله صلى

الله عليه وسلّم: أرسّله يا عمر. اقرأ يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: هكذا أنزلت. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: اقرأ يا عمر. فقرأت، فقال: هكذا أنزلت. ثم قال: إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأقرؤوا ما تيسر منه".

ثم لماذا لم يفصح عمر عما في نفسه بخصوص رجم الشيخين حين تجرد زيد بن ثابت لجمع القرآن في عهد الصديق بناء على اقتراحه هو نفسه خوفا من ضياع شيء من الكتاب المجيد بسبب استحرار القتل في صفوف قراء القرآن في حروب الردة؟ لماذا لم يقل، بعدما انتهى زيد من مهمته، إن هناك نصافات زيدا أن يضعه في المصحف؟ لقد كان عمر، كما قلت آنفا، رجل حزم وعزم، فلم يكن ليضيع تلك الفرصة ويضيع معها تلك الآية. أو بعدما انتهى زيد واللجنة التي كانت معه من عملها، ومرت على ذلك أعوام وأعوام، يأتي عمر في الوقت الضائع ويتذكر أن هناك آية قرآنية سقطت من كتاب الله، ثم لا يكتفى بهذا بل يعلن عن خشيته من إعادتها إلى موضعها؟ لقد كان إيمانه وحصافته جديرين بأن يجعلاه يسلك سبيلا أقوم من هذا رشدا، أو ما دام يخشى العوام إلى هذا الحد لقد كان ينبغي أن يكتف الأمر حتى لا يثير فتنة بين المسلمين بتذكيرهم أن الله لم يحفظ قرآنه خلافا لما وعد به. الواقع أن تصرف عمر معناه أنه أراد تجنب الفتنة بإشغالها. فهل يمكن أن تكون هذه هي شخصية عمر؟

وهذه هي رواية جمع زيد للقرآن في عهد أبي بكر، وموقف عمر من ذلك الجمع، وهو موقف يتناقض مع موقفه الذي نحن بصدد تناقض، إذ كيف يكون حريصا على ألا يضيع شيء من النص القرآني هناك، ولا يبالي بذلك هنا؟ لقد أقر زيد ولجنته آخر سورة التوبة رغم أنهم لم يجدوه إلا عند أبي خزيمة. فلماذا يا ترى لم ينبر عمر ويقول: وأنا أيضا

عندى آية ينبغي ضمها إلى كتاب الله؟ ولا أظن شهادة عمر أقل من شهادة أبى خزيمة. وهذا لو لم تكن هذه الآية لدى أحد سواه، وهو أمر مستبعد. يقول زيد بن ثابت فى الرواية المذكورة: "أرسيل إلى أبو بكرٍ مَقْتَلِ أهلِ اليمامة، فإذا عمرُ بنُ الخطابِ عنده. قال أبو بكرٍ رضى الله عنه: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بَقُرَاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَاءِ بِالْمَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ. وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يَرَا جُعْنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لَذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَتَّبِعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَىَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يَرَا جُعْنِي حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَتَتَّبَعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعِيهِ مِنَ الْعُسْبِ وَاللَّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ "التَّوْبَةِ" مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ" ... حَتَّى خَائِمَةِ يَرَاءَةٍ. فَكَانَتْ الصُّحُفِ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتِهِ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ."

لقد كان المسلمون يهيجون لما هو أقل من هذا بمراحل كاختلافهم حول طريقة نطق بعض الألفاظ طبقا لاختلاف القراءات وخوف عمر من افتتان المسلمين بذلك وتفكيره فى جمعهم على مصحف واحد. كما ثار المسلمون على عثمان لجمعه القرآن مرة أخرى فى عدد من المصاحف والتخلص مما عداها رغبة منه فى ألا يختلف المسلمون اختلافا يهدد وحدتهم.

فكيف تَلَقَّوْا تلك الواقعة بأعصاب باردة إلى هذا الحد؟ ثم كيف عرفت عائشة أن الداجن قد أكل الورقة؟ إذا كانت قد رأت ما حدث فكيف لم تتدخل وتمنع الداجن من العيث في القرآن فسادا؟ وإذا لم تكن قد شاهدت شيئا فكيف عرفت بما حدث؟ ثم إن النبي قد غُسِّلَ وكُفِّنَ في حجرة عائشة، التي كانت الورقة المذكورة مدسوسة تحت الفراش فيها. فكيف دخلت الداجن تلك الغرفة الصغيرة وأكلت الورقة المقدسة، وزوجات النبي وبناته وقريباته على الأقل هناك، والنبي ممدد على الفراش، دون أن تنهر إحداهن الداجن عن فراش النبي والعبث تحته؟ يستحيل أن يحدث هذا، فهن أكبر من أن تصيبهن هذه البلادة.

ونحن نعرف أن النبي لم يكن له سرير كسرُّرنا الآن مرتفع عن الأرض بل مجرد حشية أو حصير يوضع عليها، فكيف يمد الداجن فمه تحت الحصير؟ بل كيف يمكن أن يضع النبي أو عائشة الورقة القرآنية في ذلك الموضع الغريب؟ وهل كان من عادة العرب أن يضعوا أوراقهم، إن كان عند أحدهم شيء منها، على الأرض تحت الفراش؟ الحق أنى لم أسمع بمثل تلك الواقعة في تلك العصور. لقد كان الورق في عصر الجاهلية والنبوة من الندرة بحيث أتصور أنه كان يعامل معاملة الذهب والجواهر النفيسة. فكيف تُعَامِلُ ورقة فيها نص قرآنى بهذه اللامبالاة؟ ثم من أدري عائشة بأن ما ضاع من القرآن هو هذان النصفان فقط؟ سيقال إن المسلمين كانوا يحفظون القرآن، وإنهم قد تنبهوا إلى ضياع هذين النصين. فكيف لم يعيدوا النصين الضائعين إلى القرآن إذن ما داموا يحفظونهما؟ هل غَلَّ أحدهم يدهم عن ذلك؟ وهذا إن كانت هناك نسخة واحدة فقط من دينك النصين.

ثم هل تظنون أن اليهود والنصارى كانوا ليسكتوا على ما حدث فلا يقيموا الدنيا ويقعدوها شماتة في الدين الجديد الذى يهدد دينهم ويزيد فيتهمهم بالعبث في نصوصهما؟ وهناك أيضا المنافقون الكارهون في أعماقهم للإسلام، وكذلك المرتدون، الذين انتهزوا وفاة

النبي ونكصوا على أعقابهم وخرجوا من دينه خروجا كاملا أو جزئيا، واتبع بعضهم أنبياء من قبائلهم. أتراهم كانوا يهملون تلك الواقعة فلا يستغلوها في محاربة الدين الجديد وتسويغ خروجهم منه باعتبار أن الله لم يحفظ قرآنه كما وعد، ومن ثم فإن الأمر يبعث على الريبة والتشكك؟

ثم إن الروايات الأخرى تقول إن الرجم في النص السابق المفقود خاص بالشيخ والشيخة، إذ يقول: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة". ومعنى ذلك أن الرجم لا يسرى على الشبان والرجال والكهول بل على الشيوخ فقط. لكن هل الشيوخ من عنف الشهوة بما يجعل القرآن يخصصهم دون سائر الزناة بهذا الحكم الشديد كي يردعهم؟ وقبل ذلك ما الذى منع المسلمين يا ترى من رد ذلك النص إلى المصحف ما داموا يحفظونه على هذا النحو؟ وفوق هذا فتلك أول رواية وآخرها تتحدث عن حفظ رسول الله قرآنا مكتوبا تحت فراشه. ألا إن هذا كله لغريب!

ثم لماذا يقضى الله بضياغ نص من كتابه رغم تعهده بحفظه، ثم الإبقاء مع هذا على الحكم الذى يتضمنه ذلك النص؟ يا له من أمر مريب! يبدو أن من اخترع هذا الحديث ونسبه للرسول إنما أراد أن يسوغ حكم رجم الزانى، الذى لم يرد رغم خطورته فى القرآن. لكن اختراعه لم يكن محبوبا كالبتة. وعلى ذكر "البتة" ليس فى القرآن كلمة "البتة" أبدا، تلك الكلمة التى انفرد النص المذكور بورودها فيه. بل ليس فى القرآن أية كلمة مشتقة من الجذر: "ب ت ت". وهو ما يعضد إنكارى أن يكون ذلك النص آية محذوفة من كتاب الله. وبالمثل ليس فى القرآن كلمة "الشيخة" أبدا. وهذا مُعْضَدٌ آخر. ثم إن فى القرآن نصا خاصا بالزناة يقول: "الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة". فكيف يكون هناك نص آخر فى القرآن بحكم آخر؟ إن هذا إما أن يربك المسلمين فيتساءلوا: أى الحكمين هو الحكم

الصحيح؟ وإما أن يقولوا: إن حكم الرجم خاص بالشيوخ والشيخات، وحكم الجلد لمن دونهما. فكما يرى القارئ فإن هذه الروايات تترك كل شيء أيما إرباك.

وهناك هذه الرواية الأخرى، وهى عن عائشة أيضا: "نزل القرآن بعشر رَضَعَاتٍ معلومَاتٍ يَحْرُمْنَ، ثُمَّ نُسَخْنَ بِخَمْسِ رَضَعَاتٍ معلومَاتٍ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهُنَّ مما نقرأ من القرآن". أى أن هذا نص قرآنى آخر ضاع من القرآن. لكن كيف يقال إنه قد ضاع، وها هى ذى عائشة لا تبرح تذكره؟ والسؤال من ثم هو: لم يا ترى لم يأخذه منها ويسجلوه فى القرآن؟ ثم هل كانت هى وحدها التى تعلمه؟ غريبة! أترى كان النبى يبلغها وحدها أحيانا بالوحى؟ لكن هل يعقل ذلك؟ الواقع أنه لو كان هذا نصا قرآنيا لوجدنا كثيرا من المسلمين غير عائشة يحفظونه، وبخاصة أنه مما يطبق حكمه كثيرا. لكن منذ متى كان القرآن يقف عند تفاصيل موضوع صغير كعدد الرضعات التى تحرّم الزواج؟ لقد نزلت آية سورة "النساء" عن تحريم الاقتران بأخوات الرضاعة، مثلهن مثل أخوات الدم تماما، وهذا كاف جدا، ثم تكفل السنة بتفصيل القول فيه كما تكفلت بتفصيل الكلام فى بقية من يَحْرُمْنَ من النساء. ويبقى أن الداجن قد أكل الورقة التى تضم هذا النص، وقد سبق أن فندنا القصة كلها. ونرجو من الله ألا نكون قد شططنا أو قلنا خَطَأً من الأمر!

وهناك أيضا الروايات الخاصة بـ "قصة الغرانيق"، وتتلخص فى أن سورة "النجم" كانت تحتوى فى البداية على آيتين تمدحان الأصنام الثلاثة: "اللات والعزى ومناة"، ثم جُذِفَتْ منها فيما بعد، إذ كان محمد عليه الصلاة والسلام يتمنى أن يصلح القرشيين حتى يكسبهم إلى صفه بدلا من استمرارهم فى عداوتهم لدعوته وإيذائهم له ولأتباعه، ومن ثمَّ أقدم سهوا على تضمين سورة "النجم" تينك الآيتين عقب قوله: "أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى؟" على النحو التالى: "إنهنَّ الغرانيق العيلا * وإن شفاعتهنَّ لَتُرَجَّى"،

أو دسهما الشيطان في تلاوته وهو لا يشعر. والواقع أن أقل نظرة في سورة "النجم" أو في سيرة حياته صلى الله عليه وسلم كافية للقطع بأن تلك القصة لا يمكن أن تكون قد حدثت على هذا النحو الذى اخترعه بعض الزنادقة قديما وأخذ أعداء الإسلام يرددونها منذئذ!

وقد تناول عدد من علماء المسلمين في القديم والحديث الروايات التى تتعلق بهاتين الآيتين المزعومتين وبينوا أنها لا تتمتع بأية مصداقية. والحقيقة إن النظر في سورة "النجم" ليؤكد هذا الحكم الذى توصل إليه أولئك العلماء. فهذه السورة من أولها إلى آخرها عبارة عن حملة مدممة على المشركين وما يعبدون من أصنام بحيث لا يعقل إمكان احتوائها على هاتين الآيتين المزعومتين، وإلا فكيف يمكن أن يتجاوز فيها الذم العنيف للأوثان والمدح الشديد لها؟ ترى هل يمكن تصوّر انخراط شخص فى فاصل من التقريظ لشخص آخر ليتقل بعدها مباشرة لسبه وإهانته؟ ترى هل يعقل ابتلاع العرب مثل هاتين الآيتين اللتين تمدحان آلهتهم، وهم يسمعون عقيب ذلك قوله تعالى: "ألكم الذّكر وله الأنثى؟ * تلك إذن قسمةٌ ضيّزى * إن هى إلا أسماءٌ سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان. إن تتَّبِعُونَ إلا الظن وما تهوى الأنفس. ولقد جاءهم من ربهم الهدى"؟ إن هذا أمر لا يمكن تصوّره!

كما أن وقائع حياته صلى الله عليه وسلم تجعلنا نستبعد تمام الاستبعاد أن تكون عزيمة قد ضعفت يوما، فقد كان مثال الصبر والإيمان بنصرة ربه له ولدعوته. ومواقفه من الكفار طوال ثلاثة وعشرين عاما وعدم استجابته فى مكة لوساطة عمه بينه وبينهم رغم ما كان يشعر به من حب واحترام عميق نحوه، ورغم الإيذاء الرهيب الذى كان يتعرض له هو وأتباعه، وكذلك رفضه لما عرضوه عليه من المال والرئاسة، هى أقوى برهان على أنه ليس ذلك الشخص الذى يمكن أن يقع فى هذا الضعف والتخاذل!

وقد أضفت طريقةً جديدةً للتحقق من أمر هاتين الآيتين هى الطريقة الأسلوبية، إذ نظرتُ فى الآيتين المذكورتين لأرى مدى مشابھتهما لسائر آيات القرآن فوجدت أنهما لا تمتان إليها بأية صلةٍ. ذلك أن الآيتين المزعومتين تجعلان الأصنام الثلاثة مناطا للشفاعة يوم القيامة دون تعليقها على إذن الله، وهو ما لم يسندہ القرآن فى أى موضع منه إلى أى كائن مهما تكن منزلته عنده سبحانه. ولن نذهب بعيدا للاستشهاد على ما نقول، فبعد هاتين الآيتين بخمس آيات فقط نقرأ قوله تعالى: "وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى". فكيف يقال هذا عن الملائكة فى ذات الوقت الذى تؤكد إحدى الآيتين المزعومتين أن شفاعاة الأصنام الثلاثة جديرة بالرجاء من غير تعليق لها على إذن الله؟

ثم إنه قد ورد فى الآية الثانية من آيتى الغرائيق كلمة "تُرْتَجَى"، وهى أيضا غريبة على الأسلوب القرآنى، إذ ليس فى القرآن المجيد أى فعل من مادة "رج و" على صيغة "افتعل". أما ما جاء فى إحدى الروايات من أن نص الآية هو: "وإنَّ شفاعتھن لَتُرْتَضَى"، فالرد عليه هو أن هذا الفعل بهذه الصيغة، وإن ورد فى القرآن ثلاث مرات، لم يقع فى أى منها على "الشفاعة"، وإنما تُسْتَحْدَم مع الشفاعة عادةً الأفعال التالية: "تنفع، تُغْنِي، يملك".

كذلك بدأت مجموعة الآيات التى تتحدث عن اللات والعزى ومناة بقوله عزَّ شأنه: "(ف)رأيتم...؟"، وهذا التركيب قد ورد فى القرآن إحدى وعشرين مرة كلها فى مخاصمة الكفار والتهكم العنيف بهم كما فى الشواهد التالية: "قل: رأيتم إن أتاكم عذابہ بيأتًا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون؟"، "قل: رأيتم ما أنزل الله لكم من رزقٍ فجعلتم منه حلالا وحراما، قل: آلهُ أذنَ لكم أم على الله تفترون؟"، "قل: رأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشَهِد شاهدٌ من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم؟ إن الله لا يهدى القوم

الظالمين"، "أفرايتم الماء الذى تشربون؟ * أنتم أنزلتموه من المُنْزَن أم نحن المُنْزِلون؟ * لو نشاء جعلناه أجاجًا، فلولا تشكرون". فكيف يمكن إذن أن يحىء هذا التركيب فى سورة "النجم" بالذات فى سياق ملاطفة الكفار ومراضاتهم بمدح آلهتهم؟ وفوق هذا لم يحدث أن أُضيفت كلمة "شفاعة" فى القرآن الكريم (فى حال مجيئها مضافة) إلا إلى الضمير "هم" على خلاف ما أتت عليه فى آيتى الغرانيق من إضافتها إلى الضمير "هنّ".

وفضلاً عن ذلك فتركيب الآية الأولى من الآيتين المزعومتين يتكون من "إنّ (وهى مؤكّدة كما نعرف) + ضمير (اسمها) + اسم معرّف بالألف واللام (خبرها)". وهذا التركيب لم يستعمل لـ "ذاتٍ عاقلة" فى أى من المواضع التى ورد فيها فى القرآن الكريم (وهى تبلغ العشرات) دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله، كما فى الأمثلة التالية: "ألا إنهم هم المفسدون/ ألا إنهم هم السفهاء/ إنه هو التواب الرحيم/ إنك أنت السميع العليم/ إنك أنت التواب الرحيم/ إنه هو السميع العليم/ إنه هو العليم الحكيم/ إنه هو الغفور الرحيم/ إني أنا النذير المبين/ إنه هو السميع البصير/ إني أنا الله/ إنك أنت الأعلى/ إنا نحن الغالبون/ إنه هو العزيز الحكيم/ وإنا نحن الصافّون/ وإنا نحن المسبّحون/ إنهم لهم المنصورون/ إنك أنت الوهاب/ إنه هو السميع البصير/ إنه هو العزيز الرحيم/ إنك أنت العزيز الكريم/ إنه هو الحكيم العليم/ إنه هو البرّ الرحيم/ ألا إنهم هم الكاذبون/ فإن الله هو الغنى الحميد". أما فى المرة الوحيدة التى ورد التركيب المذكور دون تأكيد اسم "إنّ" الضمير بضميرٍ مثله (وذلك فى قوله تعالى: "إنه الحق من ربك") فلم يكن الضمير عائداً على ذات عاقلة. وعلى ذلك فإن التركيب فى أوّل آيتي الغرانيق هو أيضاً تركيب غريب على أسلوب القرآن الكريم.

مما سبق يتأكد لنا على نحوٍ قاطعٍ أن الآيتين المذكورتين ليستا من القرآن، وليس القرآن منهما، في قليل أو كثير. بل إنى لأستبعد أن تكون كلمة "الغرائيق" قد وردت في أى من الأحاديث التى قالها النبى عليه الصلاة والسلام. وينبغى أن نضيف إلى ما مرَّ أن كُتِبَ الصحاح لم يرد فيها أى ذكر لهذه الرواية، ومثلها في ذلك ما كتبه ابن هشام وأمثاله في السيرة النبوية.

ولقد قرأت في كتاب "الأصنام" لابن الكلبي أن المشركين كانوا يرددون هاتين العبارتين في الجاهلية تعظيماً للأصنام الثلاثة، ومن ثمَّ فإنى لا أستبعد ما طرحه الكاتب الهندى سيد أمير على في كتابه: "The Spirit of Islam" من تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث بناءً على ما ورد من روايات في هذا الموضوع، إذ يرى أن النبى، عندما كان يقرأ سورة "النجم"، وبلغ الآيات التى تهاجم الأصنام الثلاثة، توقَّع بعض المشركين ما سيأتى بعد ذلك فسارع إلى ترديد هاتين العبارتين في محاولة لصرف مسار الحديث إلى المدح بدلاً من الذم والتوبيخ. وقد كان الكفار في كثير من الأحيان إذا سمعوا القرآن أحدثوا لَغْطاً وَلَغَوْاً كى يصرفوا الحاضرين عما تقوله آياته الكريمة كما تقول الآية السادسة والعشرون من سورة "فُصِّلَتْ". فهذا الذى يقوله الكاتب الهندى هو من ذلك الباب.

ومما ينبغى التوقف إزاءه في هذا السياق أيضاً ما قيل من أنه كانت هناك سورتان قرآنيتان صغيرتان اسمهما "سورة الحَفْد" و "سورة الخَلْع"، ثم نُسِخَتَا وتحولتا إلى دعاء يقوله المسلم في صلاته. وهذا أولاً نص السورتين المزعومتين: "اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ * وَلَكَ نَصْلِي وَنَسْجِدُ * وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفَقِدُ * نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ * إِنْ عَذَابَكَ بِالْكَفَّارِ مَلْحَقٌ"، "اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ * وَنُثْنِي عَلَيْكَ * وَلَا نَكْفُرُكَ * وَنَخْلَعُ وَنَتْرَكَ مِنْ يَفْجُرُكَ". ومن أول نظرة نقول، ونحن موقنون بصحة ما نقول، إن هذه السطور لا تمت بأية

وشيجة للقرآن الكريم، فالمنطق العقلي والتاريخي والنفسي لا يقبلها بتاتا، كما أن الروايات التي أوردت هذين النصين ترفض هي نفسها مثل هذا الزعم حسباً سنين بعد قليل. علاوة على أن الأسلوب فيها ليس هو الأسلوب القرآني، ولا اللفظات هي اللفظات، ولا الروح هو الروح.

ونبدأ بالروايات. ولقد فتشت عن تينك السورتين في كتب الحديث التسعة الرئيسية: البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجه والدارمي ومسنده أحمد وموطأ مالك، فلم أجدهما. وأذكر أنني، وأنا صغير، كنت أحفظهما على أنهما من القنوت ليس إلا. والحق أنهما لا يمكن أن تكونا شيئاً آخر سوى هذا. ولا أظن أنهما كانتا في مصحف أبي بن كعب أو غيره كما قيل في بعض الروايات، إذ لا يعقل أن ينفرد أحد الصحابة دونهم جميعاً بإثبات سورتين لا يعرفهما سائر المسلمين، وبخاصة إذا علمنا أن جمع القرآن كان يعتمد على أن يكون هناك شاهدان من الصحابة لكل نص، علاوة على مظاهر الكتابة عند ذاك للذاكرة. فهل يعقل أن يستمر أبي أو غير أبي رغم ذلك في التمسك بظنه هو وحده بكون هذين النصين سورتين قرآنيتين ويهمل آراء سائر الصحابة؟ وهذا لو كان للرواية وجه، وهو ما لا أظنه أبداً!

وقد أورد السجستاني في كتابه: "المصاحف" رواية تقول إن أبياً اشترك في كتابة المصحف الذي تم جمعه أيام أبي بكر، إذ كان رجالاً يملؤون عليه فيكتب، كما أورد أكثر من رواية بأنه كان واحداً من اللجنة التي عينها عثمان لجمع الناس على مصحف واحدٍ إمام خشية الفتنة. ونفس الشيء نجده في "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" أثناء شرح الحديث الخاص بكتابة المصحف الأم على عهد عثمان، إذ يذكر ابن حجر أن عثمان رضي الله عنه "جمع اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، منهم أبي بن كعب". وفي "الصاحبي" لابن

فارس رواية عن هانئ تقول: "كنت عند عثمان رضى الله تعالى عنه، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلنى بكتف شاه إلى أبى بن كعب فيها "لَمْ يَتَسَنَّ" و "فَأَمْهَلِ الْكَافِرِينَ" و "لا تبديل للخلق"، قال: فدعا بالدَّوَاة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله"، ومحا "فأمهل" وكتب "فَمَهَّل"، وكتب "لَمْ يَتَسَنَّ": أَلَحَقَ فِيهَا هَاءً". فلو كانت فى مصحفه تانك السورتان لقد كان يعتقد إذن أنها قرآن فعلا، فلماذا لم يثر هذه المسألة على أعين الناس حينها وآذانهم؟ ولو كان فَعَلَ لكان قد رُويَ هذا الذى فعل. أمبا، ولم يصلنا شىء عن هذا، فمعناه أنه لم يثر الأمر وأنه لم يكن يعتقد أن هاتين السورتين من القرآن فعلا، إذ لا يَعْقَلُ أنه كان يؤمن بأنهما سورتان قرآنيتان ثم يسكت فلا يفتح إخوانه الصحابة فى مثل ذلك الموضوع الخطير: فإما أقنعهم وإما أقنعوه!

وقد ألقى أبو الحسن الأشعرى الضوء على جانب مهم فى تلك المسألة بقوله: "قد رأيت أنا مصحف أنسٍ بالبصرة عند قومٍ من ولده، فوجدته مساويا لمصحف الجماعة، وكان ولد أنسٍ يروى أنه خَطُّ أنسٍ وإملاء أبى بن كعب". أما إيراد بعض علمائنا القدامى لمثل تلك الروايات فإن دَلَّ على شىء فعلى أنهم كانوا لا يتحرجون فى أمور العلم والبحث، بل كانوا يوردون كل شىء يصلهم، عارفين أن العقل الإسلامى قادر على تمحيصه وإنزاله منزله الصحيح. لقد كانوا فى الواقع أوفياء لمنهج الحياد فكانوا يثبتون كل ما يقع لهم دون خشية.

ومع هذا يرى بعض أن هذين النصين كانا جزءا من القرآن وأنها مما نُسخ لفظا وحكما، وإلا فكيف يستجيز أبى كتابتهما فى المصحف؟ لكن كيف يقال إن النصين قد نُسخَا لفظا، وهما ما زالا موجودين بألفاظهما؟ إن هذا كمن يقول: "سعيد غائبٌ حاضراً"، أو "حتى ميتٌ" مثلاً، وهو ما لا يجوز فى شرعة العقل. ثم ما معنى أنها نُسخَتا حكما؟ إنها لا

تتعرضان لمسألة تشريعية حتى يمكن أن يقال إن الحكم التشريعي الذي كان فيهما قد تغير. ومعروف أنه لا نسخ في مسائل الاعتقادات والتاريخ والأدعية. والسورتان المدَّعَتان من الأدعية كما هو واضح. وعلى أية حال فما زلنا ندعو بهذين الدَّعائين، ولم يقل أحد إن الدَّعاء بهما أصبح لا غيا، فما القول إذن؟ وثانيا: كيف يقال إنهما قد نُسخَا، ومع ذلك يستمرُّ أُبَيٌّ في إثباتهما بمصحفه؟ والعجيب أن يستدل بعض العلماء على قرآنيتهما من وجودهما في مصحف ذلك الصحابي الكريم، وكان الأحرى أن يتعجبوا من بقاءهما فيه رغم ذلك بدلا من استدلالهم بهذا البقاء على أنهما من القرآن! وثالثا: هل من المعقول أن تُنسخ السورتان المدَّعَتان ولا يدور بين الصحابة أخذ ورد حول إبقاء أُبَيٍّ عليهما في نسخته، بل يمرُّ الأمر مرور الكرام، وكأن أمرهما من الهوان بمكان؟ ألا إن ذلك لأمرٌ غريبٌ وبعيدٌ جدًّا بعيد! ورابعا: إذا كان هذان النصان في البداية قرآنا، فيا ترى ما حكمهما الآن؟ ألا يزالان قرآنا؟ إذن فهما لم ينسخا؟ أم لم يعودا قرآنا؟ فكيف ننظر إليهما الآن إذن من ناحية الإعجاز مثلا؟ أما فتنا معجزين رغم زوال قرآنيتهما عنهما؟ كيف، ولا مُعْجِز من الكلام إلا القرآن؟ أم نقول إنهما قد زالت عنهما تلك الإعجازية؟ فكيف؟ نعم كيف يسع المسلم الزعمُ بأن كلام الله قد تحول وزالت عنه طبيعته التي كانت له؟ أم نقول إنهما لم يبقيا كلاما من كلام الله؟ ألا إن ذلك لخطيرٌ جدًّا خطير! وخامسا: أما تساؤل بعض: كيف يستجيز سيدنا أُبَيٌّ وغيره من الصحابة كتابة هذين النصين في المصحف، وهما ليسا من القرآن؟ فيقابله تساؤل لا يقل بل يزيد عنه أهمية، ألا وهو: وكيف يستجيز سائر الصحابة عدم إثباتهما في مصاحفهم وهما من القرآن؟ وبهذا نعود إلى ما قلَّته آنفا من أنه ليس من المقبول منطقا ولا عقلا ولا شرعا أن نأخذ برأى أُبَيِّ بن كعب وحده ونهمل آراء الصحابة أجمعين، وعلى رأسهم اللجنتان اللتان كُلِّفَتَا في عهد أُبَيِّ بكر وعثمان بجمع القرآن! وهذا لو كان ثمة وجه لتلك الرواية القائلة بأن

أُبيّا كان يشبهها في مصحفه، وهو ما قلت إنني غير مقتنع به. وقد وجدت ابن قتيبة يذهب إلى ما ذهبت إليه هنا، إذ عبر عن رأيه في "تأويل مشكل القرآن" قائلا: "لا نقول إن أُبيّا رحمة الله عليه أصاب وحده، وأخطأ المهاجرون والأنصار كلهم رضوان الله عليهم، ولكن نقول: ذهب أُبيُّ في دعاء القنوت إلى أنه من القرآن لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به في الصلاة دعاء دائما، فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه ومخالفة الصحابة".

واضح أن النصين لا يخرجان عن أن يكونا قنوتا كان عمر أو عليّ يقنت به بعد القيام من الركوع، أو عقب الانتهاء من قراءة السورة التي بعد الفاتحة وقبل أن يركع. ومعروف أن المسلمين لا يقتنون في صلاتهم بالقرآن! وحتى لو ضَرَبْنَا عن كل ما سبق صَفْحًا وقلنا إن الرواية صحيحة وإن أُبيّا كان رغم ذلك يعتقد أن هذين النصين سورتان قرآنيتان فعلا على عكس ما كان الصحابة جميعا يؤمنون، فإن هذا لا يعدو أن يكون اجتهادا منه لا يلزم غيره، ومن ثم لا يمكن أن نأخذ بما لديه ونهمل موقف الصحابة على بكرة أبيهم، إذ ليس هذا من المنهج العلمي ولا المنطق العقلي في شيء.

وقد قرأت في "المصنّف" لابن أبي شيبة تحت عنوان "مَا يَدْعُو بِهِ فِي قُنُوتِ الْفَجْرِ" عدة روايات تدل على أن هذين النصين ليسا إلا قنوتا، ومنها الروايات الثلاث التالية التي تغنيها عن ذكر سائرهما: "جَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ قَالَ: جَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَطَاءٍ عَنْ عُبيدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: صَلَّيْتُ خَلْفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْعَدَاةَ فَقَالَ فِي قُنُوتِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغِينُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْحَيَرَ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، وَنَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكَفَّارِ مُلْحِقٌ"، "حَدَّثَنَا وَكِيعٌ قَالَ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سُوَيْدِ الْكَاهِلِيِّ أَنَّ عَلِيًّا قَنَتَ فِي الْفَجْرِ بِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغِينُكَ

وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ، إِنَّ عَذَابَكَ الْجِدِّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ"، "جَدَّثَنَا هُشَيْمٌ قَالَ: أَخْبَرَنَا جُصَيْنٌ قَالَ: صَلَّيْتُ الْغَدَاةَ ذَاتَ يَوْمٍ، وَصَلَّى خَلْفِي عُثْمَانُ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ: فَقَنْتُ فِي صَبَاحَةِ الصُّبْحِ، قَالَ: فَلَمَّا قَضَيْتُ صَلَاتِي قَالَ لِي: يَا قُلْتُ فِي قُنُوتِكَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: ذَكَرْتُ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ وَنَسْتَغْفِرُكَ، وَنُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ. اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، نَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ. إِنَّ عَذَابَكَ الْجِدِّ بِالْكَفَّارِ مُلْحَقٌ. فَقَالَ عُثْمَانُ: كَذَا كَانَ يَصْنَعُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ."

كما قرأت في كتاب "التدوين في أخبار قزوين" للإمام الرافعي أن هذين النصين قنوت من القنوت: "محمد بن أحمد بن جابارة أبو سليمان الجاباري القزويني سمع أبا طلحة الخطيب في "الطوالات" لأبي الحسن القطان بسماع الخطيب منه: أنبأ أبو محمد الحارث بن محمد بن أبي أسامة: ثنا يزيد بن هارون: أنبأ أبان بن أبي عياش قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الكلام في القنوت، فقال: اللهم إنا نستعينك ونستغفرُكَ، ونُثْنِي عَلَيْكَ الْخَيْرَ وَلَا نَكْفُرُكَ، وَنُؤْمِنُ بِكَ وَنَخْلَعُ وَنَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ، اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَلَكَ نُصَلِّي وَنَسْجُدُ، وَإِلَيْكَ نَسْعَى وَنَحْفِدُ، وَنَرْجُو رَحْمَتَكَ وَنَخْشَى عَذَابَكَ الْجِدِّ، إِنَّ عَذَابَكَ بِالْكَافِرِينَ مُلْحَقٌ. اللَّهُمَّ عَذِبِ الْكَفْرَةَ، وَأَلْقِ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَخَالَفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ. اللَّهُمَّ عَذِبِ الْكَفْرَةَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، وَيَكْذِبُونَ رِسْلَكَ وَيَجْحَدُونَ بآيَاتِكَ، وَيَجْعَلُونَ مَعَكَ إِلَهًا لَا إِلَهَ غَيْرُكَ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، وَأَصْلَحْهُمْ وَاسْتَصْلِحْهُمْ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَأَصْلَحْ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَاجْعَلْ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَالْحِكْمَةَ وَثَبِّتْهُمْ عَلَى مِلَّةِ رَسُولِكَ، وَأَوْزِعْهُمْ أَنْ

يشكروا نعمتك التى أنعمت عليهم، وأن يوفوا بعهدك الذى عاهدتهم عليه، وانصرهم على عدوهم وعدوك إله الحق. قال أنس: والله إن أنزلنا إلا من السماء".

وفى الإصدار العاشر من "تيسير الوصول إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم" فى موقع "الدرر السنية" بحث أيضا عن هذين النصين فوجدت أنهما، كما قلت وكما جاء فى الكتابين السابقين، لا يزيدان عن أن يكونا قنوتا. وهذا حديث من الأحاديث التى عثرت عليها فى هذا الصدد، وكلها تجرى على نفس المنوال: "أن عمر رضى الله عنه قنت بعد الركوع فقال: اللهم اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، وألف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، وانصرهم على عدوك وعدوهم. اللهم العن كفره أهل الكتاب، الذين يصدون عن سبيلك، ويكذبون رسلك، ويقاتلون أولياءك. اللهم خالف بين كلمتهم، وزلزل أقدامهم، وأنزل بهم بأسك الذى لا ترده عن القوم المجرمين. بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونثنى عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك. بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم إياك نعبد، ولك نصلى ونسجد، ولك نسعى ونحفد، ونخشى عذابك الجدد، ونرجو رحمتك، إن عذابك بالكافرين ملحق".

والآن نأتى إلى التحليل الأسلوبى رغم أن المنطق واتجاه الأحداث وتحليل الروايات يكفى تماما فى الحكم باستبعاد انتهاء هذين النصين للقرآن المجيد دون نقض أو إبرام: وأول شىء نقوله فى هذا الصدد هو أن كلمة "اللهم" التى افتتحت بها السورة الأولى المزعومة قد وردت فى القرآن خمس مرات لم تأت أى منها فى بداية أية سورة بتاتا. ثانى شىء: لم يحدث أن ابتدأت أية سورة قرآنية بمناداة الله، وإنما بمناداة البشر: "يا أيها الناس"، "يا أيها الذين آمنوا"، "يا أيها المزمل"، "يا أيها المدثر".

ثالث شىء: لم تأت كلمة "اللهم" في أية سورة إلا وسبقها كلمة تدل على "القول" لفظاً أو معنى. وهذه هي المرات الخمس المذكورة نسوقها أمام القارئ ليكون على بينة خالصة مما نقول واطمئنان تام إليه: "قُلِ: اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مِمَّنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، "قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"، "وَإِذْ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"، "دَعَوْاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"، "قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ".

رابع شىء: لم يرد بعد النداء بكلمة "اللهم" في القرآن أى ضمير، فضلاً عن أن يكون هذا الضمير منفصلاً كـ "إياك" (كما في السورة الأولى المزعومة: "اللهم إياك نعبد") أو "إن" الناسخة (كما في السورة المزعومة الأخرى: "اللهم إنا نستعينك ونستغفرك"). خامساً: لا يوجد في القرآن كله الفعل: "نُصَلَّى" أبداً، بل الذى فيه هو "صَلَّى"، "تُصَلَّى"، "يُصَلُّوا"، "يُصَلُّونَ"، "يُصَلِّى"، "صَلَّ"، "صَلُّوا".

سادساً: لم يحدث في القرآن أن تَقَدَّمَ حرفُ الجر على الفعل الدال على الصلاة كما في سورة "الحفد"، بل المشاهد أنه إذا كان هناك حرف جر فإنه يأتى بعد الفعل، أو تُذَكَّر الصلاة مطلقة دون حرف جر أصلاً. وهذه هي الشواهد القرآنية: "فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى"، "وذكر أسبم ربه فصلَّى"، "أرأيت الذى ينهى * عبداً إذا صلى"، "ولا تصلَّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره"، "ولتأت طائفةً أخرى لم يصلُّوا فليصلُّوا معك"، "إن الله وملائكته يصلُّون على النبىِّ يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليماً"،

"هو الذى يَصَلِّى عليكم وملائكته ليخْرِجَكُم من النور إلى الظلمات"، "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم"، "إنا أعطيناك الكوثر * فصلّ لربك وانحر".

سابعاً: ليس فى القرآن الفعل: "نَسَعَى" أبداً، بل الذى فيه هو "سَيَّعَى"، "سَيَّعُوا"، "تَسَعَى"، "تَسْعُونَ"، "يسْعُونَ". ثامناً: لم يأت الفعل: "سعى" فى القرآن (فى أى زمن أو فى أية صيغة) مسبوقاً بحرف جر ومجروره كما هو الحال هنا: "وإليك نسعى ونحفد". كما أن حرف الجر الغالب مجيئه معه هو "فى"، وليس "إلى" الموجود فى السورة الموهومة التى بين أيدينا. تاسعاً: ثم إنه فى المرة اليتيمة التى جاء بعده الحرف: "إلى" لم يدخل هذا الحرف على اسم الله أو ضميره، بل على كلمة "الذِّكْر": "فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ الله وذَرُّوا البيع". وكما تلاحظ فالفعل هنا فعلٌ أمرٌ لا مضارعٌ كما هو فى الجملة التى معنا. عاشراً: غالباً ما يكون السعى فى القرآن فى الخراب والفساد والمعاجزة.

حادى عشر: ولو ذهبنا نفتش فى القرآن من أوله إلى آخره فلن نعثر على الفعل: "يحفد" فى أى زمن من الأزمان أو أية صيغة من الصيغ. بل لا وجود لمادة "ح ف د" فيه على الإطلاق، اللهم إلا كلمة "حَفَّدة"، وهم أبناء الأبناء، وهذا شىء مختلف عما نحن فيه. أى أن مجيئ ذلك الفعل فى سورة "الحفد" المدعاة هو أمر شاذ كسائر ما يتعلق بتلك السورة حسبما تبين هذه الدراسة.

ثانى عشر: رغم ورود الفعل "رجا- يرجو" فى القرآن ٢٢ مرة لم يأت بتةً مضارعاً مسنداً إلى ضمير المتكلمين: "نرجو" كما هو الحال هنا. ثالث عشر: لم تقع كلمة "رحمتك" فى المرات الثلاث التى تكررت فيها فى القرآن مفعولاً به مباشراً قط كما هو وَضَعُها فى سورة "الحفد" المزعومة، بل كانت فى كل تلك المرات مجرورة بحرف جر. كما أنها لم تقترن فى أى من تلك المرات بفعل الرجاء على أى وضع من الأوضاع: "قال: رب، اغفر لى ولأخى

وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ"، "وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"، "وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ".

رابع عشر: لم يأت الفعل: "نخشى" في القرآن سوى مرة واحدة: "يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة"، وقد أتى على لسان المنافقين المذبذبين لا على لسان المؤمنين الموقنين. كما أنه لم يقع على العذاب، بل على إصابتهم بدائرة، فضلا عن أن مفعوله في الآية القرآنية مصدر مؤول بالصريح: "أن تصيبنا دائرة" لا مصدر صريح: "عذابك" كما هو الحال في عبارة ما يسمى بـ "سورة الحفد". كذلك لم يحدث أن وقع الفعل: "خَشِيَ - يَخْشَى" في أية صورة منه على "العذاب" في كتاب الله بتاتا

خامس عشر: مع أن كلمة "عذاب" قد تكررت في القرآن المجيد بضع مئات من المرات: نكرةً ومعروفةً بـ "أل" ومضافةً لم يتصادف أن جاءت مضافةً إلى "كاف الخطاب" قط كما هو وَضَعُهَا هنا. سادس عشر: لم يحدث البتة أن اقترن الرجاء والخشية في كتاب الله كما هو الحال في قول المبتهلين في السورة الموهومة التي بين أيدينا: "نرجو رحمتك، ونخشى عذابك". سابع عشر: لم يأت في القرآن متعلّق لخبر "إنّ" أو "أنّ" الداخلة على كلمة "عذاب"، فضلا عن أن يكون سابقا على ذلك الخبر كما هو الحال في الجملة الأخيرة من السورة الموهومة التي نحن بصددّها هنا: "إنّ عذابك بالكفار ملحق". هذا، وإذا كانت كلمة "عذاب" قد وردت خبرا لـ "إنّ"، و "أنّ" و "لكنّ" في الشواهد التالية: "ولأنّ كفرتم إنّ عذابي لشديد"، "وأنّ عذابي هو العذاب الأليم"، "إنّ عذاب ربك كان محذورا"، "إنّ عذابها كان غراما"، "ذلكم فذوقوه وأنّ للكافرين عذاب النار"، "إنّا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذّب وتولّى"، "ولكن عذاب الله شديد"، "إنّ عذاب ربك لواقع"، "إنّ

عذاب ربهم غير مأمون"، فلن تجد للخبر في أى منها متعلقا أصلا، فضلا عن أن يكون متعلق الخبر متقدما عليه كما هو الحال هنا.

ثامن عشر: وأما بالنسبة لاسم المفعول "مُلْحِق" الواقع خبرا لـ "إن" في جملتنا الحالية فلا وجود له في القرآن في أى موضع منه. كذلك لم يحدث أن وقع فعل من أفعال "الإلحاق" في القرآن على العذاب قط، بل على ذرية المؤمنين أو على المؤمنين أو على الشركاء الذين كان الكفار يعبدونهم مع الله، أما على العذاب فلا: "قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ"، "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ"، "تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"، "رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ".

تاسع عشر: جاء الفعل: "استعان" في القرآن بتصرفاته المختلفة أربع مرات متعديا إلى مفعوله الظاهر بـ "باء" الجر: "واستعينوا بالصبر والصلاة"، "استعينوا بالصبر والصلاة"، "استعينوا بالله واصبروا"، ولم يحدث أن جاء مفعوله ضميرا إلا مرة واحدة تقدم فيها المفعول على الفعل، ومن ثم كان ضميرا منفصلا لا متصلا (هكذا: "إياك نعبد وإياك نستعين")، على عكس الوضع تماما من هذا وذاك في الجملة الأولى من السورة المزعومة الثانية: (هكذا: "اللهم إنا نستعينك").

عشرين: لم يتفق أن اقترنت الاستعانة بالاستغفار في القرآن قط كما هو الأمر في الجملة التي نحن أمامها: "نستعينك ونستغفرك". حاديا وعشرين: لم يستعمل الفعل: "استغفر" في كتاب الله الكريم مضارعا مسندا إلى ضمير جماعة المتكلمين بتاتا أو جاء مفعوله "كاف خطاب" قط كما في الجملة الحالية: "نستغفرك". ثانيا وعشرين: برغم ورود كلمة "الحمد" واشتقاقاتها في القرآن نحو سبعين مرة فإن كلمة "الثناء" المقتربة منها في المعنى إلى حد بعيد

والمشتق منها الفعل: "نُثْنِي" في الجملة الثالثة من سورة "الخلع" التي نحن بصدددها (وهي: "وَنُثْنِي عَلَيْكَ وَلَا نَكْفُرُ")، هذه الكلمة غائبة تماما عن كتاب الله هي وكل مشتقاتها.

ثالثا وعشرين: بالنسبة لجملة "نَكْفُرُ" ورد الفعل المضارع: "يَكْفُرُ" في القرآن الكريم بتصريفات مختلفة ما يقرب من ستين مرة، ورغم هذا لم يحدث أن أُسْنِدَ هذا الفعل إلى ضمير جماعة المتكلمين في أية مرة منها. كما لم يحدث أن توصَّلَ ذلك الفعل إلى مفعوله مباشرة دون "باء الجر" كما هو الحال هنا، اللهم إلا مرة واحدة أتى فيها مبنيًا للمجهول ووقع على ضمير الغائب لا المخاطب وكان ذلك الضمير عائدا على عمل الإنسان لا على الله سبحانه، وهو ما يختلف فيه مع الجملة التي نحن بصدددها اختلافا تاما. وهذا هو الشاهد القرآني اليتيم: "وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يَكْفُرُوهُ".

رابعا وعشرين: ليس في القرآن كله كلمة "خَلَعَ" التي تدور عليها السورة المدعاة وَعُنُونَتْ بها، بل ليس فيه من ذات المادة إلا فعل الأمر: "اخلع": "فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طُوًى"، وهو خطاب من الله لواحد من البشر هو موسى عليه السلام، وليس خطابا من البشر له عز وجل كما في الجملة التي يدور الكلام عليها حاليا والتي ورد فيها الفعل مضارعا لا أميرا مع ذلك. كما أن الخلع في الآية القرآنية حقيقي، بخلافه في آية السورة المزعومة، إذ معناه فيها مجازي كما هو واضح.

خامسا وعشرين: لم يرد الفعل المضارع: "نترك" في كتاب الله سوى مرة واحدة وقع فيها مفعوله اسما موصولا غير عاقل عائدا على الأصنام التي يعبدونها آباء المتكلمين الكافرين: "قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا" لا اسما موصولا عاقلا عائدا على من يُفَجِّرُ الله سبحانه كما هو الوضع في الجملة التي بين أيدينا: "ونخلع ونترك من يفجرُك".

سادسا وعشرين: على الرغم من مجيء مشتقات مادة "ت ر ك" أربعين مرة ونيفًا في القرآن المجيد لم يحدث أن أتى الاسم الموصول: "مَنْ" مفعولا لأى من هذه المشتقات كما هو الوضع فى الجملة التى معنا الآن: "ونترك من يفجرك". سابعاً وعشرين: لا يوجد الفعل: "نَفْجِر" (مضارعاً مسنداً إلى جماعة المتكلمين وبمعنى "الفُجُور" لا التفجير) فى القرآن المجيد أبداً. كما أن الفعل: "يفجِر" (المضارع المسند لضمير الغائب المفرد المذكر) الذى ورد فيه مرة واحدة لا غير لم يذكّر معه مفعول به، فضلاً عن أن يكون المفعول به مفعولاً مباشراً: "بل يريد الإنسان ليفجّر أمامه"، بله أن يكون ذلك الضمير عائداً على الله جل وعلا كما هو الحال معنا الآن.

كذلك لى دراسة كاملة عن سورة "النورين" التى يدعى فريق من الشيعة أنها كانت فى القرآن ثم حذفها عثمان وأنصاره لإزالة الدليل على أحقية على وذريته فى تولى خلافة المسلمين إلى الأبد لأن السورة المزعومة تنص على ذلك. والدراسة المشار إليها هى "سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية أسلوبية". وقد تتبع كل صغيرة وكبيرة فى تلك السورة من صيغ ومفردات وتعابير وتراكيب وصور وما إلى ذلك فألفت أنها تختلف عن أسلوب القرآن المجيد وروحه ومعانيه اختلافاً تاماً، فأنتهيت إلى أنها لا يمكن أن تكون منه وأن بعضاً من المنتسبين إلى الإسلام قد اخترعوها تصوراً منهم أنها تساعد فى إثبات وجهة نظرهم فى إثبات وراثة الخلافة بالطريقة التى يريدون.

فعلى سبيل المثال لا يوجد فى القرآن تشية لكلمة "النور" أبداً كما فى عنوان تلك السورة المزعومة وفى مواضع بداخلها، فضلاً عن أن تلك الكلمة لم يوصف بها فى القرآن الكريم أحد من البشر على عكس ما فى تلك السورة، إذ كان المقصود بـ"النورين" النبى عليه السلام

وعلى رضى الله عنه. كما يخلو القرآن تماما من الحديث عن إنزال أى شخص من السماء بخلاف ما تقوله تلك السورة من أن الله أنزل هذين النورين منها. كذلك تقول السورة المدعاة عن الذين كفروا: "والذين كفروا بعدما آمنوا... يقذفون فى الجحيم"، وليس فى القرآن أى قذف فى الجحيم، بل القذف يكون للشياطين حين يسترقون السمع، أو للحق على الباطل، أو للرعب فى قلوب الذين كفروا... وهكذا. وإذا كانت إحدى العبارات التى وردت فى تلك السورة تقول: "وَعَصَوْا لِوَصِيِّ الرِّسُولِ" بتعدية الفعل: "عصى" باللام فإن هذا تركيب لا يعرفه القرآن المجيد أبدا، إذ يأتى فيه ذلك الفعل دائما متعديا لمفعوله من غير حرف جر. كما أن كلمة "وَصِيِّ" لم تأت قط فى كتاب الله. وبالمثل لم يحدث أن أتى اسم الجلالة فى القرآن اسما لـ "إن" المكسورة الهمزة متلوا بالاسم الموصول على عكس العبارة التالية التى وردت فى السورة المزعومة: "إن الله الذى نور السماوات والأرض بما شاء..."، علاوة على أن الفعل: "نور" لا وجود له فى أى موضع من الكتاب الكريم.

وبالنسبة لقولهم فى السورة المدعاة: "قد مكر الذين من قبلهم برسلمهم، فأخذتهم بمكرهم. إن أخذى شديد أليم" حيث تذكر العبارة الممكور بهم، وهم الرسل، نجد أنها جرت على ما لم يجر عليه القرآن، الذى لا يذكر الممكور به فى أى موضع منه، بل يكتفى بذكر "المكر والماكرين" فقط. وإذا كانت الآية المذكورة تؤكد أن الله يأخذ الماكرين أخذا شديدا أليما، وكان المقصود تهديد من لم يؤمن بحق على كرم الله وجهه هو وذريته فى الخلافة، فهنا هم أولاء كثير جدا من المسلمين لا يشاطرون الشيعة هذا الاعتقاد، ولم يأخذهم الله لا أخذا شديدا أليما ولا أخذا غير شديد ولا أليم.

كما أن قولهم فى تلك السورة: "إن الله قد أهلك عادًا وثمودًا بما كسبوا وجعلهم لكم تذكرة فلا تتقون" فيه إجحاف بالمسلمين الذين لا يشاركون الشيعة الاعتقاد فى وصاية عليّ

رضى الله عنه وإيمانهم بأن الحكم في الإسلام ينبغى أن يكون شورى بين المسلمين، إذ لا تصح المقارنة بين هؤلاء المسلمين من جهة وبين عاد وشمود الكافرتين من جهة أخرى. لقد خدم أولئك المسلمون الإسلام، أما عاد وشمود فقد كفرتا بالله وبرسله وباليوم الآخر. ثم إن "شمود" لم ترد قط في القرآن منوَّنة على عكسها هنا. أيضا نرى الفعل: "طغى" في العبارة التالية من السورة المصنوعة: "وفرعون بما طغا على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين" قد أخذ مفعولا وتَعَدَّى إليه بـ "عَلَى"، وهو ما لا يعرفه القرآن الكريم، الذى ورد فيه هذا الفعل في جميع المواضع دون ذكر للمطغوّ عليه. كما أن الفعل: "أغرق" لا يَسْتَد في القرآن أبداً إلى تاء المتكلم بل إلى "نا" الفاعلين دائماً: "أغرقناهم" ... وهكذا إلى آخر السورة، التى لا تزيد عن صفحتين، ورغم ذلك استطعنا أن نرصد في عشرات الصفحات بعض ما اختلفت فيه من ناحية الأسلوب والمضمون مع القرآن الكريم. وهو ما يدل على أنها مصنوعة من نسيج غير نسيج القرآن، ولا يصح أبداً القول بقرآنيّتها.

وقد استغرق نزول القرآن على النبی محمد ثلاثة وعشرين عاماً، إذ كان ينزل منجماً، أى مفزقاً: فسورة صغيرة كاملة تنزل يوماً، وعدد من آيات سورة كبيرة ينزل يوماً آخر... وهكذا. ذلك أن الوحي كان يتابع أحوال المسلمين أفراداً وأمة فينزل منه ما تقتضى ظروف هذا الشخص أو ذاك أو تستدعيه حال الأمة كلها كما هو الحال في الحروب والمعاهدات والتشريعات وما إلى هذا. فالآيات ١٠٥ - ١١٣ من سورة "النساء" مثلاً نزلت تعقيباً على سرقة بعض المنتسبين إلى الإسلام لسلّاح شخص ما ومحاولتهم إلصاق تلك التهمة ببعض اليهود، وانخداع النبی بهم وتصديقه لأقوابيلهم ونزول الوحي من ثم لفضحهم وتبرئة اليهود المتّهمين ظلماً وميناً. والآيات ٢٢٢ - ٢٤٢ من سورة "البقرة" نزلت مبينةً لأحكام الحيض والإيلاء والطلاق والرضاعة والخُطبة والعِدَّة وما أشبه. والآية ٢٩ من سورة

"التوبة" خاصة بتأمر الروم على حدود الإسلام الشمالية في فلسطين والشام ووجوب مقاتلة المسلمين لهم درءا لخطرهم وكسرا لأنفهم ... وهلم جرا.

ولا بد لكى يفهم الإنسان القرآن من الرجوع إلى أسباب النزول، أى الظروف والأوضاع والملابسات التى أحاطت بنزول النص أو كانت علة فيه. وبغير هذا يصعب جدا فى بعض الأحيان بل قد يستحيل فهم النص القرآنى ومعرفة اتجاهه ومغزاه، وهذا إن لم يضل الإنسان الطريق ضلالا مبينا، وبخاصة أن الأسلوب القرآنى فى كثير من الأحيان موجز ويخلو عادة من التواريخ وأسماء الأعلام، وكثيرا ما يكتفى بالإيحاء اكتفاء. وكان الصحابة فى العادة لا يحتاجون ما نحتاجه نحن الآن، إذ كانوا حاضرين نزول النص ويعرفون موجبات نزوله والظروف التى واكبت هذا النزول. ذلك أنه إذا لم يعرف القارئ مثلا أن الخمر لم تحرم دفعة واحدة بل على ثلاث دفعات: فى الدفعة الأولى هيئت النفوس فى الدفعة الأولى إلى أن الخمر، وإن كان فيها بعض المنافع فى نظر بعض الناس، ففيها من الإثم أكبر مما فيها من النفع. ويتضح من آية سورة "البقرة" التى تعرضت لذلك الأمر أن بعض الصحابة كانوا غير مرتاحين إليها ويستغربون أن يستمر غيرهم فى شربها بعد تمكن الإسلام فى النفوس، فسألوا النبى عن أمرها: "يسألونك عن الخمر والميسر. قل: فيهما إثم كبيرٌ ومنافع للناس. وإثمهما أكبر من نفعهما". أما فى المرة الثانية فقد ذكرت سورة "النساء" ما حصل، إذ كان هناك ذات مرة مُصَلٌّ لم يفق من سُخَّار الشراب، فلم يحسن قراءة القرآن بل قَلَبَ المعنى رأسا على عقب، فجاء النص الثانى ونهى المسلمين عن الاقتراب من الصلاة وهم سكارى حتى يعلموا ما يتلونه فى الصلاة من قرآن. أى أن الخمر لم تحرم هذه المرة أيضا، إلا أنه كان من الواضح كراهية الإسلام لها وتطلعه إلى تحريمها على أتباعه تحريما قاطعا لأنه ما دام محرما عليهم الاقتراب من الصلاة وهم سكارى فمعنى ذلك أنهم لا يصح

أبداً أن يشربوها نهاراً، إذ الإفاقة من السكر تستلزم في العادة وقتاً طويلاً لا تقوم به الفترة الزمنية الفاصلة بين الصلاة وأختها خلال النهار، ومن ثم لم يكن لديهم وقت يشربون فيه الخمر ويسكرون سوى الوقت الذى بين العشاء والفجر لطوله وتراخيه: "يا أيها الذين آمنوا، لا تَقْرِئُوا الصلاةَ وأنتم سُيْكَارَى حتى تَعْلَمُوا ما تقولون". ثم جاءت الخطوة الثالثة والأخيرة، فحَرَّمَ الإسلام الخمر تحريماً باتاً لا مثنوية فيه. وكان عمر في مقدمة المتطلعين لأن ينزل نص قاطع في بيان حكم الخمر. فكان أن نزل قوله تعالى في سورة "المائدة": "إنما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجيسٌ من عمل الشيطان، فاجتنبوه لعلمكم تُفْلِحُونَ". ولولا معرفة أسباب نزول هذه النصوص القرآنية الثلاثة ما استطعنا فهم القضية ولظننا في القرآن اضطراباً وتناقضاً في موقفه من الخمر والسكر.

ولعل الحديث التالى يلخص لنا خير تلخيص ما حدث منذ سئل الرسول عن الخمر إلى أن حرمت تحريماً قاطعاً، بغض النظر عن مدى صحة الحديث أو لا: "أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَمْدَانَ الْعَدْلُ قَالَ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: حَدَّثَنَا خَلْفُ بْنُ الْوَلِيدِ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي "البَقَرَةِ": "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"، فَدَعَى عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا مِنَ الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي "النِّسَاءِ": "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِئُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُيْكَارَى"، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ يَنَادِي: لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكَرَانُ. فَدَعَى عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ هَذِهِ الْآيَةُ: "إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ"، فَدَعَى عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ: "فَهَلْ أَنْتُمْ مُتَّهِنُونَ؟" قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا".

وفى قوله سبحانه من سورة "البقرة": "إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حَجَّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطَّوَّفَ بهما" نلاحظ النص على أن الطواف بين الصفا والمروة هو من شعائر الحج، فكيف يقال بعده مباشرة إنه لا جناح على الحاج والمعتمر من الطواف بينهما، وكان المنتظر أن يقال إن الطواف بينهما فرض لازم لا إنه لا جناح فيه. بيد أن هذا ليس هو المقصود، بل الكلام موجه إلى بعض العرب الذين دخلوا الإسلام وفارقوا الوثنية وأصنامها فكانوا يتخرجون أعنف التحرج من الاقتراب من أى شىء له صلة بذلك الماضى الوثنى. ولما كان هناك صنمان فوق الصفا والمروة فى الجاهلية يطوفون بهما فقد ارتبط هذان التلان فى أذهانهم بالأصنام، فظنوا أنه يحرم الطواف بهما. فنزلت الآية ترد على هذا التحرج مبينة أن المشكلة ليست فى الصفا والمروة ذاتهما بل فى الصنمين اللذين كانا منصوبين عليهما. وما دام القلب خاليا من الوثنية وكانت الصفا والمروة قد تطهرتا من الأصنام فلا حرج من ثم فى التطوف بهما. ومن ثم فعلى المسلم أن يطوف بهما تأدية للواجب غير متحرج. فهذا تفسير الآية على وجهها الصحيح، وهو تفسير لا يتضح دون أن يلم المفسر بأسباب النزول. لقد كان السؤال هو: هل يأخذ الطواف بين الصفا والمروة حكم الطواف بينهما فى الجاهلية أيام وجود صنمين عليهما؟ وليس: هل الطواف بينهما لازم أو لا؟

ومع ذلك نرى من ينادى باستقبال النص القرآنى استقبالا مباشرا دون الاستعانة بشىء من خارجه، وكأن النص عالم مغلق على نفسه لا ينبغى التطلع إلى أى شىء غيره من أجل فهمه. وهو اتجاه خطر إن لم يكن أصحابه ذوى مكر سىء يريدون خلط الأوراق وإشاعة الاضطراب فى فهم الكتاب الكريم. إن النص القرآنى، بل وكل نص أدبى، لا يمكن فهمه دائما فهما مباشرا، بل لا بد من استخدام الأدوات التى تعين على فهمه وفض مغاليقه والدخول إلى عالمه والوصول إلى أركانه وخبائاه. ومن ثم كان لا بد، لمن يريد فهم

كتاب الله، من الاستعانة باللغة والبلاغة والحديث النبوى الشريف وأسباب النزول والنصوص الأدبية والدراسات النقدية والظروف التاريخية والاجتماعية التى أحاطت بتكوّن النص وفهم الطبيعة البشرية، وقبل هذا كله الرجوع إلى النصوص القرآنية الأخرى للقياس عليها فى المعانى والأساليب وما إلى ذلك مما من شأنه معاونة القارئ، وبدونه تتداخل الخطوط وتضطرب الأمور.

ومن هنا رأينا من يفسر النحل، فى قوله سبحانه من السورة المسماة باسمها: "يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ"، بأنها بنو هاشم، مما حدا بالشاعر العباسى بشّار بن بُرْد إلى السخرية من القائلين بذلك داعيا عليهم أن يذيقهم الله مما يخرج من بطون بنى هاشم. وبالمثل هناك من يفسرون "الْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ" فى قوله تعالى من سورة "النساء" عن وفد يهود الذى ذهب إلى قريش فى مكة يحرضهم على المسلمين مؤكدا لهم أن أوثانهم أفضل من توحيد محمد: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا؟" على أنها أبو بكر وعمر، وكذلك من يقول إن امرأتى نوح ولوط فى قوله عز شأنه من سورة "التحریم": "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ. كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا، فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ: ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ" هما عائشة وحفصة، ومن يقول إن المؤمنين المقيمين الصلاة المؤتئين الزكاة فى قوله جل جلاله من سورة "المائدة": "إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ" هم على كرم الله وجهه لا كل المسلمين رغم أن السياقات فى النصوص الثلاثة بعيدة تماما عن تلك التفاسير العجيبة.

ويهتم المسلمون بكتاب ربهم أشد الاهتمام منذ نزل الوحي الأول على قلب نبيهم، فتراهم يحفظونه غيبا عن ظهر قلب ويحفظونه أيضا بالكتابة على الورق. وليس هذا مقصورا على علماء دينهم، بل يشترك في ذلك كل أطراف الأمة وطبقاتها. وهناك المكاتب الخاصة بتحفيظ القرآن الكريم، وهي منتشرة في كل أرجاء العالم التي يوجد فيها مسلمون بما فيه الغرب. وترسل الأسر أولادها وبناتها إلى هذه المكاتب ليحفظوا القرآن، وتعد حفظه بركة على الأولاد وعلى البيت بأسره. وهذه ظاهرة فريدة، إذ لا يحظى أى كتاب مقدس آخر بمثل هذا الاهتمام ولا بنصفه ولا بربعه ولا بعشره ولا بعشر معشاره. على أن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل هناك ألوف مؤلفة من المسلمين الذين لا يعرفون من العربية شيئا، ورغم ذلك نجدهم يحفظون القرآن ولا يخرمون منه حرفا، بل ويقرأونه مجودا دون أن يفهموا معناه. وهذا من أعجب العجب، وقد شاهدته بنفسى مرات، ودهشت له أشد الدهش، وعددته من بركات كتاب الله. وهذا الحفظ المستمر رأسيا وأفقيا لكتاب الله على مدى التاريخ هو الذى حفظه من الضياع أو التبديل أو العبث أو السهو أو النسيان لأن ذواكر ملايين المسلمين صغارا وكبارا تمنع وقوع شىء من هذا. فإن نسى هذا فهناك ملايين غيره تذكر ما نسيه، وإن أخطأ هذا فهناك ملايين غيره تصوب خطأه، وإن عبث هذا هبت الأمة كالإعصار تردعه وتفضحه... وهكذا. وقد عكف المسلمون على كتاب الله حفظا وتعلما وتعلما اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم: "خيرُكم مَنْ تعلَّم القرآن وعَلَّمه".

ومن هنا فإننى أستغرب ما هو منتشر بين مؤرخى القرآن من أنه لم يكن شائعا في عهد النبى صلى الله عليه وسلم حفظ القرآن جميعه في الصدر كما شاع بعدُ. إنما كان الصحابة، حسب هذه الدعوى، يحفظون السورة أو جملة آيات ويتفهمون معانيها، فإذا جَدُّوا ذلك انتقلوا إلى غيرها. فكان حفظ القرآن موزعا على الصحابة. وعن عبد الرحمن السلمى:

"حدثنا الذين يقرأون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا فيها من العلم والعمل". وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ "البقرة" و"آل عمران" جَدَّ في أعيننا". وقيل إن ابن عمر أقام على حفظ "البقرة" ثمانى سنين. ذلك أنه، كما دُكِّر، إنما كان يحفظ ولا ينتقل من آية إلى آية حتى يفهم.

وعلة استغرابي أن العرب كانوا مشهورين شهرة بعيدة بقوة ذاكرتهم وسهولة حفظهم لاعتمادهم شبه الكامل على تلك الذاكرة، إذ كانوا أمة تغلب عليها الأمية بشكل كبير، فقامت الذاكرة في الغالب مقام الورق والأقلام. ومعروف أن الحاسة إذا ما استعملت استعمالا كثيرا فإنها تنشط وتقوى وتتوهج وتقوم بما لا تستطيع أن تقوم به في الظروف الاعتيادية. فكيف تغير أمر تلك الذاكرة أمام القرآن الكريم، الذى نزل عليهم من السماء، ومن خلاله يدخلون الجنة ويكسبون رضا ربهم، وقد غير حياتهم تغييرا حادا حاسما، وبخاصة أنه كان ذا فواصل مسجوعة، وكان كثير من معانيه يتكرر مرات ومرات، وبنفس العبارات أو بعبارات جد متقاربة، وفيه قصص كثير يستثير الشوق والفضول ويستفز العقل على متابعة كل جديد، وعلى وجه أخص أن كتاب الله لم ينزل دفعة واحدة، فكان من اليسير على المسلمين أن يحفظوا النصوص الجديدة قبل أن تنزل نصوص أخرى، كما أثنى الرسول على من يجتهد في حفظ كتاب الله سبحانه وتعالى وبشره بالأجر الكبير؟

ثم ما الذى كان في موضوعات القرآن من صعوبة في الفهم يستوجب أن يعكف الصحابة عليه درسا واستيعابا طويلين قبل الانتقال إلى نصوص أخرى؟ كذلك فإن الصحابة كانوا يعيشون نزول الآيات وهى تنزل من عند الله ويعرفون الظروف التى نزلت فيها والأشخاص الذين تعنيهم وتتحدث عنهم. فكيف يقال إنهم كانوا ينفقون وقتا طويلا

فى تفهم كل نص يحفظونه، وكأنهم كانوا أمام كتب فى الفلسفة الإغريقية لم يكن لهم بها عهد ولا رأوا شيئاً مثلها من قبل؟ ترى هل من السهل التصديق بأن ابن عمر قد ضيع من عمره ثمانى سنوات كاملات قبل أن يتمكن من حفظ سورة "البقرة"؟ إن معنى ذلك أن متابعة الصحابة للقرآن لم تكن بالسرعة المطلوبة، وأن السورة الواحدة كانت تستغرق كل وقت الصحابى الذى يحفظها فلا يجد من الوقت ولا البال ما يمكنه من الاهتمام بغيرها؟ فلمن كان ينزل القرآن إذن؟ ومن كان يحفظه يا ترى؟ هل كان اليهود والنصارى والمشركون هم الذين يحفظونه؟ وإذا كان هذا ما يقع لكبار الصحابة فماذا عن الأطفال؟ أكانوا هم أيضاً لا يحفظون كتاب ربهم كما يحفظه أطفالنا اليوم رغم اختلاف التمسك بالدين بينهم وبين أطفالنا لصالحهم طبعاً؟

ثم إن فهم القرآن المجيد حق فهمه لا يكون إلا بالإحاطة بكل آياته، وإلا فكيف يطبق المسلمون أحكامه وتشريعاته ويتمسكون بقيمه وأخلاقه الكريمة دون أن يلموا به كله؟ ولقد كان ابن عمر مقصداً لفتاوى الناس، فكيف يا ترى كان يقوم بهذه المهمة، وهو لم يكن يحفظ القرآن ما دامت "البقرة" وحدها قد استنفدت من عمره ثمانى سنوات كاملات؟ كما أن التفسير القرآنى لم يكن من التعقيد والتعذر على النحو الذى صار إليه بعد انصرام القرون. ولدينا فى كل من "صحيح البخارى" و"صحيح مسلم" باب للتفسير فى ذلك العصر المتقدم. فماذا نجد فيه؟ نجد أولاً أن القرآن لم يفسر كله بل فسرت بعض الأشياء القليلة منه بما يدل على أن الصحابة لم يكونوا بحاجة إلى أكثر من هذا، علاوة على أن ذلك التفسير لم يكن متعمقاً ولا مسهباً بل أقرب إلى أن يكون شرحاً لبعض مفردات القرآن وعباراته أو تبياناً لأسباب النزول أو ما إلى ذلك بسبيل. وهو ما يتعارض والروايات التى وردت فى هذا الموضوع.

ومنها مثلاً ما يلي: "عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: "استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم"؟ ثم قال لي: "لأَعْلَمَنَّكَ سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد". ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: "الحمد لله رب العالمين" هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أُوتِيَتْهُ".

ومن تفسير سورة "القَصَص": "كل شيء هالك إلا وجهه: إلا مُلْكُهُ. ويقال: إلا ما أريد به وجه الله. وقال مجاهد: الأنبياء: الحجج... وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: أَيْ عَمٍّ، قل: "لا إله إلا الله" كلمة أُحَاجُّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كَلَّمَهُم: "على ملة عبد المطلب"، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عَنْكَ". فأنزل الله: "ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين". وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنك لا تَهْدِي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء". قال ابن عباس: أُولَى القوة: لا يرفعها العصبة من الرجال. لَتَنُوءَ. لَتَثْقُلَ. الفَرَحِين: المَرَحِين".

و"عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله: "وإن خفتن أن لا تُقْسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع". قالت: يا ابن أختي، هي اليتيمة تكون في حِجْر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه ماله وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها

بغير أن يُقَسِّط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره. فَنُهِوا أن ينكحوهن إلا أن يُقَسِّطوا
 لهن ويبلغوا بهن أعلى سُيُنَّتِهِنَّ من الصَّدَاقِ، وأُمِّتُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء
 سواهن. قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد
 هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: "ويستفتونك في النساء. قل: الله يفتيكم فيهن وما يتلى
 عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتِبَ لهن وترغبون أن تنكحوهن".
 قالت: والذي ذكر الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: "وإن
 خفتم أن لا تُقَسِّطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء". قالت عائشة: وقول الله
 في الآية الأخرى: "وترغبون أن تنكحوهن" رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره
 حين تكون قليلة المال والجمال. فَنُهِوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء
 إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن". و"عن عبدالله بن مسعود: "أولئك الذين يدعون
 يبتغون إلى ربهم الوسيلة"، قال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم
 الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون، فنزلت: أولئك الذين يدعون يبتغون
 إلى ربهم الوسيلة".

ولنفترض أن الروايات المتعلقة بذلك الموضوع صحيحة تماما ولا تعنى شيئا آخر غير
 ظاهرها فمن الممكن جدا أن يكون هذا هو الحال بالنسبة للصحابة المذكورة أسماؤهم فيها
 دون سائر الصحابة، وهم بالألوف. ثم لعل الإشارة في الرواية الخاصة بابن عمر رضي الله
 عنه أنه ظل يتابع نزول آيات سورة "البقرة" ويحفظ ما نزل منها أولا بأول. ولما كانت قد
 استغرق نزولها منذ تغيير القبلة في بداية العهد المدني على الأقل إلى نهاية نزول الوحي حسبما
 تقول الروايات الخاصة بالآيات ٢٧٨، ٢٨١ - ٢٨٢ منها، فمعنى ذلك أنه قد أخذ في
 حفظها نحو ثمانى سنوات، وإلا فالقول بأنه أخذ جميع تلك السنوات في دراستها هو كلام

غريب جدا، لأن معناه أنه كان من بطاء التفكير والحفظ على نحو غير مفهوم، إذ لو افترضنا أن هناك أعجميا تعلم العربية مع بداية الهجرة ثم شرع يحفظ القرآن بعد ذلك لما احتاج إلى كل ذلك الزمن الطويل لحفظ سورة "البقرة" وفهمها.

وأخيرا، وليس آخرا، كيف نصدّق هذا على ظاهره، وعبد الله بن عمر أحد الذين حفظوا القرآن كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تقوله الروايات؟ والغريب أن يعود د. أحمد أمين، الذى يناصر الأثر الخاص بابن عمر، فيقول فى الفقرة التالية من كتاب "فجر الإسلام" إن معظم القرآن، وخاصة المكى، هو من المحكم الذى يسهل فهمه على الجمهور، وإن الصحابة أقدر الناس على فهمه. وهو ما يمحو كل ما قاله قبيل ذلك محوا. اللهم إلا إذا قيل إن عبد الله بن عمر كان من الذين يتتبعون بالقرآن ويجدون مشقة فى حفظه وفهمه، أى من الصنف الذين عناهم الرسول بقوله فى الحديث التالى: "الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرَةِ الكرامِ البرّرة"، والذى يقرؤه ويتعّع فيه وهو عليه شاقُّ له أجران". فهل يعقل أن يكون صحابينا الجليل، وهو القرشى الصميم ونجل ابن الخطاب ذاته والمعروف بتدينه وتحمسه للإسلام، من المتتبعين بالقرآن؟ ويعضد ما قلناه الروايات الأخرى التى تذكر حفظه لكتاب الله فى عهد النبى عليه السلام وشهرته بالفتيا!

على أن أعداء الإسلام لا يكفّون طوال الوقت عن الزعم بأن القرآن قد تعرض للتبديل أو الخطأ، ولكن دعاواهم دائما ما تنتهى بالفشل والتراجع. وفى الفترة الأخيرة نلاحظ تكثيفا لهذا الجهد الشيطانى الذى سيكون مصيره أيضا إلى البوار. بل إن هناك ترجمة عربية للعهد الجديد تحاول عبثا أن تحذو حذو الأسلوب القرآنى بعباراته وتراكيبه وفواصله كى تجذب المسلم العادى إليها، وبخاصة فى البلاد الإسلامية غير العربية، ظنا منه أنه قرآن،

فضلا عن كتابتهم "بسم الله الرحمن الرحيم" في مطلع كل باب منه وزخرفتهم غلاف الكتاب بزخرفة إسلامية توهم أن الكتاب مصحفٌ لا عهد جديد.

ومن الأمثلة على ذلك قولهم على لسان زكريا عند الحديث عن حمل زوجته بابنهما يحيى: "وإذ ذاك كان القوم في باحة الحرم يصلُّون، فَأُنْزِلَ عَلَيْهِ فِي الْمِحْرَابِ مَلَكٌ، ففزع إذ رآه يبين * فناداه أَلَّا تَخَفُ يا زكريا. إن ربك سميع الدعاء سيهب لك غلاما اسمه يحيى قره عين لكما، وبمولده جميعا تفرحون * عظيما عند ربه يكون، وخمرا لا يشرب، بل يمتلئ بروح الله مذ هو في بطن أمه جنين * ويهْدِي من ضلَّ إِلَهَهُ من بنى إسرائيل، وبقوة إلياس يستقدم وجه الله ليرد قلوب الآباء إلى البنين، والضالين إلى حكمة المهتدين، فيهيء لربه عبادا إياه ينتظرون * قال: أَنَّى يكون لى غلام، وقد بَلَغَ منى الْكِبَرُ، و امرأتى عجوز عقيم؟ * قال: إِنى أنا جبريل رسول الله إليك لأبشرك بيحيى. وإذا ارتبت من القول فلتَصْمُتِيَّ إلى حين * وكان القوم يترقبونه فعجبوا من إبطائه في المحراب، فلما خرج علموا أَنَّ قد أُوحِيَ إليه، إذ أخذ يومئذ إليهم، وما كان من الناطقين". ومن ذلك أيضا قولهم: "ذهب عيسى إلى الجليل مع علمه بآلا كرامة لنبي في وطنه تُرْجَى * وإذ عاين أهل الجليل آيَاتِهِ في بيت المقدس أيام العيد أحسنوا وفدّه، وصادف فيهم رُحْبًا، ثم وصل إلى كفر قانا حيث جعل الماء خمرا * وجاءه من كفر ناحوم أحد حاشية الملك ضارعا إليه ليأتى ويشْفِي ابنه، وكان من الموت قاب قوسين أو أدنى * قال عيسى: ما لكم لا تؤمنون إلا إذا رأيتم آياتى عجبا؟ * قال: هَلْمَيْنَّ يا سيدى قبل أن يخطف الموت ابنى خطفا. قال عيسى: اذهب، ليكن ابنك حيا. فاطمأن الرجل إلى قوله وعاد من حيث أتى * وفيما هو في الطريق لقيه خدْمُه فبشروه بأن ابنه تعافى، فقال: متى؟ * قالوا: أمس ظهرًا تركته الحمّى، فتذكر ساعة قوله عيسى: "ليكن ابنك حيا"، فأمن ومن معه جميعا". وهذا يدل على معرفة الدوائر التبشيرية بعمق محبة

المسلمين لكتاب ربهم وأنهم في أعماقهم يعرفون أن القرآن هو كلام الله، ومن هنا كان هذا الحرص على تقليد أسلوبه!

وأذكر الآن أن الإسرائيليين في أواسط ستينات القرن الفائت قد طرحوا في بعض البلدان الأفريقية المسلمة مصاحف طبعوها بعد أن عبثوا ببعض آياتها تحسينا لصورة اليهود بين المسلمين، كتغييرهم مثلا قوله تعالى عنهم: "لُعِنُوا بما قالوا" إلى "أُمنُوا بما قالوا"، وقوله جل شأنه: "ومن يبتغ الإسلام دينا فلن يقبل منه" بدلا من "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه". لكن هياج المسلمين في جميع أرجاء العالم فضح هذه الألاعيب الشيطانية ووأدها في مهدها، فاختلفت المصاحف المزورة وانتهى أمرها. ومنذ سنوات غير بعيدة زورت الدوائر الصليبية قرآنا مزيفا سموه: "الفرقان الحق" وقلدوا فيه أسلوب القرآن شاتمين رب العالمين ونبيه الكريم وأتباع دينه في مشارق الأرض ومغاربها ومتهمين إياهم بكل مصيبة وكارثة. والمضحك في الأمر أن يفعلوا هذا وفي عقيدتهم أن زمن النبوات قد انتهى. فكيف نزل الوحي مرة أخرى؟ ومين ذلك النبي الذي نزل عليه يا ترى؟ ثم انتهى أمر ذلك "البهتان الباطل" إلى زوايا النسيان والتجاهل تماما. والغريب أن تلك الدوائر المعادية للإسلام تقلد كتاب الإسلام وتسرق من نصوصه وتحاول العبث به، ثم تستدير فتتهم النبي الكريم بالسرقة من كتبهم! ولى على المشباك رد مطول على هذا السخف الساخف لم يترك فيه حجرا على حجر، بل دمره تدميرا ونسفه في الهواء نسفا.

هذا، ويتكون القرآن من ١١٤ سورة تختلف طولا وقصرا، بالإضافة إلى اختلافها في تعدد الموضوعات أو وحدانيتها. فأقصر السور سورة "الكوثر" وسورة "الإخلاص"، وكلتاها تشغل سطرا واحدا وتتضمن ثلاث آيات. وهناك ما هو أكبر قليلا كسورة "العصر" وسورة "الإيلاف"، وكل منهما سطران، ثم سورة "النصر" وسورة "الكافرون"،

وكلتاها ثلاثة أسطر. وعندنا ما هو أكبر من ذلك قليلا كسورة "القَدْر" وسورة "الزلزلة"، وما هو أكبر من هذا أيضا بقليل كسورة "الطارق"، وتشغل نحو نصف صفحة، وأطول منها سورة "الأعلى" وسورة "الغاشية". أما "القيامة" و"الإنسان" فأطول من ذلك... وهكذا إلى أن نصل إلى السور الكبيرة كسور "الأعراف" و"التوبة" و"الأنعام" و"المائدة" والنساء"، وأخيرا "البقرة" أطول سور القرآن جميعا، وعدد آياتها ٢٨٦. وبوجه عام نلاحظ أن السور مرتبة حسب طولها، لكن هذا لا يمنع أن تسبق سورة سورة أخرى أطول منها كما هو الحال في الأنفال و"التوبة"، وفي "الحجر" و"النحل"، وفي "الإخلاص" وكل من "المعوذتين". وهناك سور مكية تساوى أو تقارب بعض السور المدنية في الطول ك"الحجرات" و"ق" مثلا، وهناك من السور المكية ما يتجاوز كثيرا من السور المدنية طولاً كسور "الأنعام" و"الأعراف" و"يونس" و"هود"، فكل منها أطول من "الأنفال" و"محمد" و"الحجرات". وأشهر وأوضح مثال على سبق السورة القصيرة لسورة أخرى طويلة هو مثال "الفاتحة" و"البقرة" في أول المصحف.

ومن السور التي تقتصر على موضوع واحد معظم السور القصيرة، أما السور الطويلة ذات الموضوع الفرد فتتمثل في سورة "يوسف". ومن السور المتوحدة الموضوع خارج الفئتين السابقتين نستطيع أن نذكر "الطور" و"القمر" و"الرحمن" مثلا. لكن معظم السور القرآنية متعددة الموضوعات. وقد شبه الشوكاني في تفسيره: "فتح القدير" السورة القرآنية بالقصيدة الجاهلية، فهي أيضا تتعدد فيها الموضوعات. لكن الملاحظ أن الموضوعات المتعددة التي تتضمنها السورة القرآنية أكثر إحكاما، إذ يستطيع القارئ اليقظ في كثير جدا من الأحيان أن يلمح، لدن الانتقال من موضوع إلى آخر، خيطا يشد هذا إلى ذاك على نحو

من الأنحاء. وأيا ما يكن السبب في التعدد يسهّل على القارئ قراءة الجزء الذى يشاء دون أن يبدأ السورة من أولها بالضرورة.

وتتكرر الموضوعات والمعانى كثيرا فى سور القرآن الكريم، وخاصة فى الوحي المكي. وهذا أمر طبيعى، إذ كان الرسول فى المرحلة المكية مثلاً يجوب طرقات أم القرى ويغشى مجالسها ويقصد بيئها الحرام ويذهب إلى أسواقها داعياً الناس إلى الإيمان بالدين الجديد الذى جاءهم به من الله سبحانه هُدى لهم وتنويراً لعقولهم وإخراجاً لهم من ضيق الظلمات والجهل والتخلف إلى بحبوحة الضياء والعلم والتحضر، لكنهم كانوا يعاندونه ويكذبونه ويمكرون به ويصخبون عليه ويتآمرون ضده وينكرون التوحيد والبعث والآخرة ويتأبّون على ترك عاداتهم وتقاليدهم المنحطة. وكان هذا يتكرر كثيرا، فلهذا كانت تتكرر الموضوعات والمعانى بنفس العبارات أو بعبارات مقاربة. وكثيرا ما يحكى القرآن فى هذه الحالة قصص الأنبياء السابقين وأممهم والعقاب الذى نزل بها جزاء وفاقا على كفرها وتمردها وعتوها. وهذا هو السبب فى تكرار هذه القصص فى كتاب الله.

وتتنوع الموضوعات القرآنية ما بين عقيدة وتشريع وتأمل فى ملكوت الله وقصص وأدعية وتمجيد لله تعالى ووصف لأحوال المجتمع الإسلامى فى حياة الرسول وللمجتمع الجاهلى أيضا، وحديث عن الغزوات التى خاضها المسلمون أو انئذ، ومجادلات مع المشركين وأهل الكتاب وتوجيهات أخلاقية. وبالنسبة للعقيدة فإن الإسلام يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد القادر القوى القاهر الرازق الباسط القابض الغفور الرحيم السميع البصير المرید اللطيف الخبير الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار... إلى آخر أسمائه الحسنی وصفاته العليا. كما يؤمن المسلم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب وجنة ونار. وبالمثل يجب عليه أن يؤمن بجميع الرسل دون تفريق من لدن آدم إلى خاتمهم

وزعيمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وهناك أيضا الملائكة والجن، وكلا الفريقين كائنات خفية. وفي مجال الأخلاق يدعو الإسلام إلى العدل والصدق والوفاء والأمانة والتعاون والتواضع والإخلاص والإتقان واحترام الكبير والعطف على الصغير ورحمة النساء والأطفال ومعاونة الفقراء والمساكين المطحونين والابتعاد عن الخمر والزنا والربا والغيبة والنميمة والسرقه والكِبَر والحقد والطمع والجشع والأنانية... وتغطي تشريعات القرآن كل شىء فى حياة البشر من رضاعة وتربية وزواج وطلاق وبيع وشراء وربما وسلف وعبادة وجنائز وحرب وسلم وملبس ومطعم وغير ذلك.

ومن الأدعية والتمجيدات ووصف الملكوت: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَا لِكَ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ"، "رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"، "رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنِ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ"، "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمِنْ صَلَاحٍ مِنْ أَيْمَانِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، "خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِتَلْحُقِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْجَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَبَاكُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَيَخَرُّ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالتَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحِيرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيبَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ "، "اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سِيبًا نَغَا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسِيلُكَ رَبِّكَ ذُلُمًا يُخْرِجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ "، "إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَائِيَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

ويتميز الأسلوب القرآني بالجلال، فهو إلهي المصدر. فمتى ما دخلت القرآن شعرت

للتو أنك في حضرة جليلة لا ضعف فيها ولا تضعضع ولا تردد ولا خوف ولا قلق ولا

حزن ولا فرح، حضرة أعلى من كل شيء في الكون. ويتصل بها أن ضمير المتكلم في كثير من الأحيان هو الـ "نحن" والـ "نا": "إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ"، "إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ، وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ"، "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"، "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟"، "وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا"، "أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ؟"، "نحن جعلناها تذكرةً ومتاعاً للمُؤْمِنِينَ". وهناك التحدى الذى يطرحه القرآن على الكافرين وعلى الدنيا كلها، وهو تحدٍ راسخ شامخ يعكس ثقة مطلقة، فلا جعجعة ولا طنطنة ولا مبالغة. وهو تحدٍ من كل لون وضرب: تحدٍ أن يأتى الإنسان أو الجن بمثل القرآن، وتحدٍ أن ينتصر الشرك أو أى دين آخر على الإسلام، وتحدٍ أن يستطيع أحد النيل من حياة رسول الله، وتحدٍ بأن الروم ستغلب الفرس فى بضع سنين رغم أنها كانت قد انهزمت منها فى آخر معركة... إلخ. ولم يستطيع أحد أن يحبط أى تحدٍ من هذه التحديات، بل تحققت كلها كما أنبأنا القرآن.

وتنقسم كل سورة قرآنية إلى آيات. والآية عبارة عن جزء صغير من الكلام قد يكون جملة أو جزءاً من جملة، وقد يكون عدة جمل. ويكثر مجيء الآيات أجزاء من الجمل فى قصار السور المكية: "وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مِّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّعْفِ الْمُرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمُسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ"، "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ"، "فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى". أما النوع الثالث المكون من عدة جمل فمثاله الآية التالية من سورة "البقرة": "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

رَبِّهِ وَلَا يَنْخَسُ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَبِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمِثَلَ هُمُومًا فَلْيُمِثِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ". أما النوع الأول فهو كثير يلقيه القارئ في كل مكان من القرآن.

ومعروف أن القرآن حريص على إنهاء كل آية من آياته تقريبا بفاصلة مسجوعة، وهذه الفاصلة تجعل للكلام طعما شامخا عجيبا. وقد حاول مؤلفو الإنجيل المسجوع مضاهاة الفواصل القرآنية، بيد أنهم قد أفسدوا الأمر أيما إفساد. والفواصل القرآنية تعمل في العادة على التذكير بالله وصفاته والمبادئ القويمة والأخلاق الجميلة وما إلى هذا. وبعضها يتكرر بنصه من سورة إلى سورة، أو بصيغة قريبة. وقد تكون السورة كلها مسجوعة على روى واحد، وبخاصة السور المكية، وبالأخص القصير منها. وقد تكون متنوعة السجعات. وقد تكون كلها مسجوعة على حرف واحد مع الخروج على هذا الحرف في فاصلة واحدة أو فاصلتين أو عدة فواصل قليلة. ومع هذا فكثيرا ما تكون تلك الفواصل على روى مقارب في مخرج الكلام للحرف الذي يدور عليه سجع سائر السورة.

ومما يميز الأسلوب القرآني أيضا أن كل سورة من سوره تبدأ بالبسملة. وهذا أمر ينفرد به القرآن، ولا نجد مثيلا له في التوراة مثلا أو الأنجيل، وإن كنا في الفترة الأخيرة قد رأينا نسخة من العهد الجديد يبدأ كل باب منها بالبسملة على غرار القرآن، وتنتهي كل فقرة

فيه بفاصلة على غرار القرآن، ويستعين مؤلفو هذا الإنجيل بعبارات القرآن وتراكيبه وصوره عَلَّاهُمْ يَرْجُوْهُ بَيْنَ غَوْغَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَجَهْلَائِهِمْ. وقد صارت البسلة تقليدا إسلاميا يراعيه المسلم عادة كلما شرع في عمل من الأعمال ذى بال. وهو ينظر إلى الأمر على أنه بركة وكرامة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِ"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فَهُوَ أَقْطَع".

وهناك طائفة من السور المكية تبدأ ببعض حروف الألفباء مما يسمونه: "الحروف المقطعة". وهو شيء لا نجده في الأدب العربى. وقد أريقت في محاولة تفسير معناها أحبار كثيرة، وشهدت الدراسات القرآنية نظريات متعددة لهذا التفسير، وأتى المستشرقون في ذلك بالعجب العجيب: فمن قائل إنها علامات موسيقية مع أنه لا يوجد في أية رواية أو نص شعرى أو نثرى في الجاهلية أو في الإسلام ما يفيد أن العرب عرفوا الرموز الموسيقية. والملاحظ أن السور التى تختص بتلك الحروف المقطعة هى بعض السور المكية ليس إلا. ولكن هل كان كتاب "الأغانى" مثلاً يهمل القول في ذلك الموضوع لو كان لما يزعّمه أولئك المستشرقون أى وجود؟ وهل كان الأداء أو الرمز الموسيقى مقصوراً على المكى فقط؟ ثم لماذا يتكرر الرمز الواحد بنصه في مفتتح أكثر من سورة رغم اختلاف بعضها عن بعض؟ وهل كان المسلمون يلحنون القرآن ويتحرّون التطريب فيه؟ فَمِنْ مَتْنِ الصَّحَابَةِ يَا تَرَى كَانَ يَضَعُ الْأَلْحَانَ؟ وَمَنْ كَانَ يَغْنَى؟ وَأَيْنَ؟ وَمَتَى؟ وَمِنْ قَائِلٍ إِنَّهَا رَمُوزٌ لِأَسْمَاءِ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَمْتَلِكُونَ هَذِهِ النُّسخَةَ أَوْ تِلْكَ. لَكِنْ فَشِلَ أَصْحَابُ تِلْكَ النُّظَرِيَةِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الرَّمْزِ وَاسْمِ الصَّحَابِيِّ الَّذِي كَانُوا يَقْتَرِحُونَهُ، وَدَعَكَ مِنَ الْاِعْتِسَافِ الشَّنِيعِ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْحَرْفِ الْوَاحِدِ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ وَأَسْمَاءِ تَعَدُّ بِالْعَشْرَاتِ.

وفى المسلمين من يرى أنها اختصارات لعبارات تتعلق بالله سبحانه: فـ"ألم" مثلاً معناها "أنا الله المهيمن". لكن من قال إن هذا هو المعنى المراد؟ ولماذا لم يقل الوحي ذلك مباشرة؟ و"لعل" أقرب تفسيرات هذه الحروف إلى الوجاهة أنها إشارة إلى كون القرآن مؤلفاً من تلك الحروف نفسها التى يعرفها كل البشر ويستعملونها فى لغتهم، ومع ذلك فإنهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن. ويعضد هذا التفسير أن تلك الحروف متبوعة فى كل الأحوال تقريباً بعبارة مثل "ذلك الكتاب" بما يعنى أن ذلك الكتاب مكون من "أ ل م" مثلاً. إلا أن السؤال هو: ولماذا لم تستعمل كل حروف الألفباء فى بدايات السور بدلاً من اقتصار الأمر على طائفة منها فحسب؟ نعم لماذا لم تستعمل الباء والتاء والثاء مثلاً والجيم والخاء والذال والذال والزأى والشين والضاد والغين والفاء والواو فى الوقت الذى تكررت فيه بعض الحروف الأخرى؟ كذلك لم استعملت بعض المطالع الحرفية أكثر من مرة على حين لم يحظ بعضها الآخر بهذه الميزة؟ فمن الصنف الأول "ألم" و"ألمر" و"طس"، ومن الصنف الثانى "كهيعص" و"طه" و"يس" و"ق" و"ص".

وقد كتب رشاد خليفة مدعى النبوة فى توسان بأمريكا قبل عدة عقود أن الحروف التى تبدأ بها سورة من السور هى أكثر الحروف دورانا بتلك السورة، وبنفس الترتيب التى جاءت به فى مطلع السورة. وقد زاد فزعم أن كل حرف من تلك الحروف يتكرر بين حروف السورة التى أتى بها بمضاعفات الرقم ١٩. وقد رد عليه وفنّد كلامه بعض المؤلفين المسلمين، وبرهنوا على أن ما يقوله لا يقوم على أساس سليم، بل على الاعتساف والتنطع، موضحين أنه إنما قال ذلك واعتسف التطبيق اعتسافاً كى يبرز الرقم ١٩ المقدس عند البهائيين إبرازاً شديداً.

ويكثر في القرآن ورود عدد من الألفاظ والاشتقاقات كثرةً تلفت النظر كاسم الجلالة: "الله"، الذى تكرر أكثر من ٢١٠٠ مرة، وكذلك "الرحمن" و"الرحيم" و"السميع" و"البصير" و"رب" و"إله"، ولكن ليس بهذه الغزارة. وهناك "الصلاة"، و"الزكاة"، و"الملائكة"، و"الإنسان"، و"الجن"، و"الشيطان"، و"المنافقون"، و"المشركون"، و"الكافرون"، و"المجرمون"، و"الساعة" و"الجنة"، و"النار"، و"الآخرة"، و"القلب"، و"الأولين"، و"الرجس"، و"الرسول" ومشتقاته، و"الشرك" ومشتقاته، و"الكفر" ومشتقاته، و"النفاق" ومشتقاته، و"الرحمة" ومشتقاتها، و"الرزق" ومشتقاته، و"الطاعة"، و"المعصية" ومشتقاتها، و"العلم" ومشتقاته، و"الصبر" ومشتقاته، و"الرضا" ومشتقاته، وأسماء الرسل مع اختلاف مرات التكرار. والطريف أن اسم "محمد" هو أقل أسماء الأنبياء دوراناً في القرآن. ولهذا مغزاه العميق، إذ لو كان محمد هو مؤلف القرآن ويريد الزعامة والتعظيم لردد اسمه ليل نهار في الكتاب الذى ألفه كما نلاحظ في أمثاله. والمثل لم يذكر اسم أى من زوجاته ولا اسم أمه وأبيه ولا اسم جده وعمه اللذين ربياه وأسبلا عليه عطفهما وشفقتهم في يتمه الحزين ولا اسم أصحابه بما فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم، اللهم إلا زيدا، وباسمه الحافى دون أية ألقاب، وكان في يوم من الأيام عبداً رقيقاً، وزَوْجِيهِ النَبى مع ذلك من ابنة عمه رغم ما كانت تشعر به هى وأسرتها من غضاضة لهذا الزواج غير المتكافئ من وجهة نظرهم.

وفي القرآن أيضاً عبارات وصور كثيرة تتكرر على نحو يلفت الانتباه، ومن هذه العبارات والصور قوله تعالى: "خالدين فيها أبداً" للإشارة إلى خلود أهل الجنة والنار فيهما، "سبحان الله عما يشركون"، "أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة"، "آتيناهم النبي فلانا/ القوم الفلانيين الكتاب"، "إن الله غفور رحيم/ وكان الله غفورا رحيمًا"، "إن الله سميع بصير/

وكان الله سميعا بصيرا"، "أجر عظيم/ كريم/ كبير"، "أجل مسمى"، "أخذتهم الصيحة/
 الرجفة/ الصاعقة"، "أخذنا ميثاقهم"، "الدنيا والآخرة"، "يوم القيامة"، "بإذن الله"،
 "السموات والأرض"، "له ملك السموات والأرض/ له ما في السموات والأرض"،
 "عذاب أليم"، "لا إله إلا هو"، "والله خبير بما تعملون"، "جنات تجري من تحتها الأنهار"،
 "يا أيها الناس"، "يا أيها الذين آمنوا"، "يا أهل الكتاب"، "والله على كل شيء قدير"،
 "الحمد لله"، "آمنوا وعملوا الصالحات"، "أولمؤ الألباب"، "آيات الله، آياتنا"، "بشيرا
 ونذيرا/ مبشرين ومنذرين"، "بما تعملون بصير/ بصير بما تعملون"، "السمع والأبصار"،
 "البلاغ المبين"، "خلق جديد"، "أصحاب الجنة، أصحاب النار"، "في سبيل الله"، "مأواهم
 جهنم"، "جاءتهم رسلنا/ رسلهم بالبينات"، "الله يحب المحسنين/ المتقين/ المتوكلين/
 الْمُطَهَّرِينَ/ الْمُقْسِطِينَ/ الصابرين"، "الله لا يحب الظالمين/ الكافرين/ المعتدين/ المسرفين/
 المفسدين/ الخائنين/ المستكبرين/ الْفَرَحِينَ"، "هل أتاك حديث...؟"، "المسجد الحرام"،
 "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون"، "الله سريع الحساب"، "إلى الله/ إليه تُحْشَرُونَ"، "الله
 عزيز حكيم"، "الله عليم حكيم"، "خَلَقَ السموات والأرض"، "المسيح بن مريم"، "أفلا
 تَذَكَّرُونَ؟"، "لعلكم تَذَكَّرُونَ"، "والله ذو الفضل العظيم"، "رب العالمين"، "إلى الله/ إلى
 ربهم/ إلى/ إليه/ إلينا مرجعكم/ مرجعهم"، "عالم الغيب والشهادة"، "بغير حساب"،
 "أطيعوا الله و(أطيعوا) الرسول"، "جاءتهم/ أتتهم/ تأتيهم رسلهم بالبينات"، "سبحان
 الله/ سبحانك/ سبحانه/ سبحان رب..."، "فسجد الملائكة/ فسجدوا... إلا إبليس"،
 "سِ حَرْمِيْن"، "أساطير الأولين"، "خَلَقَ السموات والأرض"، "فسوف تعلمون/
 يعلمون"، "أَفَلَمْ/ أَوْلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا..."، "استوى على العرش"، "تعالى عما
 يشركون"، "ثمنا قليلا"، "وهم لا يشعرون"، "لعلكم تشكرون"، "في شك"، "على كل

شيء شهيد"، "مَنْ/ ما يشاء"، "كل شيء"، "أصبحوا خاسرين/ ... كافرين/ ... جاثمين/
 نادمين/ ظاهرين"، "و/ فاصبر- و/ فاصبروا"، "صِيدُوا عن سبيل الله"، "عليهم بذات
 الصدور"، "قَدَم/ لسان/ مُخْرَج/ مُدْخِل/ مُبَوِّأ/ مَقْعِد صِدْق"، "إن كنتم صادقين"،
 "مصدقاً لما بين يديه"، "صراط مستقيم"، "عَمَل صالحا"، "من الصالحين"، "نُفِخَ/ يُنْفَخ في
 الصُّور"، "صَرَبَ مثلاً"، "صَرًّا ولا نفعاً/ نفعاً ولا ضراً"، "مِيسَ فلاناً ضُرَّ"، "صَلَّ عنهم ما
 كانوا يفترون"، "من يضلِّل الله ف..."، "في ضلالٍ مُبين"، "لا نُضِيعُ/ يَضِيعُ أَجْرَ..."، "طَبَعَ
 الله/ يطبعُ الله/ نطبع/ طُبِعَ على قلوب..."، "في طغيانهم يعمهون"، "و/ فلا تُطِيعَ..."،
 "أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"، "وهم لا يَظْلَمُونَ"، "أولئك هم الظالمون"، "الله لا يهدي القومَ
 الظالمين"، "إِنْ يَتَّبِعُونَ/ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ"، "أَعْتَدْنَا ل...)" (أما للمفرد الغائب ف"أَعَدَّ")،
 "ولا تَعْشَوْا في الأرض مفسدين"، "ما أنتم/ هم بِمُعْجِزِينَ"، "الإثم والعدوان"، "ولهم
 عذاب أليم/ شديد/ عظيم/ مقيم/ مهين"، "قرآنا عربيا"، "أَعْرِضْ عن..."، "و/ فَهَمُّ
 (...) مُعْرِضُونَ"، "يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر"، "الله عزيز حكيم"، "لآياتٍ لقوم
 يعقلون"، "إن كنتم تعلمون"، "الله بكل شيء عليم"، "بغير علم"، "رب العالمين"،
 "حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ"، "هل/ ما يستوى الأعمى والبصير"، "نخيل وعنب/ نخيل وأعناب/
 النخيل والأعناب"، "يبدأ الخلق ثم يعيده"، "بِالْعِشْيِ وَالْإِبْكَارِ/ بِالْعِشْيِ وَالْإِشْرَاقِ/
 بِالْغَدَاةِ وَالْعِشْيِ/ غُدُوًّا وَعَشِيًّا/ بكرةً وعشيا"، "المشرق والمغرب/ المشارق والمغارب"،
 "لا يغني (...) شيئاً/ من شيء"، "الغنى الحميد/ غنى حميد"، "اعبدوا الله. مالكم من إله
 غيره"، "ولكن أكثر الناس لا يعلمون/ لا يؤمنون/ لا يشكرون"، "افتري على الله كذباً"،
 "(ب)إما كانوا يكسبون"، "ثم/ فينبئكم بما كنتم تعملون"، "إن كنتم مؤمنين/ صادقين"،
 "انظر/ انظروا كيف كان عاقبة ال..."، "لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون"، "هو ولعب/

لعبٌ وهو/ لهوٌ ولعباً/ لعباً وهوّا"، "متاع الحياة الدنيا"، "بشرٌ مثلكم/ مثّلنا"، "ضرب الله مثلاً/ يضرب الله الأمثال"، "في قلوبهم مرضٌ"، "ميسسه الضر/ الخير/ الشر/ الشيطان/ السوء/ العذاب/ اللغوب/ النَّصَب/ القَرْح"، "نُحْيى/ أحيى/ تحيى الموتى"، "نذير مبين"، "ما لكم/ ما لهم من ناصرين"، "ما لك/ ما لكم/ ما لهم... من ولى ولا نصير"، "اذكروا نعمة الله عليكم"، "جنات النعيم"، "يأْمرون بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر"، "عذابٌ مهينٌ/ عذاباً مهيناً"، "وجوهٌ يومئذٍ ناضرة/ باسرة/ مسفرة/ عليها غُبرة/ خاشعة/ ناعمة"، "لا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"، "متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين"، "وعلى ربهم يتوكلون"، "وعلى الله فليتوكل المؤمنون"، "ويلٌ لـ.../ وَيَلْنَا- وَيَلْكَ- وَيَلْكُمْ- (يا) وَيَلْتَنَا، يا وَيَلْتَنَا"، "بين يديه"، "وكان ذلك على الله يسيراً/ إن ذلك على الله يسير"، "ما ملكتُ أيْمانكم". وهى غيظ من فيض، فإنى لم أرد الاستقصاء.

وهناك مسألة تتصل بالصور البيانية فى القرآن الكريم يشير إليها كثير من المستشرقين والمبشرين بوصف تلك الصور انعكاساً للبيئة التى نشأ فيها محمد مؤلف القرآن، فمن الطبيعى أن تنعكس فى القرآن الذى ألفه حسب مزاعمهم. وهى أن تلك الصور مستقاة من خلفية تجارية. ولو كان ذلك صحيحاً لما كان هناك عيب يستوجب الرد فى هذا، إذ قد صرح القرآن بأنه ما من رسول خاطب قومه إلا بلغتهم. ولا شك أن لغة كل قوم تعكس بيئتهم فيما تعكس، وكانت بيئة الرسول المكية التى نشأ فيها بيئة تجارية. لكن المتأمل فى القرآن يَلْقَى أن الصور المنتشرة فيه ليست كلها ذات خلفية تجارية، بل تعكس خلفيات مختلفة. صحيح أن قوله تعالى: "ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله"، "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم"، "فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به"، "ألا ذلك هو الخسران المبين"، "فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين"، "يرجون تجارة لن تبور" هى من

الصور ذات الخلفية التجارية. لكن ماذا عن الصور التالية ذات الخلفية الزراعية: "مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة"، "نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم"، "مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت، وفرعها في السماء * تؤتى أكلها كل حين"، وفي القرآن غيرها الكثير الكثير؟ وماذا عن الصور الأخرى التالية ذات الخلفية البحرية: "ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام"، "أو كظلمات في بحرٍ لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها"، "وهو الذي مرج البحرين: هذا عذب فرات، وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا؟" وماذا عن الصور التالية ذات الخلفية الفيزيائية والفلكية: "أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق... * يكاد البرق يخطف أبصارهم. كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا"، "ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنّة بريرة أصابها وابل، فأتت أكلها ضنغفين. فإن لم يصبها وابل فطل"، "والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه"، "ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق"، "وينزل من السماء من جبال فيها من يَرَدٍ... يكاد سينا برقه يذهب بالأبصار؟" وماذا أيضا عن الصور التالية ذات الخلفية البيولوجية: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام. ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنها يصعد في السماء"، "لهم (أى لأهل النار) فيها زفير وشهيق؟" وماذا عن قوله تعالى الآتى الذى يعكس خلفية جيولوجية: "ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ"؟

أما بالنسبة للتراكيب القرآنية فمعظمها من التراكيب المعروفة المنتشرة على نطاق واسع. وهذا أمر طبعى، إذ لا يعقل أن يكون هناك نص من النصوص كل تراكيبه خارجة على المعروف المستعمل، وإلا كان نصا عسرا يصعب التعامل معه والاستمتاع به. كما تكثر فيه بعض التراكيب والاستعمالات على نحو يلفت النظر. ومن هذه التراكيب القرآنية التى تلفت النظر أو يكثر ورودها فى كتاب الله حتى لو كانت استعمالات معروفة استعمال كلمة "ذلك" وحدها مع "بين" بدلا من "بين هذا وذاك" كما فى قوله عز شأنه: "مذبذبين بين ذلك"، إذ يقال فى ذلك السياق عادة: "مذبذبين بين هذا وذاك". ومنها أيضا التركيب التالى: "مِنْ أَحَدٍ" (بإدخال "مِنْ" على الفاعل والمبتدأ والمفعول به لتأكيد استغراق النفى) كما فى قوله جل جلاله: "وَلَا يَنْزِلُ إِلَّا أَنْزَالٌ مُّطَهَّرٌ" "فما منكم من أحد عنه حاجزين"، "وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله". ومن تلك التراكيب التى تلفت الانتباه كذلك: "اتخذ + مفعولين: أول وثان"، "وإن + كاد... له" - "وإن + كان... له... - "وإن + وجد... له... (للتأكيد) - إن + نظن... له..."، "إن... إلا/ لمّا... (للقصر)، "إياكم/ إياى/ إياهم + فعل مضارع أو فعل أمر مسبوق بالفاء"، "بئس + فاعل/ تمييز: بئس مثوى المتكبرين"، "بئس للظالمين بدلا"، وكذلك "اللام الموطئة للقسم + فعل مضارع + نون التوكيد"، "فلما + أن + فعل ماض"، "ليس/ ما كان على فلان + (من) حرج"، "الكذا + وما أدراك ما الكذا؟"، "الذين تدعون من دون الله"، "مثل كذا + (ك) مثل كذا"، "إمّا + فعل مضارع + نون التوكيد + ضمير متصل مفعول به + ف..."، "أو/ أف + لم + يروا أنّا.../ إلى..."، "ألم تر أن/ كيف/ إلى..."، "أرأيتم/ أف رأيتم + إن + فعل ماض...؟ (فى مواقف الخصومة مع الكافرين). ومنها استخدام "رَجِيعَ" (متعدية بمعنى "أَرْجِعَ"، التى لا وجود لها فى القرآن): "فإن رجعت الله إلى طائفة منهم...". "ويسألونك (عن) كذا + ف"،

"هل/ ما + يستوى + فاعل + و + معطوف"، "عسى + فاعل + أن... " (لم تأت في القرآن بدون "أن" رغم جوازها). "كاد + فاعل + فعل مضارع بدون "أن" دائما رغم جواز إدخالها عليه). وانظر أيضا التراكيب التالية من حيث التذكير والتأنيث، والإفراد والجمع حيث تجد عدولا عن الشائع: "تلك الرسل/ السحاب مسخرات/ السحاب الثَّقال/ قاتل معه ربيون كثيرٌ/ وفريقا حَقَّ عليهم الضلالة/ طائفة منكم آمنوا... وطائفة لم يؤمنوا/ رأيتُ أحد عشر كوكبا والشمس والقمر... لى ساجدين/ خصمان اختصموا/ خَلَقَ الليل والنهار والشمس والقمر كلٌّ فى فَلَكَ يسبحون/ كُلُّ حَزْبٍ بما لديهم فرحون/ الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء/ شَرِذمةٌ قليلون/ فريقان يختصمون/ قرنا آخرين/ قرونا آخرين/ قرونا بين ذلك كثيرا/ أناستى كثيرا/ أَضَلَّ منكم جَنبًا كثيرا/ الخصم... تسوروا المحراب/ قالتا (أى السماء والأرض): أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات/ ضَيف إبراهيم المكرمين/ والملائكة بعد ذلك ظهير/ الرُّبُوبُ أَقْتَتَ". ومن التراكيب القرآنية التى تشد انتباهنا أيضا فى مجال العدد قوله سبحانه: "تسعةٌ رَهْطٍ/ ثلاثمائة سنين/ صَيَّغَتْ قلوبُكما"، "وكأين من...". أما عند الاستفسار عن السبب فتلقانا دائما "لم؟" إذ لم يحدث أن استعمل القرآن "لماذا" قط. وهناك أيضا التركيب التالى المنتشر فى كتاب الله: "ما + كان + لفلان + أن... (لا يصح له أن...)", وكذلك إدخال أداتى الشرط: "إذا/ إن" على المبتدأ لا على فعل كما يشترط النحاة، ولا أدرى من أين لهم أن أداة الشرط لا تدخل على الأسماء مباشرة: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما"، "إذا السماء انفطرت *...".

وعندنا كذلك التركيبات التالية: "إن + كان + اسمها + فعل ماض بدون قد"، و"فعل ماض + فاعل + حال جملة فعلية فعلها ماض بدون واو وقد، أو بواو لكن بدون قد" على خلاف اشتراطات النحاة. "(إن) الذين + جملة الصلة + ف..."، "مبتدأ (ومعطوف) + ف +

فعل أمر"، "كفى + ب + اسم مجرور بالباء + حال منصوب"، "هنالك (بمعنى "عندئذ")"،
 "إِنَّ + كُلاً + لَمَّا + لَه + فعل مضارع + نون التوكيد..."، "ما كان/ لم يكن + فاعل + لِـ +
 فعل مضارع (بمعنى "لا يكون الأمر كذلك")"، "إِنْ + كان + الاسم والخبر + فَـ + فعل
 ماض دون قد"، "كان + الله + صفة من صفاته الحسنى (بمعنى الأبدية لا الماضوية)"، "إِنْ
 + اسمها + هو + خبرها فعل مضارع"، "فَأَلْقُوا السَّلَمَ: ما كنا نعمل من سوء (دون ذكر
 فعل القول. وهذا منتشر في القرآن الكريم بكثرة)"، "جازم + يَكُ/ نَكُ... (يحذف نون
 "يكن/ نكن". وقد تكررت)"، "لَإِنَّ... لَمَفْعَلَنَ..."، "وَذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبَسِّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ/
 وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ / وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
 نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَالًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ
 (أَنْ + فعل مضارع: مفعولاً لأجله)"، "يَوْمٌ + فعل مضارع... (بدون "أَنْ" قبله)"، "الرجال
 والنساء/ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة... / المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض / قُلْ
 للمؤمنين يُغَضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ... وَقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ... / إن المسلمين
 والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات... (إيراد المذكر قبل المؤنث)"،
 "يَهْتَدِي، يَخْتَصِمُونَ (بدلاً من "يهتدي، يختصمون)"، "هُودًا (بدلاً من "يهودًا")"، "نِعِمَّا
 يَعِظُكُمْ بِهِ (بدلاً من "نعم ما يعظكم به")".

ومن هذه التراكيب أيضا القسم بعناصر الطبيعة: "والذاريات ذُرُوءًا * فالحاملات
 وَقُرًا * فالجاريات يسراً..."، "والطُّور * ... * والسقف المرفوع * والبحر المسجور..."،
 "والنجم إذا هموى..."، "فلا أُقْسِمُ بمواقع النجوم..."، "كلا والقمر * والليل إذا أذير *
 والصبح إذا أسفر..."، و"المرسلات عُرْفًا * فالعاصفات عَصْفًا..."، "فلا أقسم بالحنس *
 الجوارى الكُنس * والليل إذا عسعس * والصبح إذا تنفس..."، "فلا أقسم بالشفق *"

والليل وما وَبَقَ * والقمر إذا اتسق..."، "والسما ذات البروج"، "والسما والطارق"،
 "والسما ذات الرّجّع * والأرض ذات الصّدّع"، "والفجر * وليالٍ عَشْرٍ *... * والليل
 إذا يَسِرَّ"، "والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جَلَّاهَا * والليل إذا يغشاها
 * والسما وما بناها * والأرض وما طَحَّاهَا..."، "والضحى * والليل إذا سَجَا..."،
 و"التين والزيتون * وطُورِ سَيْنِينَ...". وهذا الملمح الأسلوبى محصور فى السور المكية
 القصيرة.

وهناك أسلوب "إذ"، التى تأتى فى بداية موضوع أو قصة ما مسبوقة بـ "واو" أو عارية
 عنها. ويفسرها المفسرون بـ "اذكر". ولعل أقرب شىء إلى معناها هو "تَنبِيْهٌ إلى الموضوع
 التالى، أو إليك هذه القصة لتتبعن فيها". وهذا الأسلوب لا وجود له فى الحديث الشريف
 ولا فى الشعر أو النثر العربى فى حدود علمى: "وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في
 الأرض خليفة"، "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ، فَأَتَمَّهُنَّ"، "وإذ قالت أمة منهم: لم تعظون
 قوما الله مُهْلِكُهُمْ أو مَعْدُّهُمْ عذابا شديدا؟ قالوا: معذرةً إلى ربكم، ولعلمهم يتقون"، "إذ
 قال يوسف لأبيه: يا أبت، إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى
 ساجدين".

والملاحظ فى تعامل القرآن مع فعل البذل أنه يستخدم الباء مع المتروك، وهذا هو
 الغالب، أو يستخدم "مكان... " أو "خيرا من" أو "من بعد" عوضا عن الباء، أو لا يستخدم
 شيئا بالمرّة مكتفيا بجعل المبدل مفعولا أول والمبدل منه مفعولا ثانيا، أو يذكر المتروك
 فحسب. ومن السمات أيضا هذا التركيب المقصود به تمجيد الله رب العالمين: "تبارك الله/
 الذى..."، "سبحان الله"، "جعل + فاعل + مفعول أول + مفعول ثان"، "جعل + فاعل +
 مفعول به"، أى أنها قد أتت متعدية لمفعول واحد ولمفعولين اثنين جميعا، لكنها لم تأت لازمة

من أخوات "كاد" فعلا من أفعال الشروع، "لا + جُنَاح + على + مجرور بحرف الجر"،
 "عِلِمَ / شَهِد + فاعل + إِنَّ (بكسر الهمزة) + اسم إن + لَ..."،

وإلى جانب ذلك هناك حكم وأمثال قرآنية كثيرة يرددها المسلمون في المناسبات والأحوال المختلفة. ومنها هذه الشواهد، وهى مأخوذة من سورة "البقرة" وحدها:
 "اتَّأَمَّرُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؟"، "فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"، "إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ"، "تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ: لَهَا مَا كَسَبَتْ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ"، "وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُمْ مَوْلَاهَا"، "وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ"، "وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ"، "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ"، "وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ"، "كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ"، "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"، "قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِدْقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى"، "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ. وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"، "لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا".

هذا، ومن الطبيعي أن يختلف الناس في فهم القرآن: فليس الكافر به كالمؤمن، وليس الحديث الإيمان كالقديمه، وليس الصغير كالكبير، وليس المتخصص في الدراسات الدينية واللغوية والأدبية كالمختص في غيرها، وليس المسلم الأعجمي كالمسلم العربي، وليس الغبي كالذكي، وليس البليد كالناشط، وليس الهازل كالجاد، وليس واسع الثقافة كضيقها، وليس اللامبالي كالمخلص، وليس صاحب الغرض كالمحايد، وليس ابن تلك البيئة كابن هذه... وهلم جرا.

ومن هنا رأينا في التفسير مذاهب وفرقا: فهذا شيعي يفسر القرآن في ضوء تشيعه فيقرأ بعض الآيات على أنها تثبت حق على ثم حق أبناؤه من بعده في خلافة النبي على المسلمين إلى

يوم القيامة. وذلك معتزلى يعتقد أن الإنسان حر تمام الحرية فى تصرفاته، ومن ثم كان مسؤولاً مسؤولية تامة عنها، وأن المسلم إذا ارتكب الزنا أو الخمر أو أية كبيرة أخرى خرج من الإيمان، وإن لم يلحق بالكفار، بل يكون فى منزلةٍ وَسِيطةٍ بين تَيْنِتك المنزلتين. وذلك خارجيٌّ يبغض علياً ويقلل من شأنه ويعاديه كلما وافته فرصة لإظهار ما فى قلبه من بغضاء له بلى هذه الآية أو تلك إلى الاتجاه الذى يحقق له ما يريد. وهذاك صوفى يرى أن الطريق الصحيح للاقتراب إلى الله هو المعراج الروحى المتمثل فى المقامات والأحوال، وأنه يستطيع مشاهدة الحضرة الإلهية متى ما وصل إلى نقطة معينة فى ذلك المعراج... وهكذا. قال تعالى: "ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك"، "لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً"...

وليس هناك مقياس للتفسير الصحيح متفق عليه كما نرى. وعلى ذلك فليس أمام أى مفسر سوى أن يبذل كل ما حباه الله به من طاقة ونشاط لا يألوا فى ذلك شيئاً، وأن يخلص ضميره لذلك العمل فلا يرمى غير وجه ربه، وأن يراجع نفسه دائماً بغية تصحيح ما يمكن أن يكون وقع فيه من خطأ أو سهو أو نسيان، وأن ينصت إلى ما عند الآخرين ويعيد النظر فيما كتب فى ضوء كلامهم. وكل فرقة من تلك الفرق تظن نفسها الفرقة الناجية. وحتى لو كان لنا أن نعتمد تفسيراً من التفاسير بوصفه التفسير المرجع فعلينا أن نعرف أن مرجعية هذا التفسير مرجعية مؤقتة، إذ العلم يكبر كل يوم وينضاف إليه الجديد دائماً بحيث ما كان يقنعنا أمس ربما لا يعود مقنعاً لنا اليوم، وهو ما ينبغى أن يجعلنا فى حذر من الانقياد التام لتفسير واحد من التفاسير دون غيره حتى لو كنا من أهل التقليد.

أما إن كنا من أهل الاجتهاد والاستقلال فعلى الواحد فى هذه الحالة أن يشق طريقه بنفسه اعتماداً على قراءاته الواسعة العميقة فى كل ميادين المعرفة التى يمكنه الإبحار فيها، وبخاصة النص القرآنى ذاته وكتب التفسير باتجاهاتها المختلفة وكتب الحديث وكتب

أسباب النزول وكتب السيرة واللغة والأدب والنقد والتاريخ والفقه والعقيدة، وكذلك الكتب المقدسة في الأديان الأخرى، مع التذرع بالإخلاص العميق الحار وعدم الملل أو الكلل، والتوجه إلى الله من أعماق قلبه أن يهبه البصيرة النافذة الجليلة ويضع يده على الحقيقة، الحقيقة التي يمكن أيدي البشر أن تلامسها، وهى الحقيقة الجزئية النسبية، أما الحقيقة المطلقة فهى ملك لله وحده، وكل ما نستطيعه هو الدندنة حولها دون أن نبلغها أبدا. ومعروف أن أول من فسر القرآن هو النبى عليه الصلاة والسلام. ومن الروايات التفسيرية المعزوة إلى النبى عليه السلام ما جاء فى "الإتقان" للسيوطى فى "طبقات المفسرين" أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فسر قوله تعالى: "ولهم فيها أزواج مطهرة"، بأنهن كل مطهرة من الحيض والغائط والنخامة والبزاق، وأن "الصلاة الوسطى" هى صلاة العصر، وأن "من يَرَتْ يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه وعَمَفَ بطنه وفرجُه فذلك من الراسخين فى العلم"، وأنه "لما نزلت" فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى موسى: هم قومٌ هذا"، وأنه "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: أولئك أصحاب الأعراف"، وأنه عليه السلام قد فسر قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" قائلا: "ألا وإن القوة الرمى"، وأنه قال: "إن من عباد الله ناسًا يغبطهم الأنبياء والشهداء. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب لا يفزعون إذا فزع الناس، ولا يحزنون إذا حزنوا. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أن أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون"، وأن "المُهَل" فى قوله سبحانه: "بماء كالمهل" هو "عكر الزيت. فإذا قَرَّبَه إليه سقطت فروة وجهه فيه"، وأن "كلمة التقوى" فى قوله عز وجل: "وألزَمهم كلمة التقوى" هى قول "لا إله إلا الله"، وأنه صلى الله عليه وسلم قال فى "الرَّان" المذكور فى سورة "المطففون": "إن

العبد إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب منها صُيِّقِلَ قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه. فذلك الران الذي ذَكَرَ الله في القرآن: كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون"... وهكذا، وإن كانت هناك أشياء في تلك التفسيرات يصعب جدا أن يكون النبي قد قالها.

وإلى جانب ما ورد لنا من تفسير عن النبي عليه الصلاة والسلام هناك تفسير لآيات كثيرة من القرآن جاءنا عن بعض الصحابة ممن اشتهروا بذلك. وقد ذكر السيوطي في كتابه: "الإتقان في علوم القرآن" في الفصل الخاص بـ "طبقات المفسرين" أن عشرة من الصحابة اشتهروا بالتفسير أكثر من سواهم، وهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير. وهناك بالطبع غير هؤلاء، وإن لم يشتهروا في التفسير شهرتهم. وقد ذكر السيوطي بعضهم فقال إنه "قد وَرَدَ عن جماعة من الصحابة غير هؤلاء اليسير من التفسير كَأَنسٍ وأبى هريرة وابن عمر وجابر وأبى موسى الأشعري".

ومن التفسير المعزو لصحابة رسول الله، رضى الله عنهم وأرضاهم، ما رواه البخاري من أن عروة بن الزبير سأل خالته عائشة عن قوله تعالى: "حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء": "قال: قلت: أكذبوا أم كُذِّبوا؟ قالت عائشة: كُذِّبوا. قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم، فما هو بالظن. قالت: أجيل، لَعَمْرِي لقد استيقنوا بذلك. فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِّبوا. قالت: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك برها. قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا برهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر. حتى إذا استيأس الرسل ممن كُذِّبهم من قومهم وظنت

الرسول أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك. حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني عروة: فقلت: لعلها "كذبوا" مخففة. قالت: معاذ الله...".

ومثله ما رواه البخاري أيضا من أن عروة سأل خالته ذات يوم وهو حديث السن: "أرأيت قول الله تبارك وتعالى: 'إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما'؟ فما أرى على أحد شيئا ألا يطوف بهما. فقالت عائشة: كلا لو كانت كما تقول فلا جناح عليه ألا يطوف بهما. إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار: كانوا يهللون لمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة. فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله: 'إن الصفا والمروة من شعائر الله. فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما'".

وفي البخاري أيضا عن ابن عباس مقارنة بين التشريع اليهودي والتشريع الإسلامي في مسألة القتل والقصاص والدية: "كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: 'كُتِبَ عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. فمن عُقِيَ له من أخيه شيء، فالعفو أن يقبل الدية في العميد، فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان': يتبع بالمعروف ويؤدى بإحسان. 'ذلك تخفيف من ربكم ورحمة' مما كُتِبَ على من كان قبلكم. 'فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم': قتل بعد قبول الدية".

وفي البخاري كذلك عن هذا الصحابي الجليل: "كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم يدخل هذا معنا، وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه بمن علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليربهم، فقال: ما تقولون في قول الله تعالى: 'إذا جاء نصر الله والفتح'؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال: أكذلك تقول يا ابن

عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له، قال: "إذا جاء نصر الله والفتح"، فذلك علامة أجلك، "فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا". فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول". وفيه أيضا: "قال عمر بن الخطاب يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيمن ترون هذه الآية نزلت: "أَيُّوَدَّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ؟" قالوا: الله أعلم. فغضب عمر فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم. فقال ابن عباس: في نفسى منها شيء. فقال: يا ابن أخى، قل ولا تَحْقِرْ نَفْسَكَ. قال ابن عباس: ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ. فقال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق أعماله".

وقد اشتهر ابن عباس بلقب "ترجمان القرآن" و"البحر" و"خبر الأمة"، ونُسب له كتاب كامل فى التفسير يسمى: "تنوير المقياس"، كما أُثِرَ عنه أجوبة على نحو مائتى سؤال فى معانى كثير من ألفاظ القرآن رُوِيَ أن نافع بن الأزرق رفعها إليه فأجابه عنها كلها شافعا كل جواب بشاهد من شعر الجاهليين برهانا على أن اللفظة المستفسر عنها لفظة عربية قُبْجَة بدليل ورودها فى شعر ما قبل الإسلام. وهذه الإجابات والأسئلة التى أثارها منشورة فى كتب مختلفة الطبعات، وأورد بعضها الإمام السيوطى فى كتابه: "الإتقان فى علوم القرآن". ومع هذا فهناك من لا يطمئن إلى نسبة هذين الكتابين له، أو على الأقل: إلى نسبة جميع ما فيها، فقد عكف العلماء على تحييص ما ورد من روايات فى التفسير عن ذلك الصحابى الجليل، فوجدوا أنها تتعدد وتتفاوت صحةً وضعفاً، فتتبعوا هذه الروايات وكشفوا عن مبالغها من الصحة، فقبلوا بعضاً وردُّوا بعضاً كما جاء فى فصل "طبقات المفسرين" من كتاب السيوطى السالف الذكر.

لكن لا بد من التوضيح بأن ابن عباس، حتى لو ثبت أن هذين الكتابين له بتمامهما، لم يؤلفهما تأليفاً، بل قال ما فيهما ثم حُمل ذلك عنه على سبيل الرواية واختلط في كتب التفسير بكلام غيره، إلى أن جاء بعض العلماء وخلص ما هو منسوب له وجمعه وسجله في كتاب. ومن البين الذي لا يحتاج إلى برهان أن عنوان التفسير المنسوب له رضى الله عنه هو من وضع المتأخرين، فابن عباس وغيره من الصحابة لم يكونوا يعرفون وضع العناوين، فضلاً عن أن تكون تلك العناوين مسجوعة وملتوية المعنى على طريقة العصور المتأخرة كما هو الحال في عنوان الكتاب المنسوب له، وهو "تنوير المقياس في تفسير ابن عباس"، فضلاً عن أن يتكلم عن نفسه هكذا بضمير الغائب فيقول: "تفسير ابن عباس" وكأنه يتحدث عن شخص آخر. ويعود الفضل في جمع ذلك الكتاب وعنوانه إلى مجد الدين الفيروزابادى صاحب "القاموس المحيط" المعروف، وهو من أهل القرن الثامن الهجرى، إذ وُلِدَ رحمه الله عام ٧٢٦هـ. بل إن أمين الخولى ليذهب إلى القول بأن هذا الكتاب إنما هو للفيروزابادى نفسه، وليس لابن عباس، كما جاء في "قصة التفسير" لأحمد الشرباصى.

ثم جاء بعد الصحابة التابعون، وجاء بعد التابعين تابعو التابعين... وهكذا، وكان كثير منهم مساهماتهم في ذلك الميدان. ومن المبرزين في التابعين الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير، ثم يتلوهم عكرمة والضحاك، وإن لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبير. ثم بعد هذه الطبقة أُلِّفَتْ تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين.

وقال السيوطى في "الإتقان" في الفصل الخاص بـ "طبقات المفسرين" بتفصيل أكثر: "اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبى بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن الزبير. أما الخلفاء فأكثر من روى منهم على ابن أبى طالب، والرواية عن الثلاثة نزره جداً. وكان السبب في ذلك تقدم

وفاتهم، كما أن ذلك هو السبب في قلة رواية أبي بكر رضى الله عنه للحديث. ولا أحفظ عن أبي بكر رضى الله عنه في التفسير إلا آثارًا قليلة جدًا لا تكاد تتجاوز العشرة، وأما على فروى عنه الكثير. وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شهدت عليا يخطب وهو يقول: سَيَلُونِي، فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم. وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليلاً نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل. وأخرج أبو نعيم في "الحلية" عن ابن مسعود، قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن، وإن على بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن. وأخرج أيضًا من طريق أبي بكر بن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي، قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت. إن ربي وهب لي قلبًا عقولاً ولسانًا سؤولاً. وأما ابن مسعود فروى عنه أكثر مما روى عن علي. وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال: والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته. وأخرج أبو نعيم عن أبي البحتري قال: قالوا لعلي: أخبرنا عن ابن مسعود. قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى، وكفى بذلك علمًا".

ونود أن نقف عند بعض الأسماء التي ذكرت بين مفسري الصحابة والتابعين. فأشهر مفسري الصحابة على بن أبي طالب وابن عباس، وإن كانت المبالغات قد دخلت على أخبارهما في ذلك المجال، فقد نُقِلَ عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال: "لو شئت أن أوقر سبعين بغيراً من تفسير أم القرآن (الفاتحة) لفعلت". ولا ندرى لماذا لم يفعل ما دام عنده كل ذلك العلم، إذ لا يصح أن يحرم الناس من علمه المفيد. لكنه لا ينبغي أن يسأل عن تلك المبالغة السخيفة، فإن علياً أحصف وأصدق من أن يطنطن تلك الطنطنة الفارغة. فالنبي عليه السلام لم يقل ذلك عن نفسه. والأمر ذاته يجافى المنطق والعقل، ولا يمكن تصديقه، إذ

أين في ذلك العصر تلك العقلية وهذه الثقافة اللتان من شأنهما أن تساعدنا من يريد ذلك على إنجازه؟ بل إنى لأستغرب الصورة نفسها وأحيلها إحالة تامة، إذ لم يكن هناك ورق ولا أقلام يمكن استخدامهما في تدوين ذلك المقدار من العلم، كما أن تحميل الإبل بكتب العلم لم يكن مما يعرفه العرب، بل لم يكن معروفا عندهم تخزين الكتب أصلا. ذلك أن الكتب بالمعنى الذى نعرفه اليوم لم تكن متاحة لهم آنذاك. وفوق ذلك فإن عليا، رضى الله عنه، لم يؤثر عنه شيء في تفسير "الفاحة"، فضلا عن أن يبلغ حمل بعير. ثم ماذا يمكن أن يقال في تفسير تلك السورة مما يبلغ حمل بعير؟ إننا لو جمعنا كل ما قيل عنها في كتب التفسير طوال العصور الماضية والقادمة لم يبلغ أن يكون حمل بعير. وعلى أكرم على نفسه من أن يقول مثل ذلك الكلام السخيف. أما لو صح، وهو لا يصح، فإنه يسىء إليه لأنه كان لديه من العلم ما يمكن أن يفيد به المسلمين ويخدم القرآن، لكنه رفض أن يفعل.

وأخيرا من أين كان يستطيع على أو غير على آنذاك أن يحصل على ما يساعده على تحميل بعير من التفسير؟ الواقع أنه لم تكن هناك كتب ولا مكتبات ولا تفاسير ولا متخصصون في ذلك الميدان ممن يمكن أن يعتمد عليهم المفسر. لم يكن هناك سوى التفسير القليل البسيط الذى رأينا بعض أمثلة منه في هذا الفصل. فهل يستطيع هذا المقدار الشحيح من التفسير أن يعين أحدا على أن يوقر بعيرا من كلامه في تفسير "الفاحة" وحدها؟ وأنى له بالوقت اللازم لإنجاز تفسير القرآن كله على هذا الإيقاع؟ إنه بحاجة إلى آلاف السنين. إن بعض الناس يتصورون العلم وكأنه برميل ضخيم ليس على المؤلف سوى أن يمسك بالمغرفة ويغرف منه في الأطباق ويوزع على الحاضرين. وهذا تصور مضحك حاشا لعل رضى الله عنه أن يدور له في بال أو خيال. وعلى لم يكن من الشعراء السابحين في الخيالات والشطحات، بل هو رجل متزن لا يعرف التنفج الفارغ.

أما ابن عباس فهناك المسائل التي يقال إن نافع بن الأزرق قد سأله عنها فأجابته، وكان الحوار بينهما على وتيرة واحدة كما يوضحه المثالان التاليان: "سأل نافع بن الأزرق عبد الله بن العباس عن قول الله عز وجل: "وَأَنْتُمْ سَيَّامِدُونَ". فقال: معناه "لا هون"، فقال نافع: "وهل كانت العرب تعرف هذا في الجاهلية؟". قال: نعم، أما سمعت هُزَيْلَةَ بنت بكر، وهي تبكى عادةً حيث تقول:

بَعَثْتُ عَادًا لُقَيْمًا وَأَبَا سَعْدٍ مَرِيدًا
وَأَبَا جُلْهُمَةَ الْحَيِّ رَفَقَى الْحَى الْعُنُودَا
قِيلَ: قُمْ فَاَنْظُرْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ دَعُ عَنْكَ السُّمُودَا؟

... قال نافع بن الأزرق لعبد الله بن العباس: أَرَأَيْتَ قِيلَ اللَّهُ عز وجل: "وَاللَّيْلِ إِذَا عَمَسَ؟" ما معناه؟ فقال ابن عباس: عَمَسَ: أَقْبَلْتَ ظُلُمَتَهُ. فقال له نافع: فهل كانت العرب تعرف هذا؟ قال: نعم. أما سمعت قول امرئ القيس:

عَمَسَ حَتَّى لَوْ يَشَاءُ ادَّكَى كَانَ لَهُ مِنْ نَارِهِ مَقْبِسُ؟

ولنا على ذلك بعض الملاحظات: فأولا من البعيد أن يأتي نافع وقد أعد كل هذه الاستفسارات دفعة واحدة، وبذلك الترتيب. وأغرب منها أن يقدم ابن عباس شاهدا على كل استعمال قرآنى يأتى به في الحال دون تلجلج أو جهد في التذكر وكأنها منه على مد الأصابع ليس إلا. ومعنى هذا أنه كان يحفظ شعر العرب كله على تمامه ويتذكر الشاهد المطلوب متى سئل لا يخرم منه شيئا. فهل هذا ممكن؟ ولتنبه إلى أن بعض الشعراء الذين استشهد بهم ابن عباس مجاهيل لا يكاد أحد يعرفهم كهزيلة بنت بكر مثلا.

وثانى ملاحظة أن أسئلة نافع تحتوى على ما لا يمكن أن يجهره أحد، ومع هذا يجيب عنه ابن عباس إجابة بعيدة عن المراد. مثال ذلك الاستفسار الخاص بـ "البنين والحفدة"،

وهم الأبناء وأبناء الأبناء، إلا أن ابن عباس يجيب بما يفهم منه أنهم الخدم الذين يسعون في حاجات الرجل ويناولونه ما يريد: "أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "بَنِينَ وَحَفَدَةً". مَا الْبَنُونَ وَالْحَفَدَةُ؟ قَالَ: أَمَا بَنُوكَ فَإِنَّهُمْ يَعَاظُونَكَ، وَأَمَا حَفَدَتُكَ فَإِنَّهُمْ خَدَمُكَ. قَالَ: وَهَلْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أُمِّیَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيِّ:

حَفَدَ الْوَلَاءُ دُحُولَهُنَّ نَ، وَأُلْقِيَتْ بِأَكْفُهُنَّ أَرْمَیَةُ الْأَهْمَالِ
قَالَ: صدقت."

فهل هذا هو معنى "البنين والحفدة" الذى تقصده الآية ويتسق مع السياق الذى وردت فيه تانك الكلمتان؟ قال تعالى: "وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً". وواضح أن المعنى هو ما ذكرت أنا لا ما قيل إن ابن عباس قد فسر به الكلمتين. فالسياق سياق الحديث عن نعمة الزواج والذرية لا الخدم والأعوان الذين يناولون الرجل ما يريد. كما أن الخدم والأعوان لا يميّز بهما إلا على الأغنياء. وما نسبة الأغنياء فى أى مجتمع؟ إنها نسبة ضئيلة عادة، وهو ما لا يتناسب مع السياق مرة أخرى، إذ الكلام فى الآية موجه إلى البشر جميعا لا إلى الأغنياء منهم خاصة.

والمثال الثانى هو: "أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ". مَا الْمُسَحَّرُونَ؟ قَالَ: مِنَ الْمَخْلُوقِينَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ أُمِّیَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ وَهُوَ يَقُولُ:

فَإِنْ تَسْأَلُونَا: مِمَّ نَحْنُ؟ فَإِنَّا عَصَا فِيرٍ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمُسَحَّرِ
قَالَ: صدقت."

فهل كان هناك شك في أن صالحا، الذى وصفه قومه بأنه من المسحرين، مخلوق وليس إلها؟ فمن قال ذلك يا ترى؟ إنه لم يدع مثل تلك الدعوى حتى يكون رد قومه عليه على هذا النحو. بل لم يقل أى نبي لقومه هذا قط. أما أقوام الأنبياء فكانوا عادة ما يتهمونهم، ضمن قائمة جاهزة من الاتهامات الكاذبة، بأنهم مسحورون، فضلا عن الاعتراض عليهم بأنهم بشر مثلهم، بمعنى أنهم ليسوا من الملائكة، ومن ثم لا يصلحون أن يكونوا أنبياء. ومعنى وصفهم بهم بالـ "مسحّرين" أن بهم خللا عقليا ونفسيا يجعلهم يقولون كلاما غريبا غير معقول ولا مقبول لأنهم قد سُيِّجِرُوا، فهم مرضى يحتاجون إلى العلاج. ذلك أن "مُسَحَّر" اسم مفعول من "سَحَرَ" المضَعَّف، والتضعيف يدل على المبالغة فى المعنى. أى أنكم مسحورون سحرا قويا عنيفا يصعب الشفاء منه. ولم يحدث أن اعترض قوم نبي من الأنبياء عليه بأنه مخلوق. إنما كان الاعتراض أنهم مسحورون. وبالمناسبة ففى "تفسير الطبرى" أن قائل هذا البيت هو لبيد بن ربيعة العامرى لا أمية بن أبى الصلت.

ومن ذلك الوادى أنه لما سأل نافعٌ عبدَ الله بن العباس: "أخبرنى عن قول الله عزَّ وجلَّ: "وَأَلْتَقَمَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ". ما "الساق بالساق"؟ قال: الحرب. فقال: وهل كانت العرب تعرف ذلك؟ قال: نعم. أما سمعتَ قول أبى ذؤيبٍ الهذلى:

أخو الحرب إن عَضَّتْ به الحربُ عَضَّهَا وإن شَمَرَتْ عن ساقها الحربُ شَمَرًا
ولكن أى حرب تلك التى ستقع يوم القيامة حين يكون المساق إلى الله سبحانه؟ إن قوله تعالى: "كلا إذا بلغت التراقي * وقيل: مَن راقٍ؟ * وظنَّ أنه الفراق * والتفت الساق بالساق" هو عن طلوع الروح والتفاف الساق بالساق. فلا موضع للحرب فى هذا السياق. ولعل المراد التفاف ساقى الميت فى الكفن استعدادا لدفنه حيث لم يعد ينفعه من أمور الدنيا ولا من أحبابه فيها شىء. والكلام عن الكافر الذى مات على الكفر، وكان يصر على العناد

فلا يؤمن ولا يصلى، ويمشى مختالاً كله غطرسة وكبر. إن الآيات إنما تتحدث عن التفاف الساق بالساق، أما بيت الشعر فيتحدث عن تشمير الحرب عن الساق. وشتان!

كذلك لم يحدث أن اعترض نافع على شيء مما يقوله ابن عباس رداً على تلك المسائل التى يقال إنها بلغت نحو المائتين مع أنه قد شرع يسأله بغية إحراجة والتقليل من شأنه، إذ تقول الرواية إنه ونجدة بن عويمر خرجا فى نفر من رؤوس الخوارج ينقرون عن العلم ويطلبونه حتى قدموا مكة، فإذا هم بعبد الله بن عباس قاعداً قريباً من زمزم وعليه رداء أحمر وقميص، وإذا ناس قيام يسألونه عن التفسير يقولون: يا ابن عباس، ما تقول فى كذا وكذا؟ فيقول: هو كذا وكذا. فقال له نافع بن الأزرق: ما أجراك يا ابن عباس على ما تخبر به منذ اليوم! فقال له ابن عباس: ثَكَلْتُكَ أُمِّيكَ يا نافع وَعَدِمْتُكَ! ألا أخبرك من هو أجراً منى؟ قال: من هو يا ابن عباس؟ قال: رجل تكلم بما ليس له به علم، ورجل كتم علماً عنده. قال: صدقت يا ابن عباس. أتيتك لأسألك. قال: هات يا ابن الأزرق فسَلْ. فانطلق نافع يسأله سؤالاته التى شارفت المائتين على النحو الذى وضعناه آنفاً.

ومن مفسرى التابعين سعيد بن جبير (٤٥ - ٩٥ هـ). وقد روى عن عائشة وابن عباس وابن عمر وغيرهم من الصحابة. وكان ابن عباس، بعدما أصيب بالعمى، إذا أتاه أهل الكوفة يسألونه قال: أتسألوننى، وفيكم ابن أم الدهماء؟ وقد قتله الحجاج لخروجه على عبد الملك بن مروان مع ابن الأشعث. وقيل فى عكوفه على تلاوة القرآن إنه كان يختم القرآن فى ليلتين، بل كان يختمه بين المغرب والعشاء فى رمضان، بل قيل إنه ختمه فى ركعتين، بل قيل إنه انتهى منه فى ركعة واحدة. وهى مبالغات لا تجوز فى العقل إلا إذا كان يقرؤه بسرعة الصاروخ. ومن بين ما جاء عن ابن جبير أنه، رغم مكانته العلمية ومعرفته الواسعة بتفسير كتاب الله، كان يتورع عن القول فى التفسير برأيه كما هو شأن السلف من الصحابة رضوان

الله عليهم حتى إن رجلا سأله أن يكتب له تفسيراً للقرآن، فغضب قائلاً: لَأَنْ يَسْقُطَ شَقِيٌّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ. وهو، إن صحت الرواية، تخرُّجٌ في غير موضعه، فقد أُمِرْنَا أَنْ نَفْشِيَ الْعِلْمَ وَلَا نَكْتُمَهُ، وإلا فما معنى سعيينا في تحصيله؟ أَلَنَبْقِيهِ فِي صُدْرُونَا لَا يَسْتَفِيدُ بِهِ أَحَدٌ بِحَيْثُ يَبْدَأُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ نَقْطَةِ الصَّفَرِ دَائِماً؟ ثم كيف اشتهر بتفسير القرآن إذن ما دام يرفض رفضاً باتاً كتابة شيء مما عنده في هذا التفسير؟ سيقال إنه كان يفسر القرآن شفاهاً لا كتابة. لكن هل هناك فرق؟ إنه كله تفسير وإفشاء للتفسير. وليس المهم الوسيلة بل النتيجة. هل نقول إنه كان يرفض فقط كتابة التفسير برأيه؟ فلماذا لم يكتب تفسيراً بالمأثور يورد فيه الروايات التي يعرفها من تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفسير أصحابه عليهم رضوان الله بدلاً من أن يتناثر كلامه في الأذان فيحفظ مرة، ويضيع مرة؟ وهناك رواية بأنه قال في ذلك الموضوع ذاته: من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي.

ثم ننظر فنجد أبا نعيم قد جمع من التفسير المأثور عن ابن جبير نُخْباً منها تفسيره لقوله تعالى حكاية عن نبي الله موسى عليه السلام: "رَبِّ، إِنِّي لَمِياً أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" بأنه "يومئذ فقير إلى شق تمر"، وفي قوله تعالى: "أَمْثَلْهُمْ طَرِيقَةً": "أوفاهم عقلاً". وفي "المسند الصحيح من آثار التابعي سعيد بن جبير" المستلَّ مما ورد من الروايات المعزوة إلى ابن جبير في التفاسير المختلفة أن معنى قوله سبحانه: "لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا": "هم اليهود وكتماهم محمداً صلى الله عليه وسلم"، وأن المقصود من قوله تعالى عنهم أيضاً: "وَيَحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا" أنهم يقولون: "نحن على دين إبراهيم"، وليسوا على دين إبراهيم"، وأن "الصاحب بالجنب" هو "الرفيق الصالح"، وأن "علماء بنى إسرائيل (كانوا) ييخلون بما عندهم من العلم، وينهون العلماء أن يعلموا الناس شيئاً، فغيرهم الله بذلك في قوله: "الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله"، وأن قوله

تعالى: "لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا" معناه: لا تنادوه بـ "يا محمد" بل قولوا: "يا رسول الله، يا نبي الله"، وأن معنى "الظُّلَّة" في قوله تعالى عن قوم شعيب: "فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة": كانت الظلة سحابة، وكانوا يحفرون الأسراب يدخلونها فيتبرّدون بها، فإذا دخلوها وجدوها أشد حرًا من ظُهرها"، وفي قوله عز شأنه على لسان ملكة سبأ: "وإني مُرسِلةٌ إليهم بهدية" قال: "أرسلت إليهم ثمانين من وصيف ووصيفة، وحلقت رءوسهم كلهم وقالت: إن عرف الغلمان من الجوارى فهو نبي، وإن لم يعرف الغلمان من الجوارى فليس نبي. فدعا بوضوء فقال: "توضأوا"، فجعل الغلام يأخذ من مرفقيه إلى كفه، وجعلت الجارية تأخذ من كفها إلى مرفقيها، فقال: هؤلاء جوارٍ، وهؤلاء غلمان"، وأن الشجرة التي نهى الله آدم عن الأكل منها في الجنة لكنه عصاه سبحانه وطعمها رغم ذلك هي "الكَرْم"... والتساؤل هو: ترى من أين استمد ابن جبير، إذا صح ما يروى عنه، تلك التفاسير التي لم يرد فيها عن النبي شيء كتفسيره للظُّلَّة التي أرسلها الله على قوم شعيب أو للهدية التي بعثت بها ملكة سبأ إلى سليمان أو للشجرة التي أكل منها آدم في الجنة الأولى؟ أليس هذا تفسيراً بالرأى أو برواية لم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

وهناك بحث صغير عن "المنهج التفسيري عند سعيد بن جبير" يثنى فيه صاحبه د. حيدر تقى العلق على ذلك التابعى لكونه التزم بالتفسير بالمأثور وكَرِهَ القول بالرأى، ليعود فيقول إنه، عند عدم وجود رواية عن النبي والصحابة في تفسير شيء في القرآن، كان ابن جبير يعتمد على الاستنباط والاجتهاد القائم على العقل مع بعده في ذات الوقت عن الاستحسان والهوى والقول بالرأى، وكأن القول بالرأى شيء آخر غير استعمال الاجتهاد والعقل. وهو كلام غريب يناقض أوله آخره، وإلا فكيف يجتهد الإنسان ويستنبط

ويستخدم عقله ثم هو مع ذلك لا يقول برأيه؟ وهل رأى إلا استخدام العقل والاجتهاد في التفسير؟

كما قال ذلك الباحث نفسه إن ابن جبير كان يخالف أحيانا أستاذه ابن عباس كما في تفسيره لـ "العاكفين" في قوله تعالى: "وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" بأنهم "أهل البيت الحرام" بينما يفسرها ابن عباس بأنهم "المصلون"، وكما في تفسيره للفعل: "سَجَا" من قوله تعالى: "والليل إذا سجا" بمعنى "أقبل" في حين يقول ابن عباس: "ذهب". أليس هذا إعمالا للعقل وتفسيرا بالرأى فيما فيه أثر؟ ثم من يا ترى قال إن الرأى معناه الميل مع الهوى؟ الرأى هو استعمال العقل فيما ليس فيه رواية، بل حتى فيما فيه رواية لا يقبلها العقل. وكم في الروايات من أشياء تتأبى على كل عقل. فهل يخر عليها المفسر خرورا حتى لا يتهم بأنه ذو هوى؟ فلم وهبنا الله العقل والقدرة على التفكير إذن؟ وهل يمكن أن تمضى الحياة دون استخدام العقل؟ وهل كان يمكن أن تنسلخ البشرية من تخلفها ووحشيتها وسذاجتها الأولى أو تتطور الثقافة والحضارة بعد ذلك بلا عقل وتفكير؟

ومن الطريف أن يفرق الباحث بين التفسير المذموم والتفسير المحمود بالرأى قائلا إن سمة الأخير هو الاكتفاء بسوق الرأى دون القطع بشيء، أما الثانى فيقوم على القطع. ثم يسوق شاهدا على ذلك بأن ابن عباس قد فسر "كهيعص" في أول سورة "مريم" مرة بأن الكاف مأخوذة من "كريم"، والهاء من "هادٍ"، والياء من "حكيم"، والعين من "عليم"، والصاد من "صادق"، ومرة بأن معناها "كافٍ" (وفي رواية أخرى: "كبير") هادٍ أمين عزيز صادق". ومن الواضح أنه لا توجد قاعدة يجرى عليها ذلك التفسير، وإلا فكيف اختلف كلام المفسر ذاته هذا الاختلاف؟ بل لم اختار هذين التفسيرين دون القول مثلا بأن الصاد

تعنى "الصبور" وأن الكاف تعنى "الحكيم" وأن العين تعنى "السميع"؟ واضح أن من قال ذلك إنما اعتمد على ما ورد على خاطره عفو اللحظة دون الاستناد إلى أساس. وكان ينبغي، بدلا من ذلك، أن يقول إننى لا أعرف مراد الله من هذه الحروف، فيريح ويستريح. وقد أشار الباحث أيضا إلى أن ابن جبير لم يكتف بالتفسير وحده بل أضاف إليه إيراد أسباب النزول أيضا في بعض الأحيان.

ورغم ما قرأناه من رواية عن إنكار ابن جبير على من اقترح عليه كتابة تفسير للقرآن وجدنا في ترجمته بـ "ويكى شيعة" الفقرة التالية: "صنّف سعيد بن جبير كتابا في التفسير اعتمده السيوطى في تفسيره الموسوم بـ "الإتقان في تفسير القرآن"، وقال قتادة: هو أعلم المفسرين من التابعين، وأدرجه ابن النديم ضمن قائمة تفاسير الشيعة، وذكره الأقباز في موسوعته: "الذريعة إلى تصانيف الشيعة". ومما يؤكد نسبة التفسير إليه ما روى في تفسير "الجواهر الحسان" وغيره من أن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ) سأل سعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ) أن يكتب إليه بتفسير القرآن، فكتب سعيد بهذا التفسير، فوجده عطاء بن دينار في الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير. بل يرى البعض أن تفسير سعيد بن جبير هو أول تفسير قرآنى كتبه المسلمون". وأخيرا فسواء ألف ابن جبير كتابا في التفسير أو كان ما تركه مجرد أقاويل شفهية تناقلتها الكتب والأفواه فمن الواضح أنها أقاويل بسيطة تخلو تمام الخلو من التعقيد والتعمق والإطالة والتفصيل، وأن فيها أشياء لا تدخل العقل أو ليس عليها دليل، وأن بعضها تفسير بالرأى.

ومن مفسرى التابعين مجاهد بن جبر (٢١-١٠٢ هـ). وهو، كابن جبير، أحد أصحاب ابن عباس رضى الله عنهما، ولقى الأكابر من الصحابة كابن عمر وجابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة، وحديث عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، إلا أن حديثه

عنها مرسل لأنه لم يسمع منها. ويعتمد عليه البخارى فى "صحيحه"، وينقل عنه كثيرا من تفسير القرآن الكريم. وقال ابن أبى مليكة: "رأيت مجاهدا سأل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، فقال ابن عباس: "اكتب" حتى سألته عن التفسير كله" ولكن أين هذا التفسير الذى أملاه ابن عباس يا ترى؟ معروف أن ثم كتابا فى التفسير ينسب لمجاهد، لكننى إنما أتساءل عن الكتاب الذى أملاه ابن عباس لا الذى يحمل اسم ذلك التابعى.

ومن أقاويل مجاهد التفسيرية فى الكتاب المنسوب إليه: "وإذا خَلَعُوا إلى شياطينهم: أصحابهم المنافقين والمشركين". "ويسألونك عن المحيض: أُمِرُوا أن يعتزلوا جماعة النساء فى المحيض". "فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله: أُمِرُوا أن يأتوهن إذا تطهرن من حيث نُهِوا عنه فى محيضهن". "وما ذُبَحَ على النُّصْب: حجارة كانت حول الكعبة كان يذبح لها أهل الجاهلية ويبدلونها إذا شَاؤُوا وإذا رَأَوْا ما هو أعجب إليهم منها". "سبعا من المثاني: هى السبع الطوال الأول". "واعبد رِيَّك حتى يَأْتِيكَ اليقين: الموت". "بنين وحَفَدة: يعنى أنصارا وأعوانا وخداما". "وهذا لسان عربى مبين: قالت قريش: إنما يَعْلَمُ محمدا عبدا لابن الحضرمى رومى، وكان صاحب كتب. يقول الله عز وجل: "لسان الذى يَلْحَدُونَ إليه أعجمى"، أى يتكلم بالرومية". "نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك: هو مثل قول الوليد بن المغيرة ومن معه فى دار الندوة". "وكان أمره فُرْطًا: يعنى ضياعا". "أُذِنَ للذين يقاتلون: خرج ناس مؤمنون مهاجرون من مكة إلى المدينة، فاتبعهم كفار قريش، فأذن الله لهم فى قتالهم، فأنزل الله عز وجل: "أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظَلَمُوا"، فقاتلوهم". "يَذْنِبْنَ عليهن من جلابيبهن: يتجلببن حتى يَعْلَمَ أنهن حرائر لا يَعْرِضُ لهن فاسقٌ بأذى من قول أو ريبة". "وبالأسحار هم يستغفرون: يصلون". "يوم يقول المنافقون:

...: إن المنافقين كانوا مع المؤمنين في الدنيا يناكحونهم ويعاشرونهم، ويكونون معهم أمواتا، ويعطون النور جميعا يوم القيامة، فيطفأ نور المنافقين إذا بلغوا السور يماز بينهم حينئذ، والسور كالحجاب في "الأعراف"، فيقولون: انظرونا نقتبس من نوركم". "ما قطعتم من لينة: يعنى من نخلة. ونهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل وقالوا: إنما هي مغانم للمسلمين. وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدو. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، فقال: إنما قطعوه وتركه بإذن الله عز وجل". "وتبتل إليه تبتيلا: أَخْلِصْ لَهُ إِخْلَاصًا". "لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ: النعيم هو العافية". "فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ: عند قيام الساعة وذهاب صالحى أمة محمد صلى الله عليه وسلم". "وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ: ينزوا بعضهم على بعض زناة في الأزقة". ولكن هل يكون عند أحد حتى لو كانت شهوته أعرم الشهوات، لدى النفخ في الصور والزلزلة ودمار الكون، عقل يفكر به في الزنا مجرد تفكير، فضلا عن ممارسته والنزوان على النساء في الأزقة؟

وعلى أية حال لا أرى ما بلغنا عن مجاهد من تفسير يختلف اختلافا يذكّر عن تفسير ابن جبير. فهو، مثله، يتسم بالبساطة والإيجاز وعدم تتبع القرآن كلمة كلمة، فضلا عن أن في تفسيره ما يقبل وما لا يقبل، وما اعتمد فيه على ما بلغه عن الرسول والصحابة وما استند فيه إلى عقله أو النقل عن أهل الكتاب، إذ ذكر أنه كان يسأل أهل الكتاب ويقتد ما يأخذه عنهم.

ومن التابعين المفسرين أيضا عطاء بن أبي رباح (ت ١١٤هـ). وقد سمع من ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو وأبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهم أجمعين. ويروى أن ابن عباس رضى الله عنه قد خاطب أهل مكة قائلا: تجتمعون إلى يا أهل مكة، وعندكم عطاء؟ وقال ابن عمر رضى الله عنه، وقد سئل في مسألة بمكة: تجمعون لى

المسائل، وفيكم عطاء بن أبي رباح؟ وبعض هذا الكلام قيل عن ابن جبير، ومن ذات الشخص نفسه أحيانا كما رأينا؟ إلا أنه لم يَرَوْ عنه الكثير من التفسير كمجاهد وسعيد بن جبير. وبعضهم يرجع ذلك إلى كثرة تورعه عن القول في كتاب الله برأيه، إذ رُوى أنه سئل عن مسألة، فقال: لا أدري. فقليل له: ألا تقول فيها برأيك؟ قال: إني لأستحي من الله أن يَدان في الأرض برأى. وهو موقف يشبه ما قيل عن ابن جبير.

ومما رُوى عنه من التفسير قوله في الآية التالية عن النساء النواشز: "واضربوهن: الضرب غير المبرح". وروى عنه أنه سأل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: السواك وشبهه. وفي قول آخر له: لا يضربها، وإن أمرها ونهاها فلم تطعه، ولكن يغضب عليها. وهو تفسير طريف يمشى مع الاتجاهات النسوية الإسلامية في وقتنا هذا. وهو يفسر "البقيات الصالحات" في قوله عز وجل: "والبقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ أملاً" بأنها "لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله". وفي قوله جل من قائل لموسى: "فقلنا: اضرب بعصاك الحجر" يقول عطاء: كان للحجر أربعة أوجه، لكل وجهٍ ثلاثة أعين، لكل سبطٍ عين، وكان يضربه موسى اثنتى عشرة ضربة، فيظهر على موضع كل ضربة مثل ثدى المرأة، فيعرق ثم يتفجر بالأنهار، ثم يسيل. وفي قوله سبحانه عن زكريا عليه السلام: "وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ" قال عطاء: كان في خلقها سوء، وفي لسانها طول، وهو البذاء، فأصلح الله ذلك منها. وقد علق عبد الواحد بكر عابد، في رسالته الجامعية المسماة: "عطاء بن أبي رباح وجهوده في التفسير"، بأن هذا القول من عطاء وغيره "مصدره الروايات الإسرائيلية التى لا يمكن قبولها إلا بطريق صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم، ولم يثبت ذلك، خاصة وأنها امرأة نبي الله زكريا عليه السلام". ولا أدري عمن أخذ عطاء ما قاله عن خُلُق زوجة زكريا، إذ هى في العهد الجديد وضاعة السيرة والصورة، وإن لم

يمنع هذا من أن تكون بعض زوجات الأنبياء عاصيات لله تعالى مزعجات لأزواجهن. أفلم تحك لنا سورة "التحريم" أن زوجتى نوح ولوط خانتا زوجيهما، فقبل لهما: "ادخلا النار مع الداخلين"، وإن كنا لا نعرف طبيعة تلك الخيانة؟ وفي قوله تعالى: "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله": لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله التى فرضها الله تعالى عليهم أن يؤدوها فى أوقاتها. وفي قوله عز وجل: "ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله": ذلك فى إقامة الحد عليه. وفي قوله سبحانه: "وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون": كانوا يقرضون الدراهم، أى يقصّون منها وينقصون من وزنها بكسر جزء منها أو مسحه.

وقيل له مرة: إن ههنا قومًا يزعمون أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص. فقال: "والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم". فما هذا الهدى الذى زادهم الله؟ وقيل أيضًا إنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله. فتلا قول الله تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. وذلك دين القيمة". ومن كلامه: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى أن يَقْرَأَ، أو أَمِيرٌ بمعروف أو نهى عن منكر، أو تنطق فى حاجتك فى معيشتك التى لا بد لك منها. أتذكرون أن "عليكم لحافطين * كراما كاتين" وأن "عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"؟ أمبا يستحى أحدكم لو نُشِرَتْ عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه؟

ومن مفسرى التابعين كذلك زيد بن على (٧٩-١٢٢هـ) صاحب "غريب القرآن"، وهو من ذرية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه. وقد خرج على الأمويين فى أربعين ألفا عاهدوه على الدعوة إلى الكتاب والسنة وجهاد الظالمين ورد المظالم ونصر آل البيت،

فقاتلته جيوش بنى أمية وقتلته بالكوفة. وقد قرأ على واصل بن عطاء، واقتبس منه الاعتزال. وكان هشام بن عبد الملك قد حبسه خمسة أشهر ثم أطلق سراحه. وعده الجاحظ من خطباء بنى هاشم.

ومن تفسيره شرحه لـ "العالمين" في قوله تعالى: "رَبِّ الْعَالَمِينَ": "الجنّ عالمٌ، والإنس عالمٌ، ويتنوّى ذلِكَ ثمانية عشر ألفَ عَالَمٍ من الملائكة على الأرض في كلِّ زاويةٍ منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم خلقَهُم لِعِبَادَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى". وهذا خبط بالغيب. ولوقال إن العوالم التى خلقها الله كثيرة لا يستطيع البشر الإحاطة بها لكان أفضل، أما تحديد عوالم الملائكة مثلاً بأنها ١٨ ألف عالم موزعون في أنحاء الأرض الأربعة في كل زاوية منهم ٤٥٠٠ عالم فلا أدري من أين له بهذا ولا من أحصاهم له ولا كيف، فضلاً عن الجرأة في توزيعهم على أركان البسيطة. فلا القرآن تطرق إلى هذا ولا الرسول تناوله. ثم إن الخوض فيه لا يفيد.

وهو يفسر قوله عز من قائل: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" بأنهم اليهود والنصارى. وهذا هو التفسير المشهور. أما أنا فأؤثر أن أقول إنهم هم كل من تبين له أن محمداً رسول الله رب العالمين لكنه عاند وتمرد وكفر أو عصى وتجبر وتأله وسام البلاد والعباد سوء الطغيان والعذاب والاستبداد واجتيال الأموال. وهؤلاء أوسع من أن ينحصروا في أهل الكتاب، بل يدخل فيهم الوثنيون والمجوس وعبدة الجهادات وعبدة البشر وعبدة الحيوانات والملاحدة، وكذلك العصاة المجرمون والمنافقون ممن ينتسب زوراً ومينا إلى دين محمد. وفي عصرنا هذا عرفنا الماركسية والوجودية والنازية والفاشية. ومن الأديان القديمة التى لم تكن في بال المسلمين البوذية والكونفوشيوسية والشتتوية. فكل من يتحقق من غير المنتسبين إلى الإسلام أن الإسلام هو الدين الحق، ثم يتعامى عن ضيائه الباهر ويكفر بنبيه وكتابه ويعاديه فهو من المغضوب عليهم والضالين حتى لو لم يكن يهودياً أو

نصرانيا. أما قصر التفسير على اليهود والنصارى فينبغى النظر إليه على أنه من باب التمثيل ليس إلا. وقد يكون السبب في ذلك أن الإسلام في عمره الباكر لم يجد في طريقه سوى هاتين الديانتين اللتين عاداته واصطدمتا به وحاولتا استئصاله، فكان من الطبيعي أن تتبادرا إلى ذهن مفسرينا الأوائل رضى الله عنهم.

على أن الغضب والضلال، كما أشرنا، ليسا مقصورين على غير المسلمين مثلما أن الهدى والرضا ليسا منحصرين فينا نحن أتباع محمد عليه السلام. ألم يكن بين الأمم السابقة مؤمنون مطيعون مستقيمون ينصاعون لما يقوله رسلهم ويلتزمون به ويتمسكون به؟ ألم يكن بين أتباع نوح وإبراهيم وموسى وعيسى مهتدون يحظون برضا الله عنهم؟ بلى كان بكل تأكيد. ثم أليس من بين المسلمين من يشايع أعداء وطنه ودينه، ومن يعمل بعكس تعاليم الإسلام عمدا وعن سبق إصرار وترصد؟ أليس بين المسلمين من يعيش هملا لا يعرف لحياته معنى ولا لوجوده غاية، فهو يأكل ويشرب ويتناسل ليس إلا، ويؤثر ما هو عليه من جهل وفوضى وقبح وتشوه وإجرام وتسبب وتبلى ولا مبالاة وتمرد على القانون وبذاءة وقذارة وفتنة، على العلم والنور والنظام والانضباط وحساسية الشعور والاهتمام واليقظة والجمال والرقى والنظافة وطيب الرائحة، ويكره كل من يحاول مديده إليه لانتشاله من تلك الظلمات المتراكبة التى يعشقها عشقا ويدوب فيها هياما وغراما؟ أليس بين المسلمين لصوص عتاة يختلسون من المال العام الملايين والمليارات ويتركون أمهم تتضور جوعا وعريا وبلا مسكن يليق بالآدميين؟ أليس بين المسلمين طغاة مجرمون سفاحون سفاكو دماء متغطرسون متألّهون تافهون لا يرحمون شعوبهم ولا يفكرون في ترقيتها والأخذ بيدها في مدارج الحضارة والتقدم، بل يعسفون بها عسفا ويعصرونها عصرا ويقتلون منها من يقتلون دون مبالاة بالعواقب ويأخذونها في مغامرات شيطانية إلى الدمار والخراب بغير

حسيب أو رقيب، ويمصون دماءها بلا شفقة أو رحمة؟ أليس بين المسلمين ثعالب منافقة خبيثة اتخذوا الدعوة الدينية محترفاً يأكلون به الدنيا أكلاً لمباً، فهم يبالغون الظالمين ويضللون الجماهير ويشغلونهم بالتفاهات والشكليات والبهلوانيات وتفصيل الشعر حتى لا يعرفوا شيئاً عن الدور الحضارى العظيم الذى يقوم به الإسلام وتنتقل به الأمم التى تؤمن به وتنتهج سبيله من الفقر إلى الغنى، ومن ظلمات الجهل المتراكبة إلى ضياء العلم الباهر، ومن التبلد إلى التوثب، ومن استعذاب الظلم والاستبداد إلى التلذذ بطعم الحرية والمجاهدة فى سبيل نيلها.

ولا أتصور إلا أن هؤلاء داخلون مع المغضوب عليهم والضالين، فإن الله سبحانه لم يكتب النجاة فى الآخرة للإنسان لمجرد أنه قد نطق بالشهادتين. وإلا فما أسهل الإسلام والإيمان، وما أرخصه على كل من هب ودب! إلا أنه لا بد من التمييز بين غضب وغضب، وبين ضلال وضلال. فهناك درجات ودركات لكل شىء فى هذا الوجود، وعلى رأسه الحساب الإلهى. وفى آخر المطاف لقد أطلق القرآن القول إطلاقاً، فذكر: "المغضوب عليهم والضالين"، ولم يقل: "اليهود والنصارى". ترى ما الذى منعه من تعيينهم بأسمائهم التى نعرفها بدلاً من هذا التعميم؟ إنه دائماً ما يذكرهم بـ "اليهود والنصارى" حين يريد التفصيل، وبـ "أهل الكتاب" حين يريد جمعهما معاً. فلم نأتى نحن ونحدد، وقد أطلق هو الكلام؟ كذلك فإن "الفاتحة"، التى ورد فيها ذكر "المغضوب عليهم والضالين" قد نزلت فى مكة مبكراً جداً قبل أن يصطدم الإسلام باليهود أو النصارى، بل قبل أن يبرز فى حياة الإسلام اليهود والنصارى، فكيف يهاجمهم الإسلام قبل تجريبه إياهم وظهور عداوتهم وبغضهم له؟ ثم إن "الفاتحة" بطبيعتها سورة تجريدية، فهى تخلو من القصص والجدال والتفاصيل، وتكتفى بمناجاة الله حمداً واستعانة وطلب هداية، ولا تتحدث عن أحداث أو أشخاص،

ومن ثم كان غريبا القول بأنها تدين اليهود والنصارى بَوَسِيم أولئك بـ"المغضوب عليهم"، وهؤلاء بـ"الضالين".

وفى عبارة "أو جاء أحد منكم من الغائط" يقول: "الغائط: الفَسَج من الأرض المتصوّب، أى المنحدر. وأراد به الكناية عن حاجة ذى البطن". وعند قوله تعالى: "فأتى الله بنيانهم من القواعد" يقول: "معناه: دمر الله عليهم. والله ليس بزائل ولا متنقل". يريد أن الله لا يأتى ولا يروح لأنه لا يتنقل. وهو لا يتنقل لأنه أكبر من المكان والزمان، فوجوده مطلق لا حد له، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. وهذا لون من التأويل حتى لا يتوهم متوهم أن الله يجرى عليه ما يجرى على المخلوقات. وهو اتجاه المعتزلة. وهناك آخرون يقولون إنه سبحانه يأتى، ولكن إتيانا يليق به وليس كإتياننا.

وبالنسبة إلى الآية الكريمة التالية: "فآويناها (أى عيسى وأمه) إلى ربوة ذات قرار ومعين" نراه يفسرها قائلا: "معناه: ضممناهما، يعنى عيسى وأمه. ورُبوة: مكان مرتفع. ويقال: رِبْوَة. والمعين: الماء الطاهر. وذلك بدمشق. ويقال: بمصر". ولكن أليس من الغريب أن مريم، عند انتباذها مكانا قصيا، تترك مدينتها كلها: "الناصره" بل بلادها جميعا: "فلسطين" على اتساعها وتذهب إلى دمشق أو مصر، وهى فتاة وحيدة حبل مرهقة عاجزة مرتعبة من الفضيحة ليس لها أسرة ولا عائل ولا صديقة ولا خادم؟ ثم إن القرآن قد سكت فلم يحدد المكان الذى اعتزلت فيه مريم الناس إلى أن وضعت عيسى، فعادت حينئذ إلى قومها تحمل رضيعها، فكان ينبغى أن يسكت على بن زيد أيضا.

أما قوله تعالى على لسان الرسول للمشركين: "وإننا أو إياكم لَعَلَى هُدًى أو فى ضلالٍ مبين" فيفسره بأن "معناه: أنتم فى ضلال، ونحن على هدى". وهو تفسير يربك تركيب الآية ولا يوصل مع ذلك إلى شىء. ذلك أن المعنى المراد هو أن كلا منا إما على هدى أو فى

ضلال. والله وحده هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة. وهذا أحسن الأبواب لسد أسباب العداوات والصدامات دون داع، وهو ما يعنى أن علينا سد باب التنازع وإيكال كل شىء إلى الله يفصل فيه يوم الحساب. وهذا مما لا وجود له فى الأديان الأخرى، وهو دليل العدل والمساواة، إذ يسوى المسلم من الناحية النظرية بينه وبين أهل غير دينه تفاديا للمراء المؤدى إلى العراك والاحتراب. ولو تابعنا قراءة الآيتين التاليتين لآيتنا هذه لوجدنا المعنى ذاته: "قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ". وفى قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَمَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"، "وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ"، "قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ" تعضيد لما نقول.

وفى "ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ" يقول: "معناه أن تعمل بالمعصية، وتتمنى المغفرة". ولدن تناوله "والذين تبوأوا الدار والإيمان" يقول: "معناه: نَزَلُوهَا. وقوله تعالى: "ولو كان بهم خصاصة": يعنى فقرا وحاجة. وقوله تعالى: "وَمِنْ يَوْقَ شَحَّ نَفْسِهِ" معناه: يمنع بخل نفسه. والشح: البخل. وقوله تعالى: "ولا يجدون فى صدورهم حاجة" معناه: حسدا. وقوله تعالى: "ولا تجعل فى قلوبنا غِلًا" يعنى غشا. وقوله تعالى: "لأنتم أشد رهبة" يعنى خوفا. وقوله تعالى: تحسبهم جميعا، وقلوبهم شتى "معناه: متفرقة". وعند تناوله لقوله تعالى فى خيانة زوجتى نوح ولوط قال إن امرأة نوح كانت تخبر الناس أنه مجنون، وكانت امرأة لوط تدل الناس على الأضياف. وما زنت امرأة نبي قط. أى أن الخيانة عنده لا يمكن أن تكون

خيانة عرض وشرف. وهذا من أحسن الأقوال، إذ لا أتصور أن يعرض الله نبيه للفضيحة والمهانة من هذا الجانب البالغ الحساسية القاصم لظهور الرجال الكرام.

وكتاب "غريب القرآن" تفسير موجز جدا كما ترى، ولا يتناول كل كلمة فضلا عن كل آية. وكثير منه مجرد شرح لغوى لِلْفُظَّة أو العبارة بأيسر طريق. وقد حاولت أن أجد شيئا يتعلق بعائشة أو حفصة أو أبويهما في هذا التفسير فلم أوفق إلى شيء. ترى هل هو عن قصد تجنباً لتلك المسائل الحساسة لأنه من ذرية النبي فلا يليق به أن يخوض ككثير من شيعة بيته في ذلك الموضوع فيسئ إلى جده محمد عليه السلام؟ أم هل هو عن مصادفة واتفاق؟ أم تراه لم يكن يقبل ما تقوله شيعة بيته عن صهرى الرسول وزوجتيه الكريمتين، لكنه تجنب إظهار ذلك مداراة لأولئك المتشيعين حتى لا يخسرهم؟ فمثلاً لم أره تطرق إلى الحديث عن حادثة الإفك في سورة "النور" البتة ولا عن المرأتين اللتين ظاهرتا على النبي عليه السلام في سورة "التحریم" مثلاً. أما "الجبت والطاغوت" في سورة "النساء" ف"الجبت: الكاهن، والطاغوت: الشيطان. يقال: الجبت والطاغوت كل معبود من حجر أو مدر أو صورة أو شيطان".

الحديث النبوى الشريف

السُّنَّةُ هِىَ المَصْدَرُ الثَّانِى لِلدِّينِ بَعْدَ الْقُرْآنِ، وَإِنْ كَانَ الشَّائِعُ الْقَوْلَ بِأَنَّهَا الْمَصْدَرُ الثَّانِى لِلتَّشْرِيعِ فَقَطْ. وَالْحَقُّ أَنَّهَا لَيْسَتْ الْمَصْدَرُ الثَّانِى لِلتَّشْرِيعِ فَحَسَبَ بَلْ لِلْعَقِيدَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسَّلُوكِ وَالذُّوقِ أَيْضًا. ذَلِكَ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَكُنْ يَتَنَاوَلُ فِي أَحَادِيثِهِ أُمُورَ التَّشْرِيعَاتِ وَحَدِّهَا بَلْ كَانَ يَتَنَاوَلُ مَعَهَا الْأَخْلَاقَ الْكَرِيمَةَ وَالتَّصَرُّفَاتِ الْقَوِيمَةَ وَالذُّوقَ الرَّاقِىَّ وَالْعَقِيدَةَ السَّلِيمَةَ وَمَا إِلَى هَذَا كَمَا نَعْرِفُ جَمِيعًا. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَلَا وَإِنِّى أَوْتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ". فَمِثْلُ الْكِتَابِ هُوَ السَّنَةُ الشَّرِيفَةُ. وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِىٌّ، فَلَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنَّ يَكُونَ الرَّسُولَ مَجْرَدَ حَامِلٍ لِلْوَحَى لَا يَصْنَعُ شَيْئًا آخَرَ غَيْرَ تَبْلِيغِهِ مَهْمَا عَجَزَ النَّاسُ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَمَهْمَا وَقَفُوا حَائِرِينَ أَمَامَ النَّصِّ لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَطْبِقُونَهُ أَوْ كَيْفَ يَنْزِلُونَ الْوَاقِعَةَ الَّتِى أَمَامَهُمْ عَلَى الْمُبَادِئِ الْعَامَةِ الَّتِى يَتَضَمَّنُهَا، أَوْ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي حَيْصٍ بَيِّصٍ لِأَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِهَذِهِ التَّفْصِيلَةِ أَوْ تِلْكَ. فَمَنْ الطَّبِيعِىُّ أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّسُولُ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ وَأَشْبَاهِهَا. وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الرَّسُولِ فِي الدِّينِ صَحِيحًا مَا دَامَ الْقُرْآنُ لَمْ يَنْزَلْ بِتَصْحِيحِهِ، وَإِلَّا فَمَنْ يَكُونُ كَلَامُهُ صَحِيحًا يَا تَرَى؟

أَمَّا إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ يَخَالِفُ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ أَوْ عَمِلَهُ فَهَذَا أَمْرٌ اسْتِثْنَائِىٌّ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَلِيلٌ. وَهَذَا يُوَكِّدُ أَنَّ سَائِرَ كَلَامِهِ فِي الدِّينِ صَحِيحٌ مَا دَامَ الْقُرْآنُ لَمْ يَخَالِفْهُ فِيهِ. وَبِالْمُنَاسَبَةِ فَإِنَّ الْأُمُورَ الَّتِى عَاتَبَهُ الْقُرْآنُ فِيهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى حَبِّهِ لِدَعْوَتِهِ وَحِرْصِهِ عَلَى خِدْمَتِهَا بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُ وَمِيلِهِ لِلتَّيْسِيرِ عَلَى الْعِبَادِ وَاجْتِهَادِهِ فِي رَاحَتِهِمْ، لَكِنِ الْوَحَى يَنْزِلُ رَغْمَ ذَلِكَ مَبِينًا أَنَّ خِلَافَ مَا صَنَعَ هُوَ الْأَوَّلَى، إِذْ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، الَّذِى يَعْرِفُ مَصْلَحَةَ الْعِبَادِ أَفْضَلَ مِنْ أَى إِنْسَانٍ حَتَّى لَوْ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ نَبِيًّا رَسُولًا.

وقد يقول قائل إن العبد الصالح في سورة "الكهف"، وهو لا نبي ولا رسول، كان يعرف أكثر مما يعرف موسى النبي الرسول. لكن لا بد من توضيح بعض النقاط كي ينجلى الأمر على حقيقته: فالعبد الصالح لم يكن يعرف من الدين أكثر مما يعرفه موسى، بل أطلعه الله على ما سوف يقع بعد مدة، فرأى النتائج المستقبلية التي لم يرها موسى، ومن ثم كان حكمه على الأشياء أدق. وهذه الأشياء ليست من الشريعة ولا من الأخلاق ولا من العقيدة بل من أمور الدنيا. كما أن هناك خلافا حول شخصية ذلك العبد الصالح: فمن قائل إنه مَلَكٌ، ومن قائل إنه بشرٌ. بل إن هناك خلافا حول شخصية موسى أيضا: فهل هو يا ترى موسى الرسول الكريم الذي بعثه الله لهداية بنى إسرائيل؟ أم هل هو موسى آخر؟ وإذا كان الأخير فمن هو يا ترى؟ وأنا أتصور أن العبد الصالح مَلَكٌ، وربما كان ملك الموت، إذ أخذ روح الغلام بناء على أنه حين يكبر سوف يرهق أبويه من أمرهما عسرا. ولو كان العبد الصالح بشرا ما جاز له ذلك، إذ الإنسان لا يعاقب في القانون ولا في الدين على شيء لم يفعله بعد. وهذا الملك قد بعثه الله ليبين لعبده موسى كيف أن ظواهر الأمور كثيرا ما تخدع وتضلّل. نعم أتصور أن العبد الصالح ملك، وإلا فمن هو يا ترى؟ ولماذا لم يظهر في حياة موسى عليه السلام أو أحد آخر غيره بعد ذلك؟ ومن أين أتى؟ وإلى أين ذهب؟ إن أمره كله غامض، ولا يقاس عليه. وما يهمنا هو أنه لا يفوق موسى علما ودينا بل معرفة بالمستقبل ليس إلا، وهو لم يكن يعلم هذا المستقبل من تلقاء نفسه، بل الله هو الذي أطلعه عليه لأن معرفة الغيب هي من اختصاصه سبحانه: فإن شاء أعلمه بعض خلقه من رسولٍ أو مَلَكٍ، وإن شاء أخفاه عن العباد جميعا.

إذن فالرسول ليس مجرد مبلغ للقرآن عن ربه، بل يتكلم ويحكم ويفتى ويشرع ويوجه الأخلاق والسلوك ويرقى الذوق ويصحح العقيدة ويهدي الضمير. وعلى هذا فإن أحاديثه

جزء أساسى من الدين، فهى المصدر الثانى بعد القرآن. وقد حذر الرسول المسلمين أن ينكروا السنة بحجة أن فى كتاب الله الكفاية: "ألا هل عسى رجلٌ يُلْغُهُ الحديثُ عنى وهو مُتَكَيٍّ على أريكته، فيقول: "بيننا وبينكم كتابُ الله: فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه". وإنَّ ما حرّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلّم كما حرّم الله"، "لا ألفينَ أحدكم مُتَكَيِّئاً على أريكته يأتية الأمر من أمرى ممّا أمرتُ به أو نهيتُ عنه، فيقول: "بيننا وبينكم هذا القرآن. فما وجدنا فيه من حلالٍ أحللناه، وما وجدنا فيه من حرامٍ حرّمناه". ألا وإننى أُوتيتُ الكتابَ ومثلهُ معه".

والواقع أنه بدون الحديث يمكن أن يقع كثير من الناس فى أخطاء شنيعة، فيشربوا الخمر مثلاً اعتماداً على الآية التالية: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا إذا ما اتَّقَوْا وآمنوا وعلّموا الصالحات ثم اتَّقَوْا وآمنوا ثم اتَّقَوْا وأحسنوا". فالآية فى ظاهرها تقول إن المهم الإيمان والتقوى والعمل الصالح، وليس هناك أى بأس بعد ذلك فى أن يأكل الإنسان ويشرب ما يشاء، فإنه لا يضر. إلا أن هناك فئة تنتسب إلى الإسلام ظهرت فى العصر الحالى تنكر الأحاديث ولا ترى سوى القرآن، وترفض ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير، ولا ترى له قيمة. بل إن بعضهم ينفى أن يكون الرسول قد نطق بشيء آخر سوى القرآن، وكأنه جهاز تسجيل وليس إنساناً ذا عقل وقلب وضمير وشعور بالمسؤولية وقدرة على الشرح والتوضيح والتطبيق والحكم والتوجيه. وهذه الفئة تسمى: القرآنيين.

ولتلك الطائفة بذرة قديمة، فقد ذكر ابن تيمية فى "رسالة الفرقان بين الحق والباطل" عن الخوارج أن "أصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب أتباعه، لكن خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يروون أتباع السنة التى يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك". وبالمثل نراهم لا يوافقون على المسح على الخفين لأنه ليس مذكوراً فى كتاب الله. كذلك فإن

النجيدات أضافت إلى ذلك إسقاط حد الخمر لعدم وروده في القرآن، كما أباحت نكاح الجد لحفيده، والعم لبنات أخيه، والخال لبنات أخته لأن القرآن لم يذكرهن في المحرمات. وكان بعض المعتزلة على الأقل لا يروون في الحديث المتواتر حجية، لجواز دخول الكذب عليه. كما كان النظام يعدّ أبا هريرة أكذب الناس.

وفي كتاب "الأم" يورد الشافعي حواراً بينه وبين أحد منكرى السنة في عصره أو آخر القرن الثاني الهجري. وهذا نص كلامه: "قال لي قائل ينسب إلى العلم بمذهب أصحابه: أنت عربي، والقرآن نزل بلسان مَنْ أنت منهم، وأنت أدري بحفظه، وفيه لله فرائض أنزلها لو شك شكاً قد تلبّس عليه القرآن بحرف منها استتبتّه، فإن تاب وإلا قتلته، وقد قال عز وجل في القرآن: "تبياناً لكل شيء". فكيف جاز عند نفسك أو لأحد في شيء فرضه الله أن يقول مرة: الفرض فيه عام، ومرة: الفرض فيه خاص، ومرة: الأمر فيه فرض، ومرة: الأمر فيه دلالة، وإن شاء ذو إباحة، وأكثر ما فرقت بينه من هذا عندك حديثٌ ترويه عن رجل عن آخر عن آخر، أو حديثان أو ثلاثة، حتى تبلغ به رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقد وجدتك ومن ذهب مذهبك لا تبرئون أحداً لقيتموه وقدمتموه في الصدق والحفظ، ولا أحداً لقيت ممن لقيتم من أن يغلط وينسى ويخطيء في حديثه، بل وجدتك تقولون لغير واحد منهم: أخطأ فلان في حديث كذا، وفلان في حديث كذا. ووجدتك تقولون: لو قال رجل لحديث أحللتم به وحرمت من علم الخاصة: لم يقل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما أخطأتم أو من حدثكم، وكذبتم أو من حدثكم، لم تستيبوه، ولم تزيدوه على أن تقولوا له: بئس ما قلت. أفيجوز أن يفرق بين شيء من أحكام القرآن، وظاهره واحد عند من سمعه، بخبر من هو كما وصفتم فيه، وتقيمون أخبارهم مقام كتاب الله، وأنتم تعطون بها، وتمنعون بها؟ فقلت: إنما نعطي من وجه الإحاطة أو من جهة الخبر الصادق وجهة القياس، وأسبابها عندنا

مختلفة. وإن أعطينا بها كلها فبعضها أثبت من بعض. قال: مثل ماذا؟ قلت: إعطائي من الرجل بإقراره، وبالبينة، وإبائه اليمين، وحلف صاحبه. والإقرار أقوى من البينة، والبينة أقوى من إباء اليمين ويمين صاحبه. ونحن، وإن أعطينا بها عطاءً واحداً، فأسبابها مختلفة. قال: وإذا قمتم على أن تقبلوا أخبارهم وفيهم ما ذكرت من أمركم بقبول أخبارهم، ما حجتكم فيه على من ردها وقال: لا أقبل منها شيئاً إذ كان يمكن فيهم الوهم، ولا أقبل إلا ما أشهد به على الله، كما أشهد بكتابه الذى لا يسع أحداً الشك فى حرف منه، أو يجوز أن يقوم شىء مقام الإحاطة، وليس بها؟".

ومن الذين يقولون بذلك أيضاً طائفة ممن تعزو نفسها للإسلام من أهل الهند ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر منها مولوى عبد الله جكرالوى ومولوى أحمد الدين أمرتسى ومولانا أسلم جراجبورى وغلان أحمد برويز على ما وضع د. خادم بخش فى كتابه القيم: "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة". وقد انتشرت تلك الدعوة حتى وجدنا من أولئك القرآنيين عدداً من المصريين يتزعمهم د. أحمد صبحى منصور المدرس السابق بجامعة الأزهر، والمقيم حالياً فى أمريكا. فهو، فى كتابه: "القرآن وكفى مصدراً للتشريع" المملوء بالأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية المزعجة، يهاجم بشراسة بالغة الأحاديث وجامعى الحديث. ومما قاله فى هذا الصدد أن كل واحد من أصحاب كتب الحديث النبوى الشريف قد انتخل أحاديث كتابه من عشرات آلاف الأحاديث مما يدل، كما يقول، على أن الغش كان قد استشرى فى ذلك الباب. والواقع أن هذا دليل ضده لا له، إذ لو كان المحدثون قد اخترعوا الأحاديث التى تضمها كتبهم حسبما تقول فلم أتعبوا أنفسهم فى الغرلة والنخل؟ نعم لماذا لم يأخذوا كل حديث قابلهم وضمّنوه كتبهم ما دام الأمر تدليسا فى تدليس؟ إن هذا فى الواقع برهان على أن علماء الحديث، رضوان الله عليهم، كانوا يطبقون منهجاً علمياً محكماً ولا

يقبلون الأشياء على علائها، وإلا فلو كانوا قد اخترعوا الأحاديث النبوية للإساءة إلى الإسلام كما تدعى فى كتابك فلم يا ترى كانوا يتعبون أنفسهم ويعيدون النظر فيما اخترعوه وزيفوه لينتقوا منه أشياء ويحذفوا منه أشياء؟

أما قوله إن الإسلام لم ينتظر البخارى ومسلم وبقية علماء الحديث حتى يؤلفوا كتبهم تلك، بل كان المسلمون يمارسون دينهم قبل هؤلاء بقرون فالرد عليه من أسهل الأشياء. فقد كان المسلمون يستعينون طوال تلك القرون بالأحاديث النبوية أيضا، وكل ما فعله علماء الحديث أنهم أرادوا غربلة الأحاديث المنسوبة للنبي وتبويبها بحيث يجد القضاة والمفتون وأصحاب المذاهب الفقهية مجموعات الأحاديث بين أيديهم منظمةً جاهزةً لا تحوجهم كل مرة إلى تقويمها والتثبت من صحتها. وليس معنى هذا أن الأحاديث التى جمعها أهل الحديث هى فوق النقد، فما هم فى نهاية المطاف إلا بشر يصيبون ويخطئون، شأنهم شأن أى عالم آخر فى أى ميدان من ميادين العلم. لكنهم قد بذلوا مع ذلك جهودا عبقرية فى الفحص والتقويم والتصنيف!

كذلك يزعم أحمد صبحى منصور أن الأحاديث النبوية تناقض القرآن وتحاربه. وهذا كلام تافه، إذ متى كانت أحاديث الرسول مناقضة للقرآن؟ إن ذلك لو حدث فمعناه أن تلك الروايات ليست من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا قليلٌ جدُّ قليلٌ فى كتب الحديث المعتمدة كما يعرفه كل من له خبرة فى هذا المجال، اللهم إلا إذا ثبت أن التناقض المزعوم ليس تناقضا بل هو تخصيص لحكم عام مثلا، أو استثناء لحالة من الحالات التى لها ظروف مختلفة، أو حكم وقتى انتهى العمل به وبقي الحديث الذى يتناوله لم يندثر... وما إلى ذلك.

وما استند إليه منصور أيضا فى محاربة السنة النبوية زعمه بأن وظيفة النبي محمد فى القرآن لا تزيد عن التبليغ البتة. أى أنه عليه السلام لم يكن أكثر من جهاز تسجيل. والرسول

عليه السلام لا يحق له، بمقتضى مزاعم منصور، أن يفتح فمه برأى أو اجتهاد أو تفسير أو فتوى أو تنزيل للحكم القرآنى على هذه الحالة أو تلك من الحالات الفردية... ترى ألم يحدث قط أن سأل أحد الصحابة النبى عليه السلام عن معنى آية قرآنية استعصى فهمها عليه، أو جاءه أحد المسلمين يستفتيه فى حالة خاصة لا يعرف كيف يطبق عليها الحكم القرآنى العام، أو تحركت نفسه الشريفة لوعظ أصحابه بكلام من عنده يستوحى فيه القرآن؟ كذلك كان الرسول الكريم حاكما وقائدا عسكريا وقاضيا، إلى جانب كونه نبيا مبلغا للوحى. وهو ما يعنى أنه عليه السلام قد ترك لنا تراثا من الأحاديث غالبا ينبغى أن نتمسك به حتى نفهم الإسلام فهما سليما. ولا يكتفى أحمد صبحى منصور بذلك بل يشترط فيدعى أن النبى عليه السلام خطب الجمعة أكثر من خمسمائة مرة، ومع ذلك لم تحفظ له خطبة جمعة واحدة، إذ كان يخطب الجمعة بالقرآن.

إن القرآن بوجه عام إنما يمثل دستور المسلمين، فإذا قلنا إننا محتاجون إلى صوغ قوانين تنظم حياتنا، أيمكن أن يقول لنا قائل إن محاولة صياغة هذه القوانين تتناقض مع وجود القرآن؟ إن القرآن يكتفى فى معظم الأحيان بالنص على الخطوط التشريعية العريضة والمبادئ الأخلاقية العامة، ثم يأتى الحديث النبوى فيقدم لنا الفتاوى والأحكام التفصيلية التى تستوحى تلك المبادئ العامة وتحولها إلى تطبيقات عملية يومية. ورغم ذلك كله فإنها لا يقدمان لنا أحكاما مباشرة جاهزة للوقائع التى تستجدّ مع الأيام، بل لا بد للفقهاء أن يعملوا عقولهم ويستوخوا نصوص القرآن والسنة كى يصلوا إلى الحكم الصحيح لهذه الوقائع والنوازل المستجدة... وهكذا.

والحق أن القرآن والسنة النبوية يشبهان كتابا ذا هوامش وحواشٍ: القرآن فيه يمثل المتن، والحديث يقوم بدور الشرح، ولا تعارض البتة بين الاثنين. وكلام الرسول وأفعاله هى

جزء من الوحي، إلا إذا اجتهد الرسول عليه السلام من عند نفسه ولم توافقه السماء على ما اجتهد، فعندئذ ينزل القرآن منها إياه بوجوب العدول عن هذا أو باستحسانه على الأقل: "عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وما يدريك؟ لعله يَزَكَّى * أو يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أما مَنِ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وما عليك إِلَّا يَزَكَّى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كلا، إنها تذكرة"، "يا أيها النبي، لم تحرم ما أحلَّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم؟"، "وإذا قيل لهم: تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سواءٌ عليهم أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ. لن يغفر الله لهم، والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ".

وهناك رُؤَى رآها صلى الله عليه وسلم في المنام وحدّث بها من حوله، وحوارات دارت بينه وبين المؤمنين أو مجادلات قامت بينه وبين الكافرين، فضلا عما كان يجري بينه وبين المسلمين وغير المسلمين من حوارات لم ينزل بها وحى، ومن ثم لم تكن تبليغا. وهناك أيضا حُكْمُ النَبِيِّ وقضاؤه بين المتخاصمين، وهذا طبعا غير القرآن. وهناك تصرفات تصرفها النبي ووافقه القرآن فيها أو عاتبه عليها. وهناك رأى ارتآه النبي من عند نفسه... إلخ. وهذا كله برهان على أن ما يصور به أحمد صبحي منصور رسول الله عليه الصلاة والسلام من أنه لم يكن أكثر من آلة تسجيل ليس فيها إلا أشرطة للقرآن الكريم هو ضلال في ضلال!

فإذا أضفنا إلى ما مرّ أن في القرآن أحكاما كثيرة أتت جملة عامة، وتحتاج عند التطبيق إلى النظر فيها لاستخراج الحكم في هذه الواقعة الخاصة أو تلك لتنزيلها عليها، تبين لنا على نحو يقينى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد جهاز تسجيل. مثال ذلك آية السرقة في سورة "المائدة"، التى لا بد أن تثير عند قراءتها الأسئلة التالية: ما قيمة المبلغ الذى تُقَطَّع عنده يد السارق؟ وهل تُقَطَّع في كل الأحوال أم هل هناك ظروف وشروط معينة لا بد من توفرها

حتى يتم القطع؟ وكيف ينفذ هذا القطع؟ بل ما معنى القطع؟ كذلك عندنا الزكاة، ولكن كيف يخرج المسلم زكاته؟ وما نصائبها؟ وما نسبتهما إلى ماله؟ وهل الزكوات كلها شيء واحد أم هل تختلف حسب نوع المال المزكى عنه؟ وهل لا بد من إخراجها عيناً أم هل من الجائز أن نخرجها نقداً؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك، إلى جانب القرآن الكريم، مندوحة واسعة للمساهمات النبوية من خلال القول والسلوك والتطبيق والحكم... إلخ.

أما بالنسبة لما قاله أحمد صبحي منصور عن الصلاة وأنها إنما وردت لنا من أيام إبراهيم عليه السلام ولم ترد عن طريق السنة النبوية، فيا ترى كيف وصلت إلى العرب على أيام النبي؟ أترى العرب في الجاهلية كانوا يصلون على النحو الذي كان يصلى عليه إبراهيم طوال كل هاتيك القرون منذ عصر أبى الأنبياء حتى عصر محمد؟ أم وصلتنا في كتاب من كتب إبراهيم؟ فأين يا ترى ذلك الكتاب؟ وهل كانت صلاة إبراهيم تتضمن مثلاً "الفاحة" وآيات القرآن، التي لم تكن قد نزلت بعد، أم ماذا؟ ثم كيف يسكت القرآن فلا يذكر أن صلاة النبي محمد وأتباعه ليست شيئاً آخر غير صلاة إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء؟ الواقع أنه ليس أمامه إلا الإقرار بأنها إنما وصلت إلينا من خلال سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليس إلا. وبالمناسبة فأحمد صبحي منصور يصلى صلاة تختلف تماماً عن صلاتنا في مواعيدها وركعاتها وأقوالها وطريقة تأديتها. فكيف، وهو يقول إن مسألة كهذه لا يمكن أن يقع فيها الاختلاف؟ ثم ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة لو لم تكن هناك أحاديث تضبط تلك المسألة؟ لا ريب أن الاختلاف سيكون في تلك الحالة أشد وأزعج. وعلى ذلك فقس كل أمور الدين والحياة بالنسبة للمسلمين، إذ إن العلماء والفقهاء والمفتين مختلفون الآن رغم وجود الأحاديث، التي تضبط فهمنا للقرآن، فماذا يحدث إن لم تكن هناك أحاديث؟ يقينا لسوف تزداد شقة ذلك الخلاف ازديادا فاحشا يثمر فتنة لا تبقى ولا تذر، ويتفتت المسلمون ويصيرون شذرا مذر!

وأما بالنسبة لحُطْبِهِ صلى الله عليه وسلم في الجمعة وغيرها فقد كانت كل خطبة تتكون من كلامه لا من القرآن، وإن لم يمنع هذا من الاستشهاد أحيانا ببعض الآيات الكريمة. ومن بين تلك الخطب خطبته مثلا يوم أُحُد. وهذا نصها: "أيها الناس، أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه من العمل بطاعته والتناهي عن محارمه. ثم إنكم بمنزلة أجرٍ وذخِرٍ لمن ذكر الذي عليه ثم وَطَّنَ نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديدٌ كَرْبُهُ، قليلٌ من يصبر عليه، إلا من عزم له على رشده. إن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله. وعليكم بالذي أمركم به، فإنني حريص على رشدكم. إن الاختلاف والتنازع والتشيط من أمر العجز والضعف، وهو مما لا يحبه الله، ولا يعطى عليه النصر. أيها الناس، إنه قذف في قلبي أن من كان على حرامٍ فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر له ذنبه. ومن صلى على محمد صلى الله عليه وملائكته عشرا، ومن أحسن وَقَعَ أجرُهُ على الله في عاجل دنياه أو في آجل آخرته. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا. ومن استغنى عنها استغنى الله عنه، والله غنى حميد. ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله إلا وقد أمرتكم به، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه. وإنه قد نفث الروح الأمين في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها لا ينقص منه شيء، وإن أبطأ عنها. فاتقوا الله ربكم وأجلوا في طلب الرزق، ولا يحملنكم استبطاؤه على أن تطلبوه بمعصية ربكم، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته. قد بُيِّنَ لكم الحلال والحرام، غير أن بينهما شبهة من الأمر لم يعلمها كثير من الناس إلا من عصم. فمن تركها حفظ عرضه ودينه، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى أو شك أن يقع فيه. وليس مَلِكٌ إلا وله حمى. ألا

وإن حمى الله محارمه. والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد: إذا اشتكى تداعى إليه سائر جسده. والسلام عليكم".

وهو أيضا يهاجم من يعدون سنة البخارى وغيره مصدرا من مصادر التشريع فى الاسلام متسائلا: هل يعقل أن تظل مصادر التشريع فى الإسلام ناقصة الى أن يأتى البخارى وغيره بعد موت النبى بقرون ليكملوها؟ وماذا نفعل بقوله تعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً"؟ فعنده أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع، إلا أن المسلمين أضافوا له مصادر أخرى توسعت بها الفجوة بينهم وبين الإسلام. وكان من بين تلك المصادر الأحاديث والسنن، وكلهم مختلفون فيها جزئيا وكليا. وعنده أن تلك الأحاديث ليست جزءا من الإسلام. وأولئك الذين يعدونها من الإسلام إنما يتهمون النبى عليه السلام بأنه لم يبلغ الدين كاملا وبأنه فرط فى تبليغ هذا الجزء.

هذا ما قاله أحمد صبحى منصور. والواقع أنه يتلاعب هنا بالكلمات، فنحن لا نؤمن بسنة البخارى ولا غير البخارى بل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التى جمعها ودونها هؤلاء الأفاضل. وكانت تلك السنة موجودة منذ أيام النبى، ودون بعض الصحابة أشياء منها، وكان المسلمون يحفظونها، ويلجأون إليها فى تشريعاتهم حين لا يجدون فى القرآن مبتغاهم وجودا مباشرا مثلما كانوا ولا يزالون يستخدمون عقولهم واستنتاجاتهم وقياساتهم عندما لا يجدون فى القرآن والحديث مبتغاهم وجودا مباشرا. وكل ما صنعه أصحاب كتب الحديث هو أنهم نقلوا أحاديث النبى من الصدور والأفواه والصحف إلى كتب ألفوها هم وبوئوها حتى تكون تحت يد من يريد فلا يضيع وقته فى البحث عنها ولا فى التحقق منها بدءا من نقطة الصفر. ترى هل يصح أن نقول إن الناس لم تكن تتنفس إلى أن صنف العلماء والأطباء كتباً فى الجهاز التنفسى والشهيق والزفير وشرحوها عملية التنفس؟ فكذلك الحال فى كتب الحديث.

أما قوله إن المسلمين يعدون ما كتبه البخارى وغيره هو السنة النبوية، ويدّعون أنها وحى من السماء رغم أن ذلك الوحي قد امتنع عن كتابته الرسول والخلفاء الراشدون وغير الراشدين إلى أن جاء بعض الناس كالبخارى وغيره فتطوعوا بدافع شخصى لتدوين تلك السنة، بما يعنى أن الإسلام ظل ناقصا إلى أن تطوع البخارى وغيره لإكماله في عصور الفتن والاستبداد والانحلال، أما قوله هذا فهو قول متهافت لا يصمد أمام النظر العقلى. فأى دافع شخصى بعث البخارى أو غيره على تأليف "صحيحه" أو "مسنده" يا ترى؟ هل كان يريد ملكا أو مالا أو جاها؟ فكيف؟ إننا لا نقول إن كل ما جمعه البخارى أو غير البخارى في كتابه صحيح مائة في المائة، بل نقول إنهم قد بذلوا في تلك السبيل جهودا عبقرية نبيلة نرجو أن يجازيهم الله عليها خير الجزاء. وهم لم يأتوا بتلك النصوص من عندياتهم بل جمعوا ما كان متداولاً على الألسن أو محفوظاً في القلوب أو مثبتاً في الصحف ويعمل به المسلمون في تصريف شؤونهم التشريعية والأخلاقية والسلوكية والعقيدية. إنهم، كما قلنا ونقول، لم ينشئوها من العدم، بل كانت موجودة، وكل ما صنعوه هو أنهم جمعوها وتحققوا من صحتها وبوثبوا حتى يكون استعمالها سهلاً ميسوراً لمن يريد.

وهنا نراه يلجأ إلى اتهام البخارى بأنه أساء بأحاديثه تلك إلى مقام النبى الكريم، موردا حديثاً يقرؤه بطريقته المريبة زاعماً أن البخارى يصور فيه الرسول عليه الصلاة والسلام بصورة من يريد اغتصاب امرأة من النساء، مع أن الحديث إنما يتكلم عن سيدة كان النبى قد خطبها وعقد عليها لكنه لم يكن قد دخل بها. وتصادف أن وصلت الزوجة المذكورة إلى النبى وهو في بعض الطريق مع صحابته، وأنزلت في بستان، فترك النبى أصحابه ليرى زوجته الجديدة، فما كان منها حين رآته يمد يده إليها إلا أن استعازت بالله ظناً منها أن ذلك سيجعلها أحظى عنده حسباً أفهمها بعض زوجات النبى. فكان أن أجابها الرسول عليه الصلاة

والسلام قائلاً: عُدْتُ بمعاذ. أى أنت الآن فى حماية الله ما دمت قد استعذت به. ثم سرَّحها إلى أهلها تسريحا جميلا وأكرمها وأعطاهما بعض المال تطيبا ل خاطرهما رغم انخداعها بما سمعت وتنفيذها له بالحرف مما لا يجعلها أهلا لأن تكون زوجة النبى. إن الحديث الذى استشهد به أحمد صبحى منصور على صحة اتهامه للبخارى هو حديث موجز لا يعطى الصورة كاملة كما شرحتها هنا، بيد أن الرجوع إلى روايات الحديث الأخرى من شأنه أن يجلِّ الصورة تجلية تامة ويوضح ما أراد منصور التعمية عليه ليصدّق القراء المتعجلون اتهامه المجحف للبخارى رضى الله عنه.

ومن الحجج التى يلجأ إليها أحمد صبحى منصور فى محاربته للحديث النبوى الشريف تفسيره العامى لقوله تعالى شأنه: "ما فرطنا فى الكتاب من شىء"، وقوله سبحانه: "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء"، متصورا أنه يمكنه الاستدلال به على وجوب استغناء المسلم بالقرآن عن كل شىء آخر. والحق أنه لو كان صادقا فى هذا الذى يقول لكان أولى به أن يمزق كتبه ومقالاته أيضا. أليس القرآن قد ذكر كل شىء، وبين كل شىء، ولم يفرط فى أى شىء؟ وهذا يذكرنى بالسؤال الذى كنا نسمعه فى صبانا من بعض العامة حولنا: "إذا كان القرآن فيه تبيان كل شىء، فكيف لم يذكر عدد الأرجفة التى تنتجها أفران مصر على سبيل المثال؟". إننا لا نشاح فى أن القرآن قد بين كل شىء ولم يفرط فى ذكر أى شىء، ولكن بمعنى غير هذا المعنى العامى الساذج. إن القرآن كثيرا ما يكتفى برسم الخطوط العامة ثم يتركنا نستخلص منها ما نعالج به مشاكلنا التى تتجدد مع الأيام.

وقد كان الرسول هو أول من قام بتطبيق مبادئ القرآن واستخراج الأحكام التفصيلية من مبادئه وتشريعاته العامة وتطبيقها على الوقائع التى تستجد كل يوم، فكيف يطلب منا أن نهمل ما تركه لنا الرسول الكريم على اعتبار أنه يتناقض مع إيماننا بالقرآن؟ أما قوله إن "النبى

يوم القيامة سيعلن براءته من أولئك الذين تركوا كتاب الله وهجروه جريا وراء مصادر أخرى ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان: وقال الرسول: يا ربّ، إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا" فهو تكرير للاتهامات الظالمة التي لا يكلّ ولا يملّ من توجيهها لعلماء الحديث خاصة، والمسلمين عامة، إذ لا يوجد مسلم يستعيز بكتب الحديث عن كتاب الله، بل كل ما هناك أنها تساعدنا على فهم القرآن وتطبيقه على أحسن وجه ممكن، بدلا من الانفلات في أجواز الفضاء دون ضابط ولا رابط كما يفعل هو نفسه ومن على شاكلته. ثم هل يمكن أن يعلن النبيُّ براءته ممن يشهد له صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة ويقف مع من يكفر الذي يقول: "أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله"؟ وإذا كانت الشهادة لمحمد بالنبوة والرسالة كفرا وشركا وإثما، فما هي الشهادة يا ترى التي تُرضى الله ورسوله؟

وهو يؤكد، ونحن أيضا نؤكد معه، أن النبي صلى الله عليه وسلم هو المثال الأعلى في الخلق والسلوك والعقل والفصاحة والدعوة والتخطيط والقيادة العسكرية والزعامة السياسية. لكننا نتساءل: ترى كيف تواتى المسلم الحق نفسه على إهمال ذلك التراث النبوي العظيم والبدء كل مرة من جديد دون محاولة الاستفادة من هذا التراث الذي يقول فيه منصور قصائد ولهي ليستدير فيفاجئنا بأن علينا نبذه تماما، وإلا كنا مشركين كافرين؟ ثم إذا كان الوحي قد عاتبه عليه السلام فيما لم يوافقه عليه، وفي ذات الوقت لم يعترض على شيء مما وصلنا من أحاديثه وتصرفاته الشريفة الأخرى، أفلا يحق لنا أن نفهم أن هذه الأحاديث والتصرفات تحظى من القرآن بالرضا والقبول؟ ألا يرى القارئ أن منصور يتخبط تخبطا عنيفا ولا يستطيع أن يهتدى إلى الخروج من المأزق الذي أوقع نفسه فيه سبيلا؟

كذلك نراه يقول إن ما وصلنا من روايات الأحاديث النبوية فيه الصواب والخطأ. وتعليقنا عليه هو أن علماء الحديث، كما هو معروف، لم يقبلوا كل ما وصلهم من كلام أو فعل منسوب للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو دليل على أنهم قد بذلوا جهودا جبارة في تمحيص سنته الكريمة، وإن كنا لا نستطيع الزعم بأن هذه الجهود العبقريّة لا يخرّ منها الماء: فهناك أحاديث منسوبة للنبي ردها بعض العلماء، وهناك أحاديث أخرى لا يطمئن إليها القلب، بل منها ما لا يقتنع به العقل، لكن ذلك قليل بوجه عام. أما منصور فقد غالى في الرفض مغالاة رهيبة ودعا إلى أطراح الأحاديث النبوية جملة وتفصيلا.

والغريب أنه في الوقت الذي يهاجم المحدثين والأحاديث التي يروونها هجوما شديدا لا يبقّى ولا يذرّ نراه يعتمد عليهم ويصدّق رواياتهم تمام التصديق كلما ظن أنه يستطيع توظيفها في الهجوم عليهم. ومن ذلك قوله: "ويؤكد أن النبي نهي عن كتابة غير القرآن أن الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنَهَوْا عن كتابة الأحاديث وعن روايتها: فأبو بكر الصديق جمع الناس بعد وفاة النبي فقال: "إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافا، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئا. فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرموا حرامه"، وهذا ما يرويه الذهبي في تذكرة الحفاظ. ويروى ابن عبد البر والبيهقي أن عُمَرَ الفاروق قال: "إنى كنت أريد أن أكتب السنن، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله. وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا. ورواية البيهقي: "لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا". وروى ابن عساكر قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ أقيموا عندي. لا والله لا تفارقوني ما عشت. فما فارقه حتى مات". ومنه كذلك قوله: "وعلماء الحديث

يتفقون على صحة حديث "من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار"، وبعضهم يضيف إليه كلمة "متعمداً": "من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار". وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر، وعدد الحديث المتواتر لا يصل إلى بضعة أحاديث عند أكثر المتفائلين. والمهم أنهم، بإقرارهم بصحة هذا الحديث، يثبتون أن الكذب على النبي بدأ في حياة النبي نفسه، وإلا ما قال النبي هذا الحديث يحذّر من الكذب عليه". ومنه أيضاً قوله: "وأكثر أبو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر، إذ أصبح لا يخشى أحداً. وكان أبو هريرة يقول: إنى أحدثكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربني بالدرة (وفي رواية: "لشجّ رأسي"). ويروى الزهري أن أبا هريرة كان يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: "قال رسول الله" حتى قبض عمر. ثم يقول أبو هريرة: أفكنت محدّثكم بهذه الأحاديث، وعمر حيّ؟ أما والله إذن لأيقنت أن المِخْفَقَةَ (العصا) ستبشر ظهري، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن، فإن القرآن كلام الله". والآن ما دام ينكر الأحاديث فلماذا يستعين بها لتعصيد رأيه، وهي مزيفة في نظره ليس لها حقيقة؟

كما أنه، في تفسيره للقرآن، لا يستطيع أن يقول شيئاً ذا بال دون الاستعانة بالحديث. ولنأخذ مثلاً ما قاله في أخلاق النبي عليه السلام إذ وصفه المولى سبحانه بقوله: "وإنك لعلى خلق عظيم"، فقد أضاف أنه صلى الله عليه وسلم "كان خلقه القرآن". وهذا الكلام لم يرد في القرآن، بل هو من كلام عائشة رضى الله عنها، وقد أوردته لنا الأحاديث النبوية. ومن ذلك أيضاً ما كتبه بشأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، إذ يقول: "والنبي كان عليه أن ينفذ سنة الله، أى شرع الله وأوامره، حتى لو كان فيها حرج. وقد نزلت آية "ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له. سنة الله في الذين خلّوا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا" في موضوع زيد بن حارثة وزواجه وطلاقه من زوجته...". والسؤال هو: كيف عرف منصور أن

الكلام في الآية عن زينب، وأن زيدا هو زيد بن حارثة، وليس زيدا آخر؟ ذلك أن الآية لم تذكر إلا اسم "زيد" وحده دون اسم أبيه، وكذلك دون اسم زوجته التي أصبحت طليقته. الواقع أن ليس هناك من مصدر لهذا إلا الأحاديث، فكيف أصبحت الأحاديث هنا شيئا موثوقا به بعد أن قال فيها ما قال؟ قد يقول إن القرآن يحدد زيدا بأنه من "أدعيائكم"، لكن مرة أخرى: من أين نعرف أن زيدا كان دَعَى النبي عليه السلام (أى ابنه بالتبني) إلا من الأحاديث النبوية؟ قد يقول: لكن هذا تاريخ، ونحن نُعْمَل عقولنا في روايات التاريخ فنقبل ما تطمئن إليه ونرد ما سواه. وهذا هو ما أريد أن أفهمه إياه: أن نُعْمَل عقولنا في الأحاديث، لكن بشرط أن نحترم منطق العقل ومنهج العلم وأن نقلب الأمر على كل وجوهه وأن نترث قبل إصدار الأحكام وأن ننظر جيدا فيما يقوله الآخرون، وبخاصة من يخالفوننا في الرأي، وهو ما لم يدخر فيه المحدثون وسعا، وإن لم يمنع هذا من وجوب إضافة المزيد من الجهود في هذا السبيل. أما نبذ الأحاديث جملة وتفصيلا عن جهل واندفاع فهو عمل أخرق.

وهذا مثال آخر على أن منصور نفسه، رغم كل الطنطنات والتطاولات على المحدثين والأحاديث، لا يستطيع أن يتقدم فِتْرًا في تفسير القرآن دون الاستعانة بها وبهم، مع أنه يؤكد أننا، في فهمنا للقرآن، لسنا بحاجة على الإطلاق إلى الاستعانة بالحديث أو بغيره، فقد كتب في تفسير الآيات ١٠٥ - ١١٣ من سورة "النساء" ما يلي: "وباعتبار النبي بشرا فقد استطاع بعض المنافقين أن يخدعه. حدث ذلك حين سرق أحدهم درعا، وشاع بين الناس أمره، وأحس أهل اللص بالعار مما ارتكبه ابنهم فتأمروا بالليل على أن يضعوا الدرع المسروق في بيت شخص يهودى برئ. وفي الصباح جاءوا للنبي يبرئون ساحة ابنهم المظلوم. وانخدع النبي وصدقهم ودافع عن ابنهم، وبذلك أصبح اللص بريئا، وأصبح البريء لصا. وهى قصة تتكرر في كل زمان ومكان مُوجَزها أن ينجو المجرم صاحب النفوذ وأن يدخل البريء

السجن ظلماً. والقرآن الكريم ذكر القصة وحوّلها من حادثة تاريخية محددة بالزمان والمكان والأشخاص إلى قضية إنسانية عامة تتكرر في كل عصر. وفي البداية عاتب الله تعالى النبي ووجه نظره إلى أن يحكم بالكتاب وحذّره من أن يكون مدافعاً عن الخائنين: "إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيماً". أى أنزل الكتاب الحق ليحكم بين الناس بما أراه الله في ذلك الكتاب، فالاحتكام للكتاب. ولأنه نسي فقد جاء الأمر بالاستغفار: "واستغفر الله، إن الله كان غفوراً رحيماً"، ثم جاء النهي عن الدفاع عن أولئك الخونة الذين تأمروا لتبرئة المجرم واتهام البريء: "ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم، إذ يبیتون ما لا يرضى من القول. وكان الله بما يعملون محيطاً".

والسؤال هو: من أين له بأن الآيات نزلت في أحد اللصوص، وأن هذا اللص قد سرق درعاً، وأن أهله لما أحسوا أن أمره سينفضح ذهبوا فوضعوا الدرع في بيت يهودى... إلخ؟ ترى هل هناك من مصدر آخر اعتمد عليه أحمد صبحى منصور هنا عدا الحديث؟ أما قوله إننا، في فهمنا للقرآن الكريم، لا نحتاج إلى أى شىء آخر خارج نصوصه، فهذا هو ذا: "كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات، أى التى لا تحتاج في تبينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكير والتدبر فيها. والذى جعل الكتاب مبيناً وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل: "بعدما بيناه للناس في الكتاب"، والقائل عن كتابه: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَكِّرٍ"، "فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً"، "فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون"، أما قوله هذا فجعل فاحش، فمعروف أن أى نص يحتاج إلى وسائل تعين على فهمه، كالمعرفة باللغة التى ينتمى إليها، والمعرفة بالمعجم الخاص به، والمعرفة بالظروف التى كُتِبَ أو سُجِّلَ أو أُوحِيَ فيها، والمعرفة بالمصدر الذى جاء منه...

إلخ. والقول بغير هذا هو كلام لا يستحق أن نصغى آذاننا له. ولقد رأينا كيف أن منصور نفسه لم يستطع أن يفهم الآيات القرآنية إلا بالاستعانة بأسباب النزول، وهى جزء من الأحاديث النبوية.

وهو يرى أن أحاديث رسول الله وتصرفاته إنما هى انعكاس لثقافات عصره وبيئته يمكن ألا تتفق مع القرآن ولا ينبغى أن نُؤليها أى اعتبار، وهو ما كنت سمعته من مستشرق أمريكي أتى إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس فى ثمانينات القرن المنصرم، ودار بينى وبينه حوار على الماشى قبل الندوة التى حاضر فيها الطلاب فى أحد المدرجات. وهذا نص ما قاله منصور: "ونحن، وإن كنا نعتبر القرآن هو المصدر الوحيد لسنة النبى وشريعة الرحمن ودين الله الأعلى، فإننا نضع تلك الروايات الحديثية موضعها الصحيح، وهى أنها تاريخ بشرى للنبي وللمسلمين وصدى لثقافتهم وأفكارهم سواء اتفقت أم لم تتفق مع القرآن". معنى ذلك ببساطة أن كلامه هو التفسير الصحيح للقرآن، ولا يمكن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته، أما فهم الرسول للقرآن فمن الممكن ألا يتفق مع كتاب الله لأنه لا يزيد عن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته! ومن هنا نراه يقول إنه لا ينبغى أن نتأسى بالرسول إلا فى كتاب الله، وكأن الرسول يمكن أن يتصرف أو يقول شيئا يخالف فيه كتاب الله! وهذا نص كلامه: "إن الاقتداء والتأسى يعنى الاتباع، ولا يكون الاقتداء والتأسى على إطلاقه إلا بكتاب الله. والله تعالى كما أمرنا بالتأسى برسول الله محمد فى موقف معين فإنه أمر النبى نفسه بالاقتداء بهدى الأنبياء السابقين فقال: "أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده"، فلم يقل تعالى: "فبهم اقتده"، وإنما قال: "فبهداهم اقتده"...".

أما الصلاة والزكاة والصيام، وهذه الشعائر مجرد أمثلة، فإن أحدا لا يستطيع أن يؤديها دون الاستعانة بالسنة النبوية المشرفة. لنأخذ مثلا نسبة الزكاة فى الإسلام، فهى لم ترد فى

القرآن بل في الأحاديث الشريفة. كما زعم أن الصلاة على النحو الذى تؤديها به الآن في الإسلام قد انحدرت إلينا من ديانة إبراهيم. يريد أن يقول إنه ليس للسنة المحمدية فضل في هذا. لكن لو كان الأمر كما يقول لكان معناه أن الجاهليين كانوا يصلّون بصلّاتنا ويقرأون فيها بقرآننا ويصلّون على نبينا قبل أن ينزل القرآن من السماء ويبعث محمد عليه السلام بدين جديد. فهل هذا صحيح؟ وهل كان إبراهيم عليه السلام يقرأ الفاتحة مثلنا... إلخ؟ بل هل كان العرب الجاهليون يعرفون الصلاة أصلا بهذا المعنى؟ لقد كانت الصلاة في حياة العرب آنذاك تعنى الدعاء مطلقا، أما الأفعال والأقوال على تلك الهيئة المخصوصة التى نطلق عليها في دين محمد: "الصلاة" فلم يكونوا يعرفونها، وإلا لجاءت في الشعر الجاهلى بهذا المعنى.

ثم إن هناك آيات قرآنية لا يمكن فهمها، أو لا يمكن فهمها فهما سليما أو دقيقا، إلا إذا عُرِفَ سبب نزولها مما ذكرته الأحاديث، وإن لم ندع لهذه الروايات العصمة دائما. ونضرب على ما نقول الأمثلة التالية، وقد اعتمدتُ فيها على كتاب "أسباب النزول" للواحدي النيسابورى: ففي الآية ١٠٤ من سورة "البقرة" نقرأ قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، لا تقولوا: راعنا، وقولوا: انظُرنا..."، فكيف يا ترى يمكن أن نفهم ما فيها من الأمر والنهى دون أن نعرف ما جاء في سبب نزولها مما هو مرتبط بسيرة النبى عليه السلام وأحاديثه؟ قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها (أى يستعملون في مخاطبتهم كلمة "راعنا")، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم أعجبهم ذلك، وكان "راعنا" في كلام اليهود سببا قبيحا، فقالوا: إنا كنا نسب محمدا سرا. فالآن أعلنوا السب لمحمد لأنه من كلامهم. فكانوا يأتون نبي الله صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمد، راعنا. ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن عباد، وكان عارفا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله! والذى نفس محمد بيده لئن سمعتها من رجل منكم

لأضربن عنقه. فقالوا: أَلَسْتُمْ تقولونها له؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا: رَاعِنَا... الآية". ولزيادة الأمر إيضاحاً أذكر أنى قرأت منذ فترة أن الكلمة في العبرية مأخوذة من "الرعونَة". ومن هنا نهى الله سبحانه المسلمين عن استعمالها في خطابهم لسيد الأنبياء والمرسلين حتى لا يعطوا الأوغاد فرصة للسخرية منه ومنهم بخباثتهم وقلة أدبهم المعروفة عنهم.

كذلك كيف يمكن فهم قوله تعالى في الآية ١٨٧ من ذات السورة: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ" دون أن نطلع على الرواية الخاصة بسبب نزولها حتى لا نصنع كما كان بعض الصحابة يصنعون في البداية؟ وهذا نصها: "أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد قال: أخبرنا جدى قال: أخبرنا أبو عمرو الحيرى قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا ابن أبى مريم قال: أخبرنا أبو غسان قال: حدثنى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: "وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ" ولم ينزل "مِنَ الْفَجْرِ". وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى بعد ذلك "مِنَ الْفَجْرِ"، فعلموا أنه إنما يعنى بذلك الليل والنهار. رواه البخارى عن ابن أبى مريم، ورواه مسلم عن محمد بن سهل عن أبى مريم".

وبالمثل كيف يمكن فهم قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا..." (النساء / ١٩) دون أن نعرف أن الميراث هنا ليس أن نرث ما تركه هؤلاء النسوة من مال، بل أن يرثن الرجل أنفسهن كأنهن متاع حسبما وضّحت الرواية التالية؟ قال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة، فصار أحق بها من نفسها ومن

غيره. فإن شاء أن يتزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء تزوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عَصَلَهَا وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هى فيرثها. فتوفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن (وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبى قيس)، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها: يضارّها لتفتدى منه بما لها. فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس توفى، وورث ابنه نكاحى. وقد أضربى وطول على، فلا هو ينفق على ولا يدخل بى ولا هو يخلّى سبيلى. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقعدى فى بيتك حتى يأتى فيك أمر الله. قال: فانصرفتُ وسمعت بذلك النساء فى المدينة، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن: ما نحن إلا كهينة كبيشة، غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونكحنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية".

وإلى القارئ هذا المثال كذلك من رواية "جونتنامو" للدكتور يوسف زيدان، إذ يفسر قوله تعالى: "وإن خفتن ألا تُقْسِطُوا فى اليتامى فأنكِحو ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..." على أن المقصود هو أمر الله كافل اليتيمات بالزواج من واحدة منهن إلى أربع، متجاهلاً سبب نزول الآية، الذى يبين أن معناها هو العكس تماماً مما يقول: فعن "عروة بن الزبير أنه سأل عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله تبارك وتعالى: "وإن خفتن ألا تُقْسِطُوا فى اليتامى فأنكِحو ما طاب لكم من النساء..." قالت: يا ابن أختى، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله، فيعجبه ما لها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوّجها بغير أن يقسِط فى صداقها فيعطىها مثل ما يعطىها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسِطوا لهنّ ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ فى الصداق، وأمروا أن ينكحو ما طاب لهم من النساء

سواهن"، بمعنى "اتركوهنّ فقد أحللت لكم أربعاً من غيرهن". ولو كان المعنى كما زعم د. زيدان لقال سبحانه: "فانكحوا ما طاب لكم منهن (أى من اليتيمات) مثنى وثلاث ورباع". ذلك أن الله أراد أن يبعد الكفلاء عن اليتيمات اللاتي كانوا يكفلونهن ويطمعون في أموالهن، ومن ثم يريدون الزواج منهن حتى تكون تلك الأموال تحت تصرفهم وحتى لا يدفعوا فيهن مهراً كبيراً، لا أنه يريد منهم أن يتزوجوهن. ومن هنا نستطيع أن نفهم ما يدعو إليه بعض النقاد الحداثيين من الدخول إلى النص مباشرة دون أن نلقى بالاً لأى شيء خارجه من حياة صاحبه أو ظروفه أو السياق الذى كتب فيه ما كتب، وبالنسبة للقرآن ألا نرجع إلى أسباب النزول ولغة العرب وأسلوب الكتاب العزيز وتفسيرات المفسرين... إلخ بحيث يستطيع الكاتب أن يقول ما يريد تمريره من أفكار خطيرة دون معقّب. كذلك فمقتضى كلام زيدان أنه، لو كان فى كفالة الرجل أربع یتيمات أخوات، وهذا طبعاً ممكن جداً، فمن حقه التزوج بهن جميعاً. وهذا يناقض ما يقول به الإسلام، الذى يحرم الجمع بين أختين اثنتين، فما بالنا بأربع؟

ثم ما الذى فى الأحاديث التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم مما يمكن أن يكون مناقضاً للقرآن أو يؤدى بمن يصدّقه ويعمل على احتذائه إلى البوار؟ ترى ماذا فى الحديث الذى ينص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء، أو الحديث الذى يؤكد أن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، أو الحديث الذى يقول إن مداد العلماء يوزن بدماء الشهداء، أو ذلك الذى ينبئنا بأن إماطة الأذى عن الطريق أو أن تبسّم الواحد منا فى وجه أخيه صدقة، أو ذلك الذى يستحثنا ويغرينا بالتفكير المستقل القائم على أساس المنطق والعقل والإحاطة بالموضوع من كل أطرافه والتعمق فيه، ويبشّرنا بما لا وجود له فى أى نظام تربوى أو فلسفى أو سياسى من أن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ فى اجتهاده، أو الذى ينبهنا

فيه عليه السلام إلى أن الصدقة في السر تطفئ غضب الرب، أو أن اليد الخشنة من أثر العمل والكد هي يد يحبها الله ورسوله، أو أن العين التي بكّت من خشية الله أو باتت تحرس في سبيل الله لا تمسّها النار أبداً، أو أن من رُزق من البنات ولو بواحدة فأحسن تربيتها وزوّجها دخل الجنة، أو أن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أو أن السَّقَط يأخذ بيد أبويه في موقف الحساب ويراعم ربه حتى يدخِلهما الجنة، أو أن أحق الناس بصحبة الابن هي أمه ثم أمه ثم أمه ثم أبوه، أو أن معاشرّة الرجل لزوجته حسنة من الحسنات يؤجر عليها من الله وليست مجرد شهوة تُشبع، أو أن إتباع السيئة الحسنة يمحوها فلا يحاسب الإنسان عليها، أو أنه سبحانه قد رفع عنا السهو والنسيان وما استكبرنا عليه، أو أن الله قد خلق لكل داء دواء، أو قول الرسول الكريم لرجل أخذه الخوف منه: هَوِّنْ عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، أو قوله: لا تُطْرُونِي كما أَطَرَتِ النصارى عيسى بن مريم، أو قوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو تسبّحون وتحمّدون وتكبرّون ذُبّر كل صلاة ثلاثا وثلاثين، أو من آذى ذمياً فأنا خصيمه يوم القيامة، أو إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرّها إلا العمل، أو ادروا الحدود بالشبهات، أو إنما الصبر عند الصدمة الأولى، أو استَوْصُوا بالنساء خيرا، أو خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، أو ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل، أو إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، أو إن الشيطان ليَجْرِى من ابن آدم مجرى الدم في العروق، أو إن الحياء من الإيمان، أو إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث، أو إذا لم تستح فاصنع ما شئت، أو إذا بُليتم فاستروا، أو إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، أو إن ذا الوجهين يكتب عند الله كذابا، أو اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة، أو إن النظافة من الإيمان، أو إن الله جميل يحب الجمال، أو

مالككم تدخلون على قُلُوحًا؟ استاكوا، أو إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، أو نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، أو ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، أو رَضِينَا بِاللّٰهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَرَسُولًا، أو اللّٰهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أُنْزِلَتْ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلْتَ، أو لا رهبانية في الإسلام، أو أَنْفَقْ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا، أو تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ! تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ! أو ما نقص مالٌ من صدقة، أو إِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ فَرِيضَةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، أو اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، أو إِنْ مِنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ، أو إِنْ مَنْ فَرَجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ الدُّنْيَا فَرَجَّ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أو سَبْعَةٌ يَظْلِلُهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ...، أو إِنْ اللَّهُ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، أو مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ، أو دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هَرَّةٍ حَبَسَتْهَا: لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، أو اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أو إِنْ الْمُنْبِتِ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى، أو مَنْ بَاتَ كَالًّا مِنْ عَمَلٍ يَدُهُ بَاتَ مَغْفُورًا لَهُ، أو إِنْ اللَّهُ يَجِبُ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقِنَهُ، أو إِذَا قَامَتِ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا، أو أَلْقِ السَّلَامَ عَلَى مَنْ تَعْرِفُ وَمَنْ لَا تَعْرِفُ، أو لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، أو اطلبوا الرزق بعزة الأنفس، أو إِنْ الْغِنَى غَنَى النَّفْسَ، أو لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ، أو لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ، أو قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَشَابٍ خُطِبَ فَتَاةٌ: انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤَدِمَ بَيْنَكُمَا، أو قَوْلُهُ: لَا تُنْكِحِ الْبِكْرَ حَتَّى تُسْتَأْذِنَ وَلَا الْإِيْمَ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ، أو ادْرَأُوا الْحُدُودَ بِالشَّبَهَاتِ، أو يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، أو مَنْ أَمَّ فِي الصَّلَاةِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنْ مِنْكُمْ الضَّعِيفُ وَذَا الْحَاجَةِ، أو أَحَبَّ

لأخيك ما تحبّ لنفسك، أو إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، أو اتقوا الله في الضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم، أو رفقا أنجسهُ بالقوارير، أو... أو... إلخ مما لا يكاد ينتهى من التوجيهات والتشريعات والأدعية النبوية العبقريّة التي أكرمنا الله بها والتي ذكرت ما ذكرته منها من محفوظ الذاكرة منذ الصبا، وبالمعنى في بعض الأحيان، وأرجو ألا أكون قد أخطأت في شيء منه؟

وبالمثل يتصور د. منصور أن ثم تناقضا بين أمر القرآن لزوجات الرسول بالقرار في بيوتهن واصطحاب الرسول لهن في غزواته. وهو يوضح ذلك بقوله إنه في غزوة الأحزاب مثلا في العام الخامس من الهجرة نزلت سورة "الأحزاب"، وفيها الأمر لنساء النبي بأن يمكن في البيت ولا يخرجن منه: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"، متسائلا: "كيف يأمرهن الله بالبقاء في البيت، ويأتي النبي فيصطحبهن في غزوة بنى المصطلق فيما بعد؟ لقد كان ترك النساء في المدينة بعيدا عن الغزوات عادة إسلامية حرص عليها النبي والمسلمون بحيث لم يكن يتخلف عن الغزو إلا النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين. وحين تخلف المنافقون عن الخروج مع النبي في إحدى معاركه الدفاعية نزل القرآن يعيرهم ويسخر منهم بأنهم رَضُوا بأن يتخلفوا مع النساء والصبيان: "رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف". فهل من المعقول أن يصطحب النبي زوجاته معه عرضة لخطر الحرب بينما تبقى بقية النساء آمانات في المدينة؟".

وردا على ذلك نقول: ليس معنى أمر القرآن نساء النبي بالاستقرار في بيوتهن أنه ينبغي عليهن ألا يخرجن البتة منها، وإلا كان معناه أنهن لا يجوز لهن الذهاب للمساجد، ولا لزيارة

أهليهن، أو للمشاركة في أى واجب اجتماعى كالغزاء والأفراح وما إلى ذلك. ولقد كان الرسول عليه السلام كريما سمحا مع زوجاته كما هو مع الناس أجمعين، فلا يُعَقَّل أن يتعامل معهن بمنطق العامة الذى يقول إن المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر! إن كل ما هنالك أن القرآن يريد لزوجات المصطفى أن يتعدن بقدر الإمكان عن زحام الحياة حتى يظُلُنَّ في مكانهن الرفيع ولا يخوض الناس في أحاديثهن وأخبارهن كما يفعلون مع كثير من النساء في قيلهم وقالهم، لا ألا يخرجن من بيوتهن بتاتا! ومن ثَمَّ فإذا صحبهن الرسول في غزواته صحبهن على نفس الوضع الذى يصونهن عن العيون والألسنة.

ولقد كان النساء يشاركن في الغزوات، فيسقين الجند ويضمذن المجروحين وما إلى ذلك. فعن أنس بن مالك: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأُمِّ سُلَيْمٍ ونسوة معها من الأنصارِ يَسْقِيْنَ الماءَ ويداوين الجرحى"، وعن ابن عباس: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء فيداوين الجرحى، ولم يكن يضربُ هُنَّ بسهمٍ، ولكنَّ يَخْذِينَ مِنَ الْغَنِيمَةِ"، وعن الربيع بنت معوذ بن عفراء: "كُنَّا نَغْزُو مع النَبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَسْقَى الْقَوْمَ وَنَخْذُمُهُمْ وَتُرُدُّ الْجَرْحَى وَالْقَتْلَى إِلَى الْمَدِينَةِ"، وعن أم عطية نسيبة الأنصارية: "غزوتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعَ غزواتٍ أخلفهم في رِحَالِهِمْ، فَأَصْنَعُ لَهُمُ الطَّعَامَ وَأُدَاوِي الْجَرْحَى وَأَقُومُ عَلَى الْمَرْضَى"، وعن أم زياد الأشجعية: "خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر سادس ست نسوة، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث إلينا، فجئنا فرأينا فيه الغضب، فقال: مع من خرجتن؟ وبإذن من خرجتن؟ فقلنا: يا رسول الله، خرجنا نغزل الشعر ونعين به في سبيل الله، ومعنا دواء الجرحى، ونناول السهام ونسقى السويق. فقال: قمن. حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال. قال: قلت لها: يا جدة، وما كان ذلك؟ قالت: تمرا". ومعنى هذا أن أحمد صبحى منصور يحشر أنفه

فيما لا يحسن، ويخترع من عنده الأحاديث اختراعاً، ثم يستدير بكل جرأة فيتهم البخاري ومسلماً وغيرهما من جامعي الأحاديث بدائه هذا العياء.

كذلك يرى أحمد صبحي منصور أن هناك تناقضاً بين الأحاديث التي تحض على التبكير في الذهاب للمسجد يوم الجمعة وتلك التي تنصح المسلم بالألا يهرول عندئذ حتى لو كان متأخراً بعض الشيء. وهو تناقض غير موجود إلا في مخيلته. قال: "وتأتى أحاديث كثيرة تحض على سرعة التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة، وتماً هذه الأحاديث صفحات من البخاري، ثم يتبعها حديث ينقضها جميعاً يقول: "إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعُونَ، وَأَتُوهَا تَمْشُونَ عَلَيْكُمْ السَّكِينَةَ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتَمُّوا" (البخاري/ الجزء الثاني/ ص ٣، ٤، ٨، ٩)". والحق أن المعنى في هذه الأحاديث واضح تمام الوضوح، وهو أفضلية التبكير. لكن ما العمل لو حدث أن تأخر المصلي لسبب أو لآخر في الذهاب إلى صلاة الجمعة؟ أيجري في الشارع فيظن الناس به الظنون أم يسير في احترام واطمئنان على النحو الذي يليق بالشعيرة الكريمة؟

وإذا كان منصور يزعم أن ثم تناقضاً بين الأحاديث التي تدور حول ذات الموضوع فإنه في الفقرة التالية يدعى وجود تناقض بين بعض الأحاديث وبعض آيات القرآن المجيد. يقول: "عموماً فكل الأحاديث التي رواها البخاري وغيره، وفيها ينسبون للنبي أقاويل عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعة وأحوال القيامة، كلها أحاديث تناقض القرآن صراحة. فالقرآن يؤكد في أكثر من موضع بأن النبي لا يعلم الغيب، ولا يعلم شيئاً عن الساعة وموعدها وتفصيلاتها. وقد عرضنا لذلك فيما سبق، وأتينا بالآيات الكثيرة في هذا الموضوع، وكفينا منها قوله تعالى للنبي: "قل: ما كنتُ بدعاً من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم. إِنْ أَتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ". وإذا كان النبي لا يعلم ماذا سيحدث له أو لغيره، فكيف

ننتظر منه أن يتحدث عن أحوال القيامة وشفاعته أو عدم شفاعته؟ ثم ألا يكفيننا قوله تعالى في عدم علم النبي بالغيب: "قل: لا أقول لكم: عندى خزائن الله، ولا أعلم الغيب"، "قل: لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مَسَنَى السوء. إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون"...؟

والواقع أنى لا أدري وجه التناقض بين الحديث والقرآن في الموضوعات المذكورة: فليس فى الأحاديث أن النبى يعلم الغيب أبداً، وإن كان لله سبحانه متى أراد، ولا راد لإرادته تعالى، أن يكشف ستر الغيب لرسوله لحكمة يعلمها جل شأنه. وقد يكون ذلك فى القرآن كالإخبار بأن الروم ستنتصر على الفرس فى بضع سنين بعد أن لاقت الهزيمة المرة على أيديهم لتوها، وكالتنبؤ بأن الجمع سيهزمون ويولّون الدُّبُر، وهو ما تحقق فى بدر، وإطلاعه نبيه فى غزوة الحديبية على أنه سيدخل مكة هو والمسلمون لأداء العمرة، مما تحقق العام الذى تلا ذلك... فهذه آيات قرآنية لا يستطيع كويتنا أن يكذبها البتة، أما فى الأحاديث فهناك نبوءة غزوة الأحزاب الخاصة بفتح فارس والروم، وهناك النبوءة الخاصة بفتح القسطنطينة، وهناك النبوءة الخاصة بتداعى الأمم على المسلمين كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، لا من قلة بل من ذلة... وكل هذا قد تحقق كما أنبأ به النبى العظيم. مرة أخرى نحن لا نقول إنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الغيب، بل نقول إن الله قد يطلعه على بعض أمور ذلك الغيب لحكمة من الحكم، وهو ما ضربنا له الأمثلة لتونا من كتاب الله وسنة رسول الله. وفى القرآن الكريم نقرأ الآيات التالية: "ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك"، "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك. ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا"، "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول"، وهى من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أى تعليق. وإذن فليس من تناقض بين الأمرين كما يعمل د. أحمد صبحى منصور على إيهام القراء ليفقداهم الثقة فى أحاديث

النبي الكريم! ثم إن الرسول لم يحدد للساعة موعداً، بل ساق علامات عامة، وهذه العلامات قد تستغرق قروناً فلا يعرف الناس وقتئذ متى تقوم الساعة، ولكن يمكن العقلاء منهم أن يعتبروا ويصلحوا من فسادهم قبل فوات الأوان، فلعلهم ينجون.

ولا تقتصر أهمية الحديث على مذكرنا، إذ كثيراً ما تعالج الأحاديث النبوية أموراً لم يتطرق إليها القرآن كالسواك وتمشيط الشعر وغسل الجمعة وخطبتها وإمطة الأذى عن الطريق وشفاعته صلى الله عليه وسلم هو بالذات لا الشفاعة بوجه عام واكتساب المسلم أجراً لمعاشرته زوجته والسبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وشروط استجابة الدعاء، وأفراد الأعداء الذين ينبغي تركهم في حالهم دون التعرض لهم بحال أثناء الحرب، والطرق التي يجب تجنبها في البيع والشراء... وما إلى ذلك، وهو غزير. وإلى جانب هذا هناك أمور كثيرة تناولها القرآن تناولاً مجرداً ثم تابعت الأحاديث وصفها وتصويرها بقلم الواقعية كما هو الحال في كلام القرآن عن العلماء: "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات"، "قل: هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟"، "وقل: رب، زدني علماً"، وكلام الأحاديث في هذا الصدد كقول الرسول: "العلماء ورثة الأنبياء"، "فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب"، "مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ"، "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع" وإشارته إلى أن الحيتان في البحر تستغفر لطالب العلم... إلخ.

ثم كيف نعرف شخصية النبي العقلية والنفسية والخلقية تفصيلاً لو لم تكن هناك أحاديث؟ الواقع أننا لو أهملنا الأحاديث كما يريد منا أحمد صبحي منصور لم نجد في القرآن مادة كافية تساعدنا على أن نبصر صورة النبي عليه السلام خلال حياته اليومية: في البيت وفي

السفر ومع أصحابه وفي الحرب وفي الصلاة وفي الصيام وعند تناول الطعام وفي تعامله مع الأطفال والنساء وفي نومه وفي استيقاظه وبالنسبة للأطعمة التي يجيها وتلك التي لا يقبل عليها وفي تعليقه على الأحداث وفي توجيهه لهذا الصحابي أو ذاك وفي كلامه عن إخوانه الأنبياء السابقين وفي تفرقه بين شريعته وشرائعهم وفي ردود أفعاله تجاه الوقائع التي تحدث حوله... مما لا نجد له أثرا في القرآن، الذي يكتفى بالخطوط العامة دون إيراد تفاصيل، علاوة على أن هناك أشياء لم يقترب منها القرآن قط. ثم ألم يعلن منصور أن الرسول هو المثال الأعلى؟ أليس من الطبيعي إذن أن يحرص أتباع أى مثل أعلى على معرفته ومعرفته كل ما يتعلق به؟ فكيف يستطيعون ذلك إذا ألغينا الأحاديث؟ بل إن وصف ملامح الرسول مثلا وطريقته في الكلام والمشى والنوم وأداء العبادات ليس لها وجود في كتاب الله، لكنها متاحة في الحديث.

إن رجال الحديث إنما صنعوا ما صنعوه من جمعهم لكلام رسول الله وأوصافه ورواية أفعاله بدافع الحب له صلى الله عليه وسلم والإعجاب به والحرص على معرفة الكيفية التي نفهم بها الدين ونطبقه، بخلاف من يكرهه صلى الله عليه وسلم ويكره دينه ويتظاهر بأنه إنما يريد تنقية التوحيد مما شابته من خَبَثِ الأحاديث النبوية، أستغفر الله. الواقع أن مثل هذا المنطق هو منطق الشياطين. ترى هل هناك من يكره أن يعرف رسوله عن قرب ويعرف ماذا قال وماذا فعل؟ إن المحب ليحرص على أن يستعيد كل كلمة قالها محبوبه وكل تصرف أتاه وكل موقف اتخذته. وما من أمة في الأرض إلا وتتفانى في تخليد ذكرى عظمائها. وعلى هذا النهج تسير كل الأمم منذ كانت هناك أمم. فما بالنا إذا كان هذا العظيم هو نبيها؟ وبالله إذا لم نحرص على أحاديث رسول الله فعلى أحاديث مَنْ نحرص؟

نخرج من هذا بأننا لو هدمنا السنة النبوية هدمنا شطرا كبيرا من الإسلام. إنها ليست شيئا إضافيا أو كماليا، بل هي جزء أصيل من الدين. وفي أقل القليل هي الصورة التطبيقية للإسلام في العصر الأول يهتدى بها المسلمون على مدى الدهر ويرَوْن كيف واجه الرسول مشاكل عصره ومجتمعه، فتصرف كما تصرف، ونفكر كما فكر، وننحو كما نحا... وهكذا. ومن أولى من محمد بأن نتخذ منه قدوتنا وأسوتنا، وهو الرسول الذي تلقى الوحي وأمر بتبليغ الدين، وكانت السماء ترعاه وتراعيه وتصوبه وتباركه، فضلا عن أنها قد أمدته بمواهب عظيمة لا تناح للبشر العاديين ولا حتى لكثير من النبيين والمرسلين؟

ونحن لو نظرنا مثلا في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملي من العلم وفلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّيُّ، عقب الانتصار في غزوة بدر حين وقع في يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش، إذ عرض عليهم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين في المدينة القراءة والكتابة. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين، إذ كان عدد القارئ والكاتبين في المجتمع الجاهلي جدَّ ضئيل كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقري من رسول الله عليه الصلاة والسلام، ذلك العمل الذي كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، إلى جانب إلحاحه صلى الله عليه وسلم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء.

ووجه العبرة في هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم في الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها وقَضَوْا عليها وأَضَحَوْا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر في العالم أو انذاك رغم ضعف الإمكانيات. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان ولم يخصص الميزانيات ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض، إذ كان ذلك صعب التنفيذ

فى تلك الظروف إن لم يكن مستحيله؁ بل اكتفى بالمتاح بين يديه؁ وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذى يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة؁ وهى ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج فى ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التى بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانيات الهائلة التى لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها. لقد كانوا يتلقون تعليمهم مثلاً فى المسجد؁ والمساجد لا تكلف الدولة شيئاً يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة؁ بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه أموالاً طائلة؁ لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم افترع هذا الحل العبقري الذى أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئاً على الإطلاق.

وللبروفيسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) كتاب بعنوان "Muhammad and Learning" تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن أحاديث الرسول الكريم ودوره فى مجال التعليم؁ مستغرباً أن يتنبه رجل مثله يعتزى إلى أمة بادية أممية تعيش فى القرن السابع الميلادى إلى هذا الجانب من جوانب الحياة وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التى تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة؁ وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكراً على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا؁ إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامة؁ فضلاً عن إحراق الكتب؁ الذى يؤكد أنه سىظل إلى الأبد وصمة عار فى جبين من اجترحوه؁ وفى جبين الكنيسة أيضاً لارتضاءها ومباركتها هذا العمل المخزى؁ على عكس محمد؁ الذى دعا البشر جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثاً فى طلب العلم رجالاً ونساء من المهد إلى اللحد؁ بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقاً من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه؁ وجعله باباً إلى الجنة؁ وسأواه فى الفضل بالاستشهاد

فى سبيل الله؁ بل فضل العلماء على العباد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يفضل به البدر سائر الكواكب. ومع هذا يجد أحمد صبحى منصور فى محاولة هدم الأحاديث النبوية التى يقف أمامها البروفسير ستيفن مشدوها مما فيها من عبقرية سبقت الأزمان بمسافات شاسعة.

وفى مجال آخر من مجالات العبقرية النبوية التى ما كنا لنعرفها؁ فضلا عن أن نقدرها حق قدرها؁ لولا أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم التى سجلت مظاهر تلك العبقرية والتى يريد أحمد صبحى منصور ومن على شاكلته أن يدمروها بحجة الحفاظ على الإسلام من الزيف والبهتان والتشويه والضلال؁ كتبت فرنشيسكا دو شاتل؁ وهى صحفية وأنثروبولوجية هولندية؁ بحثا بديعا أبدت فيه انبهارها بموقف النبى الكريم من الطبيعة حتى لقد عدته رائد الحفاظ على البيئة وجعلته سابقا لعصره بل سابقا للعصور الحديثة بأشواط. قالت فى الفقرتين الأوليين من ذلك البحث: "جاء فى الحديث النبوى: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة". الواقع أن القول بأن محمدا رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع فى آذان الكثيرين فى البداية موقعا غريبا؁ إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة" وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة" و"الوعى البيئى" و"ترشيد الاستهلاك" هى ألفاظ من اختراع العصر الحديث؁ أى مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا. ومع ذلك فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب؁ أى تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة فى حياة محمد؁ لثرينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان فى نصرته للبيئة سابقا لعصره؁ أى رائدا فى مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية؁ وواحدا من الذين يسعون لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة.

وبالاستناد إلى ما أورده لنا الأحاديث من أعماله وأقواله يمكننا القول بأن محمداً كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب والماء والنار والهواء.

وهناك أستاذ جامعي أمريكي، هو البروفيسر جيفري لانج، اعتنق الإسلام أواخر القرن الماضي وأصدر عدة كتب منها كتاب "Struggle to Surrender"، الذي خصص جزءاً كبيراً من فصله الثالث للكلام عن الحديث النبوي. وأشار لانج إلى أن الحديث النبوي كان هدفاً للنقد الاستشراقي، وأعلن عن رغبته في أن يكون هناك ردٌّ فعّالٌ على هذا النقد من جانب المسلمين الموجودين في الغرب المعادى للإسلام معاداة راديكالية حسب وصفه. كما أشاد بعلم الحديث وبرجاله وتقواهم ومنهجيتهم الصارمة الدقيقة، وأثنى على كتبهم ثناء كبيراً، وبخاصة كتب الصحاح الستة المعروفة، إذ قاموا بغرلة الآلاف المؤلفة من أحاديث الرسول تميزاً لصحتها عن سقيمها، وهو ما اقتضاهم مجهوداً ضخماً يحمدهم. وبلغ من دقتهم، حسبما يقول، أنهم كثيراً ما يقبلون حديثاً معيناً ثم يرفضون حديثاً آخر له نفس المتن دون أدنى خلاف، بسبب أن رواية هذا معدّلون، ورواية ذاك مجرّحون، مما يدل على مدى صرامة الطريقة التي اتبعوها في توثيق كلام النبي عليه الصلاة والسلام. ثم ينقل كلام شبرنجر عن علم توثيق الرواية وتضعيفهم بأنه مفخرة للفكر الإسلامي. لكنه يشكو في نفس الوقت من وجود أحاديث منسوبة للنبي عليه الصلاة والسلام لا تتفق وما يتطلع إليه المرء عند نبي من أنبياء الله أو تسوّغ أشياء لا يقبلها العقل والمنطق.

وأنا أتفق معه إلى حد بعيد، إذ أقول دائماً إن علماء الحديث قد بذلوا جهوداً عبقرية في جمع الأحاديث وتمحيصها وتبويبها، فحفظوا للمسلمين ذخيرة لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن يثيبهم عليها سوى رب العباد سبحانه. إلا أن هذا لا يعنى أن كل ما أورده من حديث هو

صحيح حتما. لقد استفرغوا وسعهم ولم يألوا، والباقي علينا. وكما اجتهدوا هم نجتهد نحن. وقد نصيب نحن بدورنا، وقد نخطئ. والله قد تكفل لنا، كرما منه وتفضلا، بأن يجزيانا في الحالين الجزاء الحسن. فمِمَّ الخوف؟ وفيم التحرج؟ وأرى أنه إذا بدا لمسلم أن حديثا من الأحاديث لا يقنع عقله فلا ضرر على إيمانه ما دام يبحث عن الحق ويقدم المسوغات لما يقول.

إن المسلمين عموما يؤمنون بأن البخارى هو أصح كتاب بعد الله، لكن يلاحظ في ذات الوقت أنهم لا يفرقون بين هذا الحكم على صحيح البخارى وبين كونه كتابا معصوما. إن الكتاب المعصوم هو كتاب الله، وما دام البخارى يأتى بعده فهو ليس بمعصوم، لأن العصمة ليست درجات، بل درجة واحدة. وعلى هذا فإذا أن يكون الكتاب معصوما أو لا يكون، وما دام كتاب ما يأتى بعد كتاب آخر معصوم فمعناه أنه أقل منه، ومن ثم ليس معصوما مثله. إنه أوثق من غيره من الكتب، نعم. لكنه ليس معصوما. على أن هذا لا يعنى أبدا أن كل من هب ودب يمكنه، تحت هذه الحجة، أن يشرع في الهجوم على كتب الصحيح بحجة أنها غير معصومة. بل عليه أن يكون على مستوى الأمر ويبحث ويحقق ويدقق ويقدم مبررات عدم اقتناعه بهذا الحديث أو ذاك، واضعا في ذهنه قبل كل شىء أنه مجرد مجتهد، وأن ما يقوله قابل للصواب والخطأ، وأن علماء الحديث قد بذلوا جهودا جبارة لا يمكن شطبها بجرة قلم من جانب أى فسل لا قيمة له في دنيا العلم والعلماء.

إن علماءنا الكرام قد خدموا السنة النبوية خدمة جُلَى، وبذلوا جهودا عظيمة في التحقق من عدالة الرواة وضبطهم. ولكن هذا لا يمنع أبدا أن نبدا خدمة السنة من حيث انتهوا، فننظر في مضمون الأحاديث ونتحقق من صحتها ودقتها مراعين ألا تناقض القرآن في شىء أو تتعارض والروح العامة للإسلام ومبادئه وقيمه العليا وعقائده المتفق عليها أو تخالف

الحقائق العلمية المقطوع بها أو تدابر التاريخ القطعى وأحداثه وأرقامه أو تعاكس الطبيعة البشرية التى نعرفها على مدى الأحقاب أو أوضاع المجتمعات أو نفسية الجماهير أو سنن الله فى الكون أو المنطق العقلى العام... إلخ. كما ينبغى أن نغلب الجوهريات على الشكليات، والمتون على الهوامش، والواجبات على النوافل، والأهم على المهم... وهلم جرا. وعندنا أيضا التحقق الأسلوبى. فلا شك أن من تمرس بأحاديث النبى وخطبه وحواراته يتشكل لديه انطباع عن أسلوبه اللغوى. فلو وجد المحقق أن فى الحديث الذى ينظر فيه لفظا أو تعبيرا أو تصويرا أو تركيبا لم يكن يستعمله النبى: إما لأنه لم يكن من استخدامات عصره ومجتمعه أو لم يكن من استعماله هو الشخصية كان هذا سببا معضدا لعدم اطمئنان ضميره لذلك الحديث. وليس فى الأمر ما يدعو إلى الحرج من جانب المتحقق ولا إلى الغضب من جانب العلماء الآخرين، فقد كان الصحابة ينتقد بعضهم بعضا ويرد بعضهم رواية بعض أو يطالبه بالدليل على صحة حديث أو بالإتيان بشاهد آخر. فمثلا تقول عائشة فى حديث لها: "من زعم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رأى ربه، فقد أعظم الفرية على الله تعالى، ولكنه رأى جبريل مرتين فى صورته وخلقه سادا ما بين الأفق". ومعنى هذا أنه كان هناك من يقول ذلك، فانتقدته عائشة أيما انتقاد، ولم يمنعها من هذا الانتقاد الشديد بل التكذيب العنيف أى اعتبار. ويقول أبو سعيد الخدرى: "كنت جالسا بالمدينة فى مجلس الأنصار، فأتانا أبو موسى فزعا أو مذعورا. قلنا: ما شأنك؟ قال: إن عمر أرسل إلى أن آتية، فأتيت بابه فسلمت ثلاثا، فلم يرد على، فرجعت، فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلت: إني أتيت فسلمت على بابك ثلاثا، فلم يردوا على، فرجعت. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع. فقال عمر: أقم عليه البينة، وإلا أوجعتك. فقال أبى بن كعب: لا يقوم معه إلا أصغر القوم. قال أبو سعيد: قلت: أنا أصغر القوم. قال: فاذهب به". و"جاءت جدة إلى أبى

بكر فقالت: إن لي حقاً في مال ابن ابن مات. قال: ما علمت لك في كتاب الله حقاً ولا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئاً. وسأل، فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله أعطاهما السدس. قال: ومن سمع ذلك معك؟ فشهد محمد بن مسلمة، فأعطاهما أبو بكر السدس".

ومن هذا الباب الحديث التالي عن عبادة بن الصامت: "كنت بالشَّامِ في حلقةٍ فيها مسلمٌ بنُ يسارٍ، فجاء أبو الأشعث الصنعاني، فأرسل له القومُ فقالوا: أبو الأشعث، أبو الأشعث! فقلت: يا أبا الأشعث، حدث أخاك حديث عبادة بن الصَّامت. فقال: كنَّا مع معاويةَ في غَزاةٍ فغنمنا غنائمَ كثيرةً، فكان فيها آنيةٌ من فضَّةٍ، فأمر معاويةُ رجلاً ببيعها من النَّاسِ في أُعطياتهم، فبلغ ذلك عبادةً، فقام فقال: إنِّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيعِ الذَّهَبِ بالذَّهَبِ، والوَرِقِ بالوَرِقِ، والْبُرِّ بالْبُرِّ، والشَّعِيرِ بالشَّعِيرِ، والتَّمْرِ بالتَّمْرِ، والملحِ بالملحِ إلَّا سواءً بسواءٍ، مثلاً بمثلٍ، عيناً بعينٍ. فمن زاد أو استزاد فقد أَرَبَى. فردَّ النَّاسُ ما كانوا أخذوا، فذهب رجلٌ إلى معاويةَ وأخبره الخبر، فقام خطيباً فقال: ما بال أقوامٍ يحدثون عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أحاديثَ قد صَحِّبناه ورأيناه فما سَمِعناها منه؟ فقام عبادةُ بنُ الصَّامتِ فأعاد الحديثَ وقال: واللهِ لَنُحَدِّثَنَّ بما سَمِعنا من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وإن زعم معاوية (أو قال: وإن كره معاويةً). واللهِ ما أبالي أنِّي لا أصحبه في حياتي ليلةً سوداءً".

كذلك "ذُكِرَ عند عائشةَ قولُ ابنِ عمرَ: الميتُ يعدُّ ببكاءِ أهله عليه. فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن. سمع شيئاً فلم يحفظه. إنما مرت على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم جنازةُ يهودي، وهم يبكون عليه، فقال: "أنتم تبكون، وإنَّه ليعذب". وهناك حديث آخر في ذات الموضوع عن عبد الله بن أبي مليكة هذا نصه: "توفيت ابنة لعثمان رضى الله عنه بمكة، وجئنا

لنشهدها، قال: وحضرها ابن عمر وابن عباس، وإنى لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبى)، فقال عبد الله بن عمر لعمر وبن عثمان: ألا تنهى النساء عن البكاء، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه؟ فقال ابن عباس: قد كان عمر رضى الله عنه يقول بعض ذلك، ثم حدث قال: صدرت مع عمر من مكة حتى كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرَةٍ، فقال: اذهب وانظر إلى هؤلاء الركب. قال: فنظرت، فإذا هو صهيب، فأخبرته. قال: ادعه لى، فرجعت إلى صهيب. فقلت: ارتحل، فالحق أمير المؤمنين. فلما أصيب عمر دخل صهيب رضى الله عنهما يبكى يقول: وا أخاه! وا صاحباه! فقال عمر رضى الله عنه: يا صهيب، أتبكى على، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه؟ قال ابن عباس: فلما مات عمر رضى الله عنه ذكرت ذلك لعائشة رضى الله عنها، فقالت: رحم الله عمر. والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه. قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: "ولا تزر وازرة وزر أخرى". قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكى. قال ابن أبى مليكة: فوالله ما قال ابن عمر شيئا.

وكان بعض الصحابة يضيق بكثرة رواية أبى هريرة لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدافع عن نفسه بأنه كان ملازما لرسول الله عليه السلام فى حين كانوا هم مشغولين بأمور حياتهم عن الالتصاق بالنبى التصاقه به. ومن ذلك الحديث التالى: "قيل لعائشة: إن أبى هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشُّومُ فى ثلاثٍ: فى الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ. فقالت عائشة: لم يحفظ أبو هريرة لأنه دخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قاتل الله اليهود. يقولون إنَّ الشُّومَ فى الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ"، فسمع آخرَ الحديث،

ولم يسمع أوله". و"قالت عائشة لأبي هريرة: إِنَّكَ لَتُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً ما سمعته منه. قال: شغلِكَ عنه، يا أمه، المرأة والمكحلة، وما كان يشغلني عنه شيء". وعن أبي هريرة "مَنْ تَبَعَ جَنَازَةً فَصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفَنَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ، وَالْقِيرَاطُ أَعْظَمُ مِنْ أُحَدٍ. فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، انْظُرْ مَا تَحَدِّثُ بِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو هُرَيْرَةَ فَأَخَذَ بِيَدِهِ حَتَّى انْطَلَقَ بِهِ إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَ لَهَا أَبُو هُرَيْرَةَ: أَنْشُدْكَ بِاللَّهِ هَلْ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ تَبَعَ جَنَازَةً فَصَلَّى عَلَيْهَا فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفَنَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ، الْقِيرَاطُ أَعْظَمُ مِنْ أُحَدٍ؟ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَرَسٌ. إِنَّمَا كُنْتُ أَلْزِمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَلِمَةٍ يَعْلَمُنيهَا أَوْ لِقَمَةٍ يَطْعُمُنيهَا".

ومعروفُ الخلاف الحاد الذي نشب بين عمر وأحد الصحابة حول الطريقة التي يقرأ بها كل منهما القرآن، وإسراعهما إلى الرسول ليتأكدا أيهما المصيب. ولو كان هناك مثل ذلك التحرج الذي نظنه لقد كان كلاهما حرياً أن يصدّق الآخر ولا يرفعا الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. كما أن الأقضية التي كانت ترفع إلى رسول الله دليل آخر على أنهم لم يكونوا يرون في اختلافهم أي حرج، وإلا ما كان أحد قاضى أحداً، فإن خصمه صحابي لا يصح القدح فيه أو الاختلاف معه. ثم عندنا حديث الإفك، ألم يخض فيه بعض الصحابة؟ وفوق هذا ألم يزن هذا ويسرق هذا من معاصري النبي ممن شاهدوه وتحدث إليهم وتحدثوا إليه؟

ومن ثم أحب أن أناقش هنا بعض الأحاديث النبوية التي تُلقِيَت بالقبول من حيث السند، ولكن في النفس منها أشياء. ومنها الحديث التالي الذي سوف أورد رواياته المختلفة، وهو عن غرق فرعون: "قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيته وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فرعون مخافة أن يقول: "ربّي"، فتدركه رحمة الله" (الراوي: أبو هريرة/ المحدث: ابن

عدى / المصدر: الكامل في الضعفاء. خلاصة حكم المحدث: فيه حفص بن سليمان. عامة حديثه غير محفوظ). "قال لي جبريل عليه السلام: يا محمد، لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن يقول: "ربّي"، فتدركه رحمة الله" (الراوى: أبو هريرة / المحدث: ابن القيسراني / المصدر: ذخيرة الحفاظ / خلاصة حكم المحدث: فيه حفص بن سليمان. متروك الحديث). "قال جبريل عليه السلام: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر (بالفارسية يعنى التراب) فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة" (الراوى: عبدالله بن عباس / المحدث: الجورقاني / المصدر: الأباطيل والمناكير / خلاصة حكم المحدث: حسن). "لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فقال جبريل: يا محمد، فلو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة" (الراوى: عبدالله بن عباس / المحدث: الزيلعي / المصدر: تخريج الكشاف / خلاصة حكم المحدث: له طرق). "قال جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة" (الراوى: عبدالله بن عباس / المحدث: ابن حجر العسقلاني / المصدر: تحفة النبلاء / خلاصة حكم المحدث: غريب). "قال لي جبريل: لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة" (الراوى: عبدالله بن عباس / المحدث: محمد جار الله الصعدي / المصدر: النوافح العطرة / خلاصة حكم المحدث: صحيح). "أغرق الله فرعون فقال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسّه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: الشوكاني / المصدر: فتح القدير / خلاصة حكم المحدث: روى من غير وجه ومن طرق أخرى). "لما قال فرعون: "آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل" قال: قال لي جبريل: يا محمد، لو رأيتني وقد أخذت حالا من

حال البحر فدَسَّيْتُهُ في فيه مخافة أن تناله الرحمة" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: أحمد شاكر / المصدر: مسند أحمد / خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح). "أن جبريل عليه السلام قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو رأيْتَنِي وأنا آخِذٌ من حالِ البحرِ فأدُسُّهُ في في فرعونَ" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: أحمد شاكر / المصدر: مسند أحمد / خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح). "قال لى جبريلُ: لو رأيْتَنِي وأنا آخِذٌ من حالِ البحرِ فأدُسُّهُ في فَمِ فرعونَ مخافةً أن تُدركَهُ الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: الألبانى / المصدر: السلسلة الصحيحة / خلاصة حكم المحدث: صحيح). "قال جبريلُ: لو رأيْتَنِي وأنا آخِذٌ من حَمَاءِ البحرِ فأدُسُّهُ في في فرعونَ مخافةً أن تُدركَهُ الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: الألبانى / المصدر: صحيح الجامع / خلاصة حكم المحدث: صحيح). "لما أغرقَ اللهُ فرعونَ قال: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بنو إسرائيلَ. قال جبريلُ: يا مُحَمَّدُ، فلو رأيْتَنِي وأنا آخِذٌ من حالِ البحرِ فأدُسُّهُ في فيه مخافةً أن تُدركَهُ الرحمةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: الألبانى / المصدر: صحيح الجامع / خلاصة حكم المحدث: صحيح). "لَمَّا أغرقَ اللهُ فرعونَ قال: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بنو إسرائيلَ، فقالَ جبريلُ: يا مُحَمَّدُ فلو رأيْتَنِي وأنا آخِذٌ من حالِ البحرِ فأدُسُّهُ في فيه مخافةً أن تُدركَهُ الرَّحْمَةُ" (الراوى: عبد الله بن عباس / المحدث: الألبانى / المصدر: صحيح الترمذى / خلاصة حكم المحدث: صحيح لغيره).

وأول ملاحظة هى أن القرآن يقول إن فرعون قد أعلن إيمانه بالله بغض النظر عن صلاحية ذلك الإيمان أو لا، وقبوله من ثم أو عدم قبوله، فى حين يقول الحديث فى معظم رواياته إن جبريل كان يضع الطين فى فمه منعاً له من نطق الشهادة. فبأى النصين نأخذ؟

بالقرآن أم بتلك الروايات الحديثية؟ المفروض طبقاً للمنطق والعقيدة أن يكون القرآن هو المصدّق في مثل تلك الحالة. والغريب أن بعض الروايات تذكر ما قاله القرآن الكريم في ذلك الموضوع ثم تعقب عليه بما قاله جبريل مناقضاً له بحيث لا تترك فرصة للقارئ كي يسهوَ فيقبل كلام الملاك الكريم. وفي أية حال كيف فات النبيّ ملاحظة هذا التناقض بين القرآن والحديث؟ ثم لماذا وُضِعَت على لسان جبريل في كل روايات الحديث تقريباً كلمة "حال"، التي قيل إنها فارسية تعني "التراب"؟ هل كان عليه السلام لا يعرف المقابل العربى لها؟ أم هل شعر أن محمداً صلى الله عليه وسلم يستلطف الفارسية ويؤثرها، في هذا الموضع على الأقل، على لغة الأكاسرة؟ ولقد حاولت أن أجده هذه الكلمة بذلك المعنى في الشعر الجاهلي أو المخضرم أو الإسلامى، فلم ألق شيئاً، وإن قابلت في أحد الأحاديث الخاصة بوصف "الكوثر" أن "حاله" (وفي أحاديث أخرى: "ملاطه") هو المسك، ولكن دون القول بفارسية اللفظ. أما في القرآن المجيد فلا وجود لتلك الكلمة البتة.

كذلك فالملاحظ أن الملائكة حين تتدخل في بعض الأحداث تدخلا خاصاً نجد القرآن يذكر ذلك كما هو الحال في حديثه عن غزوة بدر مثلاً، بينما في حديث القرآن عن غرق الطاغية الفرعونى لا نرى كلاماً عن الملائكة قط. فلم سكت القرآن عن ذلك إذا كان جبريل قد تدخل على النحو الذى يصوره الحديث؟ كذلك ففي سورة "الأنفال" مثلاً تصوير لما يصنعه الملائكة بالكفار عند وفاتهم: "ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ"، وهو مخالف لما ذكرت تلك الأحاديث عما صنعه جبريل مع فرعون. ثم ما دام الحديث لم يكتَفِ هنا بذكر الملائكة وحَدَّدَ جبريلَ تحديداً فإننا نتساءل: هل هذه مهمة جبريل؟ ترى أين إسرافيل ملك الموت؟ ولماذا لم نسمع به هنا، وهذا تخصصه؟ ثم ما الذى يزعم جبريل في أن

يؤمن فرعون وتدركه رحمة الله؟ أترأه يريد أن يصادر على مشيئة رب العالمين فيسبقه ليمنعه من رحمة الطاغية إن كانت هناك رحمة له؟ منذ متى تفعل الملائكة ذلك، وكأنها تتصرف من تلقاء نفسها ولا تنفذ أمر ربها دون أن يخطر لها الخروج عن ذلك الأمر؟ ثم لماذا يقول جبريل أصلا لرسول الله إنه وضع الطين في فم فرعون ليمنعه من إعلان التوحيد، رغم أن فرعون قد أعلن إيمانه فعلا؟ ترى كيف نفسر هذا الأمر؟

إن هناك أحاديث تعنف أشد التعنيف من يتألمون على الله فيحكمون على بعض العصاة بأنهم في النار وتذكر أن الله يغضب ممن يفعلون ذلك ويرديهم هم في العذاب وينجى العاصي. بل لقد قيل في منتهى الصراحة والقوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن الكفار: "ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم، فإنهم ظالمون". كما تكرر في القرآن الكريم أنه عليه السلام مجرد مبلغ، ولا دخل له في الحساب أو في سوق المشركين على غير إرادتهم إلى الإيمان، فما بالنا بمحاولة منعهم من ذلك الإيمان؟ وإذن فكيف نصدق أن جبريل يقدم على هذا الذي أقدم عليه؟ بل كيف يجرؤ جبريل على اقتحام الحوار الذي كان دائرا بين الله وبين فرعون دون أن يسمح الله له بذلك بل دون أن يستأذنه هو أصلا؟ أيمن أن يقع ملاك مقرب كريم في هذا السلوك الخارج عن اللياقة؟ ولقد كان رسولنا الرحيم يدعو بالهداية لقومه رغم كفرهم وعُتُوهم وبغيهم وظلمهم وتصلبهم قائلا: "رب، اهد قومي، فإنهم لا يعلمون"، بل لقد هم أن يصل على كبير المنافقين ابن سلول بعد موته واعتراض عمر على ذلك لولا أن نزل النهي من السماء عن الصلاة عليه، ورغم هذا لم يتوان عن إعطاء ابنه ثوبه الطاهر عليه السلام ليكفنه فيه رجاء الرحمة، فكيف اتخذ جبريل خطة مناقضة بغية ألا يرحم الله فرعون سواء كان ممن يعلمون أو من الذين لا يعلمون؟

ولنفترض أن جبريل قد استطاع منع فرعون من النطق بالشهادة فعلا فهل ينخدع الله بذلك فيخرج نية فرعون في الإيمان من الاعتبار، إن كان هناك مجال لتقبل الإيمان منه وإسباغ الرحمة عليه من ثم؟ إن الإسلام هو دين النيات. والعامة تقول بحق: "ربنا رب قلوب". فلو كان إيمان فرعون صحيحا لما نفع صنيع جبريل معه؟ لكن المشكلة هنا ليست في النطق أو عدم النطق بل في النية، ولم تكن نية فرعون نقية بل كان سببها الرعب اللحظي بحيث إنه لو قُدِّر له أن ينجو من الغرق لرجع ثانية إلى الكفر والتمرد. ولقد وضحت بعض أحاديث الرسول عليه السلام أن التوبة تظل مقبولة من العبد ما لم يغرغر. ويقول القرآن في هذا الصدد: "وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال: "إنى تبْتُ الآن" ولا الذين يموتون وهم كفار". وبهذا تنحسم المسألة دون أن تكون هناك حاجة لطين البحر، أو "حاله" إذا كان لنا أن نرطن بالفارسية. وهذا إن كانت الكلمة فارسية أصلا، وهو ما أردتُ التحقق منه في المعاجم الخاصة بتلك اللغة فلم أجدها أثرا. ثم لماذا كان لابد من استعمال التراب أو الطين في منع فرعون من النطق، والماء بحمد الله في البحر كثير لا يمنعه فقط من النطق بل من الحياة كلها؟

والعجيب أيضا، ما دمنا بصدد اللغة، أن بعض روايات الحديث تبدأ بذكر غرق فرعون أولا، ثم تتحدث عن وضع جبريل تراب البحر أو طينه في فمه، أى بعد خراب بصرة فيما يفهم من النص، أما القرآن فيقول بوضوح تام إن فرعون، حين أراد إعلان إيمانه، لم يكن قد غرق بل "أدركه الغرق". وعلى هذا فما لزوم وضع الطين في فمه لحرمانه من فرصة النجاة، وهو قد غرق وانتهى أمره؟ وأخيرا لِمَ يحرص جبريل على إخبار الرسول بأنه هو الذى منعه من الإيمان؟ أليقول: إننى أنا الذى منعته، وليس الله هو الذى رفض ذلك الإيمان المدخول؟ وأخيرا ما مناسبة حديث جبريل إلى رسول الله في هذا الموضوع؟ للأسف قد سكت الرواة

عن ذلك، وهو ما كان من شأنه لو ذُكر أن ينير لنا بعض الجوانب المعتمدة في القصة. أكتب هذا وأنا على استعداد للتراجع متى ما ظهر في المسألة شيء جديد لم يكن متاحاً لنا. فكل ما كتبته هنا هو مجرد اجتهاد بشري يصيب ويخطئ.

وهناك أيضاً حديث منسوب إلى أبي هريرة يقول فيه الصحابي الجليل: "وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَى عِيَالٍ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ! قَالَ: فَخَلَيْتُ عَنْهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَأَ حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحَّمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ. فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: دَعْنِي، فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَى عِيَالٍ. لَا أَعُودُ! فَرَحَّمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةُ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَأَ حَاجَةً وَعِيَالاً، فَرَحَّمْتُهُ فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. فَقَالَ: دَعْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالَ: إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تَصْبِحَ. فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةُ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: لِي: إِذَا أُوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا

حتى تحتم الآية: "الله لا إله إلا هو الحى القيوم". وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح (وكانوا أحرص شىء على الخير). فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أما إنه صدَقَك، وهو كذوب. تَعَلَّم من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان".

والآن ما معنى "الشيطان" فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ذلك أن الشيطان قد يكون معناه شيطانا من شياطين الإنس، وما أكثرهم! وفى القرآن أن هناك شياطين من الإنس مثلما هناك شياطين من الجن. وهذا ما تبادر إلى ذهنى للوهلة الأولى. إلا أن ثمة عددا من الأسئلة المهمة هى: هل يعقل أن يكون بين سكان المدينة المنورة فى ذلك الوقت، حين كانت قرية صغيرة محدودة، وكل شخص يعرف كل شخص هناك، من يجهله أبو هريرة؟ فكيف لم يعرف رضى الله عنه اللص الذى ضبطه وهو يعبئ القمح فى غرارته أو فى حجر ثوبه؟ وكيف صدقه وهو يعرف جيدا أن الرسول لم يكن يترك محتاجا دون أن يعطيه ما يحتاجه هو وبيته من مال الصدقة؟ بل كيف تكتم الخبر وستر على اللص، وهو ليس صاحب المال المسروق حتى يكون من حقه العفو عنه بعد ضبطه متلبسا بالسرقه؟ وكيف تركه دون أن يسأله: "من أنت؟ وكيف وصلت إلى هنا؟". بل كيف سكتَ عليه ثلاث مرات على مدار ثلاث ليال دون أن يبلغ رسول الله بما وقع حتى إن الرسول هو الذى كان يفتحه فى ذلك الموضوع؟ ثم لماذا انتظر الرسول ثلاث ليال قبل أن يعرفه بأنه شيطان؟ أو هذه مسألة سهلة حتى ينتظر عليه السلام كل ذلك الوقت؟ بل كيف لم يقل أبو هريرة للص إنه سوف يشرح للرسول أحواله هو وأسرته حتى يجعلهم على قائمة مستحقى الزكاة؟ بل كيف لم يكلفه رسول الله منذ الليلة الأولى أن يطلب من اللص الظريف مقابله صلى الله عليه وسلم حتى يدبر له موردا للرزق يغنيه عن السرقه؟ ولماذا لم يأت الرجل بعد ذلك فى الليالى التالية؟ أم

لعله كان من أصحاب نظرية "الثالثة ثابتة"؟ لكن هل الشياطين تتوب عن عمل الشر؟ ومتى كانت تلتزم بكلمة قالتها؟ وأخيرا، وليس آخرا، هذه أول وآخر مرة يحدث فيها شيء مثل ذلك. أليس الأمر غريبا؟

هذه هي الأسئلة التي تثور في الذهن حال قراءة ذلك الحديث إذا وضعنا في أذهاننا أن يكون اللص شيطانا من شياطين الإنس؟ فهل هو شيطان من شياطين الجن؟ الواقع أن تفسير الشيطان على هذا النحو يثير من المشاكل أكثر وأعقد مما يثيره التفسير السابق. كيف؟ أولا هل الشياطين تحتاج إلى الأكل من طعامنا نحن البشر؟ ذلك أن هناك أحاديث تقول إن الجن، وهم الجنس الذي ينتمى إليه الشياطين، يأكلون العظم والرّوث. فما القول في هذا؟ يروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قد حدث المسلمين ذات يوم قائلا: "إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها لغائط ولا لبول، وليستنج بثلاثة أحجار. ونهى عن الرّوث والرّمّة وأن يستنجى الرّجل بيمينه". وفي حديث آخر، وهو عن أبي هريرة أيضا: "قلت: ما بال الرّوث والعظم؟ قال: هما طعام الجن". أقول هذا رغم ما نعرفه جميعا ونتحققه من أن العظم والرّوث اللذين نراهما ليلا مثلا نجدهما لم ينقصا حين يأتي عليهما النهار بل يظلان كما هما دون نقصان إلى أن يجفّا. فكيف تأكلهما الجن إذن؟

وإذا قلنا، رغم ذلك، إنها تأكل مثلنا، فهل تأكل يا ترى نفس الطعام بحيث يحتاج شيطاننا هذا إلى سرقة القمح؟ وماذا يفعل الشياطين بالقمح؟ هل لديهم رَحَى أو مَكْنَة طحين يطحنونه فيها ويحولونه دقيقا يخبزونه ويصنعون منه الخبز؟ فأين تلك الرّحى أو تلك المكنة؟ ولماذا لم يفكر شيطاننا في سرقة خبز جاهز ما دام أولاده يتضورون جوعا إلى هذا الحد بدل أن يضع الوقت في الطحين والعجن والخبز فيكون أولئك الشياطين الصغار قد ماتوا من الجوع والهزال؟ ولكن هل يكتفى الشياطين بالخبز الحافى؟ فلماذا إذن لم يحاول اللص الشيطان سرقة

بعض اللحوم أو حتى اللبن والجن والتمر لزوم التغميس؟ بل هل كان ذلك الشيطان يحتاج إلى السرقة من مال الصدقة الذى فى المسجد والذى يجرسه أبو هريرة، وعنده جميع الحقول والأهراء التى حول المدينة، ويمكنه أن يأخذ منها ما يحتاجه هو وكل الشياطين من القمح وغير القمح دون أن يبصره أبو هريرة أو غير أبى هريرة؟ وإذا قلنا إنه شيطان مبتدئ لم يتشرب صنعة الشيطنة على أصولها، فأصر على سرقة القمح الذى فى المسجد، فلماذا لم ينتظر حتى يذهب أبو هريرة فى سابع نومة فيعمل عملته وقتذاك ويحمل ما يشاء من قمح دون أن يحس به أحد أو يتعرض له أحد؟ بل هل الشياطين تحتاج إلى أن تظهر للناس، وبخاصة حين تريد أن تسرقهم؟ يا له من شيطان غبى! لكن هل هناك شيطان غبى؟ لو كنت أنا رئيسه لرفته من زمرة الشياطين لبحث له عن صنعة أخرى تناسب غبائه وحمقه. ثم كيف فات الصحابى الجليل أن كلام اللص لا يدخل العقل، وإلا فكيف يا ترى استطاع أولاده الصغار، ودعنا منه ومن زوجته، فهما كبيران يتحملان، مواصلة الجوع ثلاثة أيام بلياليها ما دام أبو هريرة لم يمكنه من السرقة طوال تلك المدة؟

أما تصرفه هذا فهو مثل تصرف لص يترك سائر الشقق التى خَلَّفَهَا أصحابها وسافروا بعيدا، ومن ثم يمكنه أن يسرقها ويجردها من جميع محتوياتها دون أن يتعرض لأى خطر، ويذهب عَوْضَ هذا إلى شقة مدير الأمن مثلا، ثم بدلا من أن ينتظر حتى ينام أصحابها فيتسلق المواسير من خلف المنزل ويدخل إلى المطبخ على "طراطيف" رجله، ومنه إلى الغرفة الأخرى التى لا ينام فيها مدير الأمن وأفراد أسرته، نراه يختار عز الظهيرة ويصر على دخول الشقة من الباب الأمامى بعد أن يدقه حتى يفتحوا له، فيستأذن المدير أن يتركه يسرق شقته ويخرج فى سلامة الله دون أن يحاول اعتراضه أو تعويقه لأن أولاده الجائعين ينتظرونه

بمصارينهم تتلوى، ثم يكرر العملة نفسها ثلاث مرات دون أن يتعلم الدرس. ترى هل هذا أمر يدخل العقل؟

ثم إذا كان شيطاننا من شياطين الجن أكان ينصح أبا هريرة تلك النصيحة الخيرة؟ متى كانت الشياطين تفكر في الخير، فضلا عن أن تنصح به، فضلا عن أن تكون النصيحة ضارة بهم هم أنفسهم بحيث لا يستطيعون بعدها أن يمارسوا صنعة الشيطنة معنا نحن البشر؟ ثم ماذا نفعل بقول الله تبارك وتعالى عن الشيطان: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم؟" وأنا لا أتهم الصحابي الجليل الذي أحبه من كل قلبي ودافعت عنه دفاعا شديدا في دراسة لى طويلة على المشباك، بل الخطأ من غيره في الأغلب. وهذا إذا لم أكن أنا المخطئ في كل ما قلته. فأنا، في نهاية المطاف، بشر أصيب وأخطئ، وليس لى من العصمة قليل ولا كثير.

ومن غرائب هذا الباب أيضا ذلك الحديث المنسوب للنبي عليه الصلاة والسلام، ونصه: "أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ"، أى بالعين. ووجه الغرابة في هذا الكلام هو أنه يشترط قضاء الله وقدره في الإصابة بالعين، وكأن الإصابات الأخرى لا تستلزم ذلك. أما إذا كان المقصود هو وضع الموت بالعين في فئة أخرى من الوفيات خارج قضاء الله وقدره فمعنى ذلك أن هناك من ألوان الموت ما يمكن ألا يخضع للقضاء والقدر. وفوق ذلك فالحديث يقرر أن أكثر الموت في أمة المسلمين راجع إلى العين مع أن وقائع التاريخ لا تساعد على هذا الاقتناع، ودعك من أنه يجعل منا أمة من الحسادين الذين يصيب بعضهم بعضا بنظرات العيون. ويكفى في التدليل على خطأ ذلك الكلام أن مرض سهل بن حنيف في الماء بسبب نظر عامر بن ربيعة إليه وثناؤه على بشرته البيضاء وهو يستحم عاريا على ما سوف يأتي للتو هو، فيما نعلم، الحالة الوحيدة من الإصابة بالعين في عهده صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين على الأقل، إذ لم نسمع بحالة غيرها آنذاك.

لا أجهل أن هناك حديثاً منسوباً للنبي عليه الصلاة والسلام يقول: "العين حق. ولو كان شيء سابق القدر سبقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا". ولو ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك وحياً من السماء، وبالمعنى الذى يقصده من يؤمنون بالعين، لما كان لي إلا أن أصدق ما قاله سيدنا رسول الله. لكن لى عدة ملاحظات: هل قال النبي ذلك فعلاً؟ الجواب هو أن كتب الحديث تقول إن هذا حديث صحيح. إذن فمن حيث الرواية: الحديث صحيح. لكن هل إذا كان الحديث صحيحاً في نظر أهل الحديث من ناحية الإسناد أفلا بد أن يكون صحيحاً بالضرورة؟ هل الأحاديث مجرد رواية لا دخل لها بالتفكير المنطقي في مضمونها ومعناها؟ ثم هل قاله صلى الله عليه وسلم على سبيل الوحي؟ أم هل كان ذلك مجرد اجتهاد منه كاجتهاده في مسألة تأبير النخل، الذى اتضح أن ما أشار به في هذا الخصوص كان في غير موضعه ولم يكن هو الأسلوب السليم في عملية التلقيح؟ لكن هل يترك الله الأمر في هذه الحالة دون أن يتم تصحيح الخطأ على نحو أو على آخر كما حدث في تأبير النخل؟ معنى هذا أن يكون النبي قد قال ذلك أولاً حتى يمكن أن يصحح ما يكون قد وقع منه من سهو أو نسيان أو خطأ، فهل قاله فعلاً؟

كذلك هل يمكن أن يسبق شيء القدر؟ إن القدر هو مشيئة الله عز شأنه، فهل يمكن أن يخطر هذا المعنى على بال رسول الله صلى الله عليه وسلم وينطق به في حديث يظل يردده المسلمون طوال الحياة؟ ترى هل هناك شيء يقع على الأرض أو في السماء يمكن أن يكون بمشيئة غير مشيئته سبحانه، بله أن تسبق تلك المشيئة مشيئته تعالى، بله أن يكون هذا الشيء هو العين، التى يرى ابن القيم أنها قد تصيب، وقد تحيب، فضلاً عن أنها ليست بالقضية الهامة على الإطلاق، بل هى لا فى العير ولا فى النفير، وبخاصة أن معظمنا لا يرى أثراً لها فى الواقع؟ أقول: "معظمنا" لمجاراة الطرف الآخر سداً لباب اللجاج ليس إلا. فكيف يمكن أن نصدق

أن الرسول عليه السلام يلجأ، في الكلام عنها، إلى هذا التعبير المتجاوز؟ الواقع أننى في أشد الحيرة.

ومن الأحاديث التى قررت ذلك الموضوع أيضا الأحاديث التالية: "انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل. قال: فانطلقا يلتمسان الحمر. قال: فوضع سهل جبة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه فأصبته بعينى، فنزل الماء يغتسل. قال: فسمعت له فى الماء قرقة، فأتيته فناديته ثلاثا، فلم يجبنى. فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم، فأخبرته فجاء يمشى فخاض الماء كأنى أنظر إلى بياض ساقيه. قال: ف ضرب صدره بيده، ثم قال: اللهم أذهب عنه حرها وبردها ووصبها. قال: فقام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأى أحدكم من أخيه ومن نفسه ومن ماله ما يعجبه فليبركه، فإن العين حق".

"اغتسل سهل بن حنيف بـ"الخرار" فنزع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال: فقال له عامر بن ربيعة: ما رأيت كالיום ولا جلد عذراء. قال: فوعك سهل مكانه، واشتد وعكه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن سهلا وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله. فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر سهل بالذى كان من أمر عامر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت؟ إن العين حق. توضحاً له. فتوضحاً له عامر، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس".

"خرج (سهيل بن حنيف) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالخرار دخل ماء يغتسل، وكان رجلا وضاء، فمر به عامر بن ربيعة فقال: لم أر كالיום حسن شيء ولا جلد مخبأة. فما لبث سهل أن لبط به، فدعى له نبى الله صلى الله عليه وسلم، فقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ من تتهمونه به؟ قالوا: عامر بن ربيعة. فدعا عامرا ودعا بإناء فيه ماء فأمر

عامرا، فغسل وجهه في الماء وأطراف يديه وركبتيه وأطراف قدميه، ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم ضَبْعِي إزار عامر وداخِلَتَه فغمرها في الماء ثم أفرغ الإناء على رأس سهل وأكفأ الإناء من دبره، فَأُطْلِقَ سهل لا بأس به".

والآن أى هذه الأحاديث هو الصحيح؟ هل ذهب الحاسد إلى الرسول فأخبره بما وقع منه من حسد كاد أن يقتل صاحبه؟ أم هل سأل رسول الله من حوله فوجهوا الاتهام إلى عامر بن ربيعة؟ ثم هل كان المحسود، أيا كان، يحتاج إلى أن يخلع ملابسه حتى يرى الحاسد لون بشرته؟ أليست بشرة الواحد منا تظهر حتى وهو مرتد ملابسه من خلال صدره ووجهه وذراعيه مثلاً؟ أم كان الرجال في ذلك الوقت يغطون كل بقعة من أجسادهم؟ كذلك متى كان رجال العرب، فضلا عن المسلمين، يتفاخرون بأن جلودهم تشبه جلود العذارى، كى يحسد بعضهم بعضا على هذا؟ إننى لا أنفى وجود الحسد في الناس، فالحسد شعور بشرى يكاد لا يفلت منه أحد. وعلى هذا فليس لمن يحاول إثبات أثر العين دليل على وجود ذلك الأثر بالقول بأن الحسد مذكور في القرآن، إذ الحسد موجود كما قلنا، ونحن نؤمن به سواء ورد ذكره القرآن أو لا.

لكن السؤال هو: هل يؤثر هذا الحسد في المحسودين عن طريق نظرات عين الحسود؟ أما أنا فلا أعتقد ذلك، بل أرى أن الحسد إنما يؤثر في عن طريق ما يمكن أن يحبكه الحاسد من مؤامرات على من يتفوق عليه ويثير الغيظ والحقد في نفسه، أو من خلال ما يضعه في طريقه من عقبات أو يثيره في وجهه من مشاكل أو يشنه ضده من شائعات مثلاً، إن لم يفكر في ضربه أو قتله. أما العين فقصة أخرى. بيد أن بعض المفسرين يقرأون قوله تعالى مخاطبا الرسول عليه السلام في سورة "القلم": "وإن يكاد الذين كفروا لَيَزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ويقولون إنه لمجنون" على أنه إشارة إلى عيون الكفار وقدرتها على أن تصيب الرسول بالضرر

فتسقطه على الأرض بقوة الشعاع الصادر منها نحوه. وهو تفسير مضحك. فالكفار لم يكونوا يحسدون الرسول على النبوة بل كان ضيقهم به وبدعوته لأنها كانت تهديدا عنيفا لتقاليدهم وعاداتهم وعقائدهم التي درجوا هم وأسلافهم عليها منذ قرون طوال. ثم على أى شىء كان يمكن أن يحسدوا الرسول؟ لقد كان ضعيفا مضطهدا آنذاك لا يملك حولا ولا طولا ولا مالا ولا رئاسة ولا زعامة مما يمكن أن يثير الأحقاد في النفوس. أما الحسد على النبوة فقد ظهر في المدينة، وكان اليهود أصحابه. ولم يذكر القرآن أنهم عاثوا الرسول عليه السلام، بل ذكر أنهم كانوا يؤلبون المشركين ضده ويزعمون لهم أن وثنياتهم خير من توحيده. وكان مبعث حسدهم له أن النبوة قد فارقت بنى إسرائيل وانتقلت إلى العرب واختير لها محمد صلى الله عليه وسلم، بينما هم لا يطيقون أن تكون النبوة في أى قوم غيرهم. ونجد ذلك الموضوع في سورة "النساء".

وقد ورد ذكر "القرقة" في الحديث الأول، وهى صوت الحديد عند اصطدامه بالحديد وما أشبه من الأصوات على ما جاء في "معجم اللغة العربية المعاصرة" للدكتور أحمد مختار عمر. وإنى لأتساءل: ما دخل القرقة هنا بالعين والإصابة بها؟ ثم كيف يترك الرجل زميله في هذا الوضع المفزع ويذهب لرسول الله كى يخبره بما حصل دون أن يحاول مساعدته مع أن كل الشواهد تدل على أنه في خطر عظيم إذ لم يستطع الرد عليه حين ناداه ثلاث مرات لا مرة واحدة، وسمع بدلا من ذلك صوت قرقة، وكأن هناك حديدا يصدم حديدا، وبخاصة أن الذهاب إلى رسول الله والعودة معه لا بد أن يستغرق وقتا طويلا يكون المعيون فيه قد صار في خبر كان؟ ثم ماذا كان يمكن أن يقع لو لم يكن هناك رسول الله؟ لقد كان الرجل في كرب عظيم، وكانت حياته في حرج كما يفهم من سياق الرواية. إلى هذا الحد يكون خطر العيون، وتكون حياة الشخص المَعِين رهنا بالمصادفات التي لا تجرى على قانون؟

أنا لا أكذب كلاماً ثبت أن رسول الله قاله فعلاً، بل كل ما أبغيه هو محاولة إقامة مثل هذا الأمر على أسس علمية صلبة بدلاً من الاعتقاد في شيء لا ندري مدى مبلغه من الصحة. ولا أظن الرسول عليه السلام يضره أو يغضبه أن نحاول التحقق من أمر ينسب إليه قوله. إننا نحبه صلى الله عليه وسلم حبا جما، ونحب أن نتأكد مما يروى عنه ومن صحته كي نصدق أنه قاله حقاً. ذلك أن حبنا الحقيقي له صلى الله عليه وسلم يقتضينا أن نلجأ إلى العلم للتحقق من صحة أى شيء. أليس هو الذى نادى بفضل العلم والعلماء؟ أليس القرآن هو الذى يدعو الكفار إلى الإتيان بأثارة من علم إن كانوا صادقين؟ ومن السهل التحقق من هذه المسألة، فهى ليست مسألة غيبية لا تخضع للتجربة كما يهرف بعض الناس، بل من المسائل المادية. أليست العين شيئاً مادياً؟ أليس الجسد المصاب بها شيئاً مادياً؟ أليست الأشعة التى يقال إنها تصدر عنها وتضر من تقع عليه مما يمكن قياسه بالآلات المادية مثلها مثل الأشعة الضوئية والتيارات الكهربائية مثلاً؟ فهذا أفضل مليون مرة من بقائنا أسرى لاعتقاد عجيب يفسد العلاقات بين الناس ويترتب عليه تشاؤم بعضهم من بعض ونفور بعضهم من بعض وتجنب بعضهم من بعض دون أن يكون لهذا الاعتقاد أساس سليم.

وبالنسبة لى لا أذكر أنى شاهدت أحداً يؤذى أحداً بعينه أو بكلامه. وأنا طول عمري من المتفوقين فى الامتحانات الدراسية، ولا أستطيع أن أتذكر أن أذى قد أصابنى جرّاء هذا قَطُّ. كما أننى كنت من الصبيان والشبان البارعين فى كرة القدم فى قريتى وقرى المركز الذى تتبعه قريتنا، وكان المشجعون من أهل القرية يهتفون لى كما يهتفون لأمثالى، ولم أنكسر بحمد الله فى الملاعب إلى أن كبرت وتركت الكرة من تلقاء نفسى. أقول هذا لا على سبيل التفاخر بل لتوضيح الأمر ليس غير، وإلا فهناك من هو أحسن منى فى الدراسة والذكاء والكرة كثيراً جداً، ولم يحدث لهم شيء أبداً.

ترى هل يغضب الرسول أو يجد في الأمر مساسًا برسالته إذا ما أراد أحد الصحابة التحقق مثلاً من أن عدم تأبير النخل لا يمنعه من الإثمار؟ بل لقد حدث هذا فعلاً، وقام الصحابة بتجربة ما قاله الرسول في هذا الشأن فترتب عليه أن النخيل لم يثمر ذلك العام، فراجعوه عليه السلام، فما كان منه سوى أن قال بكل بساطة وتواضع ونزول على مقتضى الحق والواقع: "أنتم أعلم بأمر دنياكم"، ولم يقل لهم في غضب: كيف تراجعونني في أمر أخبرتكم فيه برأى؟ ففي الحديث "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْقَحُونَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ. قَالَ: فَخَرَجَ شَيْصًا. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَخْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ".

والغريب أن ثمَّ حديثاً في شرح "موطأ" الإمام مالك المسمى بـ"المنتقى" يقول: "رَوَى ابْنُ السُّنِّي عَنْ سَعِيدِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: "كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَافَ أَنْ يَصِيبَ شَيْئًا بَعِيْنِهِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ، وَلَا تَضُرَّهُ"، وهو ما يعنى أن عينه عليه الصلاة والسلام كانت هى أيضاً مؤذية لولا أنه كان يستعين على أذاها بتبريك الشيء أو الشخص الذى ينظر إليه. الله أكبر! لم يبق إلا أن يقال هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم. ألا إن هذا هو الهوس بعينه! أما كيف نحصل على ماء اغتسال العائن لصبه على المعيون فقد قرأت في آخر إحدى روايات الحديث الذى نحن بصدده ما يلى: "الْغُسْلُ أَنْ يُؤْتَى بِالْقَدَحِ، فَيَدْخُلُ الْغَاسِلُ كَفَّيْهِ جَمِيعًا فِيهِ ثُمَّ يَغْسِلُ وَجْهَهُ فِي الْقَدَحِ ثُمَّ يَدْخُلُ يَدَهُ الْيَمْنَى فَيَغْسِلُ صَدْرَهُ فِي الْقَدَحِ ثُمَّ يَدْخُلُ يَدَهُ الْيَسْرَى فَيَغْسِلُ ظَهْرَهُ ثُمَّ يَأْخُذُ بِيَدِهِ الْيَسْرَى يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَغْسِلُ رُكْبَتَيْهِ وَأَطْرَافَ أَصَابِعِهِ مِنْ ظَهْرِ الْقَدَمِ وَيَفْعَلُ ذَلِكَ بِالرَّجْلِ الْيَسْرَى ثُمَّ يُعْطَى ذَلِكَ الْإِنَاءُ، قَبْلَ أَنْ يَضَعَهُ بِالْأَرْضِ، الَّذِى أَصَابَهُ الْعَيْنُ ثُمَّ يُمَجَّجُ فِيهِ وَيَتَمَضَّمُ وَيَهْرِيقُ عَلَى وَجْهِهِ وَيُصَبُّ عَلَى رَأْسِهِ وَيَكْفِي الْقَدَحَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ". وهذا، كما نرى، أشبه بأعمال السحر. ثم من ذا يا ترى يرضى بأن يقال عنه إنه حساد حقود

يؤذى الناس بعينه، ويقتلهم بها قتلا، ويوافق على الاغتسال ويعرض نفسه لذلك الأمر الفاضح المهين؟ إن هذه دعوة إلى إفساد العلاقات بين الناس أكثر مما هي فاسدة أصلا.

ليس ذلك فقط، بل يمضى الهوس بذلك الموضوع حتى لنقرأ، فى ذات الكتاب المذكور أنفا، كلاما عجيبا منسوباً للقرطبي مفاده أنه "لَوْ أَتَلَفَ الْعَائِنُ شَيْئًا ضَمِنَهُ، وَلَوْ قَتَلَ فَعَلَيْهِ الْقِصَاصُ أَوْ الدِّيَّةُ إِذَا تَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَصِيرُ عَادَةً. وَهُوَ فِي ذَلِكَ كَالسَّاحِرِ الْقَاتِلِ بِسِحْرِهِ عِنْدَ مَنْ لَا يَقْتُلُهُ كُفْرًا، وَأَمَّا عِنْدَنَا فَيَقْتُلُ، قَتَلَ بِسِحْرِهِ أَمْ لَا لِأَنَّهُ كَالزُّنْدِيقِ". ومعنى هذا أن القرطبي لا مانع عنده أن يقتل العائن كم قتيلا للتجربة، ولكن حين نتأكد من خلال التجارب أنه يعين فعلا فعندئذ لا بد من قتله إذا مات المَعِين (المَعِينون). والواقع أننا لو أخذنا بهذا الحكم العجيب الذى سوف يجعلنا مهزلة الأمم لسوف يقوم الجهلة، وما أكثرهم وأشد حماقتهم واختلال عقولهم، باتهام بعضهم بعضا بالقتل عن طريق العين، وسوف ينتهى الأمر بتفانى المسلمين. وشكرا للإمام القرطبي على غيرته "القاتلة" على الدين، فهكذا ينبغي أن تكون الغيرة، وإلا فلا. وعلى خلافة ابن عبد البر والإمام النووي، إذ يقول الأول نقلا عن صاحب "المنتقى": "إِنَّ مِنَ الطَّبَعِ الْبَشَرِيِّ الْإِعْجَابَ بِالشَّيْءِ الْحَسَنِ وَالْحَسَدَ عَلَيْهِ، وَهَذَا لَا يَمْلِكُهُ الْمَرْءُ مِنْ نَفْسِهِ. فَلِذَا لَمْ يَعَاتَبْ عَامِرٌ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى تَرْكِ التَّبْرِيكِ الَّذِي فِي وَسْعِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ قَدْ تَقَتَّلُ، وَتَوْبِيخُ مَنْ كَانَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ سُوءٌ، وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَحْتَ الْقَدْرِ السَّابِقِ بِذَلِكَ كَالْقَاتِلِ يَقْتُلُ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْتُولُ يَمُوتُ بِأَجَلِهِ، وَأَنَّ الْعَيْنَ إِنَّمَا تَعْدُو إِذَا لَمْ يَبْرِّكَ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ أَنْ يَبَارِكَ". وهذا كلام معقول رغم أنى لا أطمئن إلى أن العين تؤذى.

وفى "المنتقى" كذلك نقراً للنووى أنه "لَا يَقْتُلُ الْعَائِنُ، وَلَا دِيَّةً وَلَا كَفَّارَةً، وَأَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى مَنْضِبٍ عَامٍّ دُونَ مَا يَخْتَصُّ بِبَعْضِ النَّاسِ وَبَعْضِ الْأَحْوَالِ مِمَّا لَا انْضِبَاطَ لَهُ.

كَيْفَ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْهُ فِعْلٌ أَصْلًا، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ حَسَدٌ وَتَمَنُّ لِرِزْوَالِ النِّعْمَةِ؟ وَأَيْضًا فَالَّذِي يَنْشَأُ عَنِ
 الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ حُصُولُ مَكْرُوهِ لِدَلِكِ الشَّخْصِ، وَلَا يَتَعَيَّنُ ذَلِكَ الْمَكْرُوهُ فِي إِزَالَةِ الْحَيَاةِ، فَقَدْ
 يَخْصُلُ لَهُ مَكْرُوهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَثَرِ الْعَيْنِ. قَالَ الْحَافِظُ: وَلَا يَعْكَرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحُكْمُ بِقَتْلِ السَّاحِرِ،
 فَإِنَّهُ فِي مَعْنَاهُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا عَسِرٌ. وفي "المنتقى" أيضا أنه قد "نَقَلَ ابْنُ بَطَّالٍ عَنْ بَعْضِ
 الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِمَامِ مَنَعُ الْعَائِنِ إِذَا عُرِفَ بِذَلِكَ مِنْ مُدَاخَلَةِ النَّاسِ، وَيَأْمُرُهُ بِالزُّرْمِ بَيْتِهِ، وَإِنْ
 كَانَ فَقِيرًا رَزَقَهُ مَا يَكْفِيهِ وَيَكْفُفُ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ ضَرَرَهُ أَشَدُّ مِنْ ضَرَرِ أَكْلِ الثُّومِ وَالْبَصْلِ
 الَّذِي مَنَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ لَيْلًا يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ ضَرَرِ
 الْمُجْدُومِ الَّذِي مَنَعَهُ عُمَرُ وَالْعُلَمَاءُ بَعْدَهُ الْاِخْتِلَاطَ بِالنَّاسِ، وَمِنْ ضَرَرِ الْمُؤْذِيَاتِ مِنَ الْمَوَاشِي
 الَّذِي يُؤْمَرُ بِإِبْعَادِهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَتَأَذَى بِهَا أَحَدٌ". ورغم أني لست من أنصار تحديد إقامة
 العائن، أو بالأحرى: من يظن الناس أنه عائن، فلا شك أن هذا أخف كثيرا جدا من قتله!

وبالنسبة لأوصاف الدجال نجد في "صحيح مسلم" مرة أنه أعور العين اليمنى، ومرة
 أخرى أنه أعور العين اليسرى: "أراني ليلةً عند الكعبة، فرأيت رجلاً آدمَ كأحسن ما أنت راءٍ
 من آدمِ الرجالِ، له لَمَّةٌ كأحسن ما أنت راءٍ من اللَّمَمِ قد رَجَّلَهَا، فهي تقطرُ ماءً، متكئا على
 رَجْلَيْنِ أو على عَوَاتِقِ رَجْلَيْنِ يطوفُ بالبيتِ، فسألتُ: من هذا؟ ف قيل: هذا المسيحُ بن مريمَ.
 ثم إذا أنا برجلٍ جَعْدٍ قَطَطٍ أعور العينِ اليمنى كأنها عنبةٌ طافية، فسألت: من هذا؟ ف قيل: هذا
 المسيحُ الدجالُ"، "الدَّجَالُ أعورُ العينِ اليسرى جُفَالُ الشعرِ معه جَنَّةٌ و نَارٌ: فنارُه جَنَّةٌ،
 وجنتُه نارٌ". ولا يمكن التوفيق بين الحديثين في هذه النقطة بأية حال كما نرى. وعلى كل
 فلست من الذين يشغلون أنفسهم بمثل ذلك الحديث، إذ ثم قضايا الآن أهم وأكثر إلحاحا
 من المسيح الدجال وأحق بتوجيه الجهود نحوها. لقد كان هناك في عصر الإسلام الأول من
 يتصور أن المسيح الدجال سيظهر آنذاك، وها هي ذى أربعة عشر قرنا قد انصرفت ولم يظهر

المسيح الدجال. فلا ينبغي إذن أن نضيع وقتنا الآن في الكلام فيه، بل في البحث عن السبل التي يمكن أن تخرجنا من التخلف المخزي الذي يحاصرنا بل يطوق رقابنا تطويقاً. أما حين يأتي المسيح الدجال فسيكون ساعتئذ لكل حادثة حديث. وأما إذا كان لابد من الانشغال به منذ اليوم فينبغي أن يكون من زاوية مختلفة عما درج الناس عليه، إذ كثر في أمتنا حالياً الدجالون بين الكتاب والسياسيين والاقتصاديين ورجال الإعلام والأدباء والمتسبين إلى العلم، وصار قول الحق أصعب من الطيران في الهواء وأندر من الكبريت الأحمر، وأصبح كثير من هؤلاء لا يفكر في أن يقول كلمة صدق أو شجاعة، ويمارسون الكذب والعهارة الفكرية والدوقية أسهل مما يتنفسون. فهؤلاء هم الدجالون الصغار الذين ينبغي أن نشتغل بهم وبمحاربتهم إلى أن يأتي كبيرهم: المسيح الدجال.

وأخيراً مع الأحاديث التي يمكن أن نطلق عليها: أحاديث ليلة الجن". وهذه هي الأحاديث أولاً: فعن علقمة بن قيس: "سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن؟ فقال: لا، ولكنّا كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل. قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قومٌ. فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قومٌ. فقال: أتاني داعي الجن، فذهبتُ معه فقرأتُ عليهم القرآن. قال: فانطلق بنا فأرانا نيرانهم. وسألوه الزاد، فقال: لكم كل عظمٍ ذكر اسمُ الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكلُّ بعيرٍ علفاً لدوابكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلا تستنجوا بالعظم ولا بالبعير فإنه زاد إخوانكم من الجن" (الراوى: عبدالله بن مسعود/ المحدث: ابن حبان/ المصدر: صحيح ابن حبان/ خلاصة حكم المحدث: أخرجه في صحيحه).

وعن عمر بن غيلان الثقفي قال: "أتيت عبد الله بن مسعود فقلت له: حَدَّثْتَ أَنَّكَ كُنْتَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً وَفَدَّ الْجَنُّ. قَالَ: أَجَل. قُلْتُ: حَدَّثَنِي كَيْفَ كَانَ. قَالَ: إِنَّ أَهْلَ الصُّقَّةِ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلًا يَعِشِيهِ إِلَّا أَنَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْنِي أَحَدٌ. فَمَرَّ بِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ: أَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ. فَقَالَ: مَا أَخَذَكَ أَحَدٌ يَعِشِيكَ؟ قُلْتُ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَانْطَلِقْ لَعَلِّي أَجِدُكَ شَيْئًا. فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ حَجْرَةَ أُمِّ سَلَمَةَ فَتَرَكْنِي وَدَخَلَ إِلَى أَهْلِهِ، ثُمَّ خَرَجَتْ الْجَارِيَةُ فَقَالَتْ: يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَجِدْ لَكَ عِشَاءً، فَارْجِعْ إِلَى مَضْجَعِكَ. فَارْجَعْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَجَمَعْتُ حِصْبَاءَ الْمَسْجِدِ فَتَوَسَّدْتُهُ وَالتَفَفْتُ بِثَوْبِي. فَلَمْ الْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى جَاءَتِ الْجَارِيَةُ فَقَالَتْ: أَجِبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَاتَّبَعْتُهَا حَتَّى بَلَغْتُ مَقَامِي، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي يَدِهِ عَسِيبٌ نَخْلٍ فَعَرَّضَ بِهِ عَلَى صَدْرِي. فَقَالَ: انْطَلِقْ أَنْتَ مَعِي حَيْثُ انْطَلَقْتُ. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا بَقِيعَ الْغَرْقِدِ، فَخُطَّ بِعَصَاهُ خُطَّةٌ ثُمَّ قَالَ: اجْلِسْ فِيهَا وَلَا تَبْرُحْ حَتَّى آتِيكَ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَمْشِي وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ حَيْثُ لَا أَرَاهُ ثَارَتْ مِثْلَ الْعِجَاجَةِ السُّودَاءِ، فَفَزَعْتُ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذِهِ هَوَازُنُ مَكْرُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَقْتُلُوهُ. فَهَمَمْتُ أَنْ أَسْعَى إِلَى الْبُيُوتِ فَأَسْتَغِيثَ النَّاسَ، فَذَكَرْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانِي أَلَا أُبْرَحَ. وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْزَعُهُمْ بِعَصَاهُ وَيَقُولُ: اجْلِسُوا. فَجَلَسُوا حَتَّى كَادَ يَنْشَقُّ عَمُودُ الصُّبْحِ، ثُمَّ ثَارُوا وَذَهَبُوا، فَأَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَنْمَتَ؟ فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ. وَلَقَدْ فَزَعْتُ الْفَزْعَةَ الْأُولَى حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَتِيَ الْبُيُوتَ فَأَسْتَغِيثَ النَّاسَ حَتَّى سَمِعْتُكَ تُفْزَعُهُمْ بِعَصَاكَ. فَقَالَ: لَوْ أَنَّكَ خَرَجْتَ مِنْ هَذِهِ الْحَلَقَةِ لَمْ أَمْنُ أَنْ تُخْطَفَ. فَهَلْ رَأَيْتَ شَيْئًا مِنْهُمْ؟ قُلْتُ: رَأَيْتُ رَجُلًا سَوْدَاً مُسْتَفْزِئًا بِثِيَابٍ بَيْضٍ. قَالَ: أُولَئِكَ وَفَدَّ جَنْ نَصِيبِينَ، فَسَأَلُونِي الزَّادَ وَالْمَتَاعَ، فَامْتَعْتُهُمْ بِكُلِّ

عظمٍ حائلٍ أو روثةٍ أو بعرَةٍ. قلتُ: وما يغني ذلك عنهم؟ قال إنهم لا يجدون عظمًا إلا وجدوا عليه لحمه الذي كان عليه يوم أُكِلَ ولا روثةً إلا وجدوا فيها حبَّها الذي كان فيها يوم أُكِلَتْ. فلا يستنج أحدٌ منكم بعظمٍ ولا بعرَةٍ" (الراوى: عمر بن غيلان الثقفى / المحدث: الزيلعى / المصدر: نصب الراية / خلاصة حكم المحدث: فى إسناده رجل لم يسم).

وعن ابن مسعود: "استبغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال: إن نقرأ من الجن خمسة عشر، بنو إخوة وبنو عم، يأتونى الليلة، فأقرأ عليهم القرآن. فانطلقت معه إلى المكان الذى أراد، فجعل لى خطأ ثم أجلسنى فيه وقال: لا تخرجن من هذا. فبت فيه حتى أتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السحر، وفى يده عظم حائلٍ وروثةٌ وحممةٌ، فقال: إذا أتيت الخلاء فلا تستنجين بشيء من هذا. قال: فلما أصبحت قلت: لأعلمن حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم. فذهبتُ فرأيت موضع سبعين بعيراً" (الراوى: عبد الله بن مسعود / المحدث: الطبرانى / المصدر: المعجم الأوسط / خلاصة حكم المحدث: لم يرو على بن رباح عن ابن مسعود حديثاً غير هذا). وعن ابن مسعود أيضاً: "قدم وفد الجن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، انه أمتك أن يستنجوا بعظم أو روثة أو حممة، فإن الله تعالى جعل لنا فيها رزقا. قال: فهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك" (الراوى: عبدالله بن مسعود / المحدث: أبو داود / المصدر: سنن أبى داود / خلاصة حكم المحدث: سكت عنه. وقد قال فى رسالته لأهل مكة: كل ما سكت عنه فهو صالح).

وعن الزبير بن العوام: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح فى مسجد المدينة. فلما انصرف قال: أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟ فأسكت القوم، فلم يتكلم منهم أحد. قال ذلك ثلاثاً. فمرَّ بى يمشى فأخذ بيدي، فجعلت أمشى معه حتى خنست عنا جبال المدينة كلها وأفضينا إلى أرضٍ برّاز، فإذا رجال طوال كأنهم الرماح مُستدفرى ثيابهم من

بين أرجلهم. فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة حتى ما تمسكني رجلاي من الفرق. فلما دنونا منهم خط لي رسول الله يابهاهم رجله في الأرض خطأ، فقال لي: اقعد في وسطه. فلما جلست ذهب عني كل شيء كنت أجده من ريبة، ومضى النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينهم، فتلا قرآنًا رفيعًا حتى طلع الفجر، ثم أقبل حتى مر بي فقال لي: الحق. فجعلت أمشي معه، فمضينا غير بعيد، فقال لي: التفت فانظر هل ترى حيث كان أولئك من أحد؟ قلت: يا رسول الله، أرى سوادًا كثيرًا. فخفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه إلى الأرض، فنظم عظمًا بروثة ثم رمى به إليهم ثم قال: رشد أولئك مني وفد قوم. هم وفد نصيبين. سألوني الزاد، فجعلت لهم كل عظم وروثة. قال الزبير: فلا يحل لأحد أن يستنجي بعظم ولا روثه أبدًا" (الراوي: الزبير بن العوام/ المحدث: الهيثمي/ المصدر: مجمع الزوائد/ خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن).

وعن ابن العباس: "ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم. انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وطائفة من أصحابه عامدين سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما ذاك إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة، وهو بنخلة، وهم عامدون إلى سوق عكاظ، وهو يصل بأصحابه صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر. فلما سمعوا القرآن قالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم "فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبا * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا". فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن" (الراوي: عبد الله بن

عباس / المحدث: ابن حبان / المصدر: صحيح ابن حبان / خلاصة حكم المحدث: أخرجه في صحيحه)

والآن هل صاحب ابن مسعود رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن في الذهاب إليهم أو لا؟ هناك روايتان، ولا أحسب أنه يمكن التوفيق بينهما. أم هل كان رفيقه ليلتذاك هو الزبير؟ لكن كيف يكون هذا، وهى ليلة واحدة ذات رفيق واحد؟ كما أن ابن مسعود يقول مرة إنها كانت في مكة، ومرة إنها كانت في المدينة، ويشاركه في القول بمدينةتها أيضا ابن العوام. وهذا أيضا تناقض لا يمكن التخلص منه. أما القرآن فواضح الدلالة على أنها كانت في مكة ما دامت الإشارة إليها قد وردت في سورتي "الأحقاف" و"الجن"، وهما سورتان مكيتان بلا أدنى خلاف. وفي رواية ابن عباس أن رسول الله لم ير الجن، وإنما أخبره الوحي بذلك. والواقع أن هذا هو ما يتسق مع القرآن، إذ نقرأ في سورة "الأحقاف": "وإذ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنْصِتُوا. فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ". فطريقة سياقة الخبر تشير إلى أن الرسول لم يعلم بهم بل القرآن هو الذى أخبره بذلك. ولدينا كذلك سورة "الجن"، وهى ناصعة الدلالة على ما نقول: "قل: أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا".

ثم هل طلب الرسول ابن مسعود قصدا ليصحبه في رحلته تلك؟ أم هل كان مع الرسول جمع من الصحابة افتقدوه وظنوا أنه قد اغتيل؟ هذا أيضا تناقض. كذلك كيف يعرض الرسول على صحابته أن يرافقه أحدهم لمقابلة الجن فيسكتوا ولا يجيبوه بـ "نعم" أو "لا"، وكأنهم طلبتى بقسم اللغة العربية حين أسألهم سؤالا فلا يفتح الله عليهم بكلمة ولا يفكرون هم من جهتهم أن يفتحوا فمهم! لو كنت مكان الصحابة رضوان الله عليهم لرفعت إصبعي مبتهجا حتى أرى الجن بأم عيني وأستمتع بمشاهدة تلك المخلوقات العجيبة. لكن

من ناحية أخرى يبرز سؤال سخيّف مزعج: ترى لماذا حرص الرسول على اصطحاب أحد معه ما دام سيخطّ له خطأ ينهّاه بحسم قاطع عن تجاوزه بما يعنى أنه لن يشاهد في الحقيقة شيئاً؟ ثم لماذا اقتصر عرضه على أن يصحبه واحد فقط، ولم يطلب من الجميع أن يرافقه؟

كما أن رواية ابن عباس تخلو من الكلام عن طعام الجن، فأراحتنا من مشكلة أخرى نحن في غنى عنها، إذ كيف يكون العظم والروث طعام أهل الجن، ونحن نراهما في أمكنتهما لا ينقصان مهما طال الزمن إلا بالجفاف. ولو وُضعا في مجمّد (فريزر) مثلاً لبقيا كما هما تقريباً مهما طال الزمن. ثم إننا لا ندري مَنْ فَتَحَ موضوع النهي عن استعمال العظم والروث في الاستنجاء: أهو الرسول حين سأله الجن الطعام، فحددهما لهم؟ أم هل هم الجن عندما التمسوا منه هم أنفسهم أن ينهي أمته عن استخدامهما في الاستنجاء لأنهما طعامهم؟ واضح أن هذا تناقض آخر مزعج. كذلك هناك تأفّف الجن من ذلك الاستخدام مما لا نفهم له معنى، إذ الروث فضلات نجسة متنتة كالخرء سواء بسواء، وكلاهما يخرج من البطن. وعلى هذا فما دام الجن لا يجدون غضاضة في أكل الروث فلم يجدون تلك الغضاضة إذا علق بها بعض الفضلات البشرية التي لا تذكر؟ ألا إن هذا تنطس بل تنطع سخيّف. وهذا إن كان الجن هم الذين سيأكلونه كما يفهم من إحدى الروايات، أما إن كانت دوابهم هي التي ستأكله فهو غريب، إذ ما عهدنا دابة تأكل خرء دوابّ مثلها. لكن هل للجن دوابّ أصلاً؟ ودعنا من أنها تأكل أو لا تأكل.

كما أن طلب الجن من الرسول تحديد طعام يأكلونه معناه أنهم، مذ خلقهم الله، لم يكونوا يأكلون شيئاً. فكيف كانوا يعيشون طوال تلك الأحقاب والدهور؟ الحق أن هذا مما لا يعقله العاقلون ما دام إخواننا من الجن يحتاجون إلى الطعام كي يعيشوا. وهناك أمر آخر، ألا وهو أن الرسول وَعَدَ الجن أنهم متى وجدوا عظماً سُمّيَ الله عليه صار أكثر ما يكون لحماً. فلماذا لم

يختص عليه السلام أمته من البشر بهذه المزية التي تعفيهم من التفكير في اللحم إلى الأبد، إذ يكفي أن يأكلوا لحماً مرة واحدة ثم يحتفظوا بالعظم، لينبت عليه اللحم من جديد كلما جاعوا؟ وهذا لو كانت الجن تأكل فعلاً. ذلك أنها ليست مخلوقات مادية مثلنا، ومن ثم لا تأكل، أو على الأقل: إذا أكلت تأكل طعاماً يناسب طبيعتها، فلا لحم ولا روث ولا شيء من هذا الباب. ولأمر ما لا يمتن الله سبحانه وتعالى في قرآنه على الجن بطعام أو شراب كما يمتن على عباده من البشر، الذين يأكلون ويشربون. ولا أظن إلا أن لذلك مغزاه الشديد الأهمية في سياقنا هذا.

أما أنا فلا أملك إلا أن أضرب صفحاً عن كل تلك الروايات وأخذ برواية ابن العباس رضى الله عن الصحابة جميعاً مع التنبيه إلى أن في هذه الرواية كلاماً لم يسمعه بشرٌ من الجن ما دام الرسول نفسه لم يرههم ولم يسمعهم. وإذن فهو كلام من كلام الحال لا من كلام المقال. وأما الحديث التالى فيقتصر على النهى عن استخدام العظام والأرواث في الاستنجاء، وهى مسألة صحية وذوقية ولها علاقة بالنجاسة فى الإسلام، إذ لا يعقل أن أزيل النجاسة عن بدنى بنجاسة مثلها، ولا صلة بينها وبين الجن ولا طعام أهل الجن. ومن هنا أرى الاقتصار فى هذا الموضوع على حديثنا ذاك. ونصه: "إنما أنا لكم مثل الوالد، فإذا ذهب أحدكم إلى الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يستدبرها بغائط ولا بول، وليستنج بثلاثة أحجار. ونهى عن الروث والرمة" (الراوى: أبو هريرة/ المحدث: النووى/ المصدر: الخلاصة/ خلاصة حكم المحدث: صحيح).

لكن قد يظن البعض أن مراجعة الأحاديث النبوية والتشكيك فى حديث منها هى من الأمور الخطيرة التى ستؤدى بالضرورة إلى انهيار بناء السنة كله. لكنى لا أشاطر أصحاب هذا الرأى تخوفهم لأن الحق أحق أن يتبع. هذا أولاً، وثانياً لأنه كانت هناك مراجعة شاملة

للأحاديث النبوية عند جمع هذه الأحاديث في كتب كـ "صحيح البخارى" و "مسند أحمد" و "موطأ مالك" ترتب عليها إنكار مئات الآلاف منها والحكم عليها بالضعف أو البطلان لا التشكيك في بعض الأحاديث فقط، فضلاً عن أن الأحاديث التي جمعها العلماء في كتبهم ليست كلها في مرتبة واحدة بل فيها الصحيح والحسن والمرفوع وأحاديث الآحاد مثلاً، ومع هذا لم ينهز بناء السنة بل ازداد قوة وصلابة ووثاقة. وأرى أن القيام بمراجعة الأحاديث المجموعة في كتب الصحاح والمسانيد وأمثالها من ناحية المضمون من شأنه تنقية ذلك التراث النبوى العظيم مما علق به.

على أنى حين أقول هذا لا أقصد أبداً أن النتائج التى سوف نتوصل إليها ستكون صحيحة كلها بالضرورة، فأى جهد بشرى معرض دائماً للخطأ والسهو والفسل. ولكن ليس أماننا غير هذا. ومن غير المقصود كذلك أن يتصدى لهذا العمل كل من هب ودب، بل العلماء الراسخون الواسعو الثقافة المتعمقون في معرفة الحديث، وأن يكون كلامهم في ذلك الموضوع رصينا عميقا يحدوه حب الإسلام والسنة النبوية والرغبة في خدمتهما لا الكيد لهما والعمل على إضعافهما والتشكيك فيهما.

ومع هذا كله فلا بد من التنبيه إلى أن المسلمين لم ينتظروا تصنيف كتب الحديث المعروفة كى يتعاملوا مع أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام بل كانوا منذ عصره صلى الله عليه وسلم يعتمدون في تشريعاتهم على الحديث النبوى إلى جانب اعتمادهم على كتاب الله. وكان كل منهم يبذل غاية جهده للتحقق من صحة ما يبلغه من الحديث. لكن هذا لا يعنى أن نعد كتب الأحاديث كعدمها، فلا ريب أنها قد اختصرت الطريق والجهد، إذ وضعت بين أيدينا ثروة هائلة من أحاديثه صلى الله عليه وسلم مخدومة مبذولة فيها الجهد بغية تصفيتها من الشوائب، وهذا بلا شك أفضل مليون مرة من أن يبدأ كل منا مع كل حديث من الأحاديث النبوية من

نقطة الصفر فنجتهد بأنفسنا للتحقق من صحته. وأين لكل شخص بالوقت والعلم اللازمين لذلك؟ لقد تخصص أولئك العلماء في التحقق من صحة الأحاديث وجمعها وتصنيفها، وبذلوا في ذلك أقصى طاقتهم وعصارة تفكيرهم ونور أعينهم، ولا يعقل أن نجعل هذا كله هباء منثورا فيكون هو والعدم سواء كما يريد منا من يطلّق عليهم: "القرآنيون".

كذلك ينبغي أن يكون هناك تركيز على الجوانب الحضارية في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم كالعلم والعمل والإنتاج والإبداع والإتقان والذوق السليم والتعاون والطموح والاجتهاد والعطف على الفقراء والمساكين واليتامى ووجوب إحراز القوة العسكرية والاقتصادية وما إلى هذا، إلى جانب العبادات بطبيعة الحال، بدلا من التركيز على إطالة اللحية وتقصير الثياب والحسد وتجديد الوضوء والمسيح الدجال والمهدى المنتظر والشفاعة مثلا. إننى من الذين يؤمنون أن لنبينا شفاعة عظيمة يوم الدين. لكن هذا لا يعنى ولا ينبغي أن يعنى تضييع وقتنا في الاشتغال بها هنا في الدنيا لأن موعدها مكانا وزمانا ليس هنا بل هناك. ومن ثم فلنهتم بما هو أولى وألح. ترى أيصح أن يقول رسولنا إن إمطة الأذى عن الطريق صدقة، وفي ذات الوقت تمتلئ شوارعنا وطرقنا بكل ألوان الأذى السمعى والبصرى والشمى والذوقى؟ ففى كل مكان نشاهد الأحجار والمخلفات والحفر والزجاج المكسور والقطط والكلاب الميتة والأرصعة المتهاكة التى لا تصلح لسير الأدميين والشوارع غير الممهدة، إلى جانب الروائح المنتنة والألفاظ والعبارات البذيئة وضجيج أبواق السيارات وعادم المركبات وألوان القبح من كل لون. هل يعقل أن يحث نبينا الكريم على النظافة بينما القذارة هى العملة السائدة فى كل مكان تقريبا؟ هل يعقل أن نخبرنا سيدنا رسول الله بأن الله جميل يحب الجمال، ثم ننظر فنجد القبح يطارد الجمال هنا وهناك وهناك ولا يتركه حتى يستأصله من الوجود ومن الأذواق جميعا؟ هل يعقل أن يجعل رسولنا من طلب العلم فريضة على كل مسلم

ومسلمة فيكره المسلمون العلم والسعى لاكتسابه مفضلين ما يسمونه بـ"تكبير المخ"، أى إعطاء العقل إجازة مستديمة من التفكير واعتماد اللامبالاة أسلوب حياة؟

وهذه طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى مجالات الحياة المختلفة. ففى مجال العقيدة نقرأ ما يلى: "(عن عائشة:) مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ. وَمَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَقَدْ كَذَبَ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ". "لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتُوبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ رَجُلٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ دُويَةٍ مَهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا زَادَهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يَصْلَحُهُ فَأَضَلَّهَا، فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضَلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتَ فِيهِ، فَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ، فَاسْتَيْقِظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَمَا يَصْلَحُهُ".

"يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر. ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا. ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا. ومن أتانى يمشى أتيت هرولة. ومن لقينى بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة". "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك: فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة. فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة". "من سنَّ فى الإسلام سنةً حسنةً فعَمِلَ بها بعده كُتِبَ له مثلُ أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء. ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة فعَمِلَ بها بعده كُتِبَ عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء". "ما يصيب المسلم من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هم ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها".

"كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنينه: إذ أنا ميتٌ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر على ربي ليعذبني عذاباً ما عذَّبَه أحد. فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: "اجمعي ما فيك منه"، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: "يا رب، خشيتك"، فغفر له. "لا أحد أصبر على الأذى من الله تعالى، يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيههم ويرزقهم".

"(وعن عامر أخى الخضر بن محارب:) إني لبلادنا إذ رُفِعَتْ لنا رايات وألوية، فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأتيته وهو تحت شجرة قد بُسِطَ له كساء، وهو جالس عليه، وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسقام فقال: إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل. وإن المنافق إذا مرض ثم أُعْفِيَ كان كالبعير عَقَلَه أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه. فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله، وما الأسقام؟ والله ما مرضتُ قط. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عنا، فلست منا. فبينما نحن عنده إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيته أقبلتُ إليك فمررت بغيضة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن، فوقع عليهن معهن، فلففتهم بكسائي، فهن أولاء معي. قال: ضعهن عنك. فوضعهن، وأبَت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أتعجبون لرحمة أم الأفراخ فراخها؟ قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها. ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن. فرجع بهن".

"قُدِّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبى، فإذا امرأة من السبى تسعى، إذ وجدت صبيا في السبى فأخذته وألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَتَرَوْنَ هذه طارحةً ولدها في النار؟ قلنا: لا والله، وهى تقدر ألا تطرحه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أرحم بعباده من المرأة بولدها." "جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا. فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه."

"إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها." "إن الله يمهل حتى يذهب شطر الليل الأول، ثم ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى ينشقَّ الفجر."

"أُذنب عبد ذنبا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى ربّ، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب، اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك." "والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم." "إن الله تعالى يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس، ويقرره بذنوبه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أى ربّ. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإنى قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. ثم يعطيه كتاب حسناته بيمينه. وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهداد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم! ألا لعنة الله على الظالمين."

"إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله نادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم. قال: فيحقِّبُونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رَأَوْنِي؟ قال: فيقولون: لا والله ما رَأَوْكَ. قال: فيقول: وكيف لو رَأَوْنِي؟ قال: يقولون: لو رَأَوْكَ كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيذا، وأكثر لك تسبيحا. قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رَأَوْهَا؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْهَا. قال: يقول: فكيف لو أنهم رَأَوْهَا؟ قال: يقولون: لو أنهم رَأَوْهَا كانوا أشدَّ عليها حرصا، وأشدَّ لها طلبا، وأعظم فيها رغبة. قال: فَمِمَّ يتعوَّذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رَأَوْهَا؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رَأَوْهَا. قال: يقول: فكيف لو رَأَوْهَا؟ قال: يقولون: لو رَأَوْهَا كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسُهم".

"قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة... ويضرب جسر جهنم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وبه كالليب مثل شوك السعدان. أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قَدْر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم: منهم

الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو. حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار فيقول: يا رب، قد قشبنى ريحها، وأحرقنى ذكاؤها، فاصرف وجهى عن النار. فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيصرف وجهه عن النار، ثم يقول بعد ذلك: يا رب، قربنى إلى باب الجنة. فيقول: أليس قد زعمت ألا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعل إن أعطيتك ذلك تسألنى غيره. فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. فيعطى الله من عهدٍ ومواثيق ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: رب، أدخلنى الجنة. ثم يقول: أوليس قد زعمت ألا تسألنى غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: يا رب، لا تجعلنى أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها. فإذا دخل فيها قيل: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فيتمنى، ثم يقال له: تَمَنَّ مِنْ كَذَا. فيتمنى حتى تنقطع به الأمانى، فيقول له: هذا لك، ومثله معه. قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا. قال: وأبو سعيد الخدرى جالس مع أبى هريرة لا يغير عليه شيئا من حديثه، حتى انتهى إلى قوله: هذا لك ومثله معه. قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هذا لك وعشرة أمثاله".

"لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله ما فى السماوات وما فى الأرض. وإن تُبَدُّوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. والله على كل شىء قدير" قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا

رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم بركوا على الركب فقالوا: أى رسول الله، كُلُّفْنَا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة. وقد أُنْزِلَتْ عليك هذه الآية، ولا نطيقها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا، وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: "أَمَّنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ: كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ، لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانُكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ". فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى. وأنزل الله عز وجل: لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا. لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. رَبَّنَا، لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (قال: نعم). رَبَّنَا، وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِكْرَامًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قال: نعم). رَبَّنَا، وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ (قال: نعم). وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (قال: نعم)."

"إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْأَبَاءِ: مَنْ تَقَى، وَفَاجِرُ شَقَى. أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ. لَيْدَعَنَّ رَجُلًا فَخَرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ". "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَبْيَضٍ، إِلَّا بِالتَّقْوَى. النَّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ". "(عن جابر بن عبد الله:) كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال دعوى جاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فبلغ النبي

صلى الله عليه وسلم، فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال
النبي صلى الله عليه وسلم: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه".

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً (ثم شبك بين أصابعه)". "المسلمون تتكافأ
دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد على أقصاهم". "لا تَبَاغَضُوا
ولا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَحَاسَدُوا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله. ولا يحل لمسلم
أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام". "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر
ما نهى الله عنه". "مَثَلُ وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا
وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيَعْجَبُهُمُ الْبَنِيَانُ
فَيَقُولُونَ: أَلَا وَضَعْتَ هُنَا لَبَنَةً فَيَتَمُّ بَنِيَانُكَ؟ فقال محمد صلى الله عليه وسلم: فكنت أنا
اللبنة".

"عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت المرأة تكون مِقْلَاتًا فتجعل على نفسها إن
عاش لها ولد أن تهوِّده. فلما أُجْلِيَتْ بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندعُ أبناءنا.
فأنزل الله عز وجل: "لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي". المِقْلَات: التى لا يعيش لها
ولد". "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مَعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ حَقَّهُ أَوْ كَلَفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ لَهُ شَيْئًا بَغَيْرِ حَقِّهِ فَأَنَا
حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى صدره). أَلَا وَمَنْ قَتَلَ
رَجُلًا لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَإِنْ رِيحُهَا لِيُوجَدَ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ خَرِيفًا".

"أيها الناس، لا تَمَتَّنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ. فإذا لقيتوهم فاصبروا". "خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية، حتى كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله
عليه وسلم: "إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين". فوالله
ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي صلى

الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته. فقال الناس: "حل حل"، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيل". ثم قال: "والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرَمَاتِ الله إلا أعطيتهم إياها"، ثم زجرها فوثبت. قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمَد قليل الماء يتبرَّضه الناس تبرُّضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش، فانزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فوالله ما زال يحيش لهم بالرى حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عِيَّة نُصَح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكننا جئنا معتمرين. وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم. فإن شاؤوا ماددثهم مدة، ويخللوا بينى وبين الناس. فإن أظْهَر: فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جُمُّوا. وإن هم أبَوْا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، ولينفذن الله أمره. فقال بديل: سأبلغهم ما تقول. قال: فانطلق حتى أتى قريشا قال: إنا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا. فحدَّثهم بما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، أَلستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهموننى؟ قالوا: لا. قال: أَلستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلَّحوا على جئتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟

قالوا: بلى. قال: فإنّ هذا قد عرض لكم خطة رشد. اقبلوها ودعوني آتية. قالوا: آتته. فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أى محمد، أرايت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنى والله لأرى وجوهاً، وإنى لأرى أشواباً من الناس خليفاً أن يفرّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص ببظر اللات. أنحن نفرّ عنه ونَدْعُه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يدٌ كانت لك عندى لم أجزك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه السيف وعليه المغفر. فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال له: آخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرفع عروة رأسه، فقال: من هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة. فقال: "أى عُدر، ألسْتُ أسعى في غدرك؟". وكان المغيرة صَحْبَ قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه فى شىء". ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه. قال: فوالله ما تنخّم رسول الله صلى الله عليه وسلم نُخامةً إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدتُ على الملوك، ووفدتُ على قيصر وكسرى والنجاشى، والله إن رأيت مَلِكًا قَطَّ يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً. والله إن تنخّم نخامةً إلا وقعت فى كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على

وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له. وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل من بنى كنانة: دعوني آتية. فقالوا: آتته. فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له". فبعثت له، واستقبله الناس يلّبون. فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلّدت وأشعّرت. فما أرى أن يصدّوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتية. فقالوا: آتته. فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هذا مكرز، وهو رجل فاجر". فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد سهل لكم من أمركم". قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتاباً. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بسم الله الرحمن الرحيم". قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: "باسمك اللهم" كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا "بسم الله الرحمن الرحيم". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اكتب: باسمك اللهم". ثم قال: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله". فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدّدناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: "محمد بن عبد الله". فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "والله إنى لرسول الله، وإن كذّبتُمونى. اكتب: "محمد بن عبد الله". قال الزهري: وذلك لقوله: "لا يسألوننى خطة يعظمون بها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها". فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به". فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل. فكتب، فقال سهيل:

وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك، إلا رددته إلينا. قال المسلمون: سبحان الله! كيف يردّ إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو ويرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه إلى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما لم نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدَ". قال: فوالله إذا لم أصالحك على شيء أبدا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فأجزه لي". قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: "بلى فافعل". قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بل قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرَدّ إلى المشركين، وقد جئت مسلماً؟ ألا تَرَوْنَ ما قد لقيت؟ وكان قد عُدّب عذاباً شديداً في الله. قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدّونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: بلى. فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوّفٌ به. قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر، أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق، وعدّونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق؟ قلت: أليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتية ومطوّفٌ به. قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات. فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ أخرج لا

تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل غما. ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن... (حتى بلغ: بعصم الكوافر". فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فجاءه أبو بصير: رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا؟ فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا. فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به، ثم جربت. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتى برّد، وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه: "لقد رأى هذا دُعْرًا". فلما انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: قُتِلَ والله صاحبي، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذِمَّتَكَ. قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله منهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ويل أمه مسعر حرب! لو كان له أحد". فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم تناشده بالله والرحم لَمَّا أرسل: "فمن آتاه فهو آمن". فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، فأنزل الله تعالى: "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من

بعد أن أظفركم عليهم... (حتى بلغ:) الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجاهلية". وكانت حميتهم أنهم لم يقرّوا أنه نبي الله، ولم يقرّوا بـ"بسم الله الرحمن الرحيم"، وحالوا بينهم وبين البيت".

"مرت جنازة على رسول الله فقام لها واقفا، فقليل له: يا رسول الله، إنها جنازة يهودى، فقال: أليست نفسا؟". "قَدِمْتُ قُتَيْلَةَ ابنة عبد العزّى بن سعد على ابنتها أسماء (بنت أبي بكر) بهدايا: ضَبَابٍ وَأَقِطٍ وَسَمْنٍ، وهى مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها. فسألت عائشة النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تعالى: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين... إلى آخر الآية"، فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها".

وفى مجال الأخلاق: "إن الله قال: إذا ابتليتُ عبدى بحبيتيه فصبر عوصته منها الجنة". يريد عينيه. "عن أنس بن مالك: يقول لامرأة من أهله: تعرفين فلانة؟ قالت: نعم. قال: فإن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ بها وهى تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبرى. فقالت: إليك عنى، فإنك خِلَوُ من مصيبتى. قال: فجاوزها ومضى، فمر بها رجل فقال: ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: ما عرفته. قال: إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجاءت إلى بابه فلم تجد عليه بوابا، فقالت: يا رسول الله، والله ما عرفتكَ. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن الصبر عند أول صدمة". "لما كان يوم حنين أثر النبى صلى الله عليه وسلم ناسا: أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجهُ الله. فقلت: لأخبرن النبى صلى الله عليه وسلم. قال: رحم الله موسى! قد أُوذِيَ بأكثر من هذا فصبر".

"كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاء رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها فى الموت، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "ارجع فأخبرها أن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى. فمُرَّها فلتَصْبِرِ ولتَحْتَسِبِ". فأعادت الرسول أنها أقسمت لتأتيها،

فقام النبي صلى الله عليه وسلم، وقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه، ونفسه تقعقع كأنها في شَنٍّ، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء". "أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أَصْبِرٌ وَأَحْتَسِبُ، وإن تكن الأخرى تَر: ما أصنع؟ فقال: ويحك... أَوْجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جَنَانٌ كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس".

"الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها أو موبقها". "عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سَرَاءٌ شكر، فكان خيرا له. وإن أصابته ضَرَاءٌ صبر، فكان خيرا له".

"شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حُينًا، فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام: "هذا من أهل النار". فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالا شديدا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الرجل الذي قلت له آنفا: "إنه من أهل النار" فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إلى النار"، فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدة! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: الله أكبر! أشهد أني عبد الله ورسوله". ثم أمر بلالا فنادى في الناس: "إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر".

"كان كعب بن الأشرف يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة، وأهلها أخلاط: منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود، وكانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله: وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ". "من ابتلى بشيء من البنات (أى رزقه الله بنات لا بأولاد ذكور) فصبر عليهن كن له حجابا من النار". "سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيثار قال: الصبر والسماحة".

"(عن عبد الله بن العباس:) كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ فقلت: بلى. فقال: احفظ الله يحفظك. احفظ الله تجده أمامك. تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. قد جفّ القلم بما هو كائن: فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه. وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه. فاعمل لله بالشكر واليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا". "إن الله كتب الغيرة على النساء، وكتب الجهاد على الرجال، فمن صبر منهن احتسابا كان له أجر شهيد". "من تصبّر يصبره الله". "من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل".

"هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور، وتُتَقَّى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: اتّوهم فحيوهم.

فتقول الملائكة: ربَّنَا، نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك. أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدونى، ولا يشركون بى شيئا، تُسدّ بهم الثغور، وتُتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتىهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عُقبى الدار".

"لأننا لفتنة السَّراء أخوفُ عليكم من فتنة الصَّراء. إنكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإن الدنيا حُلوةٌ خَصِرَةٌ". "من وُعِكَ ليلةً فصبر ورضى بها عن الله عز وجل خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه". "(عن عائشة:): سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون، فقال: كان عذابا يبعثه الله على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين. ما من عبد يكون فى بلد يكون فيه، ويمكن فيه لا يخرج من البلد صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد". "يأتى على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر". "الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر".

"(قال عبد الله بن عمرو بن العاص:): يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو. فقال: يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرا محتسبا بعثك الله صابرا محتسبا، وإن قاتلت مرأيا مكاثرا بعثك الله مرأيا مكاثرا. يا عبد الله بن عمرو، على أى حال قاتلت أو قُتِلت بعثك الله على تلك الحال". "أربعٌ من أُعْطِيهِنَّ فقد أُعْطِيَ خَيْرَى الدنيا والآخرة: قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وبدنا على البلاء صابرا، وزوجة لا تبغيه حُوبًا فى نفسها وماله". "عن عائشة رضى الله عنها قالت: من قدّم من ولده ثلاثة صابرا محتسبا حجبوه بإذن الله تعالى من النار".

"لما كان يومُ أُحُد قُتِل من الأنصار أربعة وستون رجلا، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُزْبِنَنَّ عليهم. فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يَعْرِف: لا قریش بعد اليوم. فنادى منادى رسول الله

صلى الله عليه وسلم: أَمِنَ الْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا (نَاسًا سَمَّاهُمْ)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نَصْبِرْ وَلَا نَعَاقِبْ".

"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأَوَوْا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه، والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق. فليدْعُ كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدَق فيه. فقال واحد منهم: اللّهُمَّ إن كنت تعلم أنه كان لى أَجِيرٌ عَمِلَ لى على فِرْقٍ من أرز، فذهب وتركه، وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنى اشتريت منه بقرا، وأنه أتانى يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسُقِّها. فقال لى: إنما لى عندك فرق من أرز. فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرق. فساقتها. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة. فقال الآخر: اللّهُمَّ إن كنت تعلم إن كنت تعلم: كان لى أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئت وقد رقدا، وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى، فكرهت أن أوقظهما وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما. فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. فقال الآخر: اللّهُمَّ إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى، وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار، فطلبْتُها حتى قَدَرْتُ. فأتيت بها فدفعتها إليها فأمكنتنى من نفسها. فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله، ولا تُفْضِ الخاتم إلا بحقه. فقمت وتركت المائة دينار. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرِّجْ عنا. ففرِّج الله عنهم فخرجوا".

"عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يَكْتَبَ عند الله صِدِّيقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يَكْتَبَ عند الله كذابا". "دع ما يرييك إلى ما لا يرييك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة". "لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ، ولا يجتمع الكذب والصدق جميعا، ولا تجتمع الخيانة والأمانة جميعا". "(قال أبو بكر الصديق:) إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قام فينا عامَ أوَّل فقال: ألا إنه لم يقسَم بين الناس شيء أفضل من المعافاة بعد اليقين. ألا إن الصدق والبرَّ في الجنة. ألا إن الكذب والفجور في النار".

"لما فُتِحَتْ خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود. فجمعوا له، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى سألکم عن شيء، فهل أنتم صادقون عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتكم، بل أبوكم فلان. فقالوا: صدَّقْتَ وبرَّرْتَ. فقال: هل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبتناك عرفت كذبتنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم نَخْلُفُونَهَا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسأوا فيها. والله لا نخلفكم فيها أبدا. ثم قال لهم: فهل أنتم صادقون عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سما؟ فقالوا: نعم. فقال: ما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كذابا نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرک".

"سمع النبي صلى الله عليه وسلم جلبة خصام عند بابه، فخرج عليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضاً أن يكون أبلغ من بعض: أقضى له بذلك، وأحسب أنه صادق. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار. فليأخذها أو ليدعها". "من طلب الشهادة صادقاً أعطِها، ولو لم تصبه". "من مات وهو يشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صادقاً من قلبه دخل الجنة". "(عن عبد الله بن عمرو بن العاص: قلنا: يا رسول الله، مَنْ خير الناس؟ قال: ذو القلب المخموم، واللسان الصادق. قلنا: قد عرفنا اللسان الصادق، فماذا القلبُ المخمومُ؟ قال: هو التقى النقى الذى لا إثم فيه ولا بغى ولا حسد". "إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا أنتم هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد. وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك. وأسألك قلباً سليماً. وأسألك لساناً صادقاً. وأسألك من خير ما تعلم. وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب".

وفي مجال العلم: "ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رِضاً بما يصنع". "من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع". "طلب العلم فريضة على كل مسلم". "منهم من لا يقضى أحدهما نهمته: منهوم في طلب العلم لا يقضى نهمته، ومنهم من لا يطلب المال لا يقضى نهمته". "اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم". "طلب العلم فريضة على كل مسلم. وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر". "إن الله عز وجل أوحى إلى أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة".

"من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض والحيتان

في جوف الماء. وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما. ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر". "فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض". "خيار أمتى علماؤها، وخيار علمائها رحماؤها. ألا وإن الله تعالى ليغفر للعالم أربعين ذنبا قبل أن يغفر للجاهل ذنبا واحدا. ألا وإن العالم الرحيم ليحيى يوم القيامة وإن لنوره ضوءا يمشى فيه ما بين المشرق والمغرب". "ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: فضل العالم على العابد كفضل على أدناكم. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلُّون على معلِّم الناس الخير". "فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". "إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر". "من كانت له جارية فأحسن أدبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران اثنان".

ليس ذلك فقط، بل إن الإسلام كان حريصا تمام الحرص في ذات الوقت على القضاء على منابع الخرافة والدجل والأساطير، فقد حرّم السحر تحريما قاطعا ولم يتساهل فيه أى قدر من التساهل، وكان حربا شعواء على الكهانة والعيافة والزجر وما شابه ذلك من ضروب الانحراف الفكرى والعقيدى. وفي القرآن نفى قاطع لما كان المشركون يزعمونه بالكذب والباطل عن الرسول عليه السلام من أنه كاهن. ذلك أن الكهانة خرافة وانحطاط فكرى وحضارى، أما نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فدعوة إلى اليقظة العقلية والإبداعات العلمية والعمل على إحراز المجد في الدنيا عن طريق العلم وإكرام العلماء والاستعانة بأفكارهم واجتهاداتهم. وأين الكهانة من هذا؟ إنها هي التخلف ذاته، إذ هي الجهل مجسدا. يقول المولى

جل جلاله: "فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ"، "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وها هي ذى بعض النصوص الحديثة التى تناولت هذا الموضوع. وهى، كما سىرى القارئ، تشدد فيه تشددا قد يبدو غريبا عند من لا يتنبه إلى الموضع البارز الذى يحتله العلم فى دين محمد، وأن الإسلام هو دين العقل والعلم ويكره الخرافة والجهل كراهية رهيبة: "العيافة والطَّرْق والطَّيْرَةُ من الجِبْتِ". والعيافة: زجر الطير. والطَّرْق: الخطَّ يَخْطُّ فى الأرض. والجبت: الشيطان. "من أتى عَرَّافًا فسأله عن شىء لم تُقْبَلْ له صلاة أربعين ليلة". "من أتى عرافا أو ساحرا أو كاهنا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد". "أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإِشْرَاقُ بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورُمى المحصنة، وتعلُّم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم". "إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج". والهرج: القتل. "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: "العلم بالله". قال: يا رسول الله، أسألك عن العمل، وتخبرنى عن العلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن قليل العمل ينفع مع العلم، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل". "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا".

وفى مجال العمل: "(عن جابر بن عبد الله الأنصارى:) أن خديجة استأجرت النبى صلى الله عليه وسلم سَفَرَيْنِ إلى جرش، كُلَّ سَفْرَةٍ بِقُلُوصٍ". "نزل رسول الله على أبى أيوب حتى

بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه. فقال قائل من المسلمين:

لَئِنْ قَعَدْنَا، وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضِلُّ

وارتجز المسلمون وهم يبنونه، يقولون:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا عيش إلا عيش الآخرة. اللهم ارحم المهاجرين والأنصار. قال: فدخل عمار بن ياسر، وقد أثقلوه باللبن، فقال: يا رسول الله: قتلوني! يحملون على ما لا يحملون. قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفض وَفَرَّتْهُ بِيَدِهِ، وكان رجلاً جَعْدًا، وهو يقول: وَيَحَ ابن سمية! ليسوا بالذين يقتلونك. إنما يقتلك الفئة الباغية".

"(عن عائشة:) كان (الرسول) في مهنة أهله: يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق". "إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة. قالوا: فما يكفرها يا رسول الله؟ قال: الهموم في طلب المعيشة". "ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم. فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أراها على قراريط لأهل مكة". "مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً، فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خَرَجَ يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خَرَجَ يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله،

وإن كان خَرَجَ يسعى على نفسه يَعِفُّهَا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان".

"لما قدموا المدينة نزل المهاجرون على الأنصار، فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع، فقال: أقاسمك مالى، وأنزل لك عن إحدى امرأتى. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. فخرج إلى السوق فباع واشترى فأصاب شيئاً من أقطٍ وسمن، فتزوج." (عن أسماء بنت أبى بكر): تزوجنى الزبير، وما له فى الأرض من مال ولا مملوك، ولا شىء غير ناضح وغير فرسه. فكنت أعلف فرسه وأستقى الماء، وأخرز غرْبَه وأعجن. ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لى من الأنصار، وكنّ نسوة صدق. وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسى، وهى منى على ثلثى فرسخ."

"(عن علي بن أبي طالب:) خرجت في يومٍ شاتٍ من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أخذتُ إهاباً معطوناً جَوَّبْتُ وَسَطَهُ فأدخلته عنقي، وشددت وسطى فحزمته بخُوص النخل، وإنى لشديد الجوع. ولو كان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم طعام لطعمت منه. فخرجت أَلتمس شيئاً، فمررت بيهودي في مال له، وهو يسقي ببكرة له، فاطَّلَعْتُ عليه من ثُلْمَةٍ في الحائط، فقال: ما لك يا أعرابي؟ هل لك في كل دلوٍ بتمرّة؟ قلت: نعم، فافتح الباب حتى أدخل. ففتح فدخلت، فأعطاني دلوّه. فكلما نزعتُ دلوّاً أعطاني تمرّة. حتى إذا امتلأت كفى أرسلت دلوّه وقلت: حَسْبِي. فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم جئت المسجد، فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه".

"جاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ما لي أرى لونك منكفتا؟ قال: الخَمَصُ. فانطلق الأنصاري إلى رَحْله فلم يجد فيه شيئا، فخرج يطلب، فإذا هو بيهودي يسقي نخلا له، فقال الأنصاري لليهودي: أسقي نخلك؟ قال: نعم، كل دلو بتمرة. واشترط الأنصاري عليه

ألا يأخذ فيه جرزة ولا تارزة ولا حشفة، ولا يأخذ إلا جيدة. فاستقى له بنحو من صاعين، ثم أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: من أين لك هذا؟ فأخبره الأنصارى، وكان يسأل عن الشيء إذا أُتِيَ به، فأرسل إلى نسائه بصاع، وأكل هو وأصحابه صاعاً".

"الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار".
 "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه. وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل، وأُجِرَ عليه رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَنَ". "عن عائشة أنها قالت: كان الناس أهل عمل، ولم يكن لهم كُفَاة، فكانوا يكون لهم تَفَلٌّ، فقليل لهم: لو اغتسلت يوم الجمعة؟". "إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه". "إن الله تعالى يحب من العامل إذا عمل أن يَحْسِنَ".

"أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه". "قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره". "إن الله يقبل الصدقة ويأخذها يمينه فيريها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد. وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات؟"، و"يمحق الله الربا ويربى الصدقات".
 "لما نزلت هذه الآية: "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ... إلى آخر الآية" جاء عمر بنصف ماله يحمله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحمله على رؤوس الناس، وجاء أبو بكر بماله أجمع يكاد أن يخفيه من نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تركت لأهلك؟ فقال: عِدَّةُ الله وعِدَّةُ رسوله. قال: يقول عمر لأبى بكر: بنفسى أنت أو بأهلى أنت. ما استبقنا إلى خير قَطُّ إلا سبقتنا إليه". "زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين. من أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات".

"(عن جرير بن عبد الله:) كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، فجاءه أقوام حفاة عراة مجتأبي النهار أو العباء، متقلدى السيوف، وليس عليهم أزر ولا شيء غيرها، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر... وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وصلى الظهر، ثم صعد منبرا صغيرا، ثم خطب فحمد الله وأثنى عليه، فقال: أما بعد، فإن الله أنزل في كتابه: "يا أيها الناس، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تَسَاءلون به والأرحام. إن الله كان عليكم رقيبا"، والآية التى فى الحشر: "يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله، ولتنظر نفس ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ، واتقوا الله،. إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نَسُوا الله فأنساهم أنفسهم أولئكَ هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة: أصحاب الجنة هم الفائزون". تصدَّقوا قبل أن يحال بينكم وبين الصدقة. تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من شعيره، من صاع تمره، حتى قال: ولا يحقرَنَّ أحدكم شيئا من الصدقة ولو بشق تمره. فأبطأوا حتى بان فى وجهه الغضب. قال: فجاء رجل من الأنصار بَصُرَّةٍ من وَرَقٍ (وفى رواية: من ذهب) كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، فناولها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على منبره، فقال: يا رسول الله، هذه فى سبيل الله. فقبضها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قام أبو بكر فأعطى، ثم قام عمر فأعطى، ثم قام المهاجرون والأنصار فأعطوا، ثم تتابع الناس فى الصدقات: فَمِنْ ذِي دِينَارٍ، وَمِنْ ذِي دَرَاهِمٍ، وَمِنْ ذِي، وَمِنْ ذِي، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ سَنَّ فى الإسلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مَنْ غَيْرُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فى الإسلام سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَمِثْلُ

وزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. ثم تلا هذه الآية: "ونكتب ما قدّموا وآثارهم". قال: فقسّمه بينهم".

"إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس. إنها لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد". (عن زياد بن الحارث الصدائي:) أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فبايعته، فبلغني أنه يريد أن يرسل جيشا إلى قومي، فقلت: يا رسول الله، رُدّ الجيش، وأنا لك بإسلامهم وطاعتهم. فقال: يا أخا صداء، إنك لمطاع في قومك؟ قلت: بل هداهم الله وأحسن إليهم. قال: أفلا أوّرك عليهم؟ قلت: بلى. فأمرني عليهم، فكتب لي بذلك كتابا. وسألته من صدقاتهم ففعل. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ في بعض أسفاره، فأعرسنا من أول الليل، فلزمته وجعل أصحابي يتقطعون حتى لم يبق معه رجل غيري. فلما تحين الصباح أمرني، فأذنت. ثم قال: يا أخا صداء، معك ماء؟ قلت: نعم، قليل لا يكفيك. قال: صبّه في الإناء ثم ائتني به. فأدخل يده فيه، رأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينا تفور. قال: يا أخا صداء، لولا أني أستحيي من ربي لسقينا واستقينا. ناد في الناس: من يريد الوضوء؟ قال: فاغترف من اغترف، وجاء بلال ليقيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم. فلما صلى الفجر أتاه أهل المنزل يشكون عاملهم ويقولون: يا رسول الله، أخذنا بما كان بينه وبين قومه في الجاهلية. فالتفت إلى أصحابه وقال: لا خير في الإمارة لرجل مؤمن. فوقع في نفسي، وأتاه سائل يسأله، فقال: من سأل الناس عن ظهر غنى فهو صداع في الرأس، وداء في البطن. فقال: أعطني من الصدقات. فقال: إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبي ولا غيره حتى جعلها ثمانية أجزاء. فإن كنت منهم أعطيتك حقك. فلما أصبحت قلت: يا رسول الله، أقلّ إمارتك، فلا حاجة لي فيها. قال: ولم؟ قلت: سمعتك تقول: "لا خير في الإمارة لرجل مؤمن"، وقد آمنت. وسمعتك تقول: "من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع في الرأس، وداء

في البطن"، وقد سألتك وأنا غني. قال: هو ذاك، فإن شئت فخذ، وإن شئت فدع. قال: قلت: بل أدع. قال: فدُلّني على رجل أوّلّيه. فدلّته على رجل من الوفد، فوله. قال: يا رسول الله، إن لنا بئرا إذا كان الشتاء وسّعنا ماؤها فاجتمعنا عليها، وإذا كان الصيف قل ماؤها فتفرقنا على مياه من حولنا. وإننا لا نستطيع اليوم أن نتفرق. كلّ من حولنا عدو. فادع الله أن يسعنا ماؤها. فدعا بسبع حصيات ففرّكهن بين كفيه وقال: إذا أتيتموها فألقوا واحدة، واذكروا اسم الله. فما استطاعوا أن ينظروا إلى قعرها بعد.

"(عن أبي هريرة:) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوما يحدث، وعنده رجل من أهل البادية، أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع، فقال له: ألسْتَ فيما شئت؟ قال: بلى، ولكنني أحب أن أزرع. قال: فبذر، فبادر الطّرفَ نباته واستواؤه واستحصاؤه، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنه لا يشبعك شيء. فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم. "اللهم اسقنا غيثا مغيثا هنيئا مريئا مريعا غدقا مجللا عاما طبقا سحّا دائما. اللهم اسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. اللهم إن بالعباد والبلاد والبهاائم والخلق من اللأواء والجهد والظنك ما لا نشكو إلا إليك. اللهم أنبت لنا الزرع، وأدرّ لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء، وأنبت لنا من بركات الأرض. اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعري، واكشف عنا من البلاء ما لا يكشفه غيرك. اللهم إنا نستغفرك، إنك كنت غفارا، فأرسل السماء علينا مدرارا".

"من أحيا أرضا ميتة فهي له". "من كانت له أرض فليزرعها أو ليزرعها أخاه". "ألا من ولي يتيما له مال فليتجر بهاله، لا يتركه حتى تأكله الصدقة". "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة". "من اتخذ كلبا، إلا كلب

زراع أو غنم أو صيد، ينقص من أجره كل يوم قيراط". لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالا فأقسم لك نصف مالى. وانظر أى زوجتى هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها. قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لى فى ذلك. هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع. قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقيطٍ وسمن. قال: ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تزوجت؟ قال: نعم. قال: ومن؟ قال: امرأة من الأنصار. قال: كم سقت؟ قال: زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: أولم ولو بشاة". "سمعت ابن عمر، وسئل عن الرجل يحج ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم".

وفى مجال الذوق الراقى واللياقة العالية والسلوك المهذب والفن الجميل: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود. فنظفوا أفئيتكم، ولا تشبهوا باليهود". ("قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر. قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنة. قال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس". "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة". "لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من كبر". "إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويجب معالى الأخلاق، ويكره سفاسفها". "إن الله جميل يحب الجمال، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده، ويبغض البؤس والتبؤس". "كانوا (أى بعض الناس) يدخلون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستاكوا، فقال: تدخلون على قُلحًا؟ استاكوا، فلولا أن أشق على أمتى لفرضت السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء". "استاكوا وتنظفوا وأوتروا، فإن الله وثّر يحب الوثر". "سوّوا صفوفكم، فإن تسوية الصفوف من إقامة

الصلاة". "أَتَمُّوا الصَّفَّ الْمَقْدَمَ ثم الذى يليه، فما كان من نقصٍ فليُكُنْ فى الصَّفِّ الْمُؤَخَّرِ".
 "مَنْ سَدَّ فُرْجَةً فى الصَّفِّ غُفِرَ لَهُ". "لا ينظر الله عز وجل إلى صلاة عبدٍ لا يقيم صُلبه فيما بين
 ركوعها وسجودها".

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد، فدخل رجل نائر الرأس واللحية،
 فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده أن: اخْرُجْ فَأَصْلِحْ رَأْسَكَ وَلِحَتَكَ. ففعل ثم
 رجع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم نائر الرأس
 كأنه شيطان؟". "اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز فى الموارد وقارعة الطريق والظل". "ثلاث من
 السعادة: المرأة الصالحة، والمنزل الواسع، والمركب الهنى". "اللهم إنى أعوذ بك من الكسل
 والهزم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر
 فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عني
 خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد
 بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب". "لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا
 المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تُفْضِي المرأة إلى المرأة فى
 الثوب الواحد".

"الإيمان بضع وسبعون: أفضلها قول "لا إله إلا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن
 الطريق. والحياء شعبة من الإيمان". "(عن أنس:) حَدَّثَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 بحديث، فما فرحنا بشيء منذ عرفنا الإسلام أشد من فرحنا به. قال: إن المؤمن ليؤجّر فى
 إماطة الأذى عن الطريق، وفى هداية السبيل، وفى تعبيره عن الأرتم، وفى منحة اللبن". "البذاء
 من الجفاء، والجفاء فى النار. والحياء من الإيمان، والإيمان فى الجنة". "من أَطْلَعَ فى بيت رجل
 بغير إذنه فحذفه بحصاة ففقأت عينه فلا شيء عليه". "عن عطاء بن يسار أن رجلا سأل النبي

صلى الله عليه وسلم: أستأذن على أمي؟ قال: نعم". "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت. إن الله يحب الحليم العفيف، ويبغض الفاحش البذيء السائل الملحف. إن الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والفحش من البذاء، والبذاء في النار".

"إن الله كتب الإحسان على كل شيء: فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلَةَ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. وليجد أحدكم شفرته، وليرخ ذبيحته". "جاء قوم بصاحبهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا هذا قد أفسده الحياء. فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: إن الحياء من شرائع الإسلام، وإن البذاء من لؤم المرء". "(عن لقيط بن صرة:) قلت: يا رسول الله، إن لي امرأة في لسانها شيء (يعنى البذاء). قال: طلقها. قلت: إن لي منها ولدا، ولها صحبة. قال: فمُرّها (أى عَظْها)، فإن يك فيها خير فستقبل، ولا تضربنّ ظعنيتك ضربك أَمَتك".

"إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره يمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يمسح بيمينه". "(عن أبي هريرة:) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في قبلة المسجد، فأقبل على الناس فقال: "ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره، تحت قدمه". "انطلقت أنا وعمرو بن العاص إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج ومعه درقة، ثم استتر بها، ثم بال". "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟". "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل في سفر في ظل شجرة وهو يرش عليه الماء، فقال: ما بال صاحبكم؟ قالوا: صائم يا رسول الله. قال: ليس من البر الصيام في السفر. فعليكم برخصة الله التي

أرخص لكم، فاقبلوا." (عن عمرو بن أبي سلمة ربيب رسول الله:) كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تطيش في الصحيفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا غلام، سَمَّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يلي." فما زالت تلك طعمتي بعد."

"(عن عائشة:) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُهْدِيَ إِلَيْهِ ضَبٌّ، فلم يأكله، فقالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، ألا تطعمه المساكين؟ فقال لا تطعموهم مما لا تأكلون." إذا اجتمع الداعيان فَأَجِبْ أَقْرَبَهُمَا بابا، فإن أَقْرَبَهُمَا بابا أَقْرَبَهُمَا جوارا. وإن سَبَقَ أَحَدُهُمَا فَأَجِبْ الذى سبق." "من دُعِيَ إلى عرس أو نحوه فليجب." "إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إلى الوليمة فليجب." "إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إلى طعام فليجب: فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فليدُعُ بالبركة." "شر الطعام طعام الوليمة يدُعَى لها الأغنياء ويترك الفقراء. ومن ترك الدعوة فقد عصى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم." "أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به بإيلياء بقدرحين من خمر ولبن، فنظر إليهما، فأخذ اللبن. قال جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة. لو أخذت الخمر غَوَتْ أمتك."

"(عن أنس:) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله، الذى أطعمنا وسقانا وسَوَّغَهُ وجعل له مخرجا." "من أكل طعاما ثم قال: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ومن لبس ثوبا فقال: الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة" غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر." "كان (الرسول عليه السلام) إذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين." (عن عائشة:) كانت فاطمة إذا دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم قام لها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها فى مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت إليه وأجلسته فى مجلسها." (عن أبى الطفيل:) رأيت النبى وأنا غلام، فدنّت منه

امرأة، فبسط لها رداءه، فجلست عليه. فقلت: من هذه؟ قالوا: أمه التي أرضعته". "(لما جرىء بأخت الرسول من الرضاعة في سبایا هوازن وتعرفت إليه بسط لها رداءه وقال لها: إن أحببت أقمت عندنا مكرمة محبة، أو متعتك ورجعت إلى قومك"، فاختارت قومها، فمتعتها". "كان إذا أتى بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة، فإنها كانت صديقة لخديجة. إنها كانت تحب خديجة".

"(عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والجلوس في الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد. قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". "يسلم الراكب على الماشي، وفي رواية: يسلم الصغير على الكبير والماشي على القاعد، والقليل على الكثير". "لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يقعد فيه، ولكن توسعوا وتفصحوا يفسح الله لكم". "إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم. فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلم. فليست الأولى بأحق من الثانية". "إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به". "وقد وفد للنجاشي، فقام رسول الله يخدمهم، فقال له أصحابه: نحن نكفيك. فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم". "إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه". "تبسمك في وجه أخيك صدقة".

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: "استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم. ليليني منكم أولو الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". "(قال أبو عياش الزرقى: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، قال: فصلينا الظهر، فقال المشركون: لقد كانوا على حال لو أردنا

لأصبنا غفلة. فَأُنزِلَتْ آيَةُ الْقَصْرِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ، فَأَخَذَ النَّاسُ السِّلَاحَ وَصَفُّوا خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ، وَالْمَشْرُكُونَ مُسْتَقْبِلُوهُمْ. فَكَبَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَبَّرُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَكَعَ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَحْرُسُونَهُمْ. فَلَمَّا فَرَغَ هَؤُلَاءُ مِنْ سَجُودِهِمْ سَجَدَ هَؤُلَاءُ، ثُمَّ نَكَصَ الصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، وَتَقَدَّمَ الْآخَرُونَ فَقَامُوا فِي مَقَامِهِمْ، وَرَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَفَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَحْرُسُونَهُمْ. فَلَمَّا فَرَغَ هَؤُلَاءُ مِنْ سَجُودِهِمْ سَجَدَ هَؤُلَاءُ الْآخَرُونَ، ثُمَّ اسْتَوَوْا مَعَهُ فَفَعَدُوا جَمِيعَهُمْ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ جَمِيعًا. فَصَلَّى بَعْثَفَانَ، وَصَلَّاها يَوْمَ بَنِي سَلِيمٍ. "لَمَّا انْكَفَأَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَحَدٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اسْتَوُوا حَتَّى أَتْنِي عَلَى رَبِّي"، فَصَارُوا خَلْفَهُ صَفُوفًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ. وَفِيهِ: اللَّهُمَّ قَاتِلِ الْكُفْرَةَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ وَيَكْذِبُونَ رِسْلَكَ، وَاجْعَلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ وَعَذَابَكَ. اللَّهُمَّ عَذِّبِ الْكُفْرَةَ، إِلَهَ الْحَقِّ".

"مَنْ زَارَ قَوْمًا فَلَا يُؤْمِنُهُمْ، وَلِيُؤْمِنَهُمْ رَجُلٌ مِنْهُمْ". "إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدَكُمْ، وَلِيُؤْمِنَكُمْ أَقْرَبُكُمْ". "(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ: لَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاقُوسِ يَعْمَلُ لِيَضْرِبَ بِهِ لِلنَّاسِ لَجْمَ الصَّلَاةِ طَافَ بِي وَأَنَا نَائِمٌ رَجُلٌ يَحْمِلُ نَاقُوسًا فِي يَدِهِ، فَقُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَتَبِيعُ النَّاقُوسَ؟ قَالَ: وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ فَقُلْتُ: نَدْعُو بِهِ إِلَى الصَّلَاةِ. قَالَ: أَفَلَا أَدْلِكَ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: تَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ. اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ. أَشْهَدُ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ، حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ. حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ، حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ. اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ثُمَّ اسْتَأْخَرَ عَنِّي غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ قَالَ: ثُمَّ تَقُولُ إِذَا

أَقَمْتُ الصَّلَاةَ: اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ. أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. حَتَّى عَلَى الصَّلَاةِ. حَتَّى عَلَى الْفَلَاحِ. قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ، قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ. اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتَهُ بِمَا رَأَيْتُ، فَقَالَ: إِنَّهَا لِرُؤْيَا حَقٍّ إِنْ شَاءَ اللهُ. فَقُمْتُ مَعَ بِلَالٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ مَا رَأَيْتُ، فليؤذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ". "إِذَا سَافَرْتُمْ فَلْيُؤَمِّكُمْ أَقْرَبُكُمْ، وَإِنْ كَانَ أَصْغَرُكُمْ. وَإِذَا أَمَّكُمْ فَهُوَ أَمِيرُكُمْ". "مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلًا فَلْيَعْتَزِلْنَا أَوْ لْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ". "عَنِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: أَكَلْتُ ثُومًا ثُمَّ أَتَيْتُ مَصْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِرُكْعَةٍ، فَلَمَّا قُمْتُ أَقْضَى وَجَدَ رِيحَ الثُّومِ، فَقَالَ: مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ فَلَا يَقْرُبَنَّ مَسْجِدَنَا حَتَّى يَذْهَبَ رِيحُهَا". "مَا مَسَسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيْبَاجًا أَلَيْنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا شَمَمْتُ رِيحًا قَطُّ أَوْ عَرَفًا قَطُّ أَطِيبَ مِنْ رِيحٍ أَوْ عَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

"حَوْضِي مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا، فِيهِ مِنَ الْآنِيَةِ عَدَدُ النُّجُومِ، أَطِيبَ رِيحًا مِنَ الْمَسْكِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْرَدَ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَبْيَضَ مِنَ اللَّبَنِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، وَمَنْ لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ لَمْ يَرَوْا أَبَدًا". "إِنْ هَذَا (أَيُّ يَوْمِ الْجُمُعَةِ) يَوْمَ عِيدٍ جَعَلَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ. فَمَنْ جَاءَ الْجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ طِيبٌ فَلْيَمَسَّ مِنْهُ. وَعَلَيْكُمْ بِالسَّوَاكِ". "مَنْ غَسَلَ مِيتًا فَلْيَغْتَسِلْ، وَمَنْ حَمَلَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ". "نَهَى (رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عَنِ الْبَوْلِ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ ثُمَّ الْإِغْتِسَالِ مِنْهُ، وَنَهَى عَنِ الْإِغْتِسَالِ الْجَنْبِ فِيهِ، وَأَمَرَ الْمُسْتَيْقِظَ مِنْ نَوْمِ اللَّيْلِ أَلَّا يَغْمَسَ يَدَهُ فِيهِ، وَأَمَرَ بِإِرَاقَةِ الْإِنَاءِ مِنْ وَلَوْغِ الْكَلْبِ فِيهِ". "الْإِسْلَامُ: إِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَحُجُّ الْبَيْتِ، وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَالْإِغْتِسَالُ مِنَ الْجَنَابَةِ". "إِنْ أَمْتَى يَدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوَضُوءِ. فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ". "إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ

فأسبغ الوضوء، واجعل الماء بين أصابع يديك ورجليك". "لا يبولن أحدكم في الماء الراكد".

ويدخل في الذوق الفنون من غناء وتصوير ونحت وشعر ونثر... ولسوف أتناول الفنون الآن من حيث حكمها في الإسلام. ولسوف أقتصر منها على الغناء والتصوير والنحت، وهى الفنون التى يحرمها بعض العلماء ويرى أنها لا يمكن أن تتسق مع الإسلام. ونبدأ بالغناء، وهى ذى بعض النصوص التى وردت فى أحاديث النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك الفن: "زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ، فَإِنَّ الصَّوْتَ الْحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا". "مر النبى صلى الله عليه وسلم على أبى موسى ذات ليلة وهو يقرأ فقال: إن عبد الله بن قيس (أو الأشعرى) أُعْطِيَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ دَاوُدَ. فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَعْلَمْتُنِي لَحَبَّرْتُ ذَلِكَ تَحْبِيرًا". "زَوَّجْتُ عَائِشَةَ ذَاتَ قُرَابَةٍ لَهَا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالَ: أَهْدَيْتُمُ الْفَتَاةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أَرْسَلْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَغْنَى؟ قَالَتْ: لَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: إِنَّ الْأَنْصَارَ قَوْمٌ فِيهِمْ غَزَلٌ. فَلَوْ بَعَثْتُمْ مَعَهَا مَنْ يَقُولُ: أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ، فَحَيَانَا وَحَيَاكُمْ". "دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعَاثٍ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه. ودخل أبو بكر فانتهرنى وقال: مزماره الشيطان عند النبى صلى الله عليه وسلم؟ فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا". - (عن بريدة) أن النبى صلى الله عليه وسلم غزا، فنذرت أمةٌ سوداءُ إن رده الله سالما أن تضرب عنده بالدف. فرجع سالما غانما، فأخبرته، فقال: إن كنتِ فعلتِ فافعلى، وإلا فلا. فقالت: يا رسول الله، قد فعلتُ. فَضْرَبْتُ، فدخل أبو بكر وهى تضرب. ودخل عمر وهى تضرب، فألقت الدف وجلست عليه مُقْعِيَةً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا هاهنا، وأبو بكر هاهنا، وهؤلاء هاهنا. إني لأحسب الشيطان يفرّق منك يا عمر".

وكما هو معروف هناك أحاديث كثيرة تنسب إلى رسول الله وليست له في الحقيقة، ويعرف هذا بـ "الوضع في الحديث". وعن المغيرة بن شعبة: "سمعتُ النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يقول: إِنَّ كَذِبًا عَلَى لَيْس كَكْذِبٍ عَلَى أَحَدٍ. مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"، وسأل أحدهم الزبير بن العوام: "إِنِّي لَا أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى الله عليه وسلّم كما يَحَدِّثُ فلانٌ وفلانٌ؟" فأجاب قائلا: "أما إِنِّي لَمْ أَفَارِقْهُ مِنْذُ أُسَلِمْتُ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً: مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ". ومعنى ذلك أن الكذب عليه صلى الله عليه وسلم قد بدأ في عصره أو على الأقل: خِيفَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ. ثم بدأ يقوى ويتسع في فترة الاضطرابات التي كانت بين عثمان والتائرين عليه، وتلك التي كانت بين علي ومعاوية، وبينه وبين عائشة، وبينه وبين الخوارج، ثم بين الدولة الأموية والخوارج، وبينها وبين الحسن ثم الحسين. ولناخذ بعض الأمثلة، ونبدأ بأيسرها. فقد أثير عن الرسول أنه قال لعمار بن ياسر أثناء حفر الخندق: "تقتلك الفئة الباغية". فلما قُتِلَ رضى الله عنه في الحرب بين علي ومعاوية، وكان من أنصار علي بن أبي طالب، قال أصحاب علي ما معناه أن الفئة الباغية هي الفئة التي تقف مع معاوية. إلا أن أنصار معاوية ردوا بتفسير مخالف للحديث، إذ قالوا: إنما قتله من أخرجه. يريدون أن يقولوا إنه إذا كان قد لقي حتفه بسيوفنا فإن الذي عرّضه لتلك السيوف وتسببوا في مقتله هم من أخرجه ليقاتل في صفوفهم. وبغض النظر عن مدى صحة هذا التفسير من عدمه فهي نحن أولاء أمام تفسير للحديث يساوى وضع حديث من أساسه، فكأنهم قد وضعوا حديثا يقول: تقتله الفئة المناصرة لعلّ!

وانظر أيضا إلى الروايات التالية لحديث رسول الله عن المكان الذي يطلع منه قرن الشيطان. وكلها قد وردت في "صحيح البخارى"، وكلها منسوبة إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنه: فهناك رواية تقول: الإيمانُ يمانٍ، والفتنةُ هاهنا. هاهنا يطلع قرنُ الشيطانِ "دون

تحديد للجهة التي يطلع منها قرن الشيطان. وهناك رواية أخرى تحدد جهة المشرق بإطلاق: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: ألا إنَّ الفتنَةَ ها هنا (يشيرُ إلى المشرق) من حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطانِ". وتشبهها الرواية التالية أيضا: "عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام إلى جنبِ المنبرِ فقال: الفتنَةُ ها هنا، الفتنَةُ ها هنا من حيثُ يطلعُ قرنُ الشيطانِ، أو قال: قرنُ الشمسِ". وثمَّ رواية رابعة نُصِّها: "ذكر النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم بارِكْ لنا في شامِنَا، اللهم بارِكْ لنا في يَمَنِنَا. قالوا: يا رسول الله، وفي نجدِنَا؟ قال: اللهم بارِكْ لنا في شامِنَا، اللهم بارِكْ لنا في يَمَنِنَا. قالوا: يا رسول الله، وفي نجدِنَا؟ فأظنُّه قال في الثالثة: هناك الزلازلُ والفتنُ، وبها يطلعُ قرنُ الشيطانِ". والآن فلننظر في الرواية التالية: "قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا، فأشار نحو مسكن عائشة، فقال: هنا الفتنَةُ (ثلاثًا) من حيث يطلعُ قرنُ الشيطانِ". وهى رواية تعض عليها الشيعة بكل نواجذها. ففيها، أو على الأقل: في ظاهرها، إدانة شديدة لعائشة رضى الله عنها.

أما في الرواية التي دعا فيها النبي لـ "شامنا" فإننا نتساءل: هل كانت الشام قد فُتحت آنذاك وصارت شاما إسلامية حتى يضيفها النبي عليه السلام إلى نفسه وجماعة المسلمين قائلا: "شامنا"؟ وحتى لو أخذنا الكلمة على المجاز وقلنا إنه يشير إلى فتحها عما قريب وتحولها إلى بلد إسلامي، فلمَ يا ترى لم يذكر العراق وفارس ومصر والمغرب أيضا بهذا المعنى؟ ولمَ حصَّ نجدا بالزلازل والفتن؟ وأية زلازل هذه يا ترى؟ هل تقع نجد في منطقة زلازل دون غيرها من جزيرة العرب؟ فمتى وقعت فيها هذه الزلازل؟ أم هل يقصد فتن الردة مثلا؟ لكن فتن الردة لم تكد تترك موضعا في بلاد العرب إلا واقتحمته. فلمَ نجدُ بالذات؟ بل إن اليمن قد غاصت بكل جدارة في فتن الردة. ألم يظهر فيها الأسود العنسى؟ وما أدراك ما الأسود العنسى؟ فلمَ دعا عليه السلام لليمن، ولم يدعُ لنجد؟

أما الحديث التالى فهو فى عثمان، وقد أورده الزمخشري فى تفسير قوله تعالى من سورة "النجم": "أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى؟"، إذ ذكر "أن عثمان رضى الله عنه كان يعطى ما له فى الخير، فقال له عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وهو أخوه من الرضاعة: يوشك ألا يبقى لك شىء. فقال عثمان: إن لى ذنوبًا وخطايا، وإنى أطلب بما أصنع رضا الله تعالى وأرجو عفوه. فقال عبد الله: أعطنى ناقتك برحلمها، وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها. فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فنزلت. ومعنى "تَوَلَّى": ترك المركز يوم أحد. فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل. "فَهُوَ يَرَى": فهو يعلم أن ما قاله له أخوه من احتمال أوزاره حق". ولكن إذا ما عرفنا أن السورة مكية، أى نزلت قبل أن تكون هناك غزوات أصلا، تبين لنا أن الكلام غير صحيح، فضلا عن أن عثمان أسخى بماله وأفقه لدينه من أن ينصاع لابن أبى سرح ويأخذ باقتراحه السخيف المتهافت ناسيا أنه "لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وأنه "إن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِملها لا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى". ثم ألو كان عثمان بهذه العقلية السطحية الساذجة أكان رسول الله يزوجه من ابنتيه: رقية ثم أم كلثوم، ويقول له حين ماتت الأخيرة: لو كانت عندنا ثالثة لَزَوَّجْنَاكَهَا؟

ثم لدينا أيضا هذا الحديث، وهو عن معاوية، وراويهِ عبد الله بن العباس: "كنتُ أَلْعَبُ مع الصَّبِيانِ، فجاء رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتَوَارَيْتُ خَلْفَ بَابٍ. قال: فجاء فَحَطَّأْنِي حَطَاةً وَقَالَ: "اذهبْ وادْعُ لى معاويةَ". قال: فجئتُ فقلتُ: هو يأكلُ. قال: ثم قال لى: "اذهبْ فادْعُ لى معاويةَ". قال: فجئتُ فقلتُ: هو يأكلُ. فقال: "لا أشبع الله بطنه"...". وهو حديث فيه ما فيه فى حق معاوية رضى الله عنه. ولست أظن معاوية، مهما كان شغوفًا بالطعام، كان ليتأخر عن دعوة رسول الله لحظة. على أن هناك مع ذلك أحاديث أخرى تشنى

على زعيم دولة بنى أمية. ومعاوية صحابى جليل فى كل الأحوال، وإن أخذ البعض عليه هذا التصرف أو ذاك فى نزاعه مع على رضى الله عنهما.

وفى "تاريخ دمشق" لابن عساكر: "رأيتُ الحسين بن على بن أبى طالب بعينى، وإلا فعَمِيَّتَا، وسمعتُهُ بأذنى، وإلا فصَمَّتَا، وَفَدَّ على معاوية بن أبى سفيان زائراً، فأناه فى يوم جمعة وهو قائم على المنبر خطيباً، فقال له رجل من القوم: يا أمير المؤمنين، ائذن للحسين بن على يصعد المنبر. فقال معاوية: ويلك! دعنى أفتخر. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: سألتك بالله يا أبا عبد الله: أليس أنا ابن بطحاء مكة؟ فقال الحسين: إى والذى بعث جدى بالحق بشيراً. ثم قال: سألتك بالله يا أبا عبد الله: أليس أنا خال المؤمنين؟ فقال: إى والذى بعث جدى نبياً. ثم قال: سألتك بالله يا أبا عبد الله: أليس أنا كاتب الوحى؟ فقال: إى والذى بعث جدى نذيراً. ثم نزل معاوية وصعد الحسين بن على، فحمد الله عز وجل بمحامد لم يحمده الأولون والآخرون. ثم قال: حدثنى أبى عن جدى عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل أن تحت قائمة كرسى العرش ورقة آس خضراء مكتوب عليها: "لا إله إلا الله محمد رسول الله. يا شيعة آل محمد، لا يأتى أحد منكم يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله إلا أدخله الله الجنة". قال: فقال معاوية بن أبى سفيان: سألتك بالله يا أبا عبد الله، مَنْ شيعة آل محمد؟ فقال: الذين لا يشتمون الشيخين: أبا بكر وعمر ولا يشتمون عثمان ولا يشتمون أبى ولا يشتمونك يا معاوية". وقد حكم المحدث فى موقع "الدرر السنية" على الحديث بأنه "منكر، ولا أرى إسناده متصلاً إلى الحسين".

وعن ابن عباس "أن معاوية بن أبى سفيان دخل عليه مروان فكلمه فى حاجته فقال: اقض حاجتى يا أمير المؤمنين. فوالله إن مؤنتى لعظيمة، وإنى لأبو عشرة وعم عشرة وأخو عشرة. فلما أدبر مروان، وابن عباس جالس مع معاوية على السرير، قال معاوية: أنشدك بالله

يا ابن عباس، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دُولاً وعباد الله خَوَلاً، وكتاب الله دَغَلاً. فإذا بلغوا سبعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لَوْكِ ثَمرة؟ فقال ابن عباس: اللهم نعم. قال: وذكر مروان حاجة له، فردَّ مروانُ عبدَ الملك إلى معاوية، فكلّمه فيها، فلما أدبر عبد الملك قال معاوية: أنشدك بالله يا ابن عباس، أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذا فقال: أبو الجبابرة الأربعة؟ فقال ابن عباس: اللهم نعم. وخلاصة حكم المحدث أن "فيه غرابة ونكارة شديدة، وفيه ابن لهيعة: ضعيف".

وفي "مجمع الزوائد" للهيثمي: "كنت جالساً عند الحسن بن علي، فجاءه رجلٌ فقال: "لقد سبَّ عند معاوية علياً سبّاً قبيحاً رجلٌ يقال له: معاوية بن حُديج"، فلم يعرفه. قال: إذا رأيته فائتني به. قال: فراه عند دار عمرو بن حريث فأراه إياه. قال: أنت معاوية بن حُديج؟ فسكت فلم يجبه ثلاثاً. ثم قال: أنت السَّابُّ علياً عند ابنِ آكلة الأكباد؟ أما لأنَّ وردت عليه الحوض، وما أراك تردّه، لتجدنّه مُشَمَّراً حاسراً عن ذِراعيه يذودُ الكفَّارَ والمنافقين عن حوضِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قولَ الصَّادِقِ المصدوقِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. وفي رواية عن علي بن أبي طلحة مولى بنى أمية قال: حجَّ معاوية بنُ أبي سفيان، وحجَّ معه معاوية بنُ حُديج، وكان من أسبِّ النَّاسِ لعلی بنِ أبي طالب، فمرَّ في المدينة في مسجدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، والحسن بنُ علي جالسٌ. فذكر نحوه إلَّا أنَّه زاد: وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى". ونصُّ حُكْمِ المحدث عليه أنه "رُوِيَ بإسنادين في أحدهما علي بن أبي طلحة مولى بنى أمية، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، والآخر ضعيف".

الشعر والنثر

الشعر:

ثمَّ مقولةٌ شائعةٌ انتشرت بين المعنّين بالتأريخ للشعر العربى منذ وقت مبكر هى أن العرب كَفُّوا، مع ظهور الدعوة المحمدية وانشغالهم بالقرآن والفتوح، عن قول الشعر. وليس هذا صحيحا، فلم يتوقف الشعر يوما. وهل يتوقف الإنسان عن الشعور والطموح والحب والفخر والتهكم والانفعال بمظاهر الجمال والرغبة فى التنفيس عن ضيقه وملله وبهجته ويأسه وأمله؟ أليست هذه هى بواعث الشعر؟ فكيف يقال إنه قد توقف؟ بل لقد أصبح الإسلام ذاته باعثا جديدا من بواعثه، إذ صار المسلم يتغنى بدينه الجديد وما أتى به من قيم ومبادئ، وينافح عن الرسول الذى جاء به، ويتباهى بما أحرزته قوات الإسلام من انتصار على الكفر وأهله. ورغم وضوح البطلان فى هذه الدعوى فما زلنا نجد من يرددها فى عصرنا. وعادة ما يشير أصحاب هذه المقولة إلى لبيد بن ربيعة بوصفه مثالا على الشاعر المشهور الذى ما إن جاء الإسلام حتى سكت فلم ينبس إلا ببيت واحد ليس غير. فهل هذا صحيح؟ الواقع أن من يقرأ شعره فى الإسلام سوف يلاحظ أنه قد نظم شعرا كثيرا بالنسبة إلى حجم شعره الذى بقى لنا، وسوف يرى أن الرجل يكرر فى أشعاره ذكر الله وحمده والرضا بقضائه وقدره، ويتحدث عن التقى والبر وصحيفة أعمال المرء التى سوف يحاسب فى الآخرة على أساس منها، ويشير إلى ما صنعه الله بعاد وثمرود وغيرهما من الأمم القديمة عقابا لها على تمردها وعصيانها... إلخ:

وَمَا الْبِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنَ التَّقَى وَمَا الْمَالُ إِلَّا مُعْمَرَاتٌ وَدَائِعُ
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ

وَمَا النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانِ: فَعَامِلٌ
فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِذٌ لِنَصِيْبِهِ
لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الصُّوَارِبُ بِالْحَصَى
سَلَوْهِنَّ إِنْ كَذَبْتُمُونِي: مَتَى
يَتَبَرَّ مَا يَنْبَى، وَآخِرُ رَافِعٍ
وَمِنْهُمْ شَقِيٌّ بِالْمَعِيشَةِ قَانِعٌ
وَلَا زَاغِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعٌ
يَذُوقُ الْمَنَايَا؟ أَوْ مَتَى الْغَيْثُ وَاقِعٌ؟
الْفَتَى

إن قائل هذا الكلام يشيرون مثلاً إلى قوله تعالى في آخر سورة "الشعراء": "وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ أَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ". إلا أنهم ينسون عدة أشياء هامة: فهذه الآيات قد نزلت في المدينة، ومعنى ذلك أن الإسلام لم يكن قبل ذلك قد قال شيئاً في حق الشعر يدفع مبدعيه إلى الكف عن إبداعه. وثانياً ينبغي أن نضع هذه الآيات في سياقها التاريخي وسياقها القرآني، إذ هي رد على من كانوا يتهمون الرسول بأنه شاعر يقول ما يلهمه إياه الشياطين، ويسبون إلى أعراض المسلمين والمسلمات، فقال القرآن إن الشياطين إنما تنزل على أولئك الشعراء الذين يهاجمون الإسلام وأهله ولا يقيّدون في شعرهم بمراعاة ما هو حق فليتزموه ولا ما هو باطل فيتجنبوه، بل يتركوا خيالاتهم وأوهامهم تسوقهم هنا وهنا في أودية الضلال دون اهتمام بصدق أو كذب. ومثلهم جمهورهم الذي ينصت مصداقاً أكاذيبهم وشطحاتهم الهائمة المنفلتة من عيار الصدق. ومع هذا كله فإن الآيات نفسها تستثنى شعراء الإسلام، الذين يردون على أكاذيب شعراء المشركين ويفضحونها.

ولو كان رأى الإسلام في الشعر سيئاً لكان المسلمون أول من يجب عليهم هجره والابتعاد عن طريقه بكل وسيلة متاحة. ولكن كيف يفكر المسلمون في هجر الشعر والابتعاد

عنه، وقد كان الرسول نفسه يسمعه بل يطلب سماعه أحيانا كما في الحديث التالى عن الشريد بن سويد الثقفى: "ردفتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلمَ يوماً، فقال: هل معك من شعرِ أمية بنِ أبى الصِّلَتِ شيئاً؟ قلتُ: نعم. قال: هيه. فأنشدته بيتاً، فقال: هيه. ثم أنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيتٍ؟" كما التف حوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من شعراء المدينة بعد الهجرة ينافحون عنه وعن أتباعه، ويتفاخرون بدينهم الجديد، ويهجون من يتجاوز حدوده من شعراء المشركين. وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك. وكان صلى الله عليه وسلم يشجعهم، وبخاصة حسان بن ثابت ويدعو له قائلاً: أَهْجُئْهُمْ، وَرُوحَ الْقُدُسِ مَعَكَ. فكيف يعضد روح القدس حساناً في قول الشعر لو كان الشعر مذموماً في الإسلام أو غير مرحَّب به؟

بل إن اعتناق الشعراء للإسلام لم يصرف من يريد منهم عن التغزل في النساء والتشبيب بهن ووصف محاسنهن وتشبيهه طعم أفواههن بالخمر إلى الدرجة التى يقول فيها كعب بن زهير مثلاً في حضرة الرسول حين أتاه معتذراً عما قاله من كلام مسيء في حقه ومعلناً إسلامه:

بانتُ سَعَادُ، فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَبُولُ	مُتِمُّ إِثْرَهَا لَمْ يَجْزَ مَكْبُولُ
وَمَا سَعَادُ عَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا	إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ
هَيْفَاءُ مُقْبِلَةً، عَجْزَاءُ مُدْبِرَةً	لَا يَشْتَكِي قِصْرٌ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ
تَجَلَّوْا عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ	كَأَنَّهُ مِنْهَلٌّ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ
شُجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَةٍ	صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ
يَا وَيْحَهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ	مَا وَعَدَتْ أَوْ لَو أَنَّ النُّصْحَ مَقْبُولُ
لَكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَ مِنْ دِمِهَا	فَجَعُ وَوَلَعُ وَإِخْلَافُ وَتَبْدِيلُ
فَمَا تَدَوْمُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا	كَأَنَّ تَلَوْنَ فِي أَثْوَابِهَا الْغَوْلُ

وَمَا تَمَسَّكَ بِالْوَصْلِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا تُمْسِكُ الْمَاءَ الْغَرَائِبِلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُزُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
فَلَا يَعُزُّنَكَ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتَ إِنَّ الْأَمَانِي وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ
أَمَسْتَ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَاسِيلُ

أما الشعر المنطلق من باعث الإسلام صافيا بعيدا عن أغراض الشعر التقليدية فمنه

مثلا قول حُبَيْب بن عَدِيٍّ حين وضعه أسروه المشركون الغادرون على خشبة ليصلبوه:

لَقَدْ جَمَعَ الْأَحْزَابُ حَوْلِي وَالْبُؤَا قِبَائِلَهُمْ، وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعٍ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَقُرَّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيلٍ مَمْنَعٍ
وَكُلُّهُمْ يُبْدِي الْعَدَاوَةَ جَاهِدًا عَلَى لَأْنِي فِي وَثَاقٍ بِمَضْغِعٍ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِي وَمَا جَمَعَ الْأَحْزَابُ لِي عِنْدَ مِصْرَعِي
فَذَا الْعَرْشِ، صَبَّرْنِي عَلَى مَا أَصَابَنِي فَقَدْ بَضَعُوا لِحْمِي، وَقَدْ ضَلَّ مَطْمَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ. وَإِنْ يَشَاءُ يَبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مَمْرَعٍ
وَقَدْ عَرَّضُوا بِالْكَفْرِ، وَالْمَوْتُ دُونَهُ وَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَدْمَعٍ
وَمَا بِي حِذَاؤُ الْمَوْتِ. إِنِّي لَمِيتٌ وَلَكِنْ حِذَاوِي حَرٌّ نَارٍ تَلْفَعُ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخْشَعًا وَلَا جَزَعًا. إِنِّي إِلَى اللَّهِ مَرَجِعِي
وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَى حَالٍ كَانَ فِي اللَّهِ مِصْرَعِي

والآن، وقد فَنَدْنَا دعوى اضمحلال الاهتمام بالشعر لدى مجيء الإسلام، نتوقف أول

شئ عند القصائد الهجائية التي تبادلها الشعراء المشركون والمسلمون آنذاك دفاعا من كل فريق عما يؤمن به وتسفيها لما عند الفريق الآخر، وإن كان الأمر قد انتهى بدخول المشركين في الدين الجديد. ومما بقى لنا من شعر معسكر الكفر الأبيات التالية لابن الزُّبَيْرِ، الذي ظل

متمسكا بالوثنية حتى فتح الرسول مكة المكرمة، فتركها هاربا إلى نجران، ثم غير رأيه وعاد قاصدا المدينة حيث وفد على رسول الله معتذرا عما قاله في حقه وحق دينه. والكلام في الأبيات عن غزوة بدر وقتلى المشركين الذين صرعتهم سيوف الإسلام رغم تفوق المشركين الهائل على المسلمين عددا وعدة:

مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلُهُ	مِنْ فِتْيَةٍ بِيضِ الْوُجُوهِ كِرَامٍ؟
تَرَكُوا نُبِيَّهَا خَلْفَهُمْ وَمُنَبَّهَا	وَابْنَى رَبِيعَةَ خَيْرَ خَصْمٍ فَنَامَ
وَالْحَارِثَ الْفَيَاضَ يَبْرِقُ وَجْهُهُ	كَالْبَدْرِ جَلَى لَيْلَةَ الْإِظْلَامِ
وَالْعَاصِيَ بْنَ مُنَبِّهِ ذَا مِرَّةٍ	رُحْمًا تَمِيمًا غَيْرَ ذِي أَوْصَامِ
تَنَمَّى بِهِ أَغْرَاقُهُ وَجُدُودُهُ	وَمَآثِرُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
وَإِذَا بَكَى بِأَكْفَاعِغُولٍ شَجْوَهُ	فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَاجِدِ ابْنِ هِشَامِ
حَيَا إِلَٰهَ أَبَا الْوَلِيدِ وَرَهْطَهُ	رَبُّ الْأَنَامِ، وَخَصَّصَهُمْ بِسَلَامِ

وعن غزوة أحد وما أوقعه المكيون بالمسلمين من قتل بعض أبطالهم المغاوير كحمزة

سيد الشهداء يقول أيضا ابن الزبعرى:

أَلَا ذَرَفْتُ مِنْ مُقْلَتِكَ دُمُوعُ	وَقَدْ بَانَ مِنْ حَبْلِ الشَّابِ قُطُوعُ
وَشَطَّ بِمَنْ تَهْوَى الْمَزَارُ، وَفَرَقْتُ	نَوَى الْحَى دَارُ بِالْحَبِيبِ فَجُوعُ
وَلَيْسَ لِمَا وَلَّى عَلَى ذِي حَرَارَةٍ،	وَإِنْ طَالَ تَذْرَافُ الدُّمُوعِ، رُجُوعُ
فَذَرْ ذَا، وَلَكِنْ هَلْ أَتَى أُمَّ مَالِكٍ	أَحَادِيثُ قَوْمِي؟ وَالْحَدِيثُ يَشِيعُ
وَمُجَنَّبًا جُرَدًا إِلَى أَهْلِ يَثْرِبِ	عَنَاجِيجَ مِنْهَا مُتَلَدُّ وَنَزِيعُ
عَشِيَّةَ سِرْنَا فِي هُامٍ يَقُودُنَا	ضُرُورُ الْأَعَادَى لِلصَّدِيقِ نَفُوعُ
نَشُدُّ عَلَيْنَا كُلَّ زَغْفٍ كَأَنَّهَا	غَدِيرٌ بِضُوجِ الْوَادِيَيْنِ نَقِيعُ

فَلَمَّا رَأَوْنَا خَالَطَتْهُمْ مَهَابَةٌ
وَوَدُّوا لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُهَا
وَقَدْ عَرَّيْتُ بَيْضَ كَأَنَّ وَمِصْصَهَا
بِأَيْمَانِنَا نَعْلُو بِهَا كُلَّ هَامَةٍ
فَعَادَرْنَ قَتْلَى الْأَوْسِ عَاصِبَةً بِهِمْ
وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
وَلَوْلَا عُلُوُّ الشَّعْبِ غَادَرْنَ أَحْمَدًا
كَمَا غَادَرَتْ فِي الْكَرِّ حَمْزَةَ ثَاوِيَا
وَنُعْمَانٌ قَدْ غَادَرْنَ تَحْتَ لَوَائِهِ
بِأُحْدٍ، وَأَرْمَاحُ الْكُفَاةِ يَرْدُنُهُمْ
وَعَايْنَهُمْ أَمْرٌ هُنَاكَ فَظِيْعُ
بِهِمْ، وَصَبُورُ الْقَوْمِ ثُمَّ جَزُوعُ
حَرِيْقُ تَرْقَى فِي الْأَبَاءِ سَرِيْعُ
وَمِنْهَا سِمَامٌ لِلْعَدُوِّ ذَرِيْعُ
ضِبَاعٌ وَطَيْرٌ يَعْتَفِينَ وَفُوعُ
بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقْعِهِنَّ نَجِيْعُ
وَلَكِنْ عَلَا، وَالسَّمْهَرَى شُرُوعُ
وَفِي صَدْرِهِ مَاضِي الشَّبَابَةِ وَقِيْعُ
عَلَى لَحْمِهِ طَيْرٌ يُخْفِنَ وَفُوعُ
كَمَا غَالَ أَشْطَانُ الدَّلَاءِ نُزُوعُ

ومن شعر ابن الزبعرى كذلك الأبيات التالية من قصيدة تتحدث عن معركة الأحزاب
وتفتخر بها كانت جيوش الكفر تنوى إنزاله بالمسلمين من تنكيل وقتك لولا وجود الخندق،
الذى حماهم من تلك الجيوش:

وَأَذْكُرُ بَلَاءَ مَعَاشِرٍ وَأَشْكُرُهُمْ
أَنْصَابٍ مَكَّةَ عَامِدِينَ لِيَشْرِبِ
يَدْعُ الْحُزُونَ مَنَاهَجًا مَعْلُومَةً
فِيهِ الْجِيَادُ شَوَازِبُ مَجْنُونَةٍ
مِنْ كُلِّ سَلْهَبَةٍ وَأَجْرَدَ سَلْهَبِ
جَيْشٍ عُيْنُهُ قَاصِدٌ بِلَوَائِهِ
قَرْمَانٍ كَالْبَذَرَيْنِ أَصْبَحَ فِيهِمَا
سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ مِنَ الْأَنْصَابِ
فِي ذِي غَيَاطِلٍ جَحْفَلٍ جَبْجَابِ
فِي كُلِّ نَشْزٍ ظَاهِرٍ وَشَعَابِ
قُبُ الْبُطُونِ لَوَاحِقُ الْأَقْرَابِ
كَالسَّيْدِ بَادِرٍ غَفْلَةِ الرُّقَابِ
فِيهِ، وَصَخْرٌ قَائِدُ الْأَحْزَابِ
غَيْثُ الْفَقِيرِ وَمَعْقِلُ الْهَرَّابِ

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا الْمَدِينَةَ وَارْتَدَوْا لَلْمَوْتِ كُلِّ مُجَرَّبٍ قَضَابِ
 شَهْرًا وَعَشْرًا قَاهِرِينَ مُحَمَّدًا وَصَحَابُهُ فِي الْحَرْبِ خَيْرُ صَحَابِ
 نَادَوْا بِرَحْلَتِهِمْ صَبِيحَةَ قُلْتُمُو: كِدْنَا نَكُونُ بِهَا مَعَ الْخِيَابِ
 لَوْلَا الْخَنَادِقُ غَادَرُوا مِنْ جَمْعِهِمْ فَتَلَى لِطَيْرٍ سُغْبٍ وَذُنَابِ

لكن ابن الزبعرى، بعد فتح مكة ومعانيته هزيمة الشرك وانتصار التوحيد وإيقانه ألا
 أمل في عودة الوثنية كرة أخرى، أفلح عن غيه وتاب وأناب واعتذر للرسول عليه الصلاة
 والسلام وأنشأ شعرا مختلفا يعلن فيه إيمانه ويقر بضلاله القديم ويتبرأ منه ويشهد للرسول
 صلى الله عليه وسلم بالصدق ويعترف له بالسيادة:

مَنْعَ الرِّقَادَ بَلَابِلٌ وَهُمْومُ وَاللَّيْلَ مُعْتَلِجُ الرِّوَاقِ بِهِمُ
 مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لَا مَنَى فِيهِ، فَبِتُّ كَأَنِّي مُحْمومُ
 يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلْتُ عَلَى أَوْصَالِهَا عِيرَانَةَ سُرْحِ الْيَدَيْنِ غَشُومُ
 إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي أَسَدَيْتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمُ
 أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ سَهْمُ، وَتَأْمُرُنِي بِهَا مَخْزومُ
 وَأَمْدُ أَسْبَابِ الرَّدَى، وَيَقُودُنِي أَمْرُ الْغَوَاةِ، وَأَمْرُهُمْ مَشْؤومُ
 فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي، وَنُحْطِئُ هَذِهِ مَخْرُومُ
 مَضَّتِ الْعِدَاوَةُ، وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ
 فَاعْفِرْ، فِدَى لَكَ وَالِدَايَ كِلَاهُمَا، زَلَلِي، فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ
 وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِكِ عَلَامَةٌ: نُورٌ أَغْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتومُ
 أَعْطَاكَ، بَعْدَ مَحَبَّةٍ، بُرْهَانَهُ شَرَفًا، وَبُرْهَانُ الْإِلَهِ عَظِيمُ
 وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقُ حَقٌّ وَأَنَّكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمُ

وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَى مُسْتَقْبَلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمٌ
قَرُمٌ عَلَا بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ فَزَعٌ تَمَكَّنَ فِي الدُّرَى وَأَرْوَمٌ

على أن هذه الأشعار التي كان المشركون وغيرهم يهاجمون فيها الإسلام ونبيه ورجاله لم تكن تمر دون رد من جانب المسلمين. وترتب على هذا أن ظهرت طائفة من القصائد تبودلت بين شعراء الإسلام وبين شعراء المشركين واليهود تفاخراً وهجاءً بسبب ما نشب بين المعسكرين من معارك وعداوات جراء اختلاف العقيدة والقيم والمبادئ. وتمثل تلك القصائد ضرباً من النقائض سبقت نقائض العصر الأموي، التي كانت بين الفرزدق وجريز والأخطل والبعيث وغيرهم، وإن لم تحظ بالتفات كثير من النقاد ومؤرخي الأدب لها على عكس النقائض الأموية.

وتبدأ نقائض عصر الرسول مع انتصار المسلمين في بدر. وفي سيرة ابن هشام نجد عدداً من هذه النقائض عند الكلام عن الغزوة المذكورة وما قيل فيها من شعر. ولعل أول نقيضتين من تلك النقائض كانتا بين حمزة بن عبد المطلب مجنّد كبار المقاتلين القرشيين يومذاك وبين الحارث بن هشام، إذ يقول حمزة حسبما روى ابن إسحاق:

ألم تر أمراً كان من عجب الدهر؟ وَلِلْحَيْنِ أَسْبَابٌ مَبِينَةُ الْأَمْرِ
وما ذاك إلا أن قومًا أفادهم، فخانوا، تواصٍ بِالْعُقُوقِ وَبِالْكَفْرِ
عشيةً راحوا نحو بدرٍ بجمعهم فَكَانُوا رُهُونًا لِلرَّكِيَةِ مِنْ بَدْرِ
وكنا طلبنا العيرَ لم نَبْغِ غيرها فَسَارُوا إِلَيْنَا، فَالْتَقَيْنَا عَلَى قَدْرِ
فلما التقينا لم تكن مثنويةً لَنَا غَيْرَ طَعْنٍ بِالْمُثَقِّفَةِ السُّمْرِ
وَضَرْبٍ بَبَيْضٍ يَخْتَلِي الْهَامَ حَدُّهَا مُشْهَرَّةِ الْأَلْوَانِ بَيْنَةَ الْأَثَرِ
ونحن تركنا عُتْبَةَ الْغَى ثَاوِيَا وَشَيْبَةَ فِي الْقَتْلِ تَجَرَّجَمَ فِي الْجَفْرِ

وعمرؤ ثوى فيمن ثوى من حماتهم
جيوب نساء من لوى بن غالب
أولئك قوم قتلوا في ضلالهم
لواء ضلال قاد إبليس أهله
وقال لهم إذ عاين الأمر واضحاً:
فشقت جيوب النائحات على عمرو
كرام تفرعن الذوائب من فهر
وخلوا لواء غير مختصر النصر
فخاس بهم. إن الخبيث إلى غدر
برئت إليكم. ما بى اليوم من
صبر

فإنى أرى ما لا ترون، وإننى
فقدتهم للحين حتى تورطوا
فكانوا غداة البئر ألفاً، وجمعنا
وفينا جنود الله حين يمدنا
فشد بهم جبريل تحت لوائنا
أخاف عقاب الله، والله ذو قسر
وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر
ثلاث مئين كالمسدمة الزهر
بهم فى مقام ثم مستوضح الذكر
لدى مأزق فيه منياهمو تجرى

فأجابه الحارث بن هشام بن المغيرة فقال:

ألا يا لقومى للصباة والهجر
وللدمع من عينى جوداً كأنه
على البطل الحلو الشمائل إذ ثوى
فلا تبعدن يا عمرو من ذى قرابة
فإن يك قوم صادفوا منك دولة
فقد كنت فى صرف الزمان الذى مضى
فإلاً أمت يا عمرو أتركك ثائراً
وأقطع ظهراً من رجال بمعشر
وللحزن منى والحرارة فى الصدر
فريد هوى من سلك ناظمه يجرى
رهين مقام للركية من بدر
ومن ذى ندام كان ذا خلق غمر
فلا بد للأيام من دول الدهر
تريهم هوائاً منك ذا سبل وعر
ولا أبق بقيا فى إحاء ولا صهر
كرام عليهم مثلما قطعوا ظهري

أَغَرَّهْمُو مَا جَمَّعُوا مِنْ وَشِيظَةٍ ونحن الصميمُ في القبائل من فِهْرٍ؟
 فِيا لِلُّؤَى ذَبُّوا عَنْ حَرِيمِكُمْ وآلهة لا تتركوها لذي الفخرِ
 تَوَارِثَهَا آبَاؤُكُمْ، وَوَرِثْتُمُو أَوَاسِيَهَا وَالْبَيْتَ ذَا السَّقْفِ وَالسِّتْرِ
 فَمَا لِحَلِيمٍ قَدْ أَرَادَ هَلَاكَكُمْ، فلا تعذروه آلَ غَالِبٍ، مِنْ عَذْرِ
 وَجِدُّوا لِمَنْ عَادَيْتُمُو وَتَوَاذَرُوا وَكُونُوا جَمِيعًا فِي النَّاسِ فِي الصَّبْرِ
 لَعَلَّكُمْ أَنْ تَثَارُوا بِأَخِيكُمْ وَلَا شَيْءَ إِنْ لَمْ تَثَارُوا بِذَوَى عَمْرِ
 بِمَطَرِدَاتٍ فِي الْأَكْفِ كَأَنهَا وَمِيضُ نُطِيرِ الْهَامِ بَيْنَةَ الْأَثَرِ
 كَأَنَّ مَدَبَ الذَّرِّ فَوْقَ مَتُونِهَا إِذَا جُرِّدَتْ يَوْمًا لِأَعْدَائِهَا الْخُزْرِ

وعقب انتكاسة المسلمين في غزوة أحد ارتقت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان زعيم

المعسكر المكي المشرك آنثذ صخرة كانت هناك وأنشدت:

نحن جزيناكم بيوم بدرٍ والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُعْرِ
 ما كان عن عتبة لي من صبرٍ ولا أخى وعمِّه وبِكْرِ
 شَفَيْتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي شَفَيْتَ، وَحَشَى، غَلِيلَ صَدْرِي
 فَشُكِّرْ وَحَشَى عَلَى عَمْرِي حَتَّى تُرَمَّ أَعْظُمِي فِي قَبْرِي

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب قائلة:

خَزَيْتِ فِي بَدْرٍ وَبَعْدَ بَدْرٍ يَا بَنْتَ وَقَّاعِ عَظِيمِ الْكَفْرِ
 صَبَّحَكَ اللَّهُ غَدَاةَ الْفَجْرِ مِ الْهَاشِمِيِّينَ الطُّوَالِ الزُّهْرِ
 بِكُلِّ قَطَّاعٍ حَسَامٍ يَفْرِى حَمْزَةُ لَيْشَى، وَعَلَى صَقْرِي
 إِذْ رَامَ شَيْبٌ وَأَبُولُكَ غَدْرِي فَخَضَّبا مِنْهُ ضَوَاحِي النَّخْرِ

وَنَذْرُكَ السُّوءَ فَشَرُّ نَذْرِ

ونقضها حسان أيضا بشعر عنيف فقال:

أَشْرَتْ لَكَاع، وَكَانَ عَادَتَهَا	لَوْمٌ، إِذَا أَشْرَتْ، مَعَ الْكَفْرِ
لَعَنَ الْإِلَٰهَ، وَزَوَّجَهَا مَعَهَا،	هِنْدَ الْهِنْدِ طَوِيلَةَ الْبَطْرِ
أَخْرَجْتَ مُرْقِصَةً إِلَى أَحَدٍ	فِي الْقَوْمِ مُعْنَقَةً عَلَى بَكْرِ
بَكْرٍ ثَقَالٍ لَا حَرَكَ بِهٍ	لَا عَنْ مُعَاتَبَةٍ وَلَا زَجَرٍ
وَعَصَاكَ إِسْتَكْتَقِينَ بِهَا	دَقَّ الْعَجَايِبِ عَارِي الْفَهْرِ
قَرَحَتْ عَجِيزَتُهَا وَمَشَرَجُهَا	مِنْ نَصَّهَا نَصًّا عَلَى الْقَهْرِ
ظَلَلَتْ تُدَاوِيهَا زَمِيلَتُهَا	بِالْمَاءِ تَنْضَحُهُ وَبِالسِّدْرِ
أَقْبَلَتْ زَائِرَةً مُبَادِرَةً	بِأَيْكِ وَأَبْنِكَ يَوْمَ ذِي بَدْرِ
وَبِعَمَّكَ الْمَسْلُوبِ بَزَّتَهُ	وَأَخِيكَ مُنْعَفِرِينَ فِي الْجَفْرِ
وَنَسِيتِ فَاحِشَةً أَتَيْتِ بِهَا،	يَا هِنْدُ، وَيَحَاكِ! سُبَّةَ الدَّهْرِ
فَرَجَعْتَ صَاغِرَةً بِلَا تَرَةَ	مِمَّا طَلَبْتَ بِهَا وَلَا وَثَرَ
زَعَمَ الْوَلَايْدُ أَنَّهَا وَلَدَتْ	وَلَدًا صَغِيرًا كَانَ مِنْ عَهْرِ

وعقب مقتل كعب بن الأشرف قال كعب بن مالك يشمت بموته وإجلاء بني النضير:

لَقَدْ خَزَيْتُ بَعْدَ رَتَمِ الْحُبُورِ	كَذَاكَ الدَّهْرُ ذُو صَرْفٍ يَدُورُ
وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِرَبِّ	عَزِيزٍ، أَمْرُهُ أَمْرٌ كَبِيرُ
وَقَدْ أَوْثُوا مَعًا فَهْمًا وَعِلْمًا	وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ النَّذِيرُ
نَذِيرٌ صَادِقٌ أَدَّى كِتَابًا	وَآيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ تَنْبِيرُ
فَقَالُوا: مَا أَتَيْتَ بِأَمْرِ صَدِيقٍ	وَأَنْتَ بِمُنْكَرٍ مِنَّا جَدِيرُ
فَقَالَ: بَلَى لَقَدْ أَدَيْتُ حَقًّا	يَصَدِّقُنِي بِهِ الْفَهْمُ الْخَبِيرُ

فَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَهْدَ لِكُلِّ رُشْدٍ
فَلَمَّا أَشْرَبُوا غَدَرًا وَكُفْرًا
أَرَى اللَّهَ النَّبَى بَرَأَى صَدِيقٍ
فَأَيَّدَهُ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ
فَعُودِرَ مِنْهُمْو كَعَبٌ صَرِيْعًا
عَلَى الْكَافِّينَ ثُمَّ وَقَدْ عَلَّتْهُ
بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لِيْلًا
فَمَا كَرِهَ فَأَنْزَلَهُ بِمَكْرِ
فَتَلَّكَ بَنُو النَّضِيرِ بَدَارَ سُوءٍ
غَدَاةَ أَتَاهُمُو، فِي الزَّحْفِ رَهْوًا،
وَعَسَّانَ الْحُمَاةُ مُوَازِرُوهُ
فَقَالَ: "السَّلَامُ، وَيَحْكُمُوا!"، فَصَدُّوا
فَذَاقُوا غِبَّ أَمْرَهُمْو وَبَالًا
وَأُجِّلُوا عَامِدِينَ لَقَيْنَقَاعٍ

فَأَجَابَهُ سِهَاقُ الْيَهُودَى قَائِلًا:

أَرَفَقْتُ، وَضَافَنِي هَمٌّ كَبِيرٌ
أَرَى الْأَحْبَارَ تَنْكُرُهُ جَمِيعًا
وَكَانُوا الدَّارِسِينَ لِكُلِّ عِلْمٍ
قَتَلْتُمْ سَيِّدَ الْأَحْبَارِ كَعْبًا
تَدَلَّى نَحْوَ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ
بَلِيلٍ غَيْرُهُ لَيْلٌ قَصِيرٌ
وَكُلُّهُمْو لَهُ عِلْمٌ خَبِيرٌ
بِهِ التَّوْرَةُ تَنْطِقُ وَالزَّبُورُ
وَقَدْ مَا كَانَ يَأْمَنُ مِنْ يُحْيِي
وَمُحَمَّدٌ سِرِّيْنُهُ الْفَجُورُ

فغادره كأن دماً نجيعاً يسيل على مدارعه عبير
 فقد، وأبيكمو وأبى جميعاً، أُصِيبَتْ، إِذْ أُصِيبَ، به النَّصِيرُ
 فَإِنْ نَسَلَمَ لَكُمْ نَتْرَكُ رَجَالاً بكعبٍ حولهم طيرٌ تدورُ
 كأنهمو عتائرُ يومٍ عيدٍ تُدَبِّحُ، وهى ليس لها نكيرُ
 ببيضٍ لا تُليقُ لهن عظمًا صوافى الحدِّ أكثرها ذُكُورُ
 كما لاقيتمو من بأسٍ صخرٍ بأحدٍ حيث ليس لكم نصيرُ

ورَدَّا على ما اتَّهم به من اشتراكه في تشنيعات الإفك الذى رُميت به عائشة رضى الله عنها يقول حسان بن ثابت مدافعا عن نفسه، ونافيا أن يكون قد خَبَّ أو وَضَعَ في تلك الفتنة المنتنة، ومؤكدا أن الصَّدِيقَةَ بنت الصَّدِيق لا يمكن أبدا أن تَعْلَقَ بها الرِّيب لأنها شريفة كريمة من بيت شريف كريم، وأخلاقها سامية سامقة، ولسانها عَف لا يَتَذَهْدَى إلى ما تَتَذَهْدَى إليه ألسنة النساء من لَوَك أعراض الأخريات:

حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَبِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غَرَّتِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ
 عَقِيلَةٌ حَى مِنْ لُؤَى بْنِ غَالِبٍ كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
 مُهَذَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ خِيَمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
 فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُو فَلَا رَفَعْتُ سَوْطِي إِلَى أَنْامِلِي
 فَكَيْفَ، وَوَدَى مَا حَيَّيْتُ وَنُصِرْتِي لَأَلِ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ؟
 لَهُ رَتَبٌ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ تَقَاصَرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
 رَأَيْتُكَ، وَلِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ، حَرَّةً مِنَ الْمُحَصَّنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ الْغَوَائِلِ

وهناك قصيدة بديعة نظمها النابغة الجعدي بعد إسلامه يظهر فيها تأثره بالقرآن

وقصصه تقول:

الحمد لله، لا شريك له
المُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ
الْخَافِضُ الرَّافِعِ السَّمَاءَ عَلَى الْ
الْخَالِقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ فِي الْ
مِنْ نُطْقَةٍ قَدَّهَا مُقَدَّرُهَا
ثُمَّ عِظَامًا أَقَامَهَا عَصَبٌ
ثُمَّ كَسَا الرِّيشَ وَالْعَقَائِقَ أَبْ
وَالصَّوْتِ وَاللَّوْنَ وَالْمَعَاشِ وَالْ
ثُمَّ لَا بُدَّ أَنْ سَيَجْمَعُكُمْ
فَاتَّخِذُوا الْآنَ مَا بَدَأَ لَكُمْ
فِي هَذِهِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَلَا
يَا أَيُّهَا النَّاسُ، هَلْ تَرَوْنَ إِلَى
أَمْسَوْا عَيْدًا يَرْعَوْنَ شَاءَ كُفُّو
مِنْ سَبَا الْحَاضِرِينَ مَا رُبَّ إِذٍ
فَمَزَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَرَفُوا الْ
وَبَدَّلُوا السِّدْرَ وَالْأَرَكَ بِهِ الْحَمْدِ
يَا مَالِكَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَمَنْ
إِنِّي أَمْرٌ قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَإِلَّا
أُطْرِحُ بِالْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْ

مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمًا
وَفِي اللَّيْلِ نَهَارًا يَفْرُجُ الظُّلُمَا
أَرْضٍ، وَلَمْ يَبْنِ تَحْتَهَا دَعَا
أَرْحَامِ مَاءٍ حَتَّى يَصِيرَ دَمَا
يَخْلُقُ مِنْهَا الْأَبْشَارَ وَالنَّسَا
ثُمَّتَ لَحْمًا كَسَاهُ فَالْتَأَمَا
شَارًا وَجِلْدًا تَخَالُهُ أَدَمَا
أَخْلَقَ شَتَّى، وَفَرَّقَ الْكَلِمَا
وَاللَّهُ جَهْرًا شَهَادَةً قَسَمَا
وَاعْتَصِمُوا إِنْ وَجَدْتُمْو عِصْمَا
عِصْمَةً مِنْهُ إِلَّا لِمَنْ رَحِمَا
فَارِسَ بَادَتْ، وَخَذُّهَا رَغِمَا؟
كَأَنَّمَا كَانَ مُلْكُهُمْ حُلْمَا
يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرِمَا
هُونَ وَذَاقُوا الْبَاسَاءَ وَالْعَدَمَا
طَ، وَأَضْحَى الْبُنْيَانُ مِنْهُدِمَا
يَفْرَقُ مِنَ اللَّهِ لَا يَخْفُ أَثْمَا
تَعَفُّ عَنِّي أَعْلَى دَمًا كَثِمَا
أَسْفَلَ، يَا رَبِّ، أَصْطَلَى الضَّرْمَا

وعقب موت الرسول ثارت فتنة الردة، وانطلق الشعراء يقولون في أحداثها ما عندهم من شعر. ومن عجائب الأمور أن نرى الحارث بن هشام، الذى أثنى عليه كعب بن الأشرف اليهودى لتفانيه فى محاربة الإسلام، ينصر رأى أبى بكر على رأى عُمَرُ فى محاربة المرتدين وعدم التساهل معهم ولو فى عقاب كانوا يؤدونه لرسول الله عليه السلام، ويؤكد أنه هو التوفيق بعينه:

عُمَرُ رَأَى، وَاللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ،	رَأْيَا، فَخَالَفَ رَأْيَهُ الصَّدِيقُ
إِذْ قَالَ: "غَمَضُ فِي الْهَدَى إِغْمَاضَةً	وَأَرْفُقُ، فَإِنَّكَ فِي الْأُمُورِ رَفِيقُ
وَتَجَافَ عَنْ أُمُورِهِمْ"، فَأَبَى لَهُ،	إِلَّا قَتَالَ عَدُوَّهُ، التَّوْفِيقُ
إِنَّ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ نَفُوسُنَا	فِي الْحَادِثَاتِ مِنَ الْحُرُوبِ تَتَوَقُّ
قَوْلُ الْخَلِيفَةِ: "قَاتِلُوا أَعْدَاءَكُمْ	إِنَّ الدِّينَ رَدَّةُ التَّغْوِيْقِ
وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُوا عِقَالًا وَاحِدًا	أَوْ فَاتَ مِمَّا عِنْدَهُ تُفْرُوقُ
لَرَمَيْتُ قَوْمًا بِالْقَبَائِلِ وَالْقَنَا	مَنَعُوا الزَّكَاةَ، وَإِنَّنِي لَمَحُوقُ
بِقَتَالِهِمْ فِي قَلَّةٍ أَوْ كَثَرَةٍ	مَا دَامَ لِلْسَّهْمِ الْمُرِيشُ فُوقُ
أَعْظَمُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا نِعْمَةً	فِيهَا لِحَرْبٍ عَدُونًا مَسْبُوقُ!

ومن سعر فتنة الردة مالك بن نويرة، الذى حض قومه على عصيان السلطة والامتناع عن دفع الزكاة ما دامت السلطة ضعيفة، أما إذا خرجت من الردة منتصرة فلا بأس بأن يدخلوا فى الطاعة مع الداخلين:

وقال رجال: سُدِّدَ الْيَوْمَ مَالُكَ	وقال رجال: مَالُكَ لَمْ يَسُدِّدِ
فَقُلْتُ: دَعُونِي. لَا أَبَا لِأَبِيكُمْو!	فَلَمْ أَحْظَ رَأْيَا فِي الْمَقَامِ وَلَا النَّدَى
فَدُونَكُمْوَهَا. إِنَّمَا هِيَ مَالِكُمْ	مَصْرَرَةً أَخْلَافَهَا لَمْ تَجِدِّدِ

وَقُلْتُ: "خذوا أموالكم" غير خائفٍ ولا ناظر فيما يجيء به غدى
 سأجعلُ نفسي دون ما تحذرونه وأرهنكم يوماً، بما قُلتُهُ، يدى
 فإن قامَ بالأمرِ المجددِ قائمٌ أظننا وقلنا: الدينُ دينُ محمدٍ
 وإلا فلنسنا فقعةً بتؤوفَةٍ ولا شحمَ شاءٍ أو طباءً بفدْفِدٍ

أما أهل عمان فظلوا على طاعتهم وإخلاصهم للدولة والدين لم ينقلبوا مع المرتدين،
 وكان عمرو بن العاص وقتذاك والياً عليهم، فاستدعاه أبو بكر كى يجهزه لقتال المرتدين،
 فخرج مع عمرو جماعة منهم يحرسونه حتى بلغ المدينة سالماً، فقال أحد شعرائهم، وهو قتادة
 بن النعمان:

وَفِينَا لَعَمْرُو يَوْمَ عَمْرٍو كَأَنَّهُ رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ بِحَقِّهِ
 طَرِيدٌ نَفْتُهُ مَذْحِجٌ وَالسَّكَاكُ عَلَيْنَا! وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الْحَقَّ هَالِكٌ
 رَدَدْنَاهُ لَمْ يَشْتَمِ لُؤَى بْنُ غَالِبٍ بِهِ الْآنَ إِذْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ
 تَضَمَّنَهُ مَنَا عِبَادٌ وَجَيْفَرٌ وَظَالِمُ الْمُودَى إِلَيْهِ الصَّعَالِكُ
 فَأَصْبَحَ عَمْرُو بِالْمَدِينَةِ سَالِمًا يَقْهَقُهُ مَرْجِيَا عَلَيْهِ الْأَرَامِكُ
 وَنَحْنُ أَنْاسُ يَأْمَنُ الْجَارُ وَسَطْنَا إِذَا كَانَ يَوْمٌ كَاسِفُ الشَّمْسِ حَالِكُ
 بِذَلِكَ أَوْصَى نِسْوَةُ الْخَيْرِ قَوْمَهُ وَعِمْرَانُ وَالْحَامِي الْحَقِيقَةُ مَالِكُ

وبعيدا عن الردة وفتنها نجد للشماخ بن ضرار الهذلي أبياتا عجيبة يصور فيها غضب
 عروسه منه أول مقدمها إلى بيته ثم رجوعها إلى أهلها، وحلفه لهم أنه لم يظلمها فى شىء:

أَلَا أَصَبَحْتُ عَرِيسَى مِنْ الْيَمِّ عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ: أَى أَمْرٍ بَدَا لَهَا؟
 ج_____اِحْمَا
 عَلَى خَيْرَةٍ كَانَتْ أَمِ الْعَرُسُ جَامِحٌ؟ وَكَيْفَ، وَقَدْ سُقْنَا إِلَى الْحَى مَا لَهَا؟

وَلَمْ تَذَرِ مَا خُلِقِي فَتَعَلَّمَ أَنْنِي لَدَى مُسْتَقَرِّ الْيَتِ أَنْعِمُ بِهَا
 سَتَرَجِعُ نَدْمِي خَسَّةَ الْحِطِّ عِنْدَنَا كَمَا صَرَمْتُ مِنَّا بَلِيلٍ وَصَالَهَا
 أَعَدُّو الْقَبِيصَى قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَمْ تَذَرِ مَا خُبِرِي، وَلَمْ أَذَرِ مَا لَهَا؟
 وَكُنْتُ إِذَا زَالَتْ رِحَالُهُ صَاحِبٍ شَتِمْتُ بِهِ حَتَّى لَقِيتُ مِثْلَهَا
 وَجَاءَتْ سُلَيْمٌ قَضَّهَا بِقَضِيضِهَا تَمَسَّحُ حَوْلِي بِالْبَقِيعِ سَبَاهَا
 يَقُولُونَ لِي: "اخْلِفْ"، "فَلَسْتُ بِخَالِفٍ" أَخَادِعُهُمْ عَنْهَا لِكَيْمَا أَنَاهَا
 فَفَرَّجْتُ كَرْبَ النَّفْسِ عَنِّي بِحَلْفَةٍ كَمَا شَقَّتِ الشَّقَرَاءُ عَنْهَا جِلَاهَا
 بِصَاعِقَةٍ لَوْ صَادَفَتْ رَمْلَ عَالِجٍ وَرَمَلَ الْغَنَاءِ يَوْمًا لَهَالَتْ رِمَالَهَا
 فَقَالُوا: "أَعِدْهَا نَسْتَمِعُ كَيْفَ قُلْتَهَا" فَقَالَ كَثِيرٌ: "لَا نُحِلُّ عِلَالَهَا"

ولسحيم عبد بنى الحسحاس، وهو عبد حبشي أو ثوبى الأصل، شعرٌ مفحشٌ منه

الآيات التالية:

وَبِتْنَا وَسَادَانَا إِلَى عَلَجَانَةٍ وَحَقْفٍ تَهَادَاهُ الرِّيحُ تَهَادِيَا
 وَهَبَّتْ شِمَالٌ آخَرَ اللَّيْلِ قُرَّةً وَلَا ثَوْبَ إِلَّا دِرْعُهَا وَرْدَايَا
 فَمَا زَالَ ثَوْبِي طَيِّبًا مِنْ نَسِيمِهَا إِلَى الْحَوْلِ حَتَّى أَهْبَجَ الثَّوْبُ بَالِيَا

ومن شعر أبى ذؤيب الهذلي، صاحب العينية الطويلة المشهورة في التفجع على أولاده

الأربعة، اخترت هذه المقطوعة العجيبة التي تلذع القلب بنارها الهادئة. وهى فى رثاء ابن عم

له قُتِلَ، اسمه نُشَيْبَةُ:

يَقُولُونَ لِي: "لَوْ كَانَ بِالرَّمْلِ لَمْ يَمُتْ نُشَيْبَةُ"، وَالطُّرَاقُ يَكْذِبُ قِيلُهَا
 وَلَوْ أَنَّى اسْتَوْدَعْتُهُ الشَّمْسَ لَارْتَقَتْ إِلَيْهِ الْمَنِيَا عَيْنُهَا وَرَسُوهَا
 وَكُنْتُ كَعَظْمِ الْعَاجِمَاتِ اكْتَنَفْنَهُ بِأَطْرَافِهِ حَتَّى اسْتَدَقَّ نُحُوهَا

عَلَى حِينَ سَاوَاهُ الشَّبَابُ، وَقَارَبَتْ خُطَايَ، وَخِلْتُ الْأَرْضَ وَعَثًّا سُهُولُهَا
 حَدَرْنَاهُ بِالْأَثْوَابِ فِي قَعْرِ هُوَّةٍ شَدِيدٍ عَلَى مَا ضَمَّ فِي اللَّحْدِ جُوهَهَا
 ولدينا أيضا أبو مَحَجْنٍ الثَّقَفِيُّ، الذي أسلم في آخر حياة الرسول، وكان مغرما بالخمير
 غراما بالغ لا يستطيع أن يقلع عنها، وقد حُدَّ فيها على عهد عمر مرارا:

أَلَا سَقْنِي يَا صَاحِبَ خَمْرًا، فَإِنِّي بِمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ فِي الْخَمْرِ عَالَمٌ
 وَجُدْ لِي بِهَا صِرْفًا لَأَزْدَادَ مَائِثًا فَفِي شُرْبِهَا صِرْفًا تَتِمُّ الْمَائِثُ
 هِيَ النَّارُ، إِلَّا أَتْنِي نَلْتُ لَذَّةٍ وَقَضَيْتُ أَوْطَارِي، وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ
 لكنْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فاستطاع أن يتوقف عن شربها تماما رغم إغراء رفقائه القدامى أن
 يعاود شربها معهم، وقال في ذلك شعرا جميلا منه الأبيات التالية:

أَلَمْ تَرْنِي وَدَّعْتُ مَا كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْ الْخَمْرِ، إِذْ رَأَيْتُ، لَكَ الْخَيْرُ، أَشَيْبُ؟
 وَكُنْتُ أُرَوِّي هَامَتِي مِنْ عُقَارِهَا إِذِ الْحَدُّ مَأْخُودٌ، وَإِذَا أَنَا أَضْرَبُ؟
 فَلَمَّا دَرَوْا عَنِّي الْحُدُودَ تَرَكْتُهَا وَأَضْمَرْتُ فِيهَا الْخَيْرَ، وَالْخَيْرُ يَطْلُبُ
 وَقَالَ لِي النَّدْمَانُ لِمَا تَرَكْتُهَا: "أَلَجِدُ هَذَا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ تَلْعَبُ؟"
 وَقَالُوا: "عَجِيبُ تَرُكُكَ الْيَوْمَ قَهْوَةً" كَأَنِّي مَجْنُونٌ، وَجِلْدِي أَجْرُبُ
 سَأَتْرُكُهَا لِلَّهِ ثُمَّ أَذْمُهَا وَأَهْجُرُهَا فِي بَيْتِهَا حَيْثُ تُشْرَبُ

وهذا الوعي بحرمة بنت الحان حتى عند من لا يصبرون عليها هو شيء جديد على
 شعر الخمر لم يكن يعرفه الجاهليون، إذ لم تكن الخمر حراما في الوثنية كما هي في الإسلام، وإن
 نفَرَ بعض الجاهليين من شربها حفاظا على مروءتهم، إذ هو مجرد تَحَرُّجٍ اجتماعيٍّ، وليس تأثما
 دينيا. كما أن قول أبي محجن إنه يعلم إثم شرب الخمر وما ينتظره في شربها يوم القيامة من

فَاعْلَمْ، وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدًا	لَيْسَ الْجَمَالُ بِمُؤَزَّرٍ،
وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثَنَ جُحْدًا	إِنَّ الْجَمَالَ مَعَادِنٌ
بَغَةٌ وَعَدَاءٌ عَلَنَدَى	أَعْدَدْتُ لِلْحَدَثَانِ سَا
ذُ الْبَيْضِ وَالْأَبْدَانِ قَدَا	نَهْدًا وَذَا شُطْبٍ يُقْدُ
لَكَ مُنَازِلُ كَعْبَا وَمَهْدَا	وَعَلِمْتُ أَنَّي يَوْمَ ذَا
دَتَنَّمَرُوا حَلَقًا وَقَدَا	قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا الْحَدِيدَ
يَوْمِ الْهِيَاجِ بِمَا اسْتَعَدَّا	كُلُّ أَمْرٍ يَجْرِي إِلَى
يَفْحَضْنَ بِالْمُعْزَاءِ شَدَا	لَمْ أَرَأَيْتُ نِسَاءَنَا
قَمَرُ السَّمَاءِ إِذَا تَبَدَّى	وَبَدَتْ لَمِيسُ كَأَنَّهَا

وَبَدَتْ مَحَاسِنُهَا التِي تَخْفَى، وَكَانَ الْأَمْرُ جَدًّا
 نَازَلْتُ كَبَشَهُمْ، وَلَمْ أَرِ مِنْ نِزَالِ الْكَبْشِ بُدًّا
 هُمْ يَنْذِرُونَ دَمِي، وَأَنْذِرُ إِنْ لَقِيتُ بَأْنَ أَشَدًّا
 كَمْ مِنْ أَخٍ لِي صَالِحٍ بَوَّأْتُهُ بِيَدَيِ لَحْدًا
 مَا إِنْ جَزَعْتُ وَلَا هَلَعْتُ وَلَا يَرُدُّ بَكَايَ زَنْدًا
 أَلْبَسْتُهُ أَثْوَابَهُ وَخُلِقْتُ، يَوْمَ خُلِقْتُ، جَلْدًا
 أَغْنَى غَنَاءَ الذَّاهِيَةِ نَ، أَعَدُّ لِلْأَعْدَاءِ عَدًّا
 ذَهَبَ الَّذِينَ أَحَبَّهُمْ وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدًا

وحين مات عثمان بن عفان رثاه الراثون، ومنهم كعب بن مالك، الذي نختار له
 الأبيات التالية في رثاء الصحابي الجليل، وقد سبق أبا نواس في الإنكار على من يبكى على
 الأطلال والدَّمن كما هو واضح في البيت الأول:

يَا لَلرَّجَالِ لِأَمْرِ هَاجَ لِي حَزْنًا لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى الدَّمَنِ!
 إِنِّي رَأَيْتُ قَتِيلَ اللَّهِ مُضْطَهَدًا عَثْمَانُ يَهْدَى إِلَى الْأَجْدَاثِ فِي كَفَنِ
 يَا قَاتَلَ اللَّهُ قَوْمًا كَانَ أَمْرُهُمْ قَتَلَ الْإِمَامَ الزَّكِيَّ الطَّيِّبَ الرُّدْنَ
 لَمْ يَقْتُلُوهُ عَلَى ذَنْبٍ أَلَمَّ بِهِ إِلَّا الَّذِي نَطَقُوا زُورًا، وَلَمْ يَكُنْ

ولأم الهيثم بنت العريان النخعية قصيدة حزينة في مقتل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه،
 وإن كانت بعض أبياتها تنسب أيضا لأبي الأسود الدؤلي. وهذا نصها:

أَلَا يَا عَيْنُ، وَيْحَكَ، أَسْعِدِينَا أَلَا تَبْكِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟
 تُبَكِّي أُمَّ كُلْثُومٍ عَلَيْهِ بَعَبَرْتَهَا، وَقَدْ رَأَتْ الْيَقِينَ
 أَلَا قَلَّ لِلْخَوَارِجِ حَيْثُ كَانُوا فَلَا قَرَّتْ عَيُونَ الشَّامِتِينَ:

أفى شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طُرًّا أجمعينا؟
 قتلتم خير مَنْ رَكِبَ المطايا وذَلَّلَهَا وَمَنْ ركب السفينا
 وَمَنْ لَبِسَ النَّعَالَ وَمِنْ حذاها ومن قرأ المثنانى والمئينا
 فكل مناقب الخيرات فيه وحبُّ رسول رب العالمينا
 لقد علمت قريشٌ حيث كانت بأنك خيرُها حسبًا ودينًا
 إذا استقبلت وجهَ أبى حسينٍ رأيتَ البدر فوق الناظرينا
 وكنا قبل مقتله بخيرٍ نرى مولى رسول الله فينا
 يقيم الحق لا يرتاب فيه ويعدل فى العِدا والأقربينا
 وليس بكاتمٍ علمًا لديه ولم يَخْلُقْ من المتجبرينا
 كأن الناس إذ فقدوا عليا نعامٌ حارٌّ فى بلدِ سنينا
 فلا تشمت معاويةُ بن صخرٍ فإن بقيَّةَ الخلفاء فينا

أما الخطيئة فإنى مورد له الأبيات التالية من قصيدة فى هجاء الزبرقان بن بدر، الذى لم تحسن زوجته فى غيابه استقبال الشاعر وأسرته، فتحول عنهم إلى قريبهم بغيض، فأكرمه، فمدحه وقرع الزبرقان قائلاً إنه كان بمستطاعه، لو كانت زوجته قامت بالواجب نحوه، أن يحظى هو بهذا المديح، لكن الفرصة قد ضاعت عليه:

والله ما معشرٌ لامرأً جنبًا فى آلِ لأى بنِ شماسٍ بأكياسِ
 ما كان ذنبٌ بغيضٍ، لا أبا لكمو، فى بائسٍ جاء يخذو آخرَ الناسِ؟
 لقد مريتكمو لو أن درتكم يومًا يحىءُ بها مسحى وإيساسى
 وقد مدحتكمو عمدًا لأرشدكم كيما يكون لكم متحى وإمراسى
 وقد نظرتكمو إغشاء صادرةً للخمسِ طال بها حبسى

وَتَنُتْنُ سَاسِي

فَمَا مَلَكَتْ بِأَنْ كَانَتْ نُفُوسُكُمْ
لَمَّا بَدَا لِي مِنْكُمْ غَيْبُ أَنْفُسِكُمْ
أَزْمَعْتُ يَأْسًا مُبِينًا مِنْ نَوَالِكُمْ
أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا عِلْمًا وَتَجَرِبَةً
مَا كَانَ ذَنْبُ بَغِيضٍ أَنْ رَأَى رَجُلًا
جَارًا لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنْزِلِهِ
مَلُّوا قِرَاهُ، وَهَرَّتْهُ كِلَاهُمُ
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا
كَفَارِكُ كَرِهَتْ ثَوْبِي وَإِلْبَاسِي
وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي مِنْكُمْوَ آسِي
وَلَنْ تَرَى طَارِدًا لِلْحَرِّ كَالْيَاسِ
فَسَلْ بِسَعْدِ تَجِدْنِي أَعْلَمَ النَّاسِ
ذَا فَاقَةَ عَاشٍ فِي مُسْتَوْعِرٍ شَاسٍ؟
وَعَادَرُوهُ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْوَاسِ
وَجَرَّ حَوَهُ بِأَنْيَابٍ وَأَصْرَاسِ
وَاقْعُدْ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

ونأتى إلى العصر الأموى، وشعراء ذلك العصر كثيرون كثرة هائلة. ومن أسماء المعروفين منهم البعيث وعدي بن الرقاع والطرماح وعمران بن حطان وابن قيس الرقيات والكميت وكثير والأحوص والعرجي وعمر بن أبي ربيعة والقطامي وقيس بن الملوّح وقيس بن ذريح وجميل بثينة وهذبة بن الخشرم والنابعة الشيباني والعجاج ورؤبة وذو الرمة وأبو الأسود الدؤلي وسابق البربري، إلى جانب الثالث المشهور: جرير والفرزدق والأخطل. وقد جاءت شهرة هؤلاء الثلاثة من المدائح التي دبحوها في حكام ذلك العصر ومن النقائص التي كانوا يتبادلونها ويفاخر كل منهم فيها الآخر ويحقر من شأنه وشأن قبيلته ويعمل على إضحاك الناس منه، فضلا عن متانة شعرهم وفحولة صياغته وقعقعته بوجه عام. بيد أن شعر المديح لا يروق لي كثيرا، وبخاصة إذا ما اتخذ الشعراء مهنة، فهم يمدحون فلانا أو علانا أو ترتانا عمالا على بطلان، مستخدمين أسلوبا تقليديا في الألفاظ والعبارات والتراكيب والصور فلا يقبسون ما يقولونه من ذوب الفؤاد، بل يجعلون كل همهم ما يكسبونه من وراء المديح من أموال طائلة تأتيهم عفوا صفوا دون أن يتعبوا

جراؤها أو يتكلفوا لها شيئاً سوى إراقة ماء الوجه. صحيح أن شعرهم يتسم بالفحولة والقعقعة، إلا أنه لا يخاطب القلب مثلما لم يخرج من القلب عن إخلاص إلا للدينار والدرهم. كما أن شعر المديح عند هؤلاء الثلاثة يتسم بكثرة ما فيه من حُوشى الألفاظ والتعابير، مما يحوجنا إلى مشاورة المعاجم بحثاً عن معانيها. ونأخذ مثلاً على ذلك من شعر الفرزدق، الذى لُقّب بهذا الاسم لجهامة وجهه وغلظه بحيث كان يشبه الفرزدقة، أى رغيف الخبز، قوله يمدح سليمان بن عبد الملك حين أجاز يزيد بن المهلب بن أبى صفرة، أحد ولادة الأمويين وقادتهم، من الحجاج عند هربه من السجن الذى كان الحجاج قد حبسه فيه خشية من طموحه. وكان يزيد أحد قواد الدولة الأموية وولاتها المشهورين، وإن عاد فى أخريات حياته فشغب عليها، وانتهى الأمر بمقتله:

لَعَمْرَى لَقَدْ أَوْفَى وَزَادَ وَفَاؤُهُ	عَلَى كُلِّ جَارٍ جَارُ آلِ الْمُهَلَّبِ
أَمَرَهُمْ حَبْلًا فَلَمَّا ارْتَقَوْا بِهِ	أَتَى دُونَهُ مِنْهُمْ بِدَرٍّ وَمَنْكَبِ
وَقَالَ لَهُمْ: "حُلُّوا الرِّحَالَ، فَإِنَّكُمْ	هَرَبْتُمْ"، فَأَلْقَوْهَا إِلَى خَيْرِ مَهْرَبِ
أَتَوْهُ، وَلَمْ يَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، وَمَا أَلَوْا	عَنِ الْأَمْنَعِ الْأَوْفَى الْجَوَارِ الْمُهَذَّبِ
فَكَانَ كَمَا ظَنُّوا بِهِ وَالَّذَى رَجَوْا	هُمْ حِينَ أَلْقَوْا عَنْ حَرَا جِيجِ لُغَبِ
إِلَى خَيْرِ بَيْتٍ فِيهِ أَوْفَى مُجَاوِرِ	جَوَارًا إِلَى أَطْنَابِهِ خَيْرُ مَذْهَبِ
خَبْنَنَ بِهِمْ شَهْرًا إِلَيْهِ، وَدُونَهُ	هُمْ رَصْدٌ يَخْشَى عَلَى كُلِّ مَرْقَبِ
مُعَرَّقَةَ الْأَحْيَى كَأَنَّ خَبِيئَهَا	خَبِيبُ نَعَامَاتٍ رَوَايَحِ خُضْبِ
لَقَدْ رَقَاتِ مِنْهَا الْعُيُونُ وَنَوَّمَتْ	وَكَاثَتْ بَلِيلِ النَّائِحِ الْمُتَحَوِّبِ
وَلَوْ لَا سُلَيْمَانُ الْخَلِيفَةُ حَلَقَتْ	بِهِمْ مِنْ يَدِ الْحَجَّاجِ أَظْفَارُ مُغْرَبِ
كَأَنَّهُمْ عِنْدَ ابْنِ مَرْوَانَ أَصْبَحُوا	عَلَى رَأْسِ غَيْنَا مِنْ ثَبِيرٍ وَكَبْكَبِ
أَبَى، وَهُوَ مَوْلَى الْعَهْدِ، أَنْ يَقْبَلَ التَّى	يَلَامُ بِهَا عَرُضُ الْغَدُورِ الْمُسَبِّبِ

وَفَاءَ أَخِي تِيْمَاءٍ إِذْ هُوَ مُشْرِفٌ يناديه مَغْلُولًا فَتَى غَيْرُ جَانِبِ
أَبُوهُ الَّذِي قَالَ: اقْتُلُوهُ، فَإِنَّنِي سَأَمْنَعُ عِرْضِي أَنْ يَسَبَّ بِهِ أَبِي
فَإِنَّا وَجَدْنَا الْغَدْرَ أَعْظَمَ سُبَّةً وَأَفْضَحَ مِنْ قَتْلِ امْرِئٍ غَيْرِ مُذْنِبِ
فَأَدَّى إِلَى آلِ امْرِئِ الْقَيْسِ بَزَّهُ وَأَذْرَاعَهُ مَعْرُوفَةً لَمْ تُغَيَّبِ

وفي "الشعر والشعراء" لابن قتيبة عن جرير ووفوده على عبد الملك بن مروان: "لما

مدح جرير بن الخطمي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْكُمْو أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحَجَّاجِ
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِظَةً إِذْ لَا يَثِقْنَ بِغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ؟
وقوله:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح فأسمع ذا المعارج، فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكنني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فقال: "أتصحو بل فؤادك غير صاحي؟". قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ: رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي امْتِيحِ
ثَقَى بِاللَّهِ، لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ
سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ إِلَى رِيحِي وَأَثَبْتَ الْقَوَادِمَ فِي جَنَاحِي
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكَبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ؟

ارتاح عبد الملك، وكان متكئا، فاستوى جالسا، ثم قال: مَنْ مَدَحَنَا مِنْكُمْ فليمدحنا بمثل هذا أو ليسكت. ثم قال له: يا جرير، أترى أم حزرة تُروِيها مائة ناقة من نَعَمِ كلب؟ قال: إذا لم تُروِها يا أمير المؤمنين فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نَعَمِ كلب كلها سُودُ الْحَدَقَةِ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق، ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضلٌ عن راحلته، فلو أمرت

بالرّعاء. فأمر له بثمانية من الرّعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده، فقال له جرير: والمحلب يا أمير المؤمنين. وأشار إلى صحيفة منها، فبذها إليه بالقضيب وقال: خذها، لا نفعتك! ففى ذلك يقول جرير:

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثَمَانِيَّةٌ ما في عطائهمو مَنْ ولا سَرْفٌ

وهذا البيت جزء من قصيدة قالها في مديح يزيد بن عبد الملك نختار منها ما يلي:

لَمَّا ارْتَحَلْنَا، وَنَحَوَ الشَّامَ نَيْتُنَا،	قَالَتْ جُعَادَةُ: هَذِي نِيَّةٌ قَذْفُ
كَلَّفْتُ صَحْبِي أَهْوَالًا عَلَى ثِقَةٍ	لِلَّهِ دَرُّهُمْو رَكْبًا، وَمَا كَلِفُوا
سَارُوا إِلَيْكَ مِنَ السَّهْبَى، وَدَوَّهُمْو	فِيحَانُ فَالْحَزَنُ فَالْصَّيْمَانُ فَالْوَكْفُ
يُزْجُونَ نَحْوَكَ أَطْلَاحًا مُخَدَّمَةً	قَدْ مَسَّهَا النَّكْبُ وَالْإِنْقَابُ وَالْعَجْفُ
فِي سَيْرِ شَهْرَيْنِ مَا يَطْوِي ثَمَائِلَهَا	حَتَّى تُشَدَّ إِلَى أَغْرَاضِهَا السُّنْفُ
يَا ابْنَ الْأَرْوَمِ، وَفِي الْأَغْيَاصِ مَنِئْتَهَا	لَا قَادِحُ يَرْتَقِي فِيهَا وَلَا قَصْفُ
إِنِّي لَزَائِرُكُمْ وَدًّا وَتَكْرِمَةً	حَتَّى يَقَارِبَ قَيْدَ الْمَكْبَرِ الرَّسْفُ
أَرْجُو الْفَوَاضِلَ. إِنَّ اللَّهَ فَضَّلَكُمْ	يَا قَبْلَ نَفْسِكَ لَأَقَى نَفْسِي التَّلْفُ
مَا مَنْ جَفَانًا إِذَا حَاجَاتُنَا نَزَلَتْ	كَمَنْ لَنَا عِنْدَهُ التَّكْرِيمُ وَاللَّطْفُ

ويبقى الأخطل، وأسوق عنه من "الأغاني" هذا الخبر على علاته دون أى تعقيب: "دخل الأخطل على بشر بن مروان، وعنده الراعى، فقال له بشر: أنت أشعر أم هذا؟ قال: أنا أشعر منه وأكرم. فقال للراعى: ما تقول؟ قال: أما أشعر منى فعسى، وأما أكرم فإن كان فى أمهاته مَنْ وَلَدَتْ مثل الأمير فنعم. فلما خرج الأخطل قال له رجل: أتقول لخال الأمير: أنا أكرم منك؟ قال: ويلك! إن أبا نسطوس وضع فى رأسى أَكُوْسًا ثلاثًا، فوالله ما أعقل معها. قال: ودخل الأخطل على عبد الملك بن مروان، فاستنشدته، فقال: قد يبس حلقى، فمُر من يسقيني. فقال: اسقوه ماء. فقال:

شراب الحمار، وهو عندنا كثير. قال: فاسقوه لبنًا. قال: عن اللبن فُطِمْتُ. قال: فاسقوه عسلًا. قال: شراب المريض. قال: فتريد ماذا؟ قال: خمرًا يا أمير المؤمنين. قال: أَوْعِدْتَنِي أَسْقَى الخمر لا أُمَّ لَكَ؟ لولا حُرْمَتُكَ بنا لفعلتُ بك وفعلتُ! فخرج فلقي فرّاشا لعبد الملك فقال: ويلك! إن أمير المؤمنين استنشدني، وقد صحل صوتي، فاسقني شربة خمر. فسقاه، فقال: اعدله بآخر. فسقاه آخر. فقال: تركتهما يعتركان في بطني! اسقني ثالثًا. فسقاه ثالثًا، فقال: تركتني أمشي على واحدة. اعدل ميلي برابع. فسقاه رابعًا، فدخل على عبد الملك فأنشده:

خَفَّ القَطِينُ، فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نَوَى في صَرَفِها غَيْرُ
فقال عبد الملك: خذ بيده يا غلام فأخْرِجْهُ، ثم أَلْقِ عليه من الخَلْعِ ما يَغْمُرُهُ، وأَحْسِنْ جائزته. وقال: إن لكل قوم شاعرًا، وإن شاعر بني أمية الأخطل".

والآن هذه طائفة من أبيات القصيدة التي أعجبت عبد الملك والتي تقترب من التسعين

بيتا:

خَفَّ القَطِينُ فَرَا حُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا	وَأَزَعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرَفِها غَيْرُ
كَأَنَّنِي شَارِبُ يَوْمٍ اسْتَبَدَّ بِهِمْ	مِنْ قَرَقَفٍ ضُمَّتَتْهَا حِمَصُ أَوْ جَدَرُ
كَأَنَّنِي ذَاكَ أَوْ ذُو لَوْعَةٍ خَبَلْتُ	أَوْ صَالَهُ أَوْ أَصَابَتْ قَلْبَهُ النُّشْرُ
شَوْقًا إِلَيْهِمْ وَوَجَدًا يَوْمَ اتَّبَعَهُمْ	طَرَفِي، وَمِنْهُمْ بِجَنبِي كَوَكَبِ زُمُرُ
يَا قَاتِلَ اللَّهِ وَضَلَّ الغَايَاتِ إِذَا	أَيَقَنَّ أَنَّكَ مِمَّنْ قَدْ زَهَا الكِبَرُ
أَعْرَضَنَ لَمَّا حَنَى قَوْسِي مُوتَرَهَا	وَأَبْيَضَ بَعْدَ سَوَادِ اللَّمَّةِ الشَّعْرُ
مَا يَرْعَوِينَ إِلَى دَاعٍ لِحَاجَتِهِ	وَلَا هُنَّ إِلَى ذِي شَيْبَةٍ وَطَرُ
وَقَعْنَ أَصْلًا، وَعُجْنَا مِنْ نَجَائِبِنَا	وَقَدْ تُحِينَ مِنْ ذِي حَاجَةٍ سَفَرُ
إِلَى امْرِئٍ لَا تُعَرِّينَا نَوَافِلُهُ	أَظْفَرَهُ اللَّهُ، فَلْيَهْنَأْ لَهُ الظَّفَرُ

الخائضِ الغَمَرِ والميمونِ طائرُهُ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ يَسْتَسْقَى بِهِ المَطَرُ
 وَالهَمُّ بَعْدَ نَجَى النَّفْسِ يَبْعَثُهُ
 بِالْحَرَمِ، وَالْأَصْمَعَانِ: القَلْبُ وَالْحَذَرُ
 وَالمُسْتَمِرُّ بِهِ أَمْرُ الجَمِيعِ، فَمَا
 يَغْتَرُّهُ بَعْدَ تَوْكِيدٍ لَهُ عَرَرُ

أما النقائض فهي، كما نعرف، قصائد على نفس الوزن والقافية يتهاجى بها شاعران، فيعمل كل منهما على النيل من الآخر ويحقره ويهدده وينقض معانيه ويسبه ويقلب كل مكرمة يتفاخر فيها بقييلته مذمة ونقصا. والمشهور أنها بدأت في العصر الأموي بين الفرزدق وجريز والأخطل والبعيث وغيرهم رغم ما سبقها في عصر الرسول من نقائض دارت بين شعراء الإسلام وبين شعراء الشرك ويهود بعد هجرة الرسول من مكة إلى يثرب وقيام الدولة الإسلامية وانفجار الصراع الحربي والسياسي بين معسكر الإيمان ومعسكر الكفر، إذ ما إن ينظم شاعر من أحد المعسكرين قصيدة في الفخر على المعسكر الآخر والنيل منه حتى يهب شاعر من ذلك المعسكر ناقضا ما قاله خصمه في قصيدة من نفس البحر والروي، وإن لم يكن لنقائض عصر الرسول ذلك الدوى الذي كان لنقائض الأمويين، فضلا عن أن هذه النقائض الأخيرة لم تكن تعبيرا عن حرب بين دولتين، بل مجرد تهاج قبلي وشخصي يتغيا تسلية الجماهير في سوق المبرد حيث كان الشعراء المتناقضون يقومون بإنشاد أشعارهم وقد تحلق حولهم المتحلقون يستمتعون بما يشاهدون وما يسمعون، ويشجعون هذا الشاعر أو ذاك.

ولست أرافئ الأستاذ أحمد الشايب على رأيه في أن النقائض الأموية تهذب النفوس أو أنها تمثل أرقى مستوى للشعر في ذلك العصر وأهم فن فيه. ذلك أن النقائض المذكورة، بوجه عام، تشوه الأذواق وتنال من الأخلاق الكريمة وتشعل النعرات الجاهلية وتسير عكس سبيل الإسلام بانتهاجها سبيل التشاتم والتناذب بالألقاب وتمزيق الأعراض ومصادمة القيم الكريمة. أما من الناحية الأدبية فليست أرقى من غيرها من الفنون، ولا يمكن أن تكون، وإن تصدّر صفوفها من

يوصفون بأنهم فحول الشعراء كالفرزدق وجريز والأخطل، إذ الفن فيها قليل، والسبب سيد الموقف، والمعاني والعبارات والتراكيب متقاربة لا جديد فيها ولا إبداع، وإن لم تخلُ بين الحين والحين من معنى دقيق مبتكر أو صورة فنية لافتة كقول الأخطل في قوم جرير:

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كلَّهمو قالوا لأُمَّهمو: بُولى على النارِ
أو قول جرير في الفرزدق:

وإنك لو تعطى الفرزدق درهماً على دينِ نصرانيةٍ لتَنَصَّرا
أو قول جرير في الأخطل:

إِنَّ الْأَخِيطَلَ خِنْزِيرٌ أَطَافَ بِهِ إِحْدَى الدَّوَاهِي الَّتِي تُخْشَى وَتُتَظَرُّ
قَادُوا إِلَيْكُمْ صُدُورَ الْحَيْلِ مُعْلَمَةً تَغْشَى الطَّعَانَ، وَفِي أَعْطَافِهَا زَوْرُ
كَانَتْ وَقَائِعُ قَلْنَا: لَنْ تُرَى أَبَدًا، مِنْ تَغْلِبٍ بَعْدَهَا، عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ
حَتَّى سَمِعْتُ بِخِنْزِيرٍ ضَعَا جَزَعًا مِنْهُمْ فَقُلْتُ: أَرَى الْأَمْوَاتَ قَدْ نُشِرُوا
أَحْيَاؤُهُمْ شَرُّ أَحْيَاءٍ وَالْأَمْهُمُ وَالْأَرْضُ تَلْفِظُ مَوْتَاهُمْ إِذَا قُبِرُوا

والتغلبى إذا تُنَبَّحَ لِلْقَرَى حَكَ اسْتَهْ وَتَمَثَّلَ الْأَمْثَالَا

ثم ماذا تساوى النقائض أمام أشعار قيس وجميل وكثير الأسيانة اليائسة في حباثتهن أو أشعار عمر بن أبى ربيعة المعجبانة في صواحيبه أو أشعار ذى الرمة في تصوير اللوحات الصحراوية أو أشعار الفرق السياسية التي ترينا مسيرة الأمة التاريخية واصطراع الآراء والمواقف التي تصنع الحاضر والمستقبل؟

ومن شعراء الفرق السياسية نأخذ عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر الزيريين. وقد سُمِّيَ بهذا اللقب لأنه، فيما يقال، تغزل في عدة نساء اسم كل منهن رقية. ومن شعره في إحدى الرقيات:

رُقِيَ، بَعْمَرِكُمْ لَا تَهْجُرِينَا وَمَنِينَا الْمُنَى ثُمَّ امْطَلِينَا
 عِدِينَا فِي غَدٍ مَا شِئْتَ. إِنَّا نُحِبُّ، وَلَوْ مَطَلْتَ، الْوَاعِدِينَا
 فَإِمَّا تُنْجِزِي عِدَّتِي وَإِمَّا نَعِيشُ بِمَا نُوَمِّلُ مِنْكَ حِينَا
 تَقِنَنَّ اللَّهُ فِي، رُقِيَ، وَاخْشَى عُقُوبَةَ أَمْرِنَا. لَا تَقْتُلِينَا
 بَعِيشِكَ، وَارْفُقِي بِي أُمَّ عَمْرٍو وَيَوْمَ رِجَالُ أَهْلِكَ يَنْذَرُونَا
 دَمِي ثُمَّ انْدَخَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى تَخْطِئْتُ النَّيَّامَ الْحَارِسِينَا
 فَبِتُّ تَكْسُهُمْ قَدَمِي وَثَوْبِي وَوَدُّوا مِنْ دَمِي لَوْ يَشْرَبُونَا
 وَيَوْمَ تَبِغْتُكُمْ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي، عَجِيجَ الْعَوْدِ يَتَّبِعُ الْقَرِينَا

وقال يمدح مصعب بن الزبير، ويهاجم الأمويين وأشياعهم من اليمانية ويتوعدهم ويندد بشغبهم على الزبيريين بما أدى إليه من انقسام العرب والمسلمين ما بين شام وحجاز، ويرد على الخوارج، الذين يريدون أن تكون الخلافة في العرب عامة لا في قريش خاصة، مؤكداً أنها لا تصلح إلا أن تكون بيد قريش وحدهم في الحجاز. يقصد الزبيريين وأشياعهم هناك:

أَفْقَرْتُ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كَدَاءً فَكُدَى فَالْرُّكْنَ فَالْبَطْحَاءُ
 فَمَنَى فَالْجِمَارُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ مُقْفِرَاتُ فَبَلَدَحَ فَحِرَاءُ
 فَالْحِيَامُ الَّتِي بَعْسَفَانِ فَالْجُحُفُ لَفَّةٌ مِنْهُمْ فَالْقَاعُ فَالْأَبْوَاءُ
 مُوَحِّشَاتُ إِلَى تَعَاهِنَ فَالسُّفُفُ يَا قِفَارُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ خَلَاءُ
 قَدِ أَرَاهُمْ، وَفِي الْمَوَاسِمِ، إِذِ يَغْـ دُونَ: حِلْمٌ وَنَائِلٌ وَبَهَاءُ
 وَحِسَانُ مِثْلُ الدُّمَى عَبْشَمِيَا تٌ عَلَيْهِنَّ بَهْجَةٌ وَحِيَاءُ
 لَا يَبْغَنَ الْعِيَابَ فِي مَوْسِمِ النَّا سِ إِذَا طَافَ بِالْعِيَابِ النَّسَاءُ

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالسَّرُّو يُنْظَرُ نَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكَ الظُّبَاءُ
حَبَّذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْـ كِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ يَبِيدُ اللَّهُ عُمْرَهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تُودَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ حَتَّى بَقَاءُ
لَوْ نُقِفِّي وَتَتَرَكُ النَّاسَ كَانُوا غَنَمَ الذُّبِّ غَابَ عَنْهَا الرِّعَاءُ

ومن شعره السياسي الذي يتخذ صورة التغزل بنساء الأمويين بغية الإساءة إلى أعراضهم،
مما سبق إليه كعب بن الأشرف في صدر الإسلام حين استعمل التغزل بنساء المسلمين للنيل منهم،
قوله:

أَلَا هَزَيْتِ بِنَا قُرَيْشٍ — سَيِّئَةٌ يَهْتَزُّ مَوَكِبُهَا
رَأَتْ بِي شَيْبَةً فِي الرِّأ — سِ مِنْى مَا أُغِيْبُهَا
فَقَالَتْ: أَبْنُ قَيْسٍ ذَا؟ وَغَيْرُ الشَّيْبِ يَعْجِبُهَا
رَأْتُنِي قَدْ مَضَى مِنْى وَغَضَّاتٌ صَوَّاحِبُهَا
وَمِثْلِكَ قَدْ لَهَوْتُ بِهَا تَمَامُ الْحُسْنِ أُعْيِبُهَا
لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قَا عِدَّ بِالْبَابِ يُحْجِبُهَا
يِرَانِي هَكَذَا أَمْشِي فَيَوْعِدُهَا وَيَضْرِبُهَا
ظَلَلْتُ عَلَى نَمَارِقِهَا أَفْدِيَهَا وَأَخْلِبُهَا
أَحَدْتُهَا، فَتُؤْمِنُ لِي فَأَصْدُقُهَا وَأَكْذِبُهَا
فَدَعُ هَذَا، وَلَكِنْ حَا جَةً قَدْ كُنْتُ أَطْلُبُهَا
إِلَى أُمِّ الْبَنِينَ مَتَى يَقْرَبُهَا مُقَرَّبُهَا؟

أَتَشْنَى فِي الْمَنَامِ، فَقُلْ — سَتَ هَذَا حِينَ أَعْقَبَهَا
 فَلَمَّا أَنْ فَرَحْتُ بِهَا — وَمَالَ عَلَى أَعْدَبَهَا
 شَرِبْتُ بِرِيقِهَا حَتَّى — نَهَلْتُ وَبِتُ أَشْرِبَهَا
 وَبِتُ ضَجِيعَهَا جَذَلًا — نَ تُعْجِبُنِي وَأَعْجِبَهَا
 وَأَضْحَكُهَا وَأُبْكِيهَا — وَأَلْبِسُهَا وَأَسْلُبُهَا
 أَعَاجِظُهَا، فَتَضْرَعُنِي — فَأَرْضِيهَا وَأَغْضِبُهَا
 فَكَأَنْتَ لَيْلَةٌ فِي النَّو — مَ نَسْمُرُهَا وَنَلْعَبُهَا
 فَأَيْقَظُنَا مُنَادٍ فِي — صَلَاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبُهَا
 فَكَانَ الطَّيْفُ مِنْ جَنْ — نِيَّةٍ لَمْ يَدْرَ مَذْهَبُهَا
 يُوَرِّقُنَا إِذَا نَمْنَا — وَيَبْعُدُ عَنْكَ مَسْرَبُهَا

وبعد موت ابن الزبير قدم ابن قيس الرقيات على عبد الملك بن مروان واستأذنه أن ينشده

مديحه، فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

عاد له من كثرة الطَّربُ — فَعَيْنُهُ بِالدَّمْعِ تَنَسَكُبُ
 كوفيةٌ نازحٌ محلَّتْهَا — لَا أَمَمٌ دَارُهَا وَلَا صَقَبُ
 والله ما إن صَبَتْ إِلَى وَلَا — إِنْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَبَبُ
 إِلَّا الَّذِي أَوْرَثَتْ كَثِيرَةً فِي — قَلْبٍ، وَلِلْحَبِّ سَوْرَةٌ عَجَبُ

حتى قال فيها:

إِنْ الْأَعْرَ الَّذِي أَبَوْهُ أَبُو — عَاصِي عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ
 يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ — عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس، تمدحني بالتاج كأنني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الدِّ
له تجلّت عن وجهه الظلماءُ
مُلكه مُلكٌ عزّةٌ ليس فيه
جبروتٌ منه ولا كبرياءُ؟
ورفض أن يعيطه شيئاً من المال.

وعندنا أيضاً شعراء الشيعة، ومن أشهرهم أبو الأسود الدؤلى وكثير والكميت بن زيد
وسليمان بن قتة وعوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدي وعبيد الله بن الحر والمفضل المطلبى وعبد
الله بن كثير السهمى وحرب بن المنذر بن الجارود. ومن شعر أبى الأسود فى التشيع لعلّى والرد
على من يتقدونه من أجل هذا التشيع:

يَقُولُ الْأَرْدَلُونَ بَنُو قُشَيْرٍ :	طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلِيًّا؟
فَقُلْتُ هُمْ: وَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكِي	مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَقْضَى عَلِيًّا؟
أَحَبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا	وَعَبَّاسًا وَحَمْزَةً وَالْوَصِيَّا
وَجَعْفَرَ. إِنَّ جَعْفَرَ خَيْرٌ سَبْطٍ	شَهِيدًا فِي الْجَنَانِ مُهَاجِرِيَا
وَمَا أَنْسَى الذِّى لَاقَى حُسَيْنٌ،	وَلَا حَسَنٌ بِأَهْوَنِهِمْ عَلِيًّا
بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ	أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْو إِلَيَّا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أَصْبَهُ	وَفِيهِمْ أَسْوَةٌ إِنْ كَانَ غِيَا
فَكَمْ رُشْدًا أَصَبْتُ وَحُزْتُ مَجْدًا	تَقَاصَرَ دُونَهُ هَامُ الثُّرَيَّا
هُمُو أَهْلُ النَّصِيحَةِ مِنْ لَدُنِّي	وَأَهْلُ مَوَدَّتِي مَا دُمْتُ حَيَا
هَوَى أُعْطِيَتْهُ لَمَّا اسْتَدَارَتْ	رَحَى الْإِسْلَامِ لَمْ يَغْدِلْ سَوِيَا
أَحِبُّهُمْو حُبِّ اللَّهِ حَتَّى	أَجِيءَ، إِذَا بُعِثْتُ، عَلَى هَوِيَا
رَأَيْتُ اللَّهَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ	هَدَاهُمْ وَاجْتَبَى مِنْهُمْ نَبِيَا
وَلَمْ يُخْصَصْ بِهَا أَحَدًا سِوَاهُمْ	هَنِيئًا مَا اصْطَفَاهُ هُمْ مَرِيَا

هُمُو آسُوا رَسُولَ اللَّهِ حَتَّى تَرْبَعَ أَمْرُهُ أَمْرًا قَوِيًّا

ويقول أيمن بن خُريم في الهاشميين مما تمنى عبد الملك بن مروان أن يمدحه الشعراء
بمثله بدلا من تشبيهه بالأسد الأبخر والجبل الأوعر وما إلى ذلك حسبما كتب أبو الفرج في
"أغانيه":

نهارُكمو مكابدةً وصومٌ	وليُكمو صلاةً واقترأ
وَلَيْتُمْ بِالْقُرْآنِ وَبِالتَّزَكَّى	فأسرع فيكمو ذاك البلاء
بَكَى نَجْدٌ غَدَاةً غَدٍ عَلَيْكُمْ	ومكةُ والمدينةُ والجِواءُ
وَحَقٌّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارِقُوهَا	عليكم، لا أبالكم، البكاء
أَجْعَلْكُمْ وَأَقْوَامًا سَوَاءً	وبينكمو وبينهم الهِواءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لَأَرْجُلَكُمْ، وَأَنْتُمْ	لأرؤسهم وأعينهم سماءُ؟

ومن شعر كثير عزة في التشيع للهاشميين تلك القصيدة التي قالها يهاجم فيها عبد الله
بن الزبير حين حبس محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) في مكة أيام دولة الزبيريين.
وكان عبد الله قبل ذلك قد عاذ بالبيت الحرام في عهد يزيد بن معاوية، فسخر منه كثير قائلًا:

إن العائد الحقيقي من الظلم هو ابن الحنفية، الذي حبسته في سجنٍ عارمٍ بغيا وعدوانا:

تُخَبِّرُ مَنْ لَا قَيْتَ أَنْكَ عَائِدٌ	بل العائد المحبوس في سجنٍ عارمٍ
وَمَنْ يَلْقَ هَذَا الشَّيْخَ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِيٍّ	من الناس يعلم أنه غير ظالمٍ
سَمِيَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ	وَفَكَاكُ أَغْلَالٍ وَقَاضِي مَغَارِمٍ
أَبَى، فَهُوَ لَا يَشْرَى هُدًى بِضَلَالَةٍ	ولا يتقى في الله لومة لائمٍ
وَنَحْنُ، بِحَمْدِ اللَّهِ، نَتْلُو كِتَابَهُ	حُلُولًا بِهَذَا الْخَيْفِ خَيْفِ الْمَحَارِمِ
بَحِثِ الْحَمَامُ آمَنَاتٌ سَوَاكُنْ	وَتَلْقَى الْعَدُوَّ كَالصَّدِيقِ الْمَسَالِمِ
فَمَا رَوْنَقُ الدُّنْيَا بِيَاقٍ لِأَهْلِهِ	ولا شدةُ البلوى بضربةٍ لِأَهْلِهِ

وكان كثير يحب عزة حبا قويا شديدا. إلا أن د. شوقي ضيف، في كتابه: "العصر الإسلامي"، يصف حبه لعزة بأنه لم يكن نابعا من القلب بل كان يتكلفه، متخذا من بناء قافية تائيته في عزة على حرفين دليلا على هذا التكلف، مع أنه قد حَكَمَ على تلك القصيدة بأنها أروع أشعاره فيها. والحق أن القصيدة رائعة فائقة الروعة سواء في صورها العجيبة أو في لفتاتها الفريدة أو في حرارتها اللافتة أو في تعبيراتها الطريفة، ولا يبدو عليها أى لون من ألوان التكلف. وكيف يتكلف من يحمل في قلبه مثل ذلك الحب اللاعج اللاهب الذى يتمنى صاحبه لو يصيب رجله الشلل وتضيع ناقته كي يبقى قريبا من حبيبته عاجزا عن مغادرة ديارها، مع خشيته في ذات الوقت أن يسبب بقاءه بالقرب منها الملل لها؟ يقول كثير في تائيته البديعة:

خَلِيلِي، هَذَا رَبْعُ عَزَّةَ، فَأَعْقِلَا	قُلُوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ
وَمُسَا تُرَابًا كَانَ قَدْ مَسَّ جِلْدَهَا	وَبَيْتًا وَظَلًّا حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتِ
وَلَا تَيَاسَا أَنْ يَمْحُوَ اللَّهُ عَنْكُمَا	ذُنُوبًا إِذَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتِ
وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْبُكََا	وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتِ
وَمَا أَنْصَفْتُ: أَمَّا النِّسَاءُ فَبَغَضْتُ	إِلَيْنَا وَأَمَّا بِالنِّوَالِ فَضَنَّتِ
وَكَانَتْ لِقَطْعِ الْحَبْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا	كَذَاذِرَةٍ نَذْرًا وَفَتْ فَأَحَلَّتِ
فَقُلْتُ لَهَا: يَا عَزَّ، كُلُّ مُصِيبَةٍ	إِذَا وَطَّئْتُ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ
كَأَنِّي أَنْادِي صَخْرَةً حِينَ	مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمَشَّى بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ
أَعْرَضْتُ	

صَفُوحٌ، فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ	فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتِ
أَبَاحْتُ حِمِّي لَمْ يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا	وَحَلَّتْ تِلَاعًا لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتِ
فَلَيْتَ قُلُوصِي عِنْدَ عَزَّةَ قُيِدَتْ	بِحَبْلِ ضَعِيفٍ غَرَّ مِنْهَا فَضَلَّتِ
وَعُودِي فِي الْحَى الْمُقِيمِينَ رَحْلَهَا	وَكَانَ لَهَا بَاغٍ سِوَايَ فَبَلَّتِ

وَكُنْتُ كَذَى رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ صَاحِبَةٍ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلَعِ لَمَّا تَحَامَلْتُ
أُرِيدُ الثَّوَاءَ عِنْدَهَا، وَأَظُنُّهَا
وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتْ
عَلَى ظُلْعِهَا بَعْدَ الْعِثَارِ اسْتَقَلَّتْ
إِذَا مَا أَطْلُنَا عِنْدَهَا الْمُكْثَ مَلَّتْ

أما الكميت بن زيد الأسدي فشيعة زيدى. وله عدد من القصائد الشديدة الطول، وإن كان
كثير جدا من أشعاره مكونا من بيت واحد. ولأنه كان زيدا نراه لا يتناول على الشيخين رضى
الله عنهما. قال فى التشيع لعل كرم الله وجهه:

أَهْوَى عَلِيَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا
وَلَا أَقُولُ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِ فَدَكَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَأْتِيَانِ بِهِ
إِنَّ الرَّسُولَ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَنَا:
فِي مَوْقِفٍ أَوْقَفَ اللَّهُ النَّبِيَّ بِهِ
هُوَ الْإِمَامُ إِمَامُ الْحَقِّ نَعْرِفُهُ
مَنْ كَانَ يَرْغُمُهُ رُغْمًا فَدَامَ لَهُ
أَرْضَى بِشْتَمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ
بِنْتَ الرَّسُولِ وَلَا مِيرَاثَهُ: كَفَرَا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عُذْرٍ إِذَا اعْتَذَرَا
إِنَّ الْوَلِيَّ عَلَى غَيْرِ مَا هَجَرَا
لَمْ يُعْطِهِ قَبْلَهُ مِنْ خَلْقِهِ بَشَرَا
لَا كَالَّذِينَ اسْتَزَلَّانَا بِمَا اتَّعَمَرَا
حَتَّى يَرَى أَنْفَهُ بِالتُّرْبِ مُنْعَفِرَا

أما قصيدته التالية فقد تحول فيها تحولا شديدا، إذ نظمها فى مدح هشام بن عبد الملك
وابنه مسلمة بعد أن كان هشام قد أهدر دمه لوقوفه مع الهاشميين ضد بنى أمية:

قَفَ بِالْدِيَارِ وَقُوفَ زَائِرٍ
مَاذَا عَلَيْكَ مِنَ الْوَقُوفِ
دَرَجَتْ عَلَيْهِ الْغَادِيَا
يَا مُسْلِمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيِّ
عَلَقْتُ حَبَالِي مِنْ حَبَا
فَالآنَ صَرْتُ إِلَى أَمِيٍّ
وَتَأَنَّ. إِنَّكَ غَيْرُ صَاغِرٍ
فَبِهَامِدِ الطَّلِيلِينَ دَائِرٍ
تُ الرَّائِحَاتِ مِنَ الْأَعَاصِرِ؟
دَلِمَتِي، إِنْ شِئْتَ، نَاشِرٍ
لَكَ ذِمَّةَ الْجَارِ الْمُجَاوِرِ
يَا وَالْأُمُورُ إِلَى الْمَصَايِرِ

والآن كنتُ بهِ المصيّ — بَ كُمُتَدٍ بِالْأَمْسِ حَائِرُ
يا ابنَ العقائل للعقا — ئل والجَحَاجِحَةِ الْأَخَابِرُ
مِنْ عَبدِ شَمْسٍ وَالْأَكَا — بِرٍ مِنْ أَمِيَّةٍ فَالْأَكَابِرُ
إِنْ الْخِلَافَةِ وَالْإِلَا — فَ بَرِغَمِ ذِي حَسَدٍ وَوَاغِرُ

وكان للخوارج هم أيضا شعراؤهم، وهم كثيرون يعدون بالعشرات، ومنهم عمرو بن الحصين العنبري ومرداس بن أدية وسميرة بن الجعد وأم الجراح العدوية وأم حكيم والبهلول بن بشر الشيباني وحبيب بن خدره الهلالي وحسان بن جعدة والرهين بن سهم المرادي وزيد بن جندب الأزرقى وعمران بن حطان السدوسى وعمرة أم عمران بن الحارث وفروة بن نوفل الأشجعى وقطرى بن الفجاءة المازنى وكعب بن عميرة ومحارب بن دثار ومسلم بن جبير والمصك الطائي والمنهال الشيباني البصرى ونافع بن الأزرق ونجدة بن عامر الحنفى ويزيد بن حبناء. وتتميز أشعارهم عموما بالقلة وقصر النفس معا، وجميعها تقريبا فى مدح الزهد والعفاف والتقوى والتغنى بالجهاد فى سبيل الله، ونادرا ما تكون غزلا، وغزلهم على قلته يدور فى عمومهم على التغنى بتقوى الحبيبة وحرصها على المشاركة فى القتال وتحمسها لمبادئ الخروج وما إلى ذلك بسبيل. وهو شعر بسيط لا تعقيد فيه ولا حرص على الغريب أو الفخامة أو الفحولة.

يقول فروة بن نوفل الأشجعى مخطئا عليا لقبوله التحكيم بينه وبين معاوية مع أن الخوارج هم الذين اضطروه اضطرارا إلى قبوله قبل أن يعودوا فيطلبوا منه أن يتراجع عنه بعدما تم الاتفاق بين الطرفين عليه:

كَرِهْنَا أَنْ نُرِيقَ دَمًا حَلَالًا — وَهِيَهَاتَ الْحَرَامِ مِنَ الْحَلَالِ
وَقُلْنَا فِي الْآتَى (كَانَتْ) بِقَوْلٍ: — مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ قِيلٍ وَقَالَ
نُقَاتِلُ مَنْ يِقَاتِلُنَا وَنَرْضَى — بِحُكْمِ اللَّهِ لَا حُكْمِ الرِّجَالِ

وَفَارَقْنَا أَبَا حَسَنِ عَلِيًّا فَمَا مِنْ رَجْعَةٍ أُخْرَى إِلَيَّ
فَحَكَّكُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَمْرًا وَذَلِكَ الْأَشْعَرِي أَخَا الضَّلَالِ

وقالت أم الجراح العدوية الخارجية ترثي اثنين من رجال الخوارج وتهدد بالثأر لهما:

وَمَا بَعْدَ مِرْدَاسٍ وَعُرْوَةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ شَيْءٌ سِوَى عِطْرِ مَنْشَمٍ
فَلَسْتُ بِنَاجٍ مِنْ يَدِ اللَّهِ بَعْدَمَا هَرَقْتَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ بِلَا دَمٍ

وقالت عمرة ترثي ابنها عمران بن الحارث بن وهب الراسبي بعد مقتله يوم دولاب مع

نافع بن الأزرق:

اللَّهُ أَيَّدَ عِمْرَانًا وَطَهَّرَهُ وَكَانَ عِمْرَانٌ يَدْعُو اللَّهَ فِي السَّحَرِ
يَدْعُوهُ سِرًّا وَإِعْلَانًا لِيَرْزُقَهُ شَهَادَةً بِيَدَيِّ مِلْحَادَةٍ غُدَرِ
وَلَّى صَحَابَتُهُ عَنْ حَرٍّ مَلْحَمَةٍ وَشَدَّ عِمْرَانٌ كَالضَّرْغَامَةِ الْهَصِرِ
أَعْنَى ابْنِ عَمْرَةَ إِذْ لَاقَى مَنِيَّتَهُ يَوْمَ ابْنِ بَابٍ يَحَامِي عَوْرَةَ الدُّبْرِ

ولسميرة بن الجعد قصيدة يتحدى فيها الحجاج معلنا تمسكه بمذهب الخوارج، الذي

يسميه: ديننا، دون غيره من المذاهب:

فَمَنْ مُبْلِغُ الْحَجَّاجِ أَنَّ سَمِيرَةَ قَلَى كُلِّ دِينٍ غَيْرِ دِينِ الْخَوَارِجِ؟
رَأَى النَّاسَ، إِلَّا مَنْ رَأَى مِثْلَ رَأْيِهِ، مَلَاعِينَ تَرَاكِينَ قَصْدَ الْمَنَاهِجِ
فَأَيُّ امْرِئٍ أَى امْرِئٍ يَا ابْنَ يَوْسُفَ ظَفِرْتَ بِهِ لَمْ يَأْتِ غَيْرَ الْوَلَائِجِ
إِذَنْ لَرَأَيْتَ الْحَقَّ مِنْهُ مُخَالَفًا لِدِينِكَ أَنْ كُنْتَ امْرَأً غَيْرَ فَالِجِ
يَسْأَلُنِي الْحَجَّاجُ عَنْ أَمْرِ دِينِهِ وَلَيْسَ هَوَاهُ لِلصَّوَابِ بِوَاشِجِ
فَأُضِلُّ بِهِ مِنْ وَاشِجٍ خَلَجَتْ بِهِ عَنِ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ إِحْدَى الْخَوَالِجِ
وَهَيْهَاتَ فَلَجٌ وَالْمُقِيمُ بِنَهْرِهَا إِذَا قَسَتْهَا فِي الْبُعْدِ مِنْ رَمْلِ عَالِجِ

وقالت أم حكيم الخارجية، وكانت أجمل نساء زمانها ومن أشجع الناس وأحسنهم
بديهة، حين خطبها جماعة من أشرف الخوارج، فردتهم:

أَلَا إِنَّ وَجْهًا حَسَنَ اللَّهِ خَلَقَهُ لَأَجْدُرُ أَنْ يَلْفَى بِهِ الْحَسَنُ جَامِعًا
وَأُكْرِمَ هَذَا الْجِرْمَ عَنْ أَنْ يَنَالَهُ تَوَرُّكَ فَحُلِّ هُمُّهُ أَنْ يَجَامِعَا

وكانت مع قطري بن الفجاءة في عسكر الأباضية، فكانت ترتجز في تلك الحروب
وتقول:

أَحْمَلُ رَأْسًا قَدْ سَمْتُ حَمَلَهُ وَقَدْ مَلِلْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ؟

ومن شعر مرداس بن أدية الخارجي نختار تلك الأبيات التي ينتقد فيها الفساد الإداري
في الدولة الأموية:

إِلَهِي، هَبْ لِي زُلْفَةً وَوَسِيلَةً إِلَيْكَ، فَإِنِّي قَدْ سَمْتُ مِنَ الدَّهْرِ
وَقَدْ أَظْهَرَ الْجَوْرَ الْوُلَاةُ وَأَجْمَعُوا عَلَى ظُلْمِ أَهْلِ الْحَقِّ بِالْغَدْرِ وَالْكَفْرِ
وَفِيكَ، إِلَهِي إِنْ أَرَدْتَ، مُغَيِّرُ لِكُلِّ الذِي يَأْتِي إِلَيْنَا بَنُو صَخْرٍ
فَقَدْ ضَيَّقُوا الدُّنْيَا عَلَيْنَا بِرُحْبِهَا وَقَدْ تَرَكُونَا لَا نَقْرُ مِنْ الدُّعْرِ
فِيَا رَبِّ، لَا تُسَلِّمْ وَلَا تَكْ لِلرَّدَى وَأَيِّدْهُمْو، يَا رَبِّ، بِالنَّصْرِ وَالصَّبْرِ
وَيَسِّرْ لَنَا خَيْرًا وَلَا تَحْرِمْنَا لِقَاءَ ذَوِي الْإِلْحَادِ فِي عَدَدِ دَثْرِ
فَلَسْنَا، إِذَا جَمَّتْ جُمُوعُ عَدُونَا وَجَاؤُوا إِلَيْنَا مِثْلَ طَائِمَةِ الْبَحْرِ
نَكْفُ إِذَا جَاشَتْ إِلَيْنَا بُحُورُهُمْ وَلَا بِمَهَائِبِ نَحِيدُ عَنِ الْبُتْرِ
وَلَكِنَّا نَلْقَى الْقَنَا بِنُحُورِنَا وَبِالْهَامِ نَلْقَى كُلَّ أَيْضِ ذِي أَثْرِ
إِذَا جَشَّتْ نَفْسُ الْجَبَانِ وَهَلَلَتْ صَبْرَنَا وَلَوْ كَانَ الْقِيَامُ عَلَى الْجَمْرِ

وللطرِّمَّاح اخترنا الأبيات التالية التى خصصها لوصف حيوانه مكثرا من الغريب الحُوشَى الذى يستعمله عادةً وُصِّاف الإبل والخيول. وقد أخذ بعض النقاد القدماء على الشاعر استعماله لهذه الألفاظ والعبارات لأنه لم يكن يضعها مواضعها المناسبة نظرا إلى أنه ليس من أهل البادية، بل يستعيرها منهم استعارة ولا تصدر عنه صدورا طبيعيا. والقصيدة التى أخذنا منها الأبيات طويلة على خلاف شعر الخوارج بوجه عام:

قَلَّ فِي شَطِّ نَهْرٍ وَأَنْ غَتَمَاضِي	وَدَعَانِي هَوَى الْعُيُونِ الْمِرَاضِ
فَتَطَرَّبْتُ لِلْهَوَى ثُمَّ أَقْصَرُ	تُ رِضًا بِالتَّقَى، وَذُو الْبِرِّ رَاضِي
وَأَرَانِي الْمَلِيكَ رُشْدِي، وَقَدْ كُنْتُ	سْتُ أَخَا عُنْجُهِيةً وَاعْتِرَاضِ
غَيْرَ مَا رِيبةً سَوَى رِيْقِ الْغُرُ	رَةٍ ثُمَّ ارْعَوَيْتُ عِنْدَ الْبِيَاضِ
لَا تَهْنَأُ ذِكْرِي بُلْهَنِيَّةِ الدَّهْرِ	رِ، وَأَتَى ذِكْرِي السَّنِينَ الْمَوَاضِي؟
فَازْهَبُوا مَا إِلَيْكُمْ. خَفَضَ الْحِلْ	مُ عِنَانِي، وَعُرِّيْتُ أَنْقَاضِي
وَذَهَلْتُ الصَّبَا، وَأَرَشَدَنِي اللَّـ	لَهُ بِدَهْرٍ ذِي مِرَّةٍ وَأَنْتِقَاضِ
وَجَرَى بِالذِي أَخَافُ مِنَ الْبِيْ	نِ لَعِينٍ يَنْوُضُ كُلَّ مَنَاضِ
صَيْدَحِي الصُّحَى كَأَنَّ نَسَاءَهُ	حِينَ يَجْتَثُّ رِجْلَهُ فِي إِبَاضِ
سَوْفَ تُدْنِيكَ مِنْ لَمِيسَ سَبَبَتَا	ةً أَمَارَتْ بِالْبَوْلِ مَاءَ الْكِرَاضِ
أَضْمَرْتُهُ عَشْرِينَ يَوْمًا، وَنِيلْتُ	حِينَ نِيلْتُ يَعَارَةً فِي عِرَاضِ
فَهِيَ قَوْدَاءُ نَفَّجَتْ عَضْدَاهَا	عَنْ رَحَالِيْقٍ صَفْصَفٍ ذِي دَحَاضِ
عَوَسْرَانِيَّةً إِذَا انْتَفَضَ الْخِمُّ	سُ نِطَافَ الْفَطِيطِ أَى انْتِفَاضِ
وَأَوْتُ بِلَّةَ الْكَظُومِ إِلَى الْفَظْ	ظِ، وَجَالَتْ مَعَاقِدُ الْأَرْبَاضِ
مِثْلُ عَيْرِ الْفَلَاةِ شَاخَسَ فَاهُ	طُولُ كَدَمِ الْقَطَا وَطُولُ الْعِضَاضِ

صُنْتُعُ الْحَاجِبِينَ خَرَّطَهُ الْبَقْ — لُ بَدِيَا قَبْلَ اسْتِكَالِ الرِّيَاضِ

وكانت الدولة الأموية تغالى بالعروبة ولا تسمح لأحد من الأعاجم أن ينال من العرب منالا مهما صغر. ورغم هذا كانت هناك بعض الأصوات الشعوية القليلة الخافتة النبرة بوجه عام أشهرها إسماعيل بن يسار. وهو فارسي الأصل من موالى بنى تيم. وكان ظريفا مهذارا يحرص من حوله على صحبته. ومن ظرفه وحلاوة نكته، كما حكى صاحب "الأغانى"، أنه كان ينزل فى موضع يقال له: حديلة، وكان له جلساء يتحدثون عنده، ففقدتهم أياما، وسأل عنهم ف قيل: هم عند رجلٍ يتحدثون إليه طيب الحديث حلو ظريف قديم عليهم يسمّى: محمدا، ويكنى: أبا قيس. فجاء إسماعيل فوقف عليهم، فسمع الرجلُ القومَ يقولون: قد جاء صديقنا إسماعيل بن يسار. فأقبل عليه فقال له: أنت إسماعيل؟ قال نعم. قال: رحم الله أبويك، فإنهما سمّياك باسم صادق الوعد، وأنت أكذب الناس. فقال له إسماعيل: ما اسمك؟ قال: محمد. قال: أبو من؟ قال: أبو قيس. قال: لا! ولكن لا رحم الله أبويك، فإنهما سمياك باسم نبي، وكنّياك بكنية قرد. فأفجم الرجلُ، وضحك القوم، ولم يعد إلى مجالستهم، فعادوا إلى مجالسة إسماعيل.

وقد اتهم ابن يسار بالشعوية. وفى "الأغانى" أنه دخل على هشام بن عبد الملك فى خلافته وهو بالرصافة، فاستنشه ظنا منه أنه سوف يمدحه كعادة الشعراء فى تلك الحال، فأنشده قصيدته التالية:

يا رَبَّعَ رَامَةَ بِالْعِلْيَاءِ مِنْ رِيمٍ	هَلْ تَرْجَعَنَّ، إِذَا حَيِّتُ، تَسْلِمِي؟
مَا بَالُ حَى غَدَتْ بُزْلُ الْمَطَى بِهِم	تَخْدِي لِعُزْبَتِهِمْ سَيْرًا بِتَقْهِيمٍ؟
كَأَنَّنِي، يَوْمَ سَارُوا، شَارِبٌ سَلْبَتُ	فَوَادَهَ قَهْوَةٌ مِنْ خَمْرِ دَارُومِ

حتى انتهى إلى قوله:

إِنِّي، وَجَدْتُكَ، مَا عُودِي بِذِي	عِنْدَ الْحِفَازِ وَلَا حَوْضِي بِمَهْدُومِ
--------------------------------------	---

خَوَرٌ

أصلى كريماً، ومجدى لا يقاس به
ولى لسانٌ كحدِّ السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قرمٍ بتاج الملك معوم
جحاجح سادة بُلجٍ مرازبةٍ
جُرْدٍ عِتَاقٍ مساميحٍ مطاعيمٍ
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابور الجنود معاً
والهرمزان لفخرٍ أو لتعظيمٍ؟
أُسْدُ الكتائب يوم الرُّوع إن زحفوا
وهم أذلُّوا ملوك الترك والروم
يُمشون فى حَلَقِ الماذى سابعةً
مَشَى الضراغمة الأُسْد اللهايم
هناك إن تسألنى تُنبئى بأن لنا
جرثومةٌ قهرتْ عز الجراثيم

وأن هشاما قد غضب قائلاً له: "يا عاصَّ بَطْرُ أمه! أعلَى تفخر، وإياى تنشُد قصيدةً تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟ غُطُّوه فى الماء". فَعَطُّوه فى البركة حتى كادت نفسه ترهق، ثم أمر بإخراجه وطرده فى الحال، فأُخْرِجَ عن الرصافة منفياً إلى الحجاز.

ومن جرى فى ذلك العصر هذا المجرى الشعبى أيضاً يزيد بن ضَبَّة، وضبة أمه، وهو من موالى ثقيف، وكان مقرباً إلى الوليد بن يزيد. ولم يصلنا من شعره سوى القليل جداً الذى لا تتجاوز نصوصه أصابع اليد الواحدة. ورغم هذا يبالغ أبو الفرج كعاداته فيقول فى رواية من رواياته إنه ترك وراءه ألف قصيدة انتحلته العرب وأدخلتها فى أشعارها. ترى كيف يمكن أن يصح هذا؟ وكيف كان هو الوحيد الذى كان له دون الشعراء جميعاً ذلك العدد الهائل من القصائد؟ وكيف خفيت تلك القصائد على جامعيتها فلم يصلوا منها إلا إلى خمسة نصوص معظمها مقطوعات قصيرة؟ بل كيف عرفوا أصلاً أنه كانت له ألف قصيدة وأنها انتحلت؟ وكيف نُسيَتْ تلك القصائد الألف من كل الأذهان، فلم يتبق منها سوى تلك النصوص الخمسة ليس غير؟ على كل حال فالقصيدة التالية هى أطول شعره القليل جداً، وهو يتفاخر فيها بالعجم،

ولكن دون أن يصرح باسمهم، بالإضافة إلى تخفيفه هذا الفخر بأنهم كانوا في خدمة العرب يعينونهم في تنفيذ أمورهم. فهو إذن لا يتشامخ عليهم بل يتمحك فيهم. ومن ثم ليس لفخره بأصله الأعجمي تلك الفظاظة التي يشعر بها القارئ في شعر ابن يسار. قال:

أرى سلمى تَصُدُّ وما صَدَدْنَا	وغيرُ صُدُّوها كُنَّا أَرَدْنَا
لقد بَخِلْتُ بنائِلها علينا	ولو جادت بنائِلها حَمِدْنَا
وقد ضَنَنْتُ بما وعدتُ وأمستُ	تَغَيَّرَ عهدُها عما عَهِدْنَا
ولو علمتُ بما لا قيتُ سلمى	فتُخَبِّرُنِي وتَعْلَمُ ما وَجَدْنَا
تَلِمُّ على تنائي الدارِ مِنَّا	فيُسْهِرُنا الخيالُ إذا رَقَدْنَا
ألم تر أننا، لما وَلِينَا	أُمُورًا خُرِّقَتْ فَوَهَتْ، سَدَدْنَا
إذا هاب الكريهة من يليها	وأعظمها الهَيُوبُ لها عَمَدْنَا
فلا تَنَسُوا مَواطِنَنا، فَإِنَّا	إذا ما عاد أهل الجُرمِ عُدْنَا
وما هيضت مكاسِرُ مَنْ جَبَرْنَا	ولا جَبَرَتْ مُصِيبَةُ مَنْ هَدَدْنَا
ألا مَنْ مُبْلَغُ عَنَى هِشامًا؟	فما مِنَّا البلاءُ، وما بَعُدْنَا
وما كنا إلى الخلفاء نُفَضِّي	ولا كنا نُؤَخِّرُ إن شَهِدْنَا
ألم يكُ بالبلاءِ لنا جزاءُ	فَنُجْزَى بالمحاسنِ أم حُسِدْنَا؟
وقد كان الملوك يروُن حَقًّا	لِوَافِدِنا فنُكْرِمُ إن وَفَدْنَا
وَلِينَا الناسَ أزمانًا طَوَّالًا	وُسُسْناهم ودُسْناهم وَقُدْنَا

وأغلب الظن أن يكون ابن ضبة قد قصد العرب حين ذكر سلمى في هذه القصيدة.

وقد عرف هذا العصر نفرا من الشعراء الغزلين منهم العذري الموحد في حبه فلا يعرف سوى امرأة واحدة ولا يميل إلى غيرها مهما تفوقت عليها في الجمال والأناقة ولا يمكنه أن يسلوها

رغم ما يلاقيه في حبها من بُرحاء العذاب واتصال الأنين والدموع، ومنهم اللاهى الذى يتخذ من الحب وسيلة للتسلى وتقضية الوقت اللذيذ، وتُغنيه أية امرأة جميلة عن غيرها متى لم يوفق في غرامه الأول. ومن الشعراء العذريين مجنون ليلى. واسمه، حسب المتعارف عليه، قيس بن الملوح. وأخباره متاحة بوفرة في كتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهاني، وبتفصيل أقل في كتاب "الشعر والشعراء" لابن قتيبة وغيره. ومن شعر قيس في ليلى، التى خبلته وجنتته:

وَقَالُوا: لَوْ تَشَاءُ سَلَوْتَ عَنْهَا	فَقُلْتُ لَهُمْ: فَإِنِّي لَا أَشَاءُ
وَكَيْفَ، وَحُبُّهَا عَلِقَ بِقَلْبِي	كَمَا عَلِقَتْ بِأَرْشِيَةِ دِلَاءٍ؟
لَهَا حُبٌّ تَنْشَأُ فِي فُؤَادِي	فَلَيْسَ لَهُ، وَإِنْ زُجِرَ، انْتِهَاءُ
وَعَاذِلَةٌ تُقَطِّعُنِي مَلَامًا	وَفِي زُجْرِ الْعَوَاذِلِ لِي بَلَاءُ

ومن شعره أيضا فيها:

مَتَى يَشْتَفِي مِنْكَ الْفُؤَادُ الْمُعَذَّبُ	وَسَهْمُ الْمَنَايَا مِنْ وَصَالِكَ أَقْرَبُ؟
فَبَعْدُ وَوَجْدٌ وَاشْتِيَاقٌ وَرَجْفَةٌ	فَلَا أَنْتِ تُدْنِينِي وَلَا أَنَا أَقْرَبُ
كَعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَزُمُّهَا	تَذُوقُ حِيَاضِ الْمَوْتِ، وَالطِّفْلُ يَلْعَبُ
فَلَا الطِّفْلُ ذُو عَقْلٍ يَرِقُّ لِمَا بِهَا	وَلَا الطَّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فَيَذْهَبُ
وَلَى أَلْفُ وَجْهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ	وَلَكِنْ بَلَا قَلْبٍ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟

ومن الغزلين العذريين كذلك جميل بثينة. وكان جميل يقاسى نيراناً متلظية، ثم هو عاجز مع ذلك عن تحرير نفسه من تلك العلاقة الباهظة التى كانت تلفحه في كل لحظة بشواظ من الجحيم:

إِذَا قُلْتُ: "مَا بِي، يَا بُثَيْنَةَ، قَاتِلِي	مِنْ الْحُبِّ" قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
وَإِنْ قُلْتُ: "رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ"	تَوَلَّتْ وَقَالَتْ: "ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ"
فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِهَا جِئْتُ طَالِبًا	وَلَا حُبُّهَا فِيهَا يَبِيدُ

وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي بِانْتِظَارِي وَعَدَهَا
يَمُوتُ الْهَوَى مِنْنِي إِذَا مَا لَقَيْتُهَا
يَقُولُونَ: جَاهِدْ، يَا جَمِيلُ، بَغْزَوَةَ!
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ
تَذَكَّرْتُ لَيْلِي، فَالْفُؤَادُ عَمِيدُ
عَلِقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَلَيْدًا، فَلَمْ يَزَلْ
فَمَا ذَكَرَ الْخُلَّانُ إِلَّا ذَكَرُهَا

وقال فيها أيضا:

أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَشْحَطَ النَّوَى
بِبِئْسَةِ فِي أَدْنَى حَيَاتِي وَلَا حَشْرِي
وَجَاوِرٌ إِذَا مَا مِتُّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فِيَا حَبْذَا مَوْتِي إِذَا جَاوَرْتَ

قبری!

عَدِمْتُكَ مِنْ حُبٍّ! أَمَا مِنْكَ رَاحَةٌ
أَلَا أَيُّهَا الْحُبُّ الْمُبَرَّحُ، هَلْ تَرَى
أَجِدَّكَ لَا تَبْلَى، وَقَدْ بَلَى الْهَوَى
هِيَ الْبَدْرُ حُسْنًا، وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبُ
لَقَدْ فَضَّلْتُ حُسْنًا عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا
عَلَيْهَا سَلَامُ اللَّهِ مِنْ ذِي صَبَابَةٍ
أَيُّكِي حَمَامُ الْأَيْكِ مِنْ فَقْدِ الْفِهِ
وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَفِي الْأَيْكِ نَائِحُ
بِقَوْلُون: مَسْحُورٌ يَجُنُّ بِذِكْرِهَا!

وَأُقْسِمُ لَا أَنْسَاكِ مَا ذَرَّ شَارِقُ
 وَمَا لَاحَ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ مُعَلَّقُ
 وَمَا هَبَّ أَلٌ فِي مُلَمَعَةٍ قَفَرِ
 وَمَا أَوْرَقَ الْأَغْصَانُ مِنْ فَنَنِ السِّدْرِ
 لَقَدْ شُغِفْتُ نَفْسِي، بُثَيْنَ،
 كَمَا شُغِفَ الْمَخْمُورُ، يَا بُثْنَ، بِالْخَمْرِ
 بِذِكْرِكُمْ
 وَلَوْ سَأَلْتُ مَنْى حَيَاتِي بِذَلَّتْهَا
 وَمَضَى لِي زَمَانٌ لَوْ أَخِيرُ بَيْنَهُ
 وَجَدْتُ بِهَا إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِي
 وَبَيْنَ حَيَاتِي خَالِدًا آخِرَ الدَّهْرِ
 لَقُلْتُ: ذَرُونِي سَاعَةً وَبُثَيْنَةً
 عَلَى غَفْلَةِ الْوَاشِينَ، ثُمَّ اقْطَعُوا عُمْرِي
 فَلَا أَنْعِمْتَ بَعْدِي وَلَا عِشْتُ بَعْدَهَا
 وَدَامَتْ لَنَا الدُّنْيَا إِلَى مُلْتَقَى الْحَشْرِ

أما الشعراء المعددون الذين يشبهون النحلة في وقوعها على الزهور جميعا دون الاختصاص
 بزهرة معينة لا تعدوها فنختار منهم عمر بن أبي ربيعة. وعمر، في نسيبه، يختلف عما كان نقادنا
 القدماء يطالبون به الشعراء في غزلهم من الترامى على حبايبهن، إذ كان في معظم غزلياته يعكس
 الأمر فيصور الفتيات والنساء مشغوفات به مدلهات في غرامه حريصات على لفت نظره يعانين
 أشد المعاناة في حبهن له. وربما كان السبب في ذلك أنه كان مترفا وسييا أنيقا يملك الرقيق
 والجواري، وشاعرا مشهورا عنده من الفراغ الكثير لثرائه الهائل، ووحيد أمه السبية التي قامت
 على تربيته بعدما مات أبوه، وكان تاجر عطور فاحش الثراء وواليا في عهد النبي ومن بعده على
 بعض أقاليم اليمن. كما كان المغنون والمغنيات إلى جانب عمر دوما يغنون شعره وينشرونه في كل
 مكان، فكانت النساء يولعن به ويردن أن يشهرهن في قصائده. وكانت النسوة اللاتي يتحدث
 عنهن في أشعاره ينتمين إلى الطبقة الراقية، فكان في حبه لاهيا لا يعرف الألم وحرقات القلب التي
 كان يصطلحها جميل وقيس وكثير ممن كان كل منهم منقطعا إلى حبيبة واحدة تملك عليه حياته،

وتطير النوم من عينيه، وتجعل وجوده جحيماً لا يحتمل. لقد كان الحب عنده لهواً وتسلياً لا غراماً حاراً وولعاً لا عجباً.

ومن أمثلة ذلك الغزل العُمري القصصى الجارى على غير التقاليد الشعرية الأبيات التالية:

قَالَتْ لِتَرْبِ لَهَا تُحَدِّثُهَا: لَتُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عُمَرِ
قَوْمِي تَصَدَّى لَهُ لِيَبْصِرَنَا ثُمَّ اغْمِزِيهِ يَا أُخْتُ فِي خَفَرِ
قَالَتْ لَهَا: "قَدْ غَمَزْتُهُ، فَأَبَى" ثُمَّ اسْبَطَرَتْ تَسْعَى عَلَى أَثَرِ

ثم هذا النص الشائق:

قَالَتْ عَلَى رِقَبَةٍ يَوْمًا لِحَارَتِهَا: مَا تَأْمُرِينَ؟ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ تُبِلَا
وَهَلْ لِي الْيَوْمَ مِنْ أُخْتٍ مُوَاسِيَةٍ مِنْكُنَّ أَشْكُو إِلَيْهَا بَعْضَ مَا عَمِلَا؟
فَجَاوَبَتْهَا حَصَانٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ بَرَجَعَ قَوْلٍ وَأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ خَطَلَا:
أَقْنَى حَيَاءٍ فِي سِتْرِ وَفَى كَرَمٍ فَلَسْتُ أَوَّلَ أَنْثَى عُلِّقَتْ رَجُلَا
لَا تُظْهِرِي حُبَّهُ حَتَّى أُرَاجِعَهُ إِنِّي سَأَكْفِيكِهَ إِنْ لَمْ أَمُتْ عَجَلَا
صَدَّتْ بَعَادًا وَقَالَتْ لِلَّتِي مَعَهَا: بِإِلَهِ لُؤْمِيهِ فِي بَعْضِ الَّذِي فَعَلَا
وَحَدَّثِيهِ بِمَا حَدَّثْتُ وَاسْتَمِعِي مَاذَا يَقُولُ وَلَا تَعْيِي بِهِ جَدَلَا
حَتَّى يَرَى أَنَّ مَا قَالَ الْوُشَاةُ لَهُ فِينَا لَدَيْهِ إِلَيْنَا كُلُّهُ نَقَلَا
وَعَرَّفِيهِ بِهِمْ كَاهْزَلٍ، وَاحْتَفِظِي فِي غَيْرِ مَعْتَبَةٍ أَنْ تُغْضِبِي الرَّجُلَا
فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ، وَاللَّهِ يَحْفَظُهُ، وَإِنْ أَتَى الذَّنْبَ، مِمَّنْ يَكْرَهُ الْعَدَلَا
لَوْ عِنْدَنَا اغْتِيبَ أَوْ نِيلَتْ نَقِيصَتُهُ مَا أَبَ مُغْتَابُهُ مِنْ عِنْدِنَا جَدَلَا

ومن الغزلين المعددين أيضا الشاعر الأحموس. وهو شاعرٌ أوسىُّ معاصرٍ لجرير والفرزدق

اشتهر بشعره الغزلي، وإن لم يقتصر في الشعر على الغزل كعمر بن أبي ربيعة، بل مدح بعض الخلفاء

الأمويين. يقول في أسماء، وهى واحدة ممن كان يقع في غرامهن، الواحدة بعد الأخرى، من حرائر وإماء على عكس ابن أبى ربيعة، الذى لم يكن يعرف إلا الحرائر وإلا المترفات من الطبقة الراقية:

رَامَ قَلْبِي السُّلُوَّ عَنْ أَسْمَاءَ	وَتَعَزَّى، وَمَا بِهِ مِنْ عَزَاءِ
سُخْنَةً فِي الشِّتَاءِ بَارِدَةَ الصَّيْفِ	سَفِ سِرَاجٍ فِي اللَّيْلِ الظُّلُمَاءِ
كَفَّنَانِي، إِنْ مِتُّ، فِي دِرْعِ أَرْوَى	وَامْتَحَالِي مِنْ بَثْرِ عُرْوَةِ مَائِي
إِنَّنِي، وَالَّذِي تَحُجُّ قُرَيْشُ	بَيْتَهُ سَالِكِينَ نَقَبَ كَدَاءِ
لَمْلَمٌ بِهَا، وَإِنْ أَبُتُ مِنْهَا	صَادِرًا كَالَّذِي وَرَدْتُ بِدَاءِ
وَلَهَا مَرْبَعٌ بِبُرْقَةٍ خَاخٍ	وَمَصِيفٌ بِالْقَصْرِ قَصْرُ قُبَاءِ
قَلَبْتُ لِي ظَهَرَ الْمَجَنِّ فَأَمْسَتْ	قَدْ أَطَاعَتْ مَقَالََةَ الْأَعْدَاءِ

ويقول في أم جعفر، وهى مثله من الأنصار، وقد تكرر نسيبه بها مما أغضب أخاها أيمن،

فاستعدى السلطات عليه:

وَإِنِّي لِيدْعُونِي هَوَى أُمِّ جَعْفَرٍ	وَجَارَاتِهَا مِنْ سَاعَةٍ، فَأَجِيبُ
وَإِنِّي لَا تَنِي الْبَيْتَ مَا إِنْ أَحْبَبُهُ	وَأَكْثَرُ هَجَرَ الْبَيْتِ وَهُوَ حَيْبُ
تَطِيبُ لِي الدُّنْيَا مِرَارًا، وَإِنَّهَا	لَتَخْبُثُ حَتَّى مَا تَكَادُ تَطِيبُ
وَإِنِّي إِذَا مَا جِئْتُكُمْ مُتَهَلِّلًا	بَدَا مِنْكُمْ وَجْهٌ عَلَى قَطُوبُ
وَأَغْضَى عَلَى أَشْيَاءِ مِنْكُمْ	وَأُدْعَى إِلَى مَا سَرَّكُمْ فَأَجِيبُ
تَسُوؤُنِي	
وَأَحْسُ عَنْكَ النَّفْسَ، وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ	بِقُرْبِكَ، وَالْمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ

وكان الأحوص من مُدَّاح الأمويين. ومن أخبار مدائحه لهم في "الأغاني" أنه "دس إلى

حبابة، فغنت يزيدَ قوله:

كريم قريشٍ حين ينسب والذى أقرت له بالملك كهلاً وأمردا
وليس، وإن أعطاك في اليوم، مانعاً، إذا عُدت، من أضعاف أضعافه غدا
أهان تلاد المال في الحمد. إنه إمام هدى يجرى على ما تعودا
تَشَرَّف مجداً من أبيه وجده وقد ورثا بنيان مجدٍ تشيدا

فقال يزيد: ويلك يا حبابة! مَنْ هذا مِنْ قريش؟ قالت: ومن يكون؟ أنت هو يا أمير المؤمنين. فقال: ومن قال هذا الشعر؟ قالت: الأحوص يمدح به أمير المؤمنين. فأمر به أمير المؤمنين أن يقدم عليه من دهلك، وأمر له بهالٍ وكسوة".

وعندنا كذلك من شعراء الغزل اللاهين في العصر الأموي العرجي حفيد عمرو بن عثمان بن عفان، الذي يشبه في غزله عمر بن أبي ربيعة، وبخاصة في انتحائه منحى القصص والرسائل. وكعمر أيضاً كان يتعرض للحواج إلى بيت الله الحرام، وإن كان على خلاف عمر قد اشترك في الفتوح الإسلامية مع مسلمة بن عبد الملك بأرض الروم وأبلى بلاء حسناً، فضلاً عن أنه كان مولعاً بالصيد والقتل. ومع أنه لا يختلف عن عمر في اتجاهه الغزلي العام فإن د. شوقي ضيف يقول إنه كان يخرج إلى شيء من الإباحية ويتعرض للنساء اللاتي يحججن. ويفهم من كلامه أنه يختلف في هذا عن عمر، ولا أدري كيف يكون ذلك. ومن شعره الذي أخذه عليه د. شوقي ضيف رحمه الله قوله:

قالت: رَضِيتُ، وَلَكِنْ جِئْتُ فِي قَمَرٍ هَلَّا تَلَبَّثْتَ حَتَّى تَدْخُلَ الظُّلْمُ؟

وقوله:

بَاتَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ حَتَّى بَدَا صُبْحُ تَلَوَّحِ كَالْأَغْرِ الْأَشْقَرِ
فَتَلَا زَمَا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

وقوله:

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْحَزِّ عَنْ حُرٍّ وَجْهَهَا وَأَزْخَتْ عَلَى الْمُتَيْنِ بُرْدًا مُهْلَهَلًا
مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَخْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ الْبِرَىءَ الْمُغْفَلَا

مع أن عمر بن أبي ربيعة قد صنع مثل ذلك بل تجاوزه كما هو معروف. ونترك القارئ

الآن مع المقطوعة الرقيقة التالية من شعر الشاعر:

هَاجَ قَلْبِي بَعْدَمَا كَانَ سَكَنٌ لِبُرَيْقٍ لَاحٍ مِنْ نَحْوِ الْيَمَنِ
فَاعْتَرَانِي الشَّوْقُ لَمَّا خَلَّتْهُ مَوْهِنًا قَدْ لَجَّ وَهْنًا وَالْحَزَنُ
فَالْحَمَى مِنْهُ حَمَى الْعَرْجِ إِلَى أَظْرُبِ الْأَحْسَا إِلَى الْقَصْرِ قَمَنْ
تِلْكَ أَوْطَانُ لَيْلَى وَلَنَا مَا يَمِيحُ ذَا الْهَوَى إِلَّا الْوَطَنُ
بَاتَ يُلْحَانِي رَفِيقِي أَنْ رَأَى سَنَنَ الدَّمْعِ، وَلِلدَّمْعِ سَنَنْ
قُلْتُ: يَا صَاحٍ، إِذَا مَا لَمْ تُعَنْ فَدَعِ اللَّوْمَ هَوَى لَيْلَى، فَمَنْ؟
يَعْتَرِيهِ مِنْ مُحِبِّ شَوْقُهُ نَازِحِ الدَّارِ غَرِيبِ ذِي شَجَنْ
فَارْعَوَى عَنْ ذَاكَ إِذْ فَطَنَتْهُ لِلَّذِي نَلَقَى، وَمَا كَانَ فَطِنُ

ومن شعراء ذلك العصر الخليفة الأموي الوليد بن يزيد. وهو قليل الشعر قصير القصائد طبقا لما وصل إلينا. وهو شعر يتوزعه في الأساس الغزل ووصف الخمر والصيد، ويتسم بالرقّة والسلاسة والانسائية، لكنه ليس بالقوة التي نجدها عند جميل مثلا أو قيس أو عمر أو العرجي. إلا أننا لا نوافق د. طه حسين على أنه أقرب إلى الرداءة اللفظية منه إلى الجودة كما كتب في دراسته عنه بـ "حديث الأربعاء". ويصعب تماما أن نوافق على أنه كان يقول الشعر وهو سكران، إذ كيف يكون الإنسان سكران لا يعقل ما يصنع ثم ينظم شعرا، فضلا عن أن يكون شعرا جميلا رقيقا كشعر الوليد؟ هذا ما لا أفهمه. بل إنه ليكاد يقول إنه نَظَّمَ لا شعر. وهذه قسوة غير مبررة في الحكم على هذا الشعر الرقيق الجميل.

وكانت للوليد ابنة عم تدعى: سلمى، وكانت أختا لزوجته، فوقع في عشقها منذ أول مرة وقع عليها بصره، ولم يستطع عنها صبرا، مما دفعه إلى تطليق زوجته كي يحل له تزوجها، لكن الظروف لم تساعد على ذلك إلا بعد اللتيا والتي وبعدها صار خليفة. ومن شعره يصف حرمانه منها وتدلّه في هواها:

يَا سُلَيْمَى يَا سُلَيْمَى	كُنْتُ لِلْقَلْبِ عَذَابَا
يَا سُلَيْمَى ابْنَةَ عَمِّى	بَرَدَ اللَّيْلُ وَطَابَا
أَيُّهَا وَاشِ وَشَى بى	فَأَمْلئْنى فاهُ تُرابَا
ريقُها في الصُّبْحِ مِسْكُ	بَاشَرَ الْعَذْبَ الرُّضَابَا

ومن شعره فيها أيضا:

شَاعَ شِعْرى فِي سُلَيْمَى وَظَهَرَ	وَرَوَاهُ كُلُّ بَادٍ وَحَضَرَ
وَتَهَادَّتْهُ الْعَذَارَى بَيْنَهَا	وَتَغَنَّيْنَ بِهِ حَتَّى انْتَشَرَ
قُلْتُ قَوْلًا لِسُلَيْمَى مُعْجِبًا	مِثْلَ مَا قَالَ جَمِيلٌ وَعُمَرُ:
لَوْ رَأَيْنَا لِسُلَيْمَى أَثَرًا	لَسَجَدْنَا أَلْفَ أَلْفٍ لِلْأَثَرِ
وَاتَّخَذْنَاهَا إِمَامًا مُرْتَضَى	وَلَكَانَتْ حَجَّانَا وَالْمُعْتَمَرُ
إِنَّمَا بِنْتُ سَعِيدٍ قَمَرٌ	هَلْ حَرَجْنَا أَنْ سَجَدْنَا لِلْقَمَرِ؟

وقال يخاطبها ويستعطفها:

أَرَانِى اللَّهُ يَا سَلَمَى حَيَاتى	وَفى يَوْمِ الْحِسَابِ كَمَا أَرَاكَ
أَلَا تَحْزِينَ مَنْ تَيَمَّتْ عُمْرًا	وَمَنْ لَوْ تَطْلُبِينَ لَقَدْ أَتَاكَ
وَمَنْ إِنْ مِتَّ مَاتَ، وَلَا تَمُوتِ،	وَإِنْ يَنْسَأْ لَهُ أَجَلٌ بَكَاكِ
وَمَنْ لَوْ قُلْتَ: "مُتُّ"، وَأَطَاقَ مَوْتًا	إِذْ ذَاقَ الْمَمَاتَ وَمَا عَصَاكَ

وَمَنْ حَقًّا لَوْ اعْطِيَ مَا تَمَنَّى مِنْ الْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ مَا عَدَاكَ؟
أَثِيْبِي هَائِمًا كَلِفًا مُعْنَى إِذَا خَدِرْتَ لَهُ رَجُلٌ دَعَاكَ

ومن شعره أيضا ما نظمته في الخمر. ويذكر مؤرخو الأدب العربي أنه أول من خصص أشعارا مستقلة لبنت الكرم بعدما كان الحديث عنها يأتي في مقدمات القصائد أو في تضاعيفها

ضمن مواضيع متعددة. ومن خمرياته الأبيات التالية:

اصْدَعْ نَجَى الهمومِ بالطَّرَبِ وَانْعَمْ عَلَى الدَّهْرِ بِابْنَةِ الْعِنَبِ
وَاسْتَقْبِلِ الْعَيْشَ فِي غَضَارَتِهِ لَا تَقْفُ مِنْهُ أَثَارَ مُعْتَقِبِ
مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُ مُهْمَا فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّرْبِ يَوْمَ جَلَوْتَهَا مِنْ الْفَتَاةِ الْكَرِيمَةِ النَّسَبِ
فَقَدْ تَجَلَّتْ وَرَقَّ جَوْهَرُهَا حَتَّى تَبَدَّتْ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
فَهِيَ، بِغَيْرِ الْمِزَاجِ، مِنْ شَرِّ وَهِيَ، لَدَى الْمَرْجِ، سَائِلُ الذَّهَبِ
كَأَنَّهَا فِي زُجَاجِهَا قَبَسٌ تَذْكُو ضِيَاءً فِي عَيْنِ مُرْتَقِبِ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ بَنَى أُمِيَّةَ أَهْمُ لِمِ الْمَجْدِ وَالْمَأْثَرَاتِ وَالْحَسَبِ
مَا فِي الْوَرَى مِثْلُهُمْ وَلَا فِيهِمُو مِثْلِي وَلَا مُنْتَمٍ لِمِثْلِ أَبِي

وتم كلام كثير عن زندقته ومجونه لا تميل نفسي ولا يقتنع عقلي بمعظم ما روى منه.

وهناك عدد من شعراء العصر الأموي يزعم لويس شيخو أنهم نصارى رغم أنهم مسلمون

مائة في المائة منهم هُدْبَةُ بْنُ الْخَشَرَمِ. ومن أبياته حين قُدِّمَ للقتل قصاصا:

أذا العرشِ، إني لَأُثْذُّ بِكَ عَائِذُ مِنَ النَّارِ ذُو بَثٍّ إِلَيْكَ فَقِيرُ
بَغِيضٌ عَلَى الظُّلْمِ مَا لَمْ أُصَبِّ بِهِ، مِنَ الظُّلْمِ مَشْعُوفُ الْفُؤَادِ نَفِيرُ
وَإِنِّي، وَإِنْ قَالُوا: أَمِيرٌ مُسَلِّطُ وَحُجَّابُ أَبْوَابٍ لَهْنٌ صَرِيرُ

لَا عَـلَمُ أَنْ الأَمْرَ أَمْرُكَ: إِنْ تَدِنْ فَرَبُّ، وَإِنْ تَغْفِرُ فَأَنْتَ غَفُورٌ
وقوله أيضا:

وَأَحِبُّ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مَقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعٌ
وَأَبْغَضُ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مَقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ

ومن أولئك الشعراء النابغة الشيباني . ومن شعره:

أَخْزَى طُرُنْدَةَ مِنْهُ وَابِلٌ بَرْدٌ وَعَسْكَرٌ لَمْ تَقْذِهِ الْعُزْلُ الْجُوفُ
مَا زَالَ مَسْلَمَةُ المِيمُونُ يَحْصَرُهَا وَرَكْنُهَا بِثِقَالِ الصَّخْرِ مَقْذُوفُ
وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهَا أَبْطَالُ ذِي لُجْبٍ كَمَا أَحَاطَ بِرَأْسِ النَخْلَةِ اللَّيْفُ
حَتَّى عَلَوْا سُورَهَا مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَحَانَ مِنْ كَانَ فِيهَا وَهُوَ مَلْهُوفُ
فَأَهْلَهَا بَيْنَ مَقْتُولٍ وَمَسْتَلَبٍ وَمِنْهُمْ مُوثِقٌ فِي الْقَدِّ مَكْتُوفُ
يَا أَيُّهَا الْأَجْدَعُ الْبَاكِي لِمَسْلِكِهِمْ، هَلْ بَأْسُ رَبِّكَ عَنْ مَنْ نَامَ مَصْرُوفُ؟
دَعَا النَّصَارَى لَنَا بِالنَّصْرِ ضَاحِيَةً وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَخْفَى الشَّرَاسِيفُ
قَلَعْتَ يَبِيعْتُهُمْ عَنْ جُوفِ مَسْجِدِنَا فَصَخَرُهَا عَنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ مَنْسُوفُ
كَانَتْ إِذَا قَامَ أَهْلُ الدِّينِ فَابْتَهَلُوا بَاتَتْ تَجَاوِبُنَا فِيهَا الْأَسَاقِيفُ
فَالْيَوْمَ فِيهِ صَلَاةُ الْحَقِّ ظَاهِرَةٌ وَصَادِقٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعْرُوفُ
تَرَى تَهَاوِيلَهُ مِنْ نَحْوِ قِبْلَتِنَا يَلُوحُ فِيهِ مِنَ الْأَلْوَانِ تَفْوِيفُ
فِيهِ الْمَثَانِي وَآيَاتُ مَفْصَلَةٍ فِيهِنَّ مِنْ رَبِّنَا وَعْدٌ وَتَخْوِيفُ

ومنه أيضا:

وَتُعْجِبُنِي اللَّذَاتُ ثُمَّ يُعْوجُّنِي وَيَسْتُرُّنِي عَنْهَا مِنَ اللَّهِ سَائِرُ
وَيَزْجُرُنِي الْإِسْلَامُ وَالشَّيْبُ وَفِي الشَّيْبِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ زَاجِرُ

وَالْتَقَى

ومن أولئك الشعراء كذلك القطامي، الذي يقول:

وَأُنْذِرْكُمْ مَصَايِرَ قَوْمِ نُوحٍ	وكانت أمةً فيها انتشارُ
وكان يسبح الرحمن شكرًا	ولله المحامدُ والوقارُ
فلما أن أراد الله أمرًا	مضى، والمشركون لهم جوارُ
ونادى صاحبُ التنورِ نوحًا	وصبَّ عليهمو منه البوارُ
وضجُّوا عند جيئته وفرُّوا	ولا ينجى من القدرِ الحذارُ
وجاش الماءُ منهمرًا إليهم	كأنَّ غَشاءَهُ خرقُ نشارُ
وعامت وهي قاصدةٌ بإذنٍ	ولولا اللهُ جارَ بها الجوارُ
إلى الجودي حتى صار حجرًا	وحان لذلك الغمرِ انحسارُ
فهذا فيه موعظةٌ وحُكْمٌ	ولكنى امرؤٌ في افتخارُ

ويقول أيضا:

نرجو البقاء، وما من أمةٍ خلقت	إلا سيهلكها ما أهلك الأُممُ
أما سمعتَ بأنَّ الريحَ مُرسلةٌ	في الدهرِ كانت هلاكَ الحى من إرما
وقومِ نوحٍ، وقد كانوا يقول لهم:	يا قومُ، لا تعبدوا الأوثانَ والصنما
فكذبوا مَنْ دعا للخير، واجتنبوا	ما قال، وامتألت أذانهم صمما
فلا همُّو رهبوا ما قد أظللهمو	ولا نبيهمو عمى ولا كتما

الخطابة:

أما في ميدان الخطب فظل العرب بعد الإسلام يعرفون خطبة النكاح وخطبة الصلح وما إلى ذلك، لكن جدَّت ثلاثة ألوان من الخطب: الخطبة الدينية الأسبوعية كل يوم جمعة، والسنوية في

العيدين والحج، والخطبة السياسية التي يقوم فيها الحاكم محدثا رعيته عن أمور الدولة وكيفية تدبير مصالحها وما أشبه، ثم الخطبة العسكرية التي يحمس فيها القائد جنوده على الجهاد حاضا لهم على الثبات، ومذكرا إياهم بما ينتظرهم من أجر، ومعظما دور الشهادة في سبيل الله.

وبالنسبة للخطب الدينية قد يقال إن قس بن ساعدة الإيادي في الجاهلية مثلا كان يقوم في سوق عكاظ فيعظ الناس ويلفتهم إلى آيات الله في خلقه ويحثهم على التأمل فيها وأخذ العبرة. لكن لا بد من الالتفات إلى أن خطب قس وغيره كانت خطبا تطوعية يقوم بها من تلقاء نفسه بطريقة غير رسمية ولا دورية، فضلا عن أنه إنما يتناول فيها بعض الأمور الكونية العامة بخلاف خطب الجمعة والعيدين والحج حيث يحدث النبي مثلا جماعة المسلمين كل أسبوع مرة، وكل عام مرتين، عن أمور دينهم تحديدا، مبصرا إياهم بعقائد ذلك الدين ومبادئه وقيمه ومذكرا لهم بربههم وبالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، إلى جانب ما يتناوله من الأمور التشريعية. وكان لتلك الخطب أصول متبعة منها أنها تبدأ بالحمد لله والثناء عليه والشهادة بوحدانيته سبحانه وبنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وتذكر الناس بوجوب تقوى الله، وتقتبس الآيات القرآنية، علاوة على انقسامها إلى جزئين يقف أثناءهما الخطيب ثم يجلس بينهما جلسة قصيرة سرعان ما يقف بعدها لاستئناف ما كان يخطب فيه، ثم ينهي خطبته بعبارة تؤذن بهذا الانتهاء كقوله صلى الله عليه وسلم في آخر خطبة الوداع مثلا: "اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد". ويلقى الخطيب كلمته واقفا على منبر. وكان العرب في الجاهلية يقفون أثناء الخطابة على مرتفع من الأرض، فتطور هذا في الجمعة والعيدين إلى إلقاء الخطبة من فوق منبر. وهى الأصول التي استمرت بعد ذلك حتى يوم الناس هذا.

ومن الأمثلة على الخطبة الدينية خطبته عليه الصلاة والسلام أول صلاة جمعة له بالمدينة في بنى سالم بن عوف: "الحمد لله أحمدُهُ وأستعينُهُ، وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفرهُ، وأشهد

ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمدا عبده ورسوله. أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقِلَّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو الساعة وقُرب الأجل. مَنْ يطع الله ورسوله فقد رَشِد، وَمَنْ يَعْصِهَا فقد غوى وفرط وضلَّ ضلالا بعيدا. أوصيكم بتقوى الله، فإن خير ما أوصى به المسلمُ المسلم أن يحضه على الآخرة أو أن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذرکم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا. وإن تقوى الله لَمَن عَمِل به على وجل ومخافة من ربّه عونٌ صدقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة. وَمَنْ يَصْلِحْ بينه وبين الله من أمره في السِّر والعلانية لا ينوئ بذلك إلا وجه الله يَكُنْ له ذِكْرًا في عاجل أمره، وذُخْرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم. وما كان من سوى ذلك يوَدُّ لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدا. ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدّق قوله ونَجَز وعده، ولا خُلِفَ لذلك، فإنه يقول عزَّ وجلَّ: "ما يبدّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد". فاتقوا الله في عاجل أمرکم وآجله، في السِّر والعلانية، فإن من يتق الله يكفّر عنه سيئاته ويعظم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما. وإن تقوى الله يُوقى مَقْتَه، ويؤمن عقوبته ويوقى سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجه، ويرضى الرب، ويرفع الدرجة. خذوا بحظّكم، ولا تُفَرِّطوا في جنب الله، فقد علّمكم الله كتابه ونهَج لكم سبيله ليعلّم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادُوا أعداءه، وجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده. هو اجتباكم وسمّاكم: "المسلمين" مِنْ قَبْلُ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَةٍ وَيُحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْنَةٍ. ولا قوة إلا بالله. فأكثرُوا ذكر الله، واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يَصْلِحْ ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

ويمكننا أن نعد النص التالي من الخطب الحربية، وهو من كلام سعد بن معاذ قبيل غزوة بدر حين رأى الرسول أن يستطلع طُلُعَ الأنصار ليعرف إلى أى مدى هم مستعدون للمشاركة في حرب قريش خارج المدينة المنورة إذا دعت الضرورة، فرد سعد على تساؤلات الرسول التلميحية قائلاً: "يا رسول الله، إيانا تريد؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم. ولإن سِرْتَ حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرنَّ معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكم متبعون. ولعلك أن تكون خرجتَ لأمر، وأحدث الله إليك غيره. فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض فصلَ جبال من شئت، واقطع جبال من شئت، وعادِ من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت. وما أخذتَ منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرتَ به من أمر فأمرنا تبعٌ لأمرك. فوالله لأن سرتَ حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك".

وكانت أول خطبة سياسية خطبها أبو بكر الصديق إثر توليه الخلافة بعد وفاة رسول الله هي الخطبة التالية. قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد فإنى وُلِّيتُ هذا الأمر وأنا له كاره. والله لَوَدِدْتُ أن بعضكم كَفَانِيهِ. ألا وإنكم إن كلفتمونى أن أعمل فيكم مثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعَصَمَهُ. ألا وإنما أنا بشر، ولستُ بخيرٍ من أحدكم، فراعُونى: فإن رأيتمونى استقمْتُ فاتبعونى، وإذا رأيتمونى زُغْتُ فقومُونى. واعلموا أن لى شيطاناً يعتزنى، فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى لا أوثر فى أشعاركم وأبشاركم".

ومن خطب عمر بن الخطاب تلك الخطبة التى خطبها عام الرمادة، إذ بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه قال: "أيها الناس، استغفروا ربكم إنه كان غفَّارًا. اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك. اللهم إنا نتقرب إليك بعمِّ نبيك وبقية آبائه وكبار رجاله، فإنك تقول، وقولك

الحقُّ: "وأما الجِدَارُ فكانَ لِعُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا"، فحفظتهما لصَلاحِ أبيهما، فاحفظ اللهُ نبيكَ في عَمَّة. اللهُمَّ اغفرْ لنا، إِنَّكَ كُنتَ غَفَّارًا. اللهُمَّ أَنْتَ الرَّاعِي، لَا تُهْمِلِ الضَّالَّةَ وَلَا تَدَعِ الْكَسِيرَةَ بِمَضْيَعَةٍ. اللهُمَّ قَدْ ضَرَعَ الصَّغِيرُ، وَرَقَّ الْكَبِيرُ، وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى. اللهُمَّ أَغْنِهِمْ بِغِيَاثِكَ قَبْلَ أَنْ يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا، فَإِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ".

وخطب سعد بن أبي وقاص يوم الشورى بعد مقتل عمر حين اجتمع الستة الذين كانوا قد عينهم الفاروق لاختيار أحدهم خليفة للمسلمين من بعده، فقال: "الحمد لله: بَدِيا كان، وَآخِرًا يعود. أحمده كما أنجاني من الضلالة، وَبَصَّرَنِي مِنَ الْعَمَايَةِ. فَبِرَحْمَةِ اللَّهِ فَازَ مَنْ نَجَا، وَبِهَدْيِ اللَّهِ أَفْلَحَ مَنْ وَعَى، وَبِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَقَامَتِ الطَّرِيقُ، وَاسْتَبَانَ السُّبُلُ، فَظَهَرَ كُلُّ حَقٍّ، وَمَاتَ كُلُّ بَاطِلٍ. إِيَّاكُمْ، أَيُّهَا النَّفَرُ، وَقَوْلَ أَهْلِ الزُّورِ وَأَمْنِيَةِ الْغُرُورِ، فَقَدْ سَكَنَتِ الْأَمَانِي قِبَلَكُمْ قَوْمًا وَرَثُوا مَا وَرَثْتُمْ، وَنَالُوا مَا نِلْتُمْ، فَاتَّخَذَهُمُ اللَّهُ أَعْدَاءً، وَلَعَنَهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ. ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ. لَيْتَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ". وَإِنِّي نَكَبْتُ قُرْنِي فَأَخَذْتُ سَهْمِي الْفَالَجَ، وَأَخَذْتُ لَطْلَحَةَ بَنِ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي غَيْبَتِهِ مَا ارْتَضَيْتُ لِنَفْسِي فِي حَضُورِي، فَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ، وَبِمَا أُعْطِيتُ عَنْهُ كَفِيلٌ. وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ، يَا ابْنَ عَوْفٍ، بِصِدْقِ النَّفْسِ وَجُهِدِ النَّصْحَ. وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ".

ومن خطب على بن أبي طالب الخطبة التي ألقاها في أول جمعة له بالكوفة، وهذا نصها: "الحمد لله. أحمده وأستعينه وأستهديه، وَأُوْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ. وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّدَى. مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، انْتَخَبَهُ لِرِسَالَتِهِ، وَاخْتَصَّهُ لِتَبْلِيغِ أَمْرِهِ، أَكْرَمَ خَلْقَهُ عَلَيْهِ، وَأَحَبَّهُمْ

إليه، فبلغ رسالة ربه، ونصح لأمته، وأدى الذى عليه صلى الله عليه وسلم. أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله، فإن تقوى الله خير ما تواصى به عباد الله، وأقربه لرضوان الله، وأفضله فى عواقب الأمور عند الله. وبتقوى الله أمرتكم، وللإحسان خلقتكم. فاحذروا من الله ما حذركم نفسه، فإنه حذر بأساً شديداً، واخشوا الله خشيةً ليست بتعذير، واعملوا من غير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ومن عمل مخلصاً له تولاه الله وأعطاه أفضل نيته. وأشفقوا من عذاب الله، فإنه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترك شيئاً من أمركم سدى. قد سمي آثاركم، وعلم أسراركم، وأحصى أعمالكم، وكتب آجالكم. فلا تغرركم الدنيا، فإنها غرارة لأهلها، والمغرور من اغتر بها، وإلى فناء ما هى. وإن الآخرة هى دار القرار. نسأل الله منازل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، ومعيشة السعداء، فإنما نحن به وله".

وتنسب لعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه، خطب كثيرة جمعت فى كتاب "منهج البلاغة". ومن هذه الخطب ما يغلب على النفس أنه صحيح أو ما ليس بمستبعد، ومنها ما لا يمكن أن يكون على ما قد قاله. ومن النوع الأخير نورد النص التالى: "الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصى نعماءه العادون، ولا يؤدى حقه المجتهدون، الذى لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذى ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلاق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، وتدد بالصخور ميدان أرضه. أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيد، وكمال توحيد الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه، ومن ثناه فقد جزأه، ومن جزأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حده، ومن حده فقد عدّه، ومن قال: "فيم؟" فقد ضمّنه، ومن قال: "علام؟" فقد أخلّ منه. كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شىء

لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ. أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجَرِيَّةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحَدَتْهَا، وَلَا هِمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا. أَحَالَ الْأَشْيَاءَ لَأَوْقَاتِهَا، وَلَمْ يَبْنِ مَحْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَزَ غَرَائِزَهَا، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا، عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ، وَشَقَّ الْأَرْجَاءَ، وَسَكَّنَاكَ الْهُوَاءَ، فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاطِمًا تَيَّارُهُ، مُتَرَاكِمًا زَخَّارُهُ، حَمَلَهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ، وَالزَّرْعِ الْقَاصِفَةِ، فَأَمَرَهَا بِرَدِّهِ، وَسَلَّطَهَا عَلَى شَدِّهِ، وَقَرَّبَهَا إِلَى حَدِّهِ. الْهُوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتِيقٌ، وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ. ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبُّهَا، وَأَدَامَ مَرَبُّهَا، وَأَعْصَفَ مَجْرَاهَا، وَأَبْعَدَ مَنْشَاهَا، فَأَمَرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ، وَإِثَارَةِ مَوْجِ الْبَحَارِ، فَمَخَضَتْهُ مَخَضُ السَّقَاءِ، وَعَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ. تَرُدُّ أَوَّلَهُ إِلَى آخِرِهِ، وَسَاجِيَهُ إِلَى مَا بَرِّهِ، حَتَّى عَبَّ عِبَابُهُ، وَرَمَى بِالزَّبَدِ رُكَامُهُ، فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَتِقٍ، وَجَوٍّ مُنْفَهَقٍ، فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ جَعَلَ سُفُلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا، وَعُلْيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا، وَسَمَكًا مَرْفُوعًا، بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا، وَلَا دِسَارٍ يَنْظُمُهَا. ثُمَّ زَيْنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا، وَقَمَرًا مُنِيرًا، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ. ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَارًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ: مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَتَصَبُّونَ، وَصَافُونَ لَا يَتَزَايِلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلَا فَرَّةُ الْأَبْدَانِ وَلَا غَفْلَةُ النَّسْيَانِ. وَمِنْهُمْ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ، وَالسِّنَّةُ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ. وَمِنْهُمْ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ. وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَائُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ

حُجِبُ الْعِزَّةِ، وَأَسْتَارَ الْقُدْرَةَ. لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يَجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَلَا يَحْدُونَهُ بِالْأَمَاكِينِ، وَلَا يَشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ".

ذلك أن التكلف يسود تلك الخطبة بما فيها من أسجاع ومجانسات وموازنات وترادفات مطردة على نحو لا يعرفه عصر الإمام كرم الله وجهه، إلى جانب التعمق في أمور علم الكلام من حديث عن نفى الصفات وما إليه مما لم يكن قد تسرب إلى الفكر الإسلامي بعد، فضلا عن التفصيل العجيب الغريب في الحديث عن الملائكة، وكأن قائله قد رآهم مكافحةً وعرفهم مباشرةً، فأنتى له ذلك، وليست هناك آيات قرآنية أو أحاديث نبوية تذكر عنهم هذا؟ وهذا واضح في قوله: "وَمِنْهُمْ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَائُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ". هذه جرأة في الحديث عن الغيب أربأ بعلل رضى الله عنه أن يتورط فيها.

ثم هذه السلاسل الأسلوبية التي تكررت والتي تأخذ كل حلقة فيها برقبة الحلقة السابقة عليها، وهى شىء متكلف متعسف لا يعرفه أسلوب تلك الفترة. وهذا مثال على ذلك، ومن الصعب على من يعرف أساليب ذلك العصر أن يسلم بأن هذا الكلام لعل: "فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ جِهَلَهُ، وَمَنْ جِهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّاهُ، وَمَنْ حَدَّاهُ فَقَدْ عَدَّاهُ، وَمَنْ قَالَ: "فِيمَ؟" فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: "عَلَامَ؟" فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ". وانظر أيضا إلى ذلك التركيب الذى لا يمكن أن يكون على أى من معاصريه قد استعمله، وهو التركيب الذى يقوم على التعريف عن طريق النفى لا الإثبات مع تكرره عدة مرات متتاليات، كقوله عن رب العزة سبحانه: "كَائِنْ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنَسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ". لقد كان الإيمان

بالله في ذلك العصر أبسط من ذلك كثيرا وأبعد عن هذا التفهيق والتنطع، كما كانت الأساليب أنأى ما تكون عن ذلك التعقيد.

وهذا كله غير المفردات والمصطلحات الكلامية التي لم تُعرَف إلا بعد ذلك بزمن طويل كـ"المقارنة" و"المزايلة" و"الأشباح". ثم إن ما أورده هنا لا يمثل سوى نصف الخطبة المزعومة. فأين لأحد من أهل ذلك العصر بالصبر الذى يعينه على الإنصات لكل ذلك مع صعوبته واعتسافه وغرابته؟ بل من أين لعل ذلك الارتجال المتدفق مع ما نراه في الكلام من غور بعيد وتكلف شديد واعتساف مزعج لا يواتى مريده بهذه السلاسة؟

هذا كلام يُخَوِّج صاحبه إلى العكوف على كتابته ومراجعته وتكلفه، ولا يمكن أن يتدفق سلسا على هذا النحو الارتجالي ولا حتى في العصر العباسى، فما بالناس بعصر الصحابة؟ ولا أتصور أبدا أن تلك الخطبة كان يمكن أن تمر دون أن يهيج السامعون ويخرج على على مزيد من الخوارج الذين يكيلون له الاتهامات ويشغبون عليه ويزيدون أمره تشعنا وانتقاضا ويرفعون عليه السيوف. لهذا كله وغير هذا كله أرفض تماما أن يكون على قد خطب هذه الخطبة، وأنكر إنكارا باتا أن تكون قد خطرت بباله ولا حتى في الأحلام. وعلى برىء منها براءة الذئب من دم المسكين يوسف. إن نظرة سريعة بل عابرة على تلك الخطبة، وما أكثر أمثالها في "نهج البلاغة"، تؤكد لنا أنها من نسيج مختلف تماما عن خطب الخلفاء الراشدين، والصحابة بوجه عام، ولا يمكن أن تكون من كلامهم. ثم إن ها هنا سؤالاً مهماً، وهو: أين كانت تلك الخطب العلوية طوال عدة القرون التي تفصل ما بين على وبين ظهور كتاب "النهج"؟ لو كان على قالها لوجدنا الجاحظ وغير الجاحظ يشيرون إليها وينقلون عنها ويعربون عن استغرابهم للمستوى الفكرى والتعبيرى الذى تكشف عنه مما لا يلائم ذلك العصر. لقد ثارت شكوك عند ابن سلام والأصفهاني والجاحظ نحو بعض نصوص الشعر الجاهلى لما رآوا من اختلافه عن سائر أشعار الجاهليين، فكيف لم تُثر تلك الخطب، لو كانت

موجودة منذ وقت مبكر، ارتياب أولئك العلماء كما أثارت ارتياب غيرهم بعد صدور "نهج البلاغة"؟ معنى هذا أنها لم تكن موجودة، وهى لم تكن موجودة لأن عليا لم يقلها، وهو لم يقلها لأن قوله لها مستحيل كما وضحنا.

كذلك ازدهرت الخطابة في العصر الأموي بألوانها المختلفة، ومن أشهر رجالها زياد بن أبيه والحجاج وواصل بن عطاء وأبو حمزة الشاري وغيرهم. فأما زياد بن أبيه فقد ولد بمكة في العام الأول للهجرة، وأمه سمية، وكانت جارية للحارث بن كَلْدَةَ المتطَّيَّب المشهور في الجاهلية. ويقال إنه زَوَّجها لواحد من عبيده اسمه أبو زياد. إلا أنهم يقولون إن أبا سفيان اتصل بها في الجاهلية اتصال سَفَاح، وإنه صرح يوما في أحد المجالس بعد إسلامه أمام علي بن أبي طالب بأنه هو أبو زياد الحقيقي. لقد كان زياد يخطب ساعتذاك، فأعجب به الحاضرون، وعلق عمرو بن العاص قائلا: نعم هذا الفتى لو كان أبوه قرشيا! وهنا انبرى أبو سفيان مصرحا بما صرح به. ولهذا الاضطراب في نسبه قيل: زياد بن سمية، وفي أحسن الأحوال: زياد بن أبيه. والأولى معناها مفهوم، وهو أنه معروف الأم مجهول الأب. أما الثانية فلا تعنى شيئا في الواقع من ناحية فض هذا الالتباس، إذ تنسبه إلى أبيه، ولكن من أبوه؟ لا تقول التسمية، كما نرى، شيئا. فكل منا هو ابن أبيه فعلا، وإلا فابن من؟ لكن العبرة ليست في أن يقال إنه ابن أبيه، بل العبرة في تسمية هذا الأب، وهو ما كان يشكل عقدة في نسب زياد. وقد استلحقه معاوية بعد استقرار الأمور له عقب موت علي والحسن ابنه، فجعله زيادَ بنَ أبي سفيان.

وكان زياد من أنصار علي في حياة أبي الحسن، وتولى له بعض الأعمال، وكان موقفا عظيم التوفيق، فأراد معاوية أن يكسبه إلى جانبه وأرسل إليه ومَنَّاه الأمانى، إلا أنه رفض الانضمام إلى معاوية رفضا شديدا وقال في حقه كلاما قارصا. بل لقد ظل من أنصار ابني علي بعد مماته، لكن بعد تنازل الحسن عن الحكم لمعاوية اختلف الأمر، ونجح معاوية في استقدامه أخيرا وولاه العراق

وما وراءه ثم زاده بلادا أخرى فى أواسط آسيا، ثم أضاف إليها الحجاز، فنجح فى ضبط الأمور المتشعبة فى ولايته وحكمها بالحديد والنار، ونشر الرعب والفرع حتى استتبّت الأمور. ويذكرون أن زيادا أول من ألف كتابا فى مثالب العرب، لكنه لم يصل إلينا. فهل يصح القول بأنه أراد أن يبين العرب جميعا ردا على ما كان يشعر به من إهانة وخزى بسبب مسألة نسبه المضطربة؟ لكن متى ألف ذلك الكتاب الذى لم يصل إلينا واقتصر علمنا به على ما تقوله الروايات الطائفة؟ هل يعقل أن يكون ألفه وهو تحت إمرة على؟ لكن هل كان على ليصمت إزاء هذا الصنيع المفحش؟ أم تراه ألفه بعد أن حل له معاوية تلك المشكلة ولو رسميا على الأقل؟ لكن هل كان ليفكر فى العبث بهذا الجرح بعد أن توقف سيلانه وبدا وكأنه اندمل؟ ذلك أن من أهم مثالب العرب، كما زعم الكاتبون الأعاجم، أمر النسب، إذ كثيرا ما شكك أولئك المتحاملون فى الأنساب العربية، وهى أعز ما كان العربى يعتز به بين الأمم. ولا ننس أن أم زياد وأباه، أى العبد الذى زوجها منه الحارث بن كلدة، كانا غير عربيين، وهو ما شكل عقدة أخرى لزياد. لكن هل كان الأمويون يتركونه يذيع مثل هذا الكتاب، وقد كانت دولتهم تتعصب للعرب؟ وهل أشار إلى ذلك الكتاب أحد من الأعاجم الذين ألفوا فى ذات الموضوع بعد ذلك؟

يقول أبو الفرج فى "أغانيه": "أصل المثالب زيادُ لعنه الله. فإنه لما ادَّعى إلى أبى سفيان وعلم أن العرب لا تُقرُّ له بذلك مع علمها بنسبه ومع سوء آثاره فيهم عمل كتاب "المثالب"، فألصق بالعرب كلها كل عيب وعار وباطل، ثم ثنى على ذلك الهيثم بن عدى، وكان دعيا، فأراد أن يعرّ أهل البيوتات تشفيا منهم. وفعل ذلك أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، وكان أصله يهوديا، أسلم جده على يدى بعض آل أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فانتفى إلى ولاء بنى تميم، فجدد كتاب زياد وزاد فيه. ثم نشأ علان الشعبى لعنه الله، وكان زنديقا ثنويا... فأبدع كتابا عمله لطاهر بن الحسين، وكان شديد التشعب والعصبية، خارجا عن الإسلام بأفاعيله. فبدأ فيه بمثالب بنى

هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم وصنائعهم، وبدأ منهم بالطيب الطاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فغمصه وذكره، ثم والى بين أهل بيته الأذكىاء النجباء عليهم السلام، ثم يبطون قريش على الولاء، ثم بسائر العرب، فألصق بهم كل كذب وزور، ووضع عليهم كل خبر باطل، وأعطاه على ذلك مائتي ألف درهم فيما بلغنى".

لكن هل من المعقول أن يصدر كتاب زياد في عهد الأمويين ولا يثير بينهم ولا بين رعيتههم ضجة واستنكاراً؟ لكننا نقرأ في "الأغانى" أن أحد الأشخاص "دخل على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: هل عندك كتاب زياد في المثالب؟ فتلكأ، فقال له: لا بأس عليك. وبحقى إلا جئتنى به. فمضى فجاء به، فقال له: اقرأ على. فقرأه، وجعل عبد الملك يتغيظ ويعجب مما فيه من الأباطيل، ثم تمثل قول الشاعر:

وأجراً من رأيتُ بظهر غيبٍ على عيبِ الرجال أُلُو العيوبِ

ثم أمر بالكتاب فأُحرق". لكن السؤال هو: ألم تكن هناك سوى نسخة واحدة من الكتاب أمر بإحراقها عبد الملك، فانتهى أمر الكتاب إلى الأبد، ولم يعد إلى الحصول عليه بعد ذلك من سبيل؟ وفي "سمط اللآلى في شرح أمالى القالى" لأبى عبيد البكرى أن أصل كتاب "المثالب" لأبى عبيدة هو لزياد بن أبيه. وفي "أنساب الأشراف" للبلاذرى أن واضع كتاب "الأنساب" إنما هو عبيد الله بن زياد، أى ليس زيادا أباه. وتقول مادة "زياد بن أبى سفيان" في "الموسوعة العربية العالمية": "ومن المرجح أنه صاحب أول مؤلف في المثالب. ويقال: إنه ألفه ليكون أداة في يد أبنائه للدفاع عما يوجه إلى أصالتهم. وكان الكتاب متداولاً في القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، وقرّظه الهيثم بن عدى (ت ٢٠٦هـ - ٨٢١م)، وهذب نصه أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٨هـ - ٨٢٣م)، ووردت بعض نصوصه في "كتاب العرب" لابن قتيبة. لكن من حقنا أن نتساءل: متى كان زياد بن أبيه يؤلف الكتب؟ لقد كان سياسياً وقائداً عسكرياً وخطيباً متميزاً

بغض النظر عن بعض سياساته الفظة القاسية بعد انضمامه لمعاوية، لكن لم يُعرَف عنه تأليف. أم ترى "مثالب العرب" هي بيضة الديك؟ ثم كيف يسكت بنو أمية عن وضعه لهذا الكتاب فلا يفتحون سيرته معه قط رغم خطورة ما فيه وتعارضه مع توجهاتهم؟

وكان زياد خطيباً مَصْقَعًا، ووصلتنا عنه خطب متعددة أشهرها خطبته بالبصرة أول مقدمه واليا عليها وعلى خراسان وسجستان من قِبَل معاوية عام ٥٣هـ، وهي الخطبة التي لم يفتتحها بالتحميد والصلاة على النبي، فسميت بـ "البترء" و "الشوهاء"، وإن كان قد ورد في روايات أخرى أنه قد بدأها فعلاً بالحمد. وأنا أرجح خلوّها منه، وأتصور أنه قصد ذلك قصدا كي يلقي الرعب في القلوب ويطيّش العقول. ولا ينبغي أن ننسى في هذا السياق كيف بدأت سورة "التوبة" بغير بسملة على خلاف سائر السور المائة والثلاث والعشرين، إذ إن ما فيها من تهديد للمشركين الغادرين والأمر بأخذهم بالشدة والصرامة جزاء خيانتهم للعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين لا يناسبه أن تبدأ بالبسملة التي تذكر اسم الله الرحمن الرحيم. وكان أهل البصرة، قبل أن يأتيهم زياد واليا، قد عُرِف عنهم الفساد والعدوان والشغب والتمرد حتى ضعف الأمن، ولم يعد الخروج من البيوت والسير في الطرق والسفر بين البلاد مما يبعث على الاطمئنان حتى لقد قرأت في شرح "نهج البلاغة" أن الفساق كانوا يخطفون المرأة ليغتصبوها لكنهم، قبل أن ينالوا منها مبتغاهم، يطلبون منها أن تصرخ ثلاثا، فإن خَفَّ لنجدها أحد، وإلا أَمْضَوْا ما يريدون من هتك عُرْضها.

وكتب النويري، في "نهاية الأرب في فنون الأدب"، بشأن قصة تلك الخطبة والظروف التي أُلقيت فيها قائلا: "قَدِمَ زيادُ البصرةَ في آخر شهر ربيع الآخر من السنة، فدخلها والفسق فيها ظاهرٌ فاشٍ، فخطب خطبة بترء لم يحمد الله فيها، وقيل: بل حمد الله فقال: "الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زدتنا نعمًا فألهمنا شكرًا على نعمك فينا. أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والفَجْرُ الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيها، ما

يأتيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام، فيشب فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير، كأن لم يسمعوا نبي الله، ولم يقرأوا كتاب الله، ولم يعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه من تتركبكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، والضعيفة المسلوقة في النهار المبصر، والعدد غير قليل؟ ألم تكن منكم نهاية تمنع الغواة عن ذلك الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة وبعادتم الدين! تعتذرون بغير العذر وتغطون على المختلس! كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنّع من لا يخاف عاقبة ولا يخشى معادًا! ما أنتم بالحلما، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الله والإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا في مكانس الريب! حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدمًا وإحراقًا! إنى رأيت هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لين في غير ضعف، وشدة في غير جبرية وعنف. وإنى أقسم بالله لا آخذنّ الولي بالمولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد، فقد هلك سعيد، أو تستقيم لي قناتكم!

إن كذبة المنبر بقاء مشهورة، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي! من يئس منكم فأنا ضامن لما ذهب له. إياي ودلج الليل، فإنني لا أوتى بمُدْلَج إلا سفكت دمه. وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم. وإياي ودعوى الجاهلية، فإنني لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة: فمن غرق قومًا غرقناه، ومن حرق قومًا حرقناه، ومن نَقَب بيتًا نَقَبْتُ عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنته فيه حيا! فكفوا عني أيديكم وألستكم أكف عنكم يدي ولساني. ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما

عليه عامتكم إلا ضربت عنقه! وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إحنٌ فجعلتُ ذلك دُبرَ أذنى وتحت قدمي. فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا، ومن كان مسيئًا فلينزع عن إساءته. إني لو علمت أن أحدكم قد قتل السِّل من بغضي لم أكشف له قناعًا ولم أهتك له سترًا حتى يبدى لي صفحته، فإذا فعل لم أنظره. فاستأنفوا أموركم، وأعينوني على أنفسكم. فُربٌ مبتئس بقدومنا سيسر، ومسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا. فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما وُلينا. فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا. واعلموا أني مهما قصرتُ عنكم فإنني لا أقصر عن ثلاث: لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل، ولا حابسًا رزقًا ولا عطاءً عن إبانة، ولا مُجمّرًا لكم بعثًا. فادعوا الله بالصالح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون، وكهفكم الذي إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا. ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم، فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرًا لكم. أسأل الله أن يعين كلاً على كُل. فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله. وإيمُ الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى!".

فقام إليه عبد الله بن الأَهمم فقال: أشهد، أيها الأمير، أنك أُوتيت الحكمةَ وفُضِّلَ الخطاب. فقال: كذبت، ذاك نبي الله داود عليه الصلاة والسلام. فقال الأحنف: قد قلت فأحسنَت أيها الأمير. والثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء. إنا لا نُثنى حتى نُبتلى، ولا نحمد حتى نُعطى. فقال زياد: صدقت. فقام أبو بلال مرداس بن أدية وهو يقول: أنبأنا الله بغير ما قلت. قال الله تعالى: "وإبراهيمَ الذي وفى * ألا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه

سوف يرى * ثم يُجزّاه الجزاء الأوفى "، فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد. فقال زياد: إنا لا نجد إلى ما نريد منك ومن أصحابك سبيلاً حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً!

وقيل: إنه لما قَدِمَ العراقَ خطب، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "إن معاوية غير مُحَوِّفٍ على قومه، ولم يكن ليلحق بنسبه من ليس منه. وقد شهدت الشهود بما قد بلغكم، والحق أحق أن يتبع. والله حيث وضع الينات كان أعلم. وقد رحلت عنكم، وأنا أعرف صديقي من عدوى. وقد قدمت عليكم، وصار العدو صديقاً مناصحاً، والصديق عدواً مكاشحاً، فاشتمل كل امرئ على ما في صدره، فلا يكون لسانه شفرة تجرى على ودجه، وليعلم أحدكم إذا خلا بنفسه أنى قد حملت سيفي بيده: فإن شهّره لم أغمده، وإن أغمده لم أشهّره"، ثم نزل.

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن، وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد إليه وصول الخبر. وكان يؤخر العشاء الآخرة، ثم يصلي ويأمر رجلاً، فيقرأ سورة "البقرة" أو مثلها يرتل القرآن، فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنساناً يبلغ أقصى البصرة، ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنساناً إلا قتله. فخرج ذات ليلة، فأخذ أعرابياً فأتى به زياداً، فقال: هل سمعت النداء؟ قال: لا والله. قدِمْتُ بحُلُوبَةٍ لى، وعَشِينِى الليل، فاضطررتها إلى موضع، وأقمت لأصبح، ولا علم لى بما كان من الأمير. قال: أظنك والله صادقاً، ولكن فى قتلك صلاح الأمة. ثم أمر به فضرِبَتْ عنقه. وكان زياد أول من شدد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وجرد السيف، وأخذ على الطّنة، وعاقب بالشبهة، وخافه الناس خوفاً شديداً، حتى أمنَ بعضهم بعضاً، وحتى كان الشئ يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، ولا يغلق أحد بابه، وأدّر العطاء، وبنى مدينة الرزق، وجعل الشرط أربعة آلاف. وقيل له، إن السبيل مُحَوِّفَةٌ. فقال: لا أعانى شيئاً وراء المِصر حتى أصلح المِصر. فإن غلبنى فغيره أشد غلبة منه. فلما ضبط

المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك وأحكمه، وهو أول من سَيرَ بين يديه بالحرا ب والعمد، واتخذ الحرس خمسمائة لا يفارقون المسجد. والله أعلم".

ومن الواضح أنه كان هناك فقدان أمن شنيع، فلم يكن من سبيل إلى القضاء على تلك المشكلة إلا بالصرامة والقسوة. ولو أن الناس لم تخرج على القانون على هذا النهج الذى فاق حدود التحمل ما كانت تلك الصرامة القاسية التى خرج فيها زياد على أصول القانون، وكأن لسان حاله يقول: أنتم خرجتم على القانون ودستموه بأقدامكم، وليس لكم عندى إلا علاج من نفس النوع، وهو أن أدوس القانون كما دستموه. ولا ريب أن مرداس بن أدية كان على حق حين قال له إنه يحكم بغير ما قال الله فى كتابه من وجوب تحمل كل مذنّب جريرته وحده دون أن يعاقب عليها سواء. إلا أن زيادا رد عليه بأن سلوك الناس المتمرد على القانون هو الذى اضطره إلى ذلك، وإلا فسدت الأمور. يريد أن يقول: كيف تريدنى أن ألتزم العدل مع ناس مثلكم لا يلتزمون الحق والاستقامة؟

وبالمناسبة فمرداس هذا هو مرداس الخارجى الذى أنكر هو ورفاقه من الخوارج قبول علىّ التحكيم مع معاوية بعدما ضغطوا عليه حتى يقبله ثم عادوا فانقلبوا على ما طلبوه منه واضطروه إليه، والذى سوف يخرج على الدولة الأموية مع أمثاله ويحاربها أيام عبيد الله بن زياد بن أبيه ويسجنّ أولا ثم يهرب من السجن ثم يدخل فى معركة مع جيش للأمويين يقوده عبيد الله هذا فيتصرّ أولا على الجيش الأموى، إلا أنه ينهزم هو وأصحابه بعد ذلك ويقتلون. وكان مرداس شاعرا وخطيبا مفوّها من شعراء الخوارج وخطبائهم. وحين يقتل سوف يرثيه أمثاله من شعراء الخوارج ويتفجعون عليه تفجعا شديدا كما فعل مثلاً عمران بن حطان، الذى قال فيه: "ما الناس بعدك يا مرداس بالناس" وأم الجراح العدوية، التى هدّدت الأمويين بأنها وسائر الخوارج لن ينسوا قتل مرداس ورفاقه أبد الدهر حتى يتتقموها لهم.

وهذا يقودنا إلى نقطة هامة، ألا وهي أن الخوارج كانوا يعيشون في نعمة وعافية في ظل حكم على بن أبي طالب، إلا أنهم بغبائهم وضيق أفقهم وتشددهم وتنطعهم وكونهم لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب قد شغبوا عليه وحاصروه في كل عمل يأتيه أو يدعه متصورين أنهم يفهمون الدين أفضل منه، غير دارين أنهم، وإن صَلَّوْا كثيرا وصاموا طويلا وتنطسوا وتوسوسوا، لم يكونوا يضعون نصوص الدين مواضعها الصحيحة، فأساءوا وأفسدوا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وها هم أولاء يحصدون سريعا ثمار غبائهم وتنطعهم وانغلاق عقولهم وغرورهم ونشوفة أدمغتهم وجفاف عواطفهم الإنسانية رغم ظنهم أن تدينهم حار بل ملتهب، غافلين عن أن الإسلام لا يمكن أن يؤخذ بغير العقل، وإلا فسد أمره كله كما حدث على أيديهم. لقد قتلوا عليا، فأتاهم زياد وأمثال زياد. رفضوا الرحمة والكرامة، "فجاءهم من لم يرحمهم أو يكرمهم".

ويعطينا فكرة عن قلة عقلهم أنهم بعد أن انتصروا على عبيد الله بن زياد قائد جيش الأمويين ضدهم نشبت بينهم وبينه معركة أخرى حانت أثناءها صلاة الجمعة، فطلبوا هدنة ليصلوا، فوافقهم زياد حتى إذا ما انخرطوا في الصلاة باغتهم وهم مشغولون بها فأبادهم عن بكرة أبيهم تقريبا. ولو كانوا يعقلون لما اطمأنوا إلى عدوهم ولأخذوا حذرهم جيدا حتى لا يؤخذوا على حين غرة فَصَلَّوْا صلاة الخوف التي يعرفها الإسلام في مثل هذه الحالة، وهي أن ينقسم المصلون فريقين: فريقا يصلي مع الإمام، وفريقا يراقب الأعداء من خلفهم حتى لا يميلوا عليهم ميلا واحدة كما جاء في القرآن. فهم، كما ترى، يطبقون دائما بعض الإسلام ويتركون بعضه، فتأتي أحكامهم على الأشياء والأشخاص طائشة، وإلا ما قتلوا مثلاً عليا ولما اندمجوا كلهم أجمعين في الصلاة لدى محاربتهم جيش الأمويين دون أن يأخذوا حذرهم كيلا يباغتوا من جانب خصومهم فيضيعوا في شربة ماء.

وفى الخطبة إشارة إلى أن زيادا فرض على أهل ولايته ما نسميه اليوم: "حظر التجول"، إذ منع الناس الخروج ليلاً بعد صلاة العشاء، ومن لقيته الشرطة بعد ذلك فى الطريق قبضت عليه وقتلته. ولقد بلغ الأمر من التصلب فى تنفيذ حظر التجول، كما رأينا، أن وجدت الشرطة أعرايا جاهلا يسير فى الطرقات بعد المهلة المحددة لسريان الحظر، فبسط لزياد عذره، فصدقه زياد، لكن هذا لم يضع حدا للمشكلة، التى انقلبت مأساة بناء على فهم الوالى لكيفية تسيير أمور الرعية، إذ كان من رأيه أنه، رغم اقتناعه ببراءة الشيخ الأعرابى، لا بد من قتله، وقتله فعلا حتى ييث الرعب فى النفوس فلا يخطر على بال أحد، كائنا ما كان شأنه أو حاجته إلى الخروج ليلا، أن يفكر فى ذلك. ولقد آتت خطة زياد أكلها سريعا، فخاف الناس وانتهوا لوقتهم عن الخروج على القانون وحرصوا على الأمن تمام الحرص.

ولكن السؤال هو: ألم يكن الناس فى غنى عن هذا كله باحترام القانون والانكماش عن الفساد والشغب؟ لكن هل يمكن تغيير طبيعة البشر؟ إن البشر هكذا كانوا، وهكذا هم، وهكذا سيكونون! وكذلك نسأل: أية قيمة لأمان كهذا يفرضه السيف فرضا؟ إلا أن هذا السؤال الذى يشغل عقول الفلاسفة والمفكرين والمصلحين لا يشغل عقول العامة والجهاهير، الذين كل همهم هو الأكل والشرب والأمن رغم أنهم هم أول من يخرج عليه ويعتدى عليه ويفسده، وهم أول من يضجون من انعدام الأمن ويتمنّون العودة لنير الاستبداد هروبا من أمرهم صانعوه ومحدثوه. وهكذا تزداد الأمور تعقيدا كتعقيد الطبيعة البشرية التى تقف وراء هذا كله.

كذلك فإن شخصية زياد تثير العجب. لقد كان فى بداءة أمره يقف فى صف على بن أبى طالب ضد معاوية فى الخلاف الذى كان ناشبا بينهما، وحاول معاوية أن يستميله، إلا أنه رفض هذه الاستمالة رفضا قاطعا، وسبّه وهدده بالقضاء عليه لو أذن له على رضوان الله عليه. ثم إنه ظل بعد مقتل على ينصر ابنه: الحسن والحسين ولا يوافق معاوية على شىء مما يصنع، إلى أن تنازل

الحسن ثم مات، واستتبت الأمور لمعاوية، فاستأنف هذا محاولته كسب زياد إلى صفه إلى أن نجح أخيراً، وزاد فالحقه بأبى سفيان وجعله أخاه.

ووجه العجب في أمر زياد أنه وقف مع على بكل قواه وتحمُّسه، ونصح له خير نصح، ولم يأل في نصرته والكيد لخصمه، ثم ها هو ذا ينقلب على عقبيه بكل قواه أيضاً ويسرف إسرافاً بالغاً في نصره معاوية إلى الحد الذي رأيناه في الخطبة وفي تصرفاته على أرض الواقع تطبيقاً لما هدد به الرعية. بل إنه حين ضُمَّتْ إليه الكوفة مع البصرة نزل كالمطرقة فوق رؤوس الشيعة فيها يحطمها تحطيماً ويسلم كبارهم للدولة لتقتلهم، ويرحل الآلاف منهم، وكأنه لم يكن بالأمس القريب واحداً منهم يخلص لعل ويدافع عنه مثلهم مدافعة لا تعرف الهوادة ولا الجمجمة. فكيف ذلك؟ هذا ما لا أفهمه. قد يضطر الإنسان إلى ترك الطريق المستقيمة التي كان سائراً فيها لأنها قد سُدَّتْ في وجهه، لكن أن ينقلب عليها ويأخذ الطريق الأخرى المعاكسة المناقضة فيعدو فيها بكل همة ونشاط غير مبال ولا متحرج فهذا ما لا أفهمه، اللهم إلا إذا قلنا إنه، حين رأى الحسن يتخلى عن الخلافة لمعاوية، لم يشأ أن يكون هاشمياً أكثر من الهاشميين.

ثم لدينا أيضاً استلحاق معاوية زيادا وقبوله نسبته إلى أبى سفيان والده. لقد قيل في تخطئة هذا التصرف إنه ضد الحديث القائل: الولد للفِرَاش، وللعاهر الحَجَر. لكنى أنظر إلى ما هو أبعد من ذلك فأتساءل: كيف عُرف أن زيادا هو ابن أبى سفيان؟ هناك رواية تقول إن أبا سفيان قد أقر بذلك يوم أثنى عمرو بن العاص عليه لدن سماعه يخطب خطبة بليغة. وهم يذكرون أنه قد عاش سمية أم زياد في الجاهلية يوم كانت تشتغل بالبغاء لحساب الحارث بن كلدة. لكن كيف عرفوا أنه لا بد أن يكون ابن أبى سفيان بالذات، والبغى لا تعاشر رجلاً واحداً؟ إننا الآن نستطيع أن نلجأ إلى اختبار الدى إن إيه، لكن الأمر هنالك كان يختلف تماماً عما لدينا. فهذه نقطة أخرى تزيد المسألة تعقيداً. ثم كيف قبل زياد الانتساب إلى أبى سفيان بوصفه ابنه من الزنا؟ لقد ذكرت

الروايات أن لزياد أخا أنكر عليه قبول اتهام أمه بالزنا والانتفاء من أبيه الحقيقي، وكان عبدا للحرث بن كلدة، الذى زوّجه من سمية فى الجاهلية. كما أنكر أحد الشعراء على معاوية الإقرار على أبيه بالزنا من سمية من خلال إلحاق زياد به. بل ذُكر أن بعض الأمويين قد ضاقوا بما صنع معاوية وأنكروه عليه.

وفى خطبة زياد سجع وموازنة فى بعض الأحيان، وفى بعض الأحيان الأخرى لا سجع ولا موازنة. وهذا يعطيها نفسا قويا من التلقائية والطبيعية بخلاف ما لو كانت كلها من أولها إلى آخرها قائمة على التوازن والتسجيع، إذ تصير مرهقة بعض الشيء لما يسودها من نظام مطرد قد يبعث على الملل. خذ مثلا قوله: "الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء"، ففيه موازنة وسجع، لكنه ينتهى عقب ذلك مباشرة على هذا النحو: "والفجر الموقد لأهله النار الباقي عليهم سعيها" حيث لا سجع ولا اتزان. ومثله العبارة التالية له، وهى: "يأتيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماءكم من الأمور العظام، فيثب فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير كأن لم يسمعوا نبي الله، ولم يقرأوا كتاب الله، ولم يعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدي الذى لا يزول": فقلوه: "يأتيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماءكم" فيه سجع وموازنة، إلا أن زيادا يزيد هنا "من الأمور العظام" فيكسر التناظر الموسيقى والتركيبي... وهكذا إلى آخر الخطبة.

والغريب أنك تنظر فى الخطبة من بدئها إلى ختامها فلا تجد لفظة صعبة تحوجك إلى النظر فى المعجم، بل يقرأها القارئ فى عصرنا هذا فلا يقابله شيء يستعصى على فهمه، وكأنه يستمع إلى خطيب من العصر الحديث من هذه الناحية. وبالمثل لا يحوجنا تركيب من تراكيب الخطبة إلى التمهّل أمامه بغية محاولة فك تعقيده أو غرابته. كما تتميز عامة جملة بالقصر، أما الطويل منها فيقسمه زياد إلى عبارات قصيرة فى الغالب فلا تكون هناك صعوبة لدى مستمعيها فى التتبع

والاستيعاب. وهذا يصدق على روايات الخطبة المختلفة، وهى روايات لا تتباعد عن بعضها البعض تباعدا جذريا مما يدل على أن الآذان والأفئدة قد وعتها إلى درجة معقولة. وهذا طبعى، وإلا فإذا لم يهتم الناس بمثل تلك الخطبة العجيبة فبأى الخطب يهتمون؟ ولا شك أن خلو الخطبة من الألفاظ الصعبة والتراكيب الغريبة فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ الأدب العربى يدل على قدرة بلاغية ضخمة لدن زياد. وقد ذكر بعض العلماء القدامى أنك مهما استمعت إليه وهو يخطب فلن تضيق به أو تمل حديثه أبدا.

كما نرى زيادا واضعا عينه طوال الوقت على مستمعيه لا يحولها عنهم، فهو دائم التوجه نحوهم والمخاطبة لهم غير منشغل بالكلام النظرى بل بالدق فوق رؤوسهم حتى يعوا جيدا ما يقول لأنه يعنى كل حرف فيه، وينوى أن يطبقه بكل صرامة، وهو ما فعله بحذافيره دون أدنى تردد غير واضح فى ذهنه حسابا لأى شىء أو لأى أحد سوى فرض هيئة الدولة بكل سبيل دون النظر فى حلّ ذلك أو حرّمته. إنه متحمس أشد التحمس للأمويين مثلما كان متحمسا أشد التحمس لعلّ أيام عمله مع علىّ من غير أن يفكر لحظة واحدة فى تسويغ انقلابه، إذ هو رجل عملى لا يريد سوى الانتصار لما يتبناه فى اللحظة الراهنة. ولسوف يكون مقتل الحسين بن علىّ على يد ابنه عبيد الله بن زياد. وهى مفارقة عجيبة! فعبيد الله يقتل الحسين بن علىّ، رغم أن أبا عبيد الله كان يتعصب لأبى الحسين تعصبا متصلبا. ودعنا الآن من أن الحسين هو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كذلك يتلاعب زياد بالكلمات خبرا واستفهاما وأمرًا ونهيًا وتهديدا ووعيدا مع بعض الوعود المطمئنة فى ثنايا ذلك هاضبا بالجُمَل كالسيل يقفو بعضها بعضا دون توقف أو تلعثم أو تروية. ومن تلاعبه بالكلام أنه يقول لهم: "إنى رأيت هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله: لينّ فى غير ضعف، وشدةٌ فى غير جبرية وعنف" ثم يعقب على ذلك فى التو واللحظة قائلا قبل أن

يطرفوا بعيونهم: "وإنى أقسم بالله لآخذنَّ الولي بالمولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول: أنج سعد، فقد هلك سَعِيد، أو تستقيم لي قناتكم!". فهل هذا هو اللين في غير ضعف، والشدة في غير عنف؟ إن هذا يذكرني بالمسؤولين في بعض دول العالم الثالث حين يزفون إلى الناس مثلاً "بشرى" غلاء الأسعار، فلا يقولون إن الأسعار سوف تغلو بل يطلقون على الأمر: تحريك الأسعار. وشتان "الغلاء" و"التحريك". لكنه التلاعب بالألفاظ!

ومن تلاعب زياد بالألفاظ أيضاً قوله عن دولة الأمويين وسلطانهم إن الله هو الذي أعطاهم إياه. وهو كلام صحيح، لكنه لا ينطبق على دولة الأمويين وحدها، بل يشمل كل ما في الكون، إذ ما من شيء إلا والله هو خالقه ومعطيه. لكن هذا لا ينفي مشيئة الإنسان، الذي خلقه الله وخلق له مشيئة هو أيضاً، وإن كانت مشيئة محدودة، وجعل له القدرة على الفعل والترك في حدود كافية بحيث يحاسب على ما تقتضيه يده بناء على هذه الاستطاعة ومداها. ولقد كان السلطان في يد عليّ قبل ذلك، وكان الله هو من أعطاه هذا السلطان، فلم خرج معاوية على عليّ إذن؟ أم هو عطاء الله حين يتعلق الأمر بالأمويين، وليس عطاء الله حين يتعلق بسواهم؟ ثم هل معنى إعطاء الله عبداً من عباده السلطان أنه يجوز له أن يصنع بالناس الذين يحكمهم ما يريد، وليس لهم في أي حال سوى السمع والطاعة لأن الحاكم هو وحده الذي يعرف مصلحتهم وما ينفعهم وما يضرهم؟

والملاحظ أيضاً أن الخطبة تخلو تمام الخلو من الاستشهاد بأية آية قرآنية أو الاستناد إلى أي حديث نبوي. ليس ذلك وحسب، بل تخلو الخطبة أيضاً من أي بيت شعري، كما عريت عن ضرب الأمثال، اللهم إلا مثلاً وحيداً يتيماً هو قوله: "انج سعد، فقد هلك سعيد". لقد كان كل هم زياد آنذاك هو التهديد والوعيد وإتباع الكلام بالصنيع دون تلجلج أو شفقة، ومن ثم لم يكن

يبالى أن يستشهد بقرآن أو سنة أو شعر أو مثل، بل كل جهده كان منصبا على تقرير سياسته وإعلانها للعالمين، وكفى. ومن لا يلتزم بها حرفيا فليكن مستغنيا عن رقبته.

ولا بد كذلك من الإقرار بأن الخطبة متماسكة قوية، لا تعرف الوهن ولا التفكك ولا العثكلة ولا التردد. إنها طلاقات متتابعة من زخات الرصاص المنتظمة الانطلاق، وقد أتت بالثمرة المرجوة كما قلنا، وإن كان ذلك على حساب الحرية والكرامة. إلا أننا نعود فنقول للناس آنذاك ما يقوله المثل العربى: "يَدَاكَ أَوْكَتَا، وَفُوكَ نَفَخَ". فلا تلوْمَنَّ إلا أنفُسَكُمْ. لقد كنتم فى ستر الله وعافيته، فأبيتُم إلا أن تهتكوا ستر الله وأن تمزقوا عنكم عافيته، فوَكَلَكُمْ إلى اختياركم. وكما تكونوا يُوَلِّ عليكم. "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ". إلا أن المسألة لمَّا تنتهِ فصولا، فهناك من المنتسبين لأهل العلم من يرى أن الناس يجب عليهم السمع والطاعة حتى لو ضرب الحاكم أبشارهم، أى فعل بهم الأفاعيل، ولا يحق لهم أبدا التفكير فى تغييره بأيديهم، بل عليهم الرضا بما يصنع، وإلا كانوا آثمين يبوؤون بسخط الله. ومن ثم فزياد، فى نظر هؤلاء، على حق فيما كان يصنعه بالناس، وما دام يصلى فهنيئا له جبروته وفطاعة تصرفاته وأخذه الناس بالغشم الرهيب.

لكن الإنصاف يقتضى الإشارة إلى أن زيادا لم يقف عند هذا الحد، بل نبه الناس إلى أنه سوف يسير فيهم بالعدل ولن يجبس عن أحد حقه أو يتعسف معه. ومع هذا لا ينبغي أن يغيب عن البال ما أكده لهم من أن الله هو الذى أعطى الأميين الدولة، فلا يحق لأحد أن يفكر بخلاف ذلك، بل عليه أن يأكل وهو ساكت دون أن ينبس ببنت شفة. إلا أن من الناس من لا يمكن أن يقبل بسياسة "انج سعد، فقد هلك سعيد"، تلك السياسة التى لا تستبصر ولا ترى أو تسمع، بل تجز رقبة كل من يقابلها متى ما وقع خطأ من أى إنسان كائنا من كان بغض النظر عَمَّنِ البرىء وقتذاك أو

المسيء، إذ لا وقت للسؤال عن المجرم، بل الجميع مدين، ورقابهم جاهزة للتطير في الحال مهما كانت براءتهم. أما أصحاب العقل الجدل فيمكنهم أن يردوا قائلين: لو أن الناس عقلوا وشكروا الله على نعمته عليهم واحترموا حاكمهم العادل الرحيم الذي يخشى ربه ولم يقتلوه لم يقع ما وقع. كذلك لو أنهم لم يخرقوا القانون ويتتهجوا سياسة العصيان والفساد والعدوان ما سلط الله عليهم زيادا وأشباه زياد...

وهكذا يمكن أن نستمر في هذا الجدل، فنذكر عيب هذا، ثم نتبعه بعيب هؤلاء حتى لا نترك أيا من الفريقين دون أن نكشف عوراته ويتضح أن التبعة تقع على كنفى الطرفين. إن هذا الوضع الذي أماننا لم يكن ليتيم لولا اشتراك الطرفين فيه، فهما كَشَقِيَّ المقص لا يمكن أن يقص أحدهما وحده دون الآخر. وهو نفسه ما يقال إذا انتظمت الأحوال وحسنت أمور الناس. ومع هذا فإننا لا يمكننا إلا الإعجاب بمنطق زياد حين أجاب من طلبوا منه الاشتغال بنشر الأمن والقضاء على الفساد في الإقليم الذي كان يتولاه دفعة واحدة، إذ كان رأيه أنه منشغل الآن بالبصرة أولاً، وحين ينتهي من إقرار الأمن فيها فعندئذ يمكنه الانتقال منها إلى سواها من المدن. أى أنه يتبع سياسة الـ"خطوة خطوة" بدلا من أن يفتح الباب واسعا على مصراعيه فلا يستطيع أن يغلقه بعد ذلك أبدا. ولا شك أن هذا دليل على الحزم وحسن التفكير وإحكام التخطيط والبعد عن الهَوَج المُفْشِل.

وهناك أيضا من خطباء الأمويين الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي ألقى خطبة تشبه خطبة زياد من فوق منبر جامع الكوفة حين أسندت إليه ولاية العراق. وكانت الفتن قد عادت إليها كرة أخرى، فبعث به عبد الملك بن مروان لَوَأْدِهَا، فاتجه مباشرة إلى المسجد وصعد المنبر لِتَوِّه وقد اشتمل سيفه، وتنكب قوسه، وتلثم بعمامته، ثم جلس بعض الوقت لا ينطق بحرف، مما أثار سخرية بعض الحاضرين وفكر في أن يحذفه بالحجارة. لكنه نهض أخيرا من مجلسه فوق المنبر

ودخل كالعاصفة في خطبته، التي تذكرنا بخطبة زياد بما تحويه من تهديد ووعيد أتبعهما بالتنفيذ العاجل دون تردد أو لجلجة، وطير بعض الرقاب التي تباطأت في التنفيذ رغم ما كان لها من عذر صادق مقنع.

وهذه هي الخطبة العاصفة وقصتها كما رواها الجاحظ في كتاب "البيان والتبيين": "خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها في اثنى عشر ركباً على النجائب حتى دخل الكوفة فجاء حين انتشر النهار، وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء، فقال: على بالناس. فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

أنا ابن جَلَا وطلّاعُ الثّنايا متى أضع العمامة تعرفوني
أما والله إنى لأحتملُ الشرّ بحمّله، وأحدؤه بنعْله، وأجزيه بمثله، وإنى لأرى رؤوساً
قد أينعتُ وحن قِطافُها، وإنّى لصاحبُها. وإنّى لأنظرُ إلى الدّماء تَرَقُّقُ بين العمام والمُحى.
قد شمّرت عن ساقها فشمرّا

ثم قال:

هذا أوانُ الشّدِّ، فاشتدّى زيمٌ قد لفّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمَ
ليس براعى إبِلٍ ولا غنمٍ ولا بجزّارٍ على ظَهْرٍ وضمّ

وقال أيضاً:

قد لفّها اللَّيْلُ بعَضَلِي أروّع خراجٍ من الدّوى
مهاجرٍ ليس بأعرابي

إنّى والله يا أهل العراق، والشّقاق والنّفاق، ومساوى الأخلاق، ما أغمزُ تغماز التّين، ولا يقعّق لى بالشّنان. ولقد فرّرت عن ذكاء، ولقد فتّشت عن تجرّبة، وجريت إلى الغاية. إنّ أمير المؤمنين كبّ كِنانتَه ثم عَجَمَ عيدانها، فوجدنى أمرّها عوداً، وأصلبها عموداً، فوجّهنى إليكم،

فإنَّكم طالما أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتَنِ، واضطجعتُمْ فِي مِرَاقِدِ الضَّلَالِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَنَ الْغَى. أَمَّا وَاللَّهِ لَا تُحَوِّنْكُمْ لِحَوِّ الْعَصَا، وَلَا تُعْصِبَنَّكُمْ عَصَبَ السَّلَامَةِ، وَلَا تُضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبْلِ، فَإِنَّكُمْ لِكَأْهَلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ أَمْنَةً مَطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ، فَأَذَاهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعِدُّ إِلَّا وَفَيْتَ، وَلَا أَهْمُ إِلَّا أَمْضِيَّتَ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا فَرَيْتَ. فَيَايَ وَهَذِهِ الْجَمَاعَاتِ، وَقَالَ وَقِيلَ، وَمَا تَقُولُونَ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ؟ أَمَّا وَاللَّهِ لَتَسْتَقِيمَنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ أَوْ لَأَدْعَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُغْلًا فِي جَسَدِهِ. مَنْ وَجَدْتُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ مِنْ بَعَثَ الْمَهْلَبُ سَفَكْتُ دَمَهُ، وَانْتَهَبْتُ مَالَهُ " ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَهُ " .

وَفِي "الْأَوَائِلِ" لِلْعَسْكَرِيِّ أَنَّ الْحِجَاجَ بَعْدَ أَنْ أَلْقَى خُطْبَتَهُ "دَخَلَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ، وَحَجَّبَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَأَذِنَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَمِيرُ بْنُ ضَابِيٍّ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ. إِنِّي شَيْخٌ كَبِيرٌ، وَقَدْ خَرَجَ اسْمِي فِي هَذَا الْبَعْثِ. وَلِي ابْنٌ هُوَ عَلَى الْحَرْبِ وَالْأَسْفَارِ أَقْوَى وَأَشْجَعُ عِنْدَ اللَّقَاءِ. فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يَجْعَلَهُ مَكَانِي فَعَلْ. فَقَالَ: أَنْصَرِفْ أَيُّهَا الشَّيْخُ رَاشِدًا، وَابْعَثْ ابْنَكَ بَدِيلًا. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ لَهُ عَنبَسَةُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، أَتَعْرِفُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: هُوَ عَمِيرُ بْنُ ضَابِيٍّ، الَّذِي أَرَادَ أَبُوهُ أَنْ يَفْتِكَ بَعْثَانِ، فَلَمْ يَزَلْ مَحْبُوسًا عِنْدَهُ حَتَّى أَصَابَتْهُ الدُّبَيْلَةُ فَمَاتَ، ثُمَّ جَاءَ هَذَا فَوُطِئَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَهُوَ مَقْتُولٌ، فَكَسَرَ ضُلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ، وَأَبُوهُ الَّذِي يَقُولُ:

هَمَمْتُ، وَلَمْ أَفْعَلْ، وَكِدْتُ، وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عِثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهُ

فَقَالَ: عَلَى الشَّيْخِ. فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ لَهُ: أَمَّا يَوْمَ الدَّارِ فَتَشْهَدُ بِنَفْسِكَ، وَأَمَّا فِي قِتَالِ الْخَوَارِجِ فَتُبْعَثُ بَدِيلًا. إِنْ فِي قِتْلِكَ لَصَلَاحًا لِأَهْلِ الْمَصْرِيِّينَ. يَا حَرَسِي، اضْرِبْ عُنُقَهُ. فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ، فَصَاحَ الْبَرَاجِمُ عَلَى الْبَابِ، فَقَالَ: ارْمُوا إِلَيْهِمْ بِرَأْسِهِ. فَرُمِيَ بِهِ، فَوَلَّوْا هَارِبِينَ " .

وفي الخطبة، كما نرى، استعانة بآيات القرآن الكريم. وفيها كذلك سجع وموازنة وترادف وإكثار من الصور البلاغية، وهي صور حادة عنيفة تبثّ الفزع في القلوب بثًا. كما يستشهد فيها صاحبها بالشعر، ويقتبس ما يردده الناس في حواراتهم اليومية تمثيلًا للحال التي يصف. وجمله قصيرة أو مقسمة إلى عبارات قصيرة. ولسانه قاطع لا يبالي ما يقول، فهو يشتم أهل العراق شتمًا جارحًا يسلخ الجلود ويفرى اللحوم، ويتهمهم بما يخرجهم من الدين ببساطة شديدة. والخطبة مفعمة بحديث الحجاج عن نفسه، وحديثه عن نفسه مفرغٌ بشعٍ كله تهديد وقعقة لم يتوان أن يرى الناس آثارهما، فحسم الداء وقضى عليه. وقد رأينا كيف اعتمد الأسلوب المسرحي عند صعوده على المنبر ليلقى خطبته لفتًا للأنظار والأسماع وإحداثًا للمباغطة المطيرة للعقول الناخبة للقلوب. وفضلا عن هذا وذاك وذلك نجده قد أتبع القول بالفعل حتى قذف الوهل في النفوس، فكف الناس عن الفساد، رعبا لا اقتناعا. والمهم أنه قد أقر الأمور بعدما كانت الفتن تموج موجا. ولست أقصد أنني راض عن منهجه، لكنني أنظر إلى الأمر بعين رجل الدولة الذي كلفه الخليفة القضاء على أسباب الاضطراب، ففرض عليه.

ومن خطباء العصر كذلك واصل بن عطاء. وهو أحد الخطباء الوعاظ المتكلمين، ومات في آخر الدولة الأموية. وكان بارعا في الخطابة مشهورا برباطة الجأش وقوة الإرادة وطول الأناة حتى لقد استطاع تجنب لُثْغَة قبيحة كانت في لسانه، فظل يجاهدها حتى استطاع تحاشي كل كلمة بين حروفها راء مستبدلاً غيرها بها، سواء في ذلك خطبه المحفوظة أو المرتجلة أو المحادثات أو المحاورات بينه وبين أشباهه من العلماء وفي حضرة كبار الدولة. وقال د. شوقي ضيف، في كلامه عن الخطباء في العصر الأموي، إن الخطبة التي ألقاها واصل خالية تماما من حرف الراء لا يمكن أن تكون مرتجلة على البديهة على عكس ما يقال عن براعته في ارتجال أية خطبة على الفور دون أن يسهو أو ينسى أو يخطئ فيضمنها راء، بل لا بد أن يكون قد أعدها مسبقا. وأشار الجاحظ إلى أن

بعض خطبه يحتمل أن يكون سابق التجهيز، إلا أن مواقف الجدالية وردوده العفوية كانت هي أيضا خالية من الرأى، وهو ما لا يمكن أن يكون معدا سلفا. ومع هذا فليس من المستبعد أن يكون قد ارتجل تلك الخطبة بعدما استحصدت مرثته في هذا الجانب نتيجة لكثرة المراتة وطول الدربة ما دام الجاحظ قد ذكر أنه كان يصنع ذلك في محاوراته مع خصومه، وفي ردوده العفوية على أصدقائه.

يقول الجاحظ في "البيان والتبيين": "لما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ، وأنَّ مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لا بُدَّ له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطوال، وأنَّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنَّ حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب، وتُثنى به الأعناق، وتُزين به المعانى، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرِّفة كنحو ما أعطى الله تبارك وتعالى نبيه موسى عليه السلام من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة، ومع المحنة والاتساع في المعرفة، ومع هدى النبيين وسمت المرسلين، وما يغشيه الله به من القبول والمهابة... ومع ما أعطى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام من الحجَّة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبرهانات الواضحة، إلى أن حلَّ الله تلك العقدة وأطلق تلك الحُبسة، وأسقط تلك المحنة، ومن أجل الحاجة إلى حُسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة إسقاط الرأى من كلامه، وإخراجها من حروف منطقهِ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالِبُه، ويناضله ويساجله، ويتأتَّى لسرِّه والراحة من هُجَّتِه، حتَّى انتظم له ما حاول، وأنسَق له ما أمَّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتَّى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلماً، لما استجزنا الإقرار

به، والتأكيد له. ولستُ أعْنِي خُطْبَه المحفوظة ورسائله المخلَّدة، لأنَّ ذلكَ يحتمل الصَّنعة، وإنما عَنَيْتُ حَاجَةَ الخصوم ومناقلة الأَكفاء ومفاوِضة الإخوان...
وكان واصلُ بن عطاءٍ قبيحَ اللُّثغة شنيعها، وكان طويلَ العنقِ جدا. ولذلك قال بَشَّارُ الأعمى:

مَالِي أَشَايِعُ غَزَا لَا لَهُ عُنُقُ كِنْتُنِقِ الدَّوَّ إِن وَلَّى وَإِنْ مَثَلَا؟
عُنُقُ الزَّرَافَةِ، مَا بَالِي وَبِالْكُمُو؟ أَتُكْفِرُونَ رَجَالًا أَكْفَرُوا رَجُلًا؟

فلما هجا واصلًا وصوّب رأى إبليسَ في تقديم النَّارِ على الطِّينِ، وقال:
الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ، وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مَذْكَانَتِ النَّارُ
وجعل واصلُ بنَ عطاءٍ غَزَا لَا، وزَعَمَ أَنَّ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَفَرُوا بَعْدَ وَفَاةِ الرَّسُولِ، فَقِيلَ
له: وَعَلَى أَيِّضًا؟ فَأَنْشَدَ:

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ، أُمَّ عَمْرٍو، بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَضْبَحِينَا

قال واصلُ بن عطاءٍ عند ذلك: أَمَا لِهَذَا الأعمى المَلْحِدِ المُشَنَّفِ المُكَنَّى بـ"أبي معاذ" مَنْ يَقْتُلُهُ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الْغِيلَةَ سَجِيَّةٌ مِنْ سَجَايَا الْغَالِيَةِ لَبَعَثْتُ إِلَيْهِ مَنْ يَبْعَجُ بَطْنَهُ عَلَى مَضْجَعِهِ، وَيَقْتُلُهُ فِي جَوْفِ مَنْزِلِهِ وَفِي يَوْمِ حَفْلِهِ، ثُمَّ كَانَ لَا يَتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْهُ إِلَّا عُقِيلِي أَوْ سَدُوسِي. قال إسماعيل بن محمد الأنصاري وعبدُ الكريم بن رَوْحِ الْغِفَارِي: قال أبو حفص عُمَرُ بْنُ أَبِي عَثْمَانَ الشَّمَّرِي: أَلَا تَرِيَانِ كَيْفَ تَجَنَّبُ الرَّاءَ فِي كَلَامِهِ هَذَا، وَأَنْتَ، لِلَّذِي تَرِيَانِ مِنْ سَلَامَتِهِ وَقِلَّةِ ظَهْوَرِ التَّكْلُفِ فِيهِ، لَا تَظُنَّانِ بِهِ التَّكْلُفَ، مَعَ امْتِنَاعِهِ مِنْ حَرْفِ كَثِيرِ الدَّوْرَانِ فِي الْكَلَامِ؟ أَلَا تَرِيَانِ أَنَّهُ حِينَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقُولَ: "بَشَّار، وَابْنُ بُرْدٍ، وَالْمَرْعَثُ" جَعَلَ "الْمُشَنَّفُ" بَدَلًا مِنْ "الْمَرْعَثِ"، وَ"الْمَلْحِدُ" بَدَلًا مِنْ "الْكَافِرِ"، وَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ الْغِيلَةَ سَجِيَّةٌ مِنْ سَجَايَا الْغَالِيَةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ "الْمَنْصُورِيَةَ وَلَا الْمَغِيرِيَةَ" لِمَكَانِ الرَّاءِ، وَقَالَ: "لَبَعَثْتُ" مَنْ يَبْعَجُ بَطْنَهُ، وَلَمْ

يقول: "لأرسلتُ إليه"، وقال: على "مضجعه"، ولم يقل: على "فراشه". وكان إذا أراد أن يذكر "البُرَّ" قال: القمح أو الحنطة...

وهذه خطبة واصل بن عطاء المتزوعة الرائ: "الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذى علا فى دنوّه، ودنا فى علوّه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظُ ما خلّق، ولم يخلقه على مثالٍ سبق، بل أنشأه ابتداء، وعدّله اصطناعاً، فأحسن كل شىء خلقه، وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقّب لحكمه ولا دافع لقضائه. تواضع كل شىء لعظمته، وذل كل شىء لسلطانه، ووسّع كلّ شىء فضله، لا يعزّب عنه مثقال حبة، وهو السميع العليم. وأشهد ألا إله إلا الله وحده إلها. تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزّه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلّم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون. وأشهد شهادة حق، وقول صدق، بإخلاص نية، وصحة طوية، أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينه والهدى ودين الحق، فبلغ مآلكتّه، ونصح لأمتّه، وجاهد فى سبيل الله لا تأخذه فى الحق لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضياً على سنته، موفياً على قصده حتى أتاه اليقين. فصلّى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأزكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك. إنه حميد مجيد.

أوصيكم، عباد الله، مع نفسى بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، وأحضكم على ما يدينكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد، وأحسن عاقبة فى معاد. ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزييتها وخدعها، وفواتن لذاتها وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شىء منها يزول. فكم عايتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبالها، وأهلكتم من جَنَح إليها، واعتمد عليها. أذاقتهم حلوا، ومزجت لهم سما. أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا

المصانع، وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد؟ قبضتهم بمخلابها، وعصتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقا، ومن العزة ذلا، ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحد، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تشهد إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد، ولا تسمع لهم نبسا. فتزودوا، عفاكم الله، فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون. جعلنا الله وإياكم ممن يتنفع بمواعظه، ويعمل لحظّه وسعادته، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه. أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أئمة الألباب. إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواظ المتقين، كتاب الله الزاكية آياته، الواضحة بيناته. فإذا تلى عليكم فأنصتوا له واسمعوا لعلكم تفلحون. أعوذ بالله القوي، من الشيطان الغوي. إن الله هو السميع العليم. قل: هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. نفعا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، والوحي المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم".

ومن خطباء العصر الأموي المشهورين أبو حمزة الشاري، واسمه المختار بن عوف. وُلِدَ بالبصرة. وهو من الخوارج الإباضية، وكان عنيف العبارة قاسى الحكم لا يورى ولا يداجى، شأنه في ذلك شأن الخوارج عموما. خرج على مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين بعد أن ظل يذهب للحج كل عام يحث الناس على حربه، ثم اشتبك بقواته أخيرا في معركة مع جيشه، فدارت الدائرة عليه، وانهمز وقُتِل. ومما خطب به أهل المدينة الخطبة التالية التي حمل فيها عليهم وعنفهم وسفّههم وشكك في دينهم. ويلاحظ القارئ أنها تتسم بقصر الجمل وتوازنها واستعمال الترادف والسجع والمقابلة في كثير من الأحيان، واستيحاء العبارة القرآنية بين الحين والحين. والألفاظ والعبارات والتراكيب سهلة مناسبة لا عنت فيها. ويضع أبو حمزة الشاري نفسه في موضع أعلى من موضع مخاطبيه، فهو يحكم حكما شديدا عليهم وعلى مذهبهم، راميا إياهم بالتفلة من الدين، ومؤكدا لهم

أنهم شر خلف لخير سلف. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "يا أهل المدينة، ما لي رأيْتُ رسم الدين فيكم باقيا، وآثاره دارسة، لا تقبلون عظة، ولا تفقهون من أهله حجة؟ قد بليت فيكم جدُّته، وانطمست عنكم سُنَّته. تَرَوْنَ معروفة منكرا، والمنكر من غيره معروفا. إذا انكشفت لكم العبر، وأوضحت لكم النُّذر، عَمِيَتْ عنها أبصاركم، وصَمَّتْ عنها أَسْمَاعُكُمْ، ساهين في غمرة، لاهين في غفلة، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نُشِر، وتنقبض عن الحق إذا ذُكِر، مستوحشة من العلم، مستأنسة بالجهل، كلما وقعت عليها موعظة زادت بها عن الحق نفورا. تحملون قلوبا في صدوركم كالْحِجَارَةِ أو أشد قسوة من الْحِجَارَةِ. أَوَلَمْ تَلِنْ لكتاب الله الذي لو أنْزِلَ على جبل لرَأَيْتَهُ خاشعا متصدعا من خشية الله؟ يا أهل المدينة، ما تُغْنِي عنكم صحَّةُ أبدانكم إذا سقمت قلوبكم؟ إن الله قد جعل لكل شئ سببا غالبا ينقاد له ويطيع أمره، وجعل القلوب غالبية على الأبدان. فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا. وإن القلوب لا تلين لأهلها إلا بصحتها، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوة النية ونفاذ البصيرة. ولو اسْتَشْعَرَتْ تقوى الله قلوبكم لاسْتَعْمَلْتُمْ في طاعة الله أبدانكم.

يا أهل المدينة، داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله لَمَّا نَبَتْ به داره، وضاق به قراره، وآذاه الأعداء، وتجهمت له الأقرباء، فنقله الله إليكم، بل إلى قومٍ لَعَمْرِي لم يكونوا أمثالكم، متوازين مع الحق على الباطل، مختارين الآجل على العاجل، يصبرون للضراء رجاء ثوابها، فنصروا الله وجاهدوا في سبيله، وآووا رسول الله ونصروه واتبعوا النور الذي أنْزِلَ معه، وآثروا الله على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم: "وَمَنْ يَوْقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ". وأنتم أبناؤهم، وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْفِهِمْ، تتركون أن تقتدوا بهم، أو تأخذوا بسببهم، عُمِيَ القلوب صُمَّ الأذان. اتبعتم الهوى، فأرداكم عن الهدى وأسهاكم. فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجرون، ولا تعظكم فتعتبرون، ولا توقظكم فتستيقظون. لَيْسَ الْخُلَفُ أَنْتُمْ

من قومٍ مَضَوْا قبلكم ما سِرْتُمْ بسيرتهم، ولا حفظتم وصيتهم، ولا احتذيتُم مثاهم. لو شَقَّتْ عنهم قبورهم فَعَرِضَتْ عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صُرِفَ العذابُ عنكم.

يا أهل المدينة، أوَّلُكم خيرٌ أوَّلٍ، وآخرُكم شرُّ آخرٍ. إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم عن كتابٍ غيرِ ذِي عِوَجٍ بتأويلِ الجاهلين، وانتحالِ المبطلين، فأصبحتم عن الحقِ نائين، أمواتا غيرِ أحياء وما تشعرون. يا أهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أَصَحَّ أصلكم، وأَسْقَمَ فرعكم! كان آبائكم أهل اليقين، وأهل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة، والقلوب الواعية، وأنتم أهل الضلالة والجهالة. استعبدتكم الدنيا فأذلتكم، والأمانى فأضلتكم. فتح الله لكم باب الدين فسددتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه. سِرَاعٌ إلى الفتنة، بِطَاءٍ عن السُّنَّةِ، عُمى عن البرهان، صُمٌّ عن العرفان، عبید الطمع، حلفاء الجزع. نِعَمَ ما ورثكم آبائكم لو حفظتموه! وبئس ما تورثون أبناءكم إن تمسكوا به! نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل. كان عدد آبائكم قليلا طيبا، وعددكم كثير خبيث. اتبعتم الهوى فأرداكم، واللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون، وتعبركم فلا تعتبرون."

الرسائل:

عرف العرب في عصر صدر الإسلام الرسائل الشريفة، التي لم نسمع أنهم كانوا يعرفونها في الجاهلية، فقد كانوا أميين إلى حد بعيد. أما في الإسلام فقد تغيرت الأمور، إذ دعا أتباعه إلى السعي الحثيث في طلب المعرفة وتعلم القراءة والكتابة. ومن تلك الرسائل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام. أَسْلِمَ تَسْلَمَ يَوْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مرتين. فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنْ عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا:
اشْهَدُوا بَأَنَّا مُسْلِمُونَ".

وكذلك رسالته إلى كسرى: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى
عظيم فارس: سلامٌ على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد ألا إله إلا الله وحده لا
شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله. وأدعوك بدعاء الله، فإنني أنا رسول الله إلى الناس كافةً لَأُنْذِرَ
مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ. فَإِنْ تُسَلِّمَ تَسْلِمًا، وَإِنْ أَبَيْتَ فَإِنِ إِيَّامُ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ".

ولدينا أيضا معاهدته صلى الله عليه وسلم مع قريش في صلح الحديبية على أن يعود صلى
الله عليه وسلم إلى المدينة عامه ذلك دون أن يدخل مكة على أن يؤجل إلى العام المقبل العمرة التي
كان قد أتى هو والمسلمون لتأديتها: "هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سُهِيلَ بْنَ عمرو:
اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض،
على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رَدَّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه
عليه. وإن بيننا عِيَّةٌ مكفوفةٌ، وإنه لا إسلال ولا إغلal، وإنه مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ
وعهده دخل فيه، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عامك هذا
فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عامٌ قابلٌ خَرَجْنَا عَنْكَ فَدَخَلْتَهَا بِأَصْحَابِكَ، فَأَقَمْتَ فِيهَا ثَلَاثًا
معك سلاح الراكب: السيوف في القُرْب، لا تدخلها بغيرها".

ثم رسالته إلى يهود خيبر: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله صلى الله عليه
وسلم صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل
التوراة، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم: "محمدٌ رسولُ الله والذين معه أشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا. سِيَمَاهُمْ فِي وَجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ.
ذلك مثْلُهُمْ فِي التَّوَارَةِ وَمَثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

يعجب الزَّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ. وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا". وَإِنِّي أَنُشَدُّكُمْ بِاللَّهِ، وَأُنشَدُّكُمْ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ، وَأُنشَدُّكُمْ بِالَّذِي أَطْعَمَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَسْبَاطِكُمُ الْمَنِّ وَالسَّلَوى، وَأُنشَدُّكُمْ بِالَّذِي أَيْسَرَ الْبَحْرَ لَأَبَائِكُمْ حَتَّى أَنْجَاهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ إِلَّا أَخْبَرْتُمُونِي: هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَوَّعَدُوا بِمُحَمَّدٍ؟ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي كِتَابِكُمْ فَلَا كَرِهَ عَلَيْكُمْ. "قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَى". فَأَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى نَبِيِّهِ".

وعهده إلى أهل نجران عام الوفود: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب محمد النبي رسول الله لأهل نجران إذ كان حكمه عليهم أن في كل سوداء أو بيضاء وصفراء وتمر وورق، وأفضل عليهم وترك ذلك لهم على ألفى حلة: في كل صفر ألف حلة، وفي كل رجب ألف حلة، مع كل حلة أوقية. ما زادت على الخراج أو نقصت على الأوقى فبحساب، وما قَصَّوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أَخَذَ مِنْهُمْ بِحَسَابٍ، وَعَلَى نَجْرَانَ مِثْلُ رُؤْسِي وَمِثْلُ عَشْرِينَ فِدْوَنَهُ، وَلَا يُجَبِّسُ رَسُولٌ فَوْقَ شَهْرٍ، وَعَلَيْهِمْ عَارِيَةٌ ثَلَاثِينَ دِرْعًا وَثَلَاثِينَ فَرَسًا وَثَلَاثِينَ بَعِيرًا إِذَا كَانَ كَيْدٌ بِالْيَمَنِ وَمَعْدَرَةٌ. وَمَا هَلَكَ مِمَّا أَعَارُوا رَسُولِي مِنْ دُرُوعٍ أَوْ خَيْلٍ أَوْ رِكَابٍ فَهُوَ ضِمَانٌ عَلَى رَسُولِي حَتَّى يُوَدِّيَهُ إِلَيْهِمْ. وَلِنَجْرَانَ، وَحَسْبُهَا، جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأَرْضِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ وَتَبِعِهِمْ، وَأَلَا يَغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَلَا يَغَيِّرُ حَقٌّ مِنْ حَقِّهِمْ وَلَا مِلَّتُهُمْ، وَلَا يَغَيِّرُ أَسْقُفٌ مِنْ أَسْقَفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا وَاقٍ مِنْ وَقْفِيَّتِهِ وَكُلُّ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ رِبْيَةٌ وَلَا دَمٌ جَاهِلِيَّةٍ، وَلَا يُخَشَّرُونَ وَلَا يَعْشَّرُونَ، وَلَا يَطَأُ أَرْضَهُمْ جَيْشٌ. وَمَنْ سَأَلَ مِنْهُمْ حَقًّا فَبَيْنَهُمُ النَّصْفُ غَيْرَ ظَالِمِينَ وَلَا مَظْلُومِينَ، وَمَنْ أَكَلَ رِيبًا مِنْ ذِي قَبْلِ فِذْمَتِي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، وَلَا يُؤْخَذُ رَجُلٌ مِنْهُمْ بِظُلْمٍ آخَرَ. وَعَلَى مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ جَوَارُ اللَّهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ مَا نَصَحُوا وَأَصْلَحُوا فِيهَا عَلَيْهِمْ غَيْرُ مُنْقَلِبِينَ بِظُلْمٍ".

وكتب أبو بكر بعد وفاة النبي عهداً إلى أهل نجران يؤكد عهد النبي عليه السلام معهم هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا الكتاب من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نجران: أجارهم من جنده ونفسه، وأجاز لهم ذمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما رجع عنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله عز وجل في أرضهم وأرض العرب ألا يسكن بها دينان. أجارهم على أنفسهم بعد ذلك وملتهم وسائر أموالهم وحاشيتهم وعاديتهم، وغائبهم وشاهدتهم، وأسقفهم ورهبانهم ويبيعهم حيثما وقعت، وعلى ما ملكت أيديهم من قليل أو كثير، عليهم ما عليهم. فإذا أدّوه فلا يحشرون ولا يعشرون. ولا يغير أسقف من أسقفية ولا راهب من رهبانية. ووفى لهم بكل ما كتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما في الكتاب من ذمة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوار المسلمين. وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق".

وبعث أبو عبيدة بن الجراح إلى أبي بكر رضى الله عنهما فيما جرى بين أهالى الشام وملئهم: "بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فالحمد لله الذى أعزنا بالاسلام، وأكرمنا بالإيمان، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه. إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. وإن عيونى من أنباط أهل الشام أخبرونى أنّ أوائل أمداد ملك الروم قد قدّموا إليهم، وأنّ أهل مدائن الشام قد بعثوا رسلهم إليه يستمدّونه، وأنه كتب إليهم أنّ أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدّم عليكم من العرب، فانهمضوا إليهم فقاتلوهم، فإنّ مددى يأتيكم من ورائكم. فهذا ما بلغنا عنهم. وأنفس المسلمين طيبة بقتالهم. وقد أخبرونا أنهم قد تهيأوا لقتالنا. فأنزل الله على المسلمين نصره، وعلى المشركين زجره. إنه بما يعملون عليم. والسلام".

وقد رد الصديق عليه رضوان الله برسالة تقول: "أما بعد فقد جاءنى كتابك تذكر فيه تيسر عدوكم لمواقعتكم وما كتب به إليهم ملكهم من عدته إياهم أن يمدّهم من الجنود بما تضيق به

الأرض الفضاء. وَلَعَمْرُ اللَّهِ لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه بُرُجُها. وَإِيْمُ اللَّهِ ما أنا ببيأسٍ أن تزيلوه من مكانه الذى هو به عاجلا إن شاء الله تعالى. فُبُتَّ خيلك فى القرى والسَّواد، وَضِيقٌ عليهم بَقَطْعِ الميرَة، ولا تحاصر المدائن حتى يأتىك أمرى. فإن ناهدوك فانهض إليهم، واستعن بالله عليهم، فإنه ليس يأتِيهم مدد إلا أمددناكم بمثلهم أو ضعفهم. وليس بكم، والحمد لله، قلة ولا ذلة. ولا أعرفنَّ ما جَبُتُم عنهم، فإن الله فاتحٌ لكم، ومُظْهِرُكم على عدوكم، ومُعزُّكم بالنصر، وملتمسٌ منكم الشكرَ لينظر كيف تعملون. وعمر و فأوصيك به خيرا، فقد أوصيته ألا يضيع لك حقا. والسلام عليك".

ومنها أيضا رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى، وهى: "بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس: سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة. فافهم إذا أُدْلِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذَ له. آسٍ بين الناس بوجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريفٌ فى حيفك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك. البينة على من ادَّعى، واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحلَّ حراما أو حرَّم حلالا. لا يمتنعنَّ قضاءُ قضيتَه اليوم فراجعتَ فيه عقلك وهُديتَ فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديمٌ، ومراجعة الحق خير من التماهى فى الباطل. الفهمُ الفهمُ فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سُنَّة. ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقسِ الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدًا ينتهى إليها: فإن أحضر بيَّتَه أخذتَ له بحقه، وإلا استحلتتَ عليه القضية، فإنه أنفى للشك، وأجلى للعمى. المسلمون عدوٌّ بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد، أو مجرِّبا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو نسب. فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والأيمان. وإياك والغلق والضَّجر والتأذى بالخصوم والتنكُّر عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق ليعظَّم الله به الأجر،

ويحسن به الذخر. فمن صَحَّتْ نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله. فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ والسلام".

وهذا نص رسالة عمر بن الخطاب أيضا إلى عمرو بن العاص عامله على مصر في أمر الخراج وقلة ما يرُدُّ إليه من مصر: "بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص: سلام عليك. فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإني فكرت في أمرك والذي أنت عليه، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوةً في برٍّ وبحرٍ، وأنها قد عاجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عُتُوِّهم وكفرهم، فعجبتُ من ذلك. وأعجب مما عجبتُ أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحوط ولا جدوب. ولقد أكثرْتُ في مكاتبتك في الذي على أرضك من الخراج، وظننتُ أن ذلك سيأتينا على غير نَزَرٍ، ورجوتُ أن تفيق فترفع إلى ذلك، فإذا أنت تأتيني بمعاريض تعبأ بها لا توافق الذي في نفسي. ولست قابلاً منك دون الذي كنت تُؤْخِذُ به من الخراج قبل ذلك. ولست أدري ما الذي أَنْفَرَكَ من كتابي وَقَبَضَكَ! فلئن كنت مجزئاً كافياً صحيحاً إن البراءة لنافعة، ولئن كنت مضيعاً نطقاً إن الأمر لعل غير ما تحدّث به نفسك. وقد تركتُ أن أبتغي ذلك منك في العام الماضي رجاء أن تفيق فترفع إلى ذلك. وقد علمتُ أنه لم يمنعك من ذلك إلا عمالك عمال السوء وما تُوَالِسُ عليه وتلفف. اتخذوك كهفًا، وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسألك عنه. فلا تجزع، أبا عبد الله، أن يؤخِّدَ منك الحق وتُعْطَاهُ، فإن النَّهْزَ يخرج الدَّرَّ. والحقُّ أبلج، ودعني وما عنه تتلجلج، فانه بَرِّحَ الخفاء. والسلام".

وقد رد عليه عمرو بن العاص بالرسالة التالية: "بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو بن العاص: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو. أما بعد

فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين فى الذى استبطأنى فيه من الخراج والذى ذكر فيه من عمل الفراعنة قبل، وإعجابه من خراجها على أيديهم، ونقص ذلك منها منذ كان الإسلام. ولَعَمْرِي لِلْخَرَجِ يومئذ أوفر وأكثُر، والأرض أعمر، لأنهم كانوا على كفرهم وعُتُوهم أرغب في عمارة أرضهم منا منذ كان الإسلام. وذكرت بأن النَّهْزَ يُخْرِجُ الدَّرَّ، فحلبتها حلبًا قطع دَرَّها. وأكثرَت في كتابك وأَبَّت، وعَرَضْتَ وَتَرَّبْتَ. وعلمتُ أن ذلك عن شىء تخفيه على غير خُبْرٍ، فجئتَ لعمري بالمفطعات المقذعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق. وقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولمن بعده، فكنا بحمد الله مُؤَدِّينَ لأماناتنا، حافظين لما عَظَّمَ اللهُ من حق أئمتنا، نرى غير ذلك قبيحًا، والعمل به سيئًا، فيعرف ذلك لنا ويصدق فيه قِيلُنَا. معاذ الله من تلك الطَّعَم، ومن شر الشُّيم، والاجترأ على كل مآثم. فاقبض عملك، فإن الله قد نَزَّهَنِي عن تلك الطَّعَم الدَّنيَّة والرَّغبة فيها بعد كتابك الذى لم تَسْتَبِقْ فيه عَرْضًا، ولم تُكْرِمْ فيه أَخًا. والله، يا ابن الخطاب، لَأَنَا حين يراد ذلك منى أشدُّ لِنَفْسِي غضبًا، ولها إنزاهًا وإكرامًا. وما عملتُ من عمل أرى على فيه مُتَعَلِّقًا، ولكنى حفظتُ ما لم تحفظ. ولو كنتُ من يهود يثرب ما زدت، يغفر الله لك ولنا. وسكتُ عن أشياء كنتُ بها عالمًا، وكان اللسان بها منى ذُلُولًا، ولكن الله عَظَّمَ مِنْ حَقِّكَ ما لا يَجْهَل. والسلام".

وقد أوردتُ رسالة عمر وردَّ عمرو عليه رغم ما يحوك في النفس تجاههما من أشياء: فمن المستبعد جدا أن يكون عمر متلهفًا على كثرة الخراج بهذا الشكل، إذ كان رضى الله عنه أرحم برعيته في البلاد المفتوحة من ذلك. كذلك من الغريب أن يقارن الفاروق بين خراج الفراعنة وخراج عمرو وكأن تحت يديه إحصاءات اقتصادية بما تنتجه مصر من خيرات عبر العصور ينظر فيها. ولنفترض أننا غضضنا النظر عن هذه النقطة لقد كانت المقارنة بين ما كان الرومان يستخرجونه من هذا الخراج وما يستخرجه عمرو منه أخرى وأقرب إلى العقل والمنطق لأن

العرب فتحوا مصر في عهد الاحتلال الرومانى لا في عهد الفراعنة، وهذا إن كان حكم الفراعين في كل أدوار تاريخهم شيئاً واحداً في الازدهار الاقتصادى. كذلك ليس من السهل أن أتصور جرأة عمرو في الرد على ابن الخطاب المهيّيب بهذا الأسلوب الذى نراه في رسالته. ويكفى أن نستحضر في أذهاننا موقف عمر منه في حكاية المصرى الذى اعتدى عليه ابن عمرو بعد أن تفوق عليه المصرى في سباق الخيل حتى نعرف أن عمرو لا يمكن أن يجرؤ على عمر كل تلك الجراءة. ثم كيف نوفق بين موقف عمرو من طلب عمر كما يعكسه رده عليه وبين موقفه منه في عام الرمادة لدى استنجد الفاروق به كى يعينه على مواجهة المجاعة في بلاد العرب. لقد كتب إليه عمر: "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاصى. سلام عليك، أما بعد أفترانى هالكا ومن قبل وتعيش أنت ومن قبلك؟ فياغوثاه! يا غوثاه!"، فكان رد ابن العاص: "سلام عليك. فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو. أما بعد فقد أتاك الغوث. فلا بُعَثَ إليك بعير أولها عندك، وآخرها عندى إن شاء الله"، ثم أتبع الوعد بالتنفيذ في الحال. أترى من الممكن أن يكون صاحبها تين الرسالتين وهذين التصرفين هما أنفسهما صاحبي الرسالتين الأوليين؟ مجرد سؤال.

أما الرسالة التالية فهي أول ما كتبه عثمان إلى عماله: "أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعاة، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جُباة. وإن صدر هذه الأمة خُلِقُوا رعاة، ولم يخلقوا جباة. وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم ما لهم، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثْنُوا بالذمة، فتعطوهم الذى لهم، وتأخذوهم بالذى عليهم. ثم العدو الذى تتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء".

وفي اتفاقية التحكيم بين على ومعاوية كُتِبَ كتاب هذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان: قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم

من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاويةً على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين. إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته: نحى ما أحيا، ونميت ما أمات. فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل، وهما أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشى، عملاً به. وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسُّنَّة العادلة الجامعة غير المفرقة. وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجند من العهود والميثاق والثقة من الناس أنها آمان على أنفسهما وأهلها. والأمة لهما أنصارٌ على الذى يتقاضيان عليه. وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين. فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وشاهدتهم وغائبهم. وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يذراها فى حرب ولا فرقة حتى يقضيا. وأجل القضاء إلى رمضان. وإن أحبَّ أن يؤخرا ذلك أخراه على تراضٍ منهما. وإن توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه، ولا يألو من أهل المعدلة والقسط. وإن كان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وإن رضى وأحبَّ فلا يحضرهما فيه إلا من أراد. ويأخذ الحكمان من أراد من الشهود، ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة. وهم أنصارٌ على من ترك ما فى هذه الصحيفة، وأراد فيه إلحاداً وظلماً. اللهم إنا نستنصرك على من ترك ما فى هذه الصحيفة".

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الرسائل والمعاهدات فى ذلك العصر تتسم بالقصر فى معظم الأحيان وتنتهج أسلوباً بسيطاً مباشراً ليس فيه شيء من التكلف ولا الحرص على الزينة من سجع وجناس وموازنة واستعارات طريفة، بل تضع همها كله فى إيراد المعنى وإبرازه فى أوضح صورة ممكنة دون تزيد أو فضول أو أى لون من ألوان الإطناب. فالمقدمة قصيرة تنتهى فى كلمتين

أو ثلاث، ولا تفخيم في الألقاب أو مبالغة في التعبير، إذ يجري الأمر فيها طبقاً للتعبير الإنجليزى الذى يقول عن الشخص الصريح إنه يسمّى الجاروف: جاروفا. إن هذه النصوص تتسم بالصراحة والقصد إلى الفكرة المرادة دون لف أو دروان أو غموض. والتراكيب فيها بسيطة محكمة، والتعابير مصبوبة في قوالب منضبطة. ويحس القارئ وكأنه في بيته بين أهله دون أى شعور بالوحشة. ولا ينبغي إذن أن يقال إن الرسائل قد بدئت بعبد الحميد آخر كاتب في الدولة الأموية، وكان فارسي الأصل، إذها نحن أولاء إزاء رسائل ومعاهدات تنتمى إلى العصر الإسلامى في عهد الرسول وفي عهود الخلفاء الراشدين. فالرسائل إذن كانت موجودة قبل عبد الحميد. نعم قد دخل الرسائل ألوان من التطور، لكن هذا لا يعنى أن فن الرسائل لم يعرف إلا على يده. ذلك أنه من الطبيعى أن يعترى ذلك الفن في مساره الطويل ما اعتراه من تغيرات، فهذه سنة الحياة، التى يعد التطور ركناً أصيلاً من أركانها.

الرسائل في العصر الأموى: كثرت الرسائل الرسمية في ذلك العصر واشتهر كثير من رجاله في ذلك المجال. ومنهم عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢هـ). جاء في "الموسوعة العربية العالمية" أنه "عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشى، من أعلام الكتاب في القرن الثانى للهجرة، فارسي الأصل عربى الولاء. نشأ في الأنبار أو الشام على خلاف بين المؤرخين. وظهر في بداية أمره مساعداً لصهره سالم صاحب ديوان الرسائل في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم عمل بعد ذلك كاتباً لمروان بن محمد والى أرمينيا وأذربيجان، ثم عمل أخيراً كاتباً أول للدولة الأموية على عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية. ولكنه قُتل مع خليفته على يد العباسيين عندما تَوَلَّوْا الحكم. ويعدّ عبد الحميد من أبرز الكتاب في تاريخ النثر العربى، فهناك شبه إجماع بين المؤرخين والنقاد على أنه كان صاحب مدرسة جديدة في كتابة الرسائل في النثر العربى عمادها ما يلي: ١ - الازدواج، أى إيراد عبارات متعددة متقاربة في المعنى لتوكيد فكرته، ولإشاعة جو من التنعيم

الموسيقى الجميل في كتاباته. ٢- الإطناب في رسائله. ٣- الإطالة في تحميداته. ٤- الإكثار من الوصف بالحال. ٥- قصر الفواصل على طريقة الخطابة. ٦- توسيع أغراض الرسائل لتشمل بعض الأغراض التي كانت قبله خاصة بالشعر، مثل التعزية والتهنئة والنصح والوصف وغيرها. وقد تأثر بهذه المدرسة عدد كبير من الكتاب الذين جاؤوا بعده... ويعدّ عبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي حتى صارت بلاغته مضرب المثل، فقد قيل: فُتِحَتِ الرسائلُ بعبد الحميد، وخُتِمَتِ بابن العميد". وبالرغم من أننا لا نملك ديواناً خاصاً برسائله إلا أن كتب الأدب قد حفظت لنا قدراً طيباً من رسائله الديوانية والإخوانية لعل من أهمها: ١- رسالته إلى الكتاب، وفيها يبدو تأثره بما أُثِرَ من وصايا ملوك الفرس لكتابهم. ٢- رسالته التي كتبها إلى عبد الله بن مروان على لسان أبيه. ٣- رسالته في وصف الصيد والشطرنج. ٤- رسالته إلى أهله وهو منهزم مع مروان بن محمد".

وقد قيل إن ثقافته فارسية يونانية. لكنني أرى على العكس من ذلك أن ثقافته عربية إسلامية. ذلك أن له رسالة وجهها إلى أمثاله من الكتاب ينصحهم بالاستفادة من القرآن والحديث والأشعار العربية وأيام العرب، وهذه كلها ثقافة عربية إسلامية، وإن كان قد أضاف إلى ذلك أيام العجم أيضاً، إلا أنها تأتي على هامش العناصر الأصيلة السابقة. كما اشتغل الرجل بحفظ قرآن زمنا طويلا قبل أن يكون كاتباً. ولا ننس أنه كان كاتباً عند الأمويين، وكان وفيها لهم إلى آخر رفق في حياته، ومعروف أن الأمويين ذوو نزعة عروبية لا أعجمية. وفي رسالة له كتب بها عن مروان بن محمد إلى فرق العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد قائمين بالدولة العباسية: "فلا تمكّنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفئة الأعجمية، واثبتوا ريشاً تنجلي هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكر، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين". فهو، كما نرى، ينحاز إلى العرب ودولتهم ضد الأعاجم. بل لقد آثر أن يقتل مع آخر خلفاء بني أمية على أن

يسلم نفسه، بناء على نصيحة هذا الخليفة، إلى العباسيين، الذين أدنوا منهم الفرس واستفادوا بهم في إسقاط الدولة الأموية، إذ رأى أن هذا غدر لا يليق، وأن الناس في أسوأ الأحوال لن تفهم أنه إنما فعل هذا بناء على نصيحة سيده، ومن ثم يلصقون به العار إلى الأبد.

أما بالنسبة لما قاله د. شوقي ضيف عن استفادة عبد الحميد من أدب الفرس الأخلاقي في نصحه للكتاب بمراعاة ما بينهم من أخوة فكيف نسي، رحمه الله، ما أكدته الإسلام من أخوة المؤمنين وواجباتها وتبعاتها؟ قال تعالى: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"، "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"، "وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ"، "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ".

وقال صلى الله عليه وسلم للمسلمين: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره... بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله

وَعَرُضُهُ"، "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا"، "انصر أخاك ظالماً (أى امنعه عن ظلم الآخرين) أو مظلوماً"، "المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويردُّ عليهم أقصاهم، وهم يدُّ على من سواهم"، "من نفَّس عن مسلمٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ومن يسَّرَ على مُعْسِرٍ فِي الدُّنْيَا يسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ومن سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ فِي الدُّنْيَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"، "المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشُدُّ بعضُه بعضاً". ولا ننس أن من أول ما صنعه النبي عليه السلام لدى مقدمه إلى المدينة إخاءه بين المسلمين، ذلك الإبداع النبوى العظيم، بما ترتب عليه من حقوق وواجبات كان لها دور خطير في تمتين العلاقات بين أفراد الأمة الوليدة لم يخطر على بال أحد قبل اتخاذه صلى الله عليه وسلم تلك الخطوة العبقريّة. وإذا كان الإسلام قد أوصى بمراعاة أخوة الإيمان العامة فأحرَّبه أن ينادى بمراعاة الأخوات الخاصة كأخوة أهل الصنعة الواحدة وأهل الحى الواحد وأهل القبيلة الواحدة وما إلى هذا!

فكيف نترك ذلك كله ونذهب نبحث عن أساس دعوة عبد الحميد في الأدب الفارسى، وهو المسلم الذى تشرب الثقافة الإسلامية وتشبع بها أيما تشبع، ونشأ في الإسلام، إذ كان مسلماً من أب مسلم ومن جد مسلم على الأقل، فهو عبد الحميد بن يحيى بن سعد كما جاء في "البداية والنهاية" لابن كثير، أى أنه لم يكن مجوسياً يوماً حتى يقال إنه تلقى في صباه وشبابه ثقافة فارسية، ولم يعرف الثقافة العربية الإسلامية إلا على كبر؟ بل إن المسعودى المؤرخ الرحالة المشهور، وهو عربى صميم من سلالة الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، يذكر لعبد الحميد في كتابه: "التنبيه والإشراف" نسبا عربياً طويلاً ينتهى به إلى لؤى بن غالب على النحو التالى: "عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب". وعلى كل

حال فإن عبد الحميد قد نضج في الإسلام وخدم الإسلام، وأخلص للدولة الأموية ذات النزعة العروبية وتشرب اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية وملك ناصيتها وزمامها.

كذلك يتحدث د. شوقي ضيف عن انتشار ازدواج في رسائل عبد الحميد بوصفه سمة تميز أسلوبه. لكن ينبغي أن نعرف، إلى جانب هذا، أن الازدواج منتشر في كثير من الخطب والكتابات العربية القديمة. ولنأخذ مثالا على ذلك رسالة خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، إذ جرت على النحو التالي: "بسم الله الرحمن الرحيم: من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعد، فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووَهَنَ كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شرا لكم. فادخلوا في أمرنا ندْعُكم وأَرْضَكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة".

وعندنا كذلك رسالة قَطْرِى بن الفُجَاءة إلى الحجاج حين بعث هذا إليه برسالة يهدده ويحقّره فيها، فرد عليه ابن الفجاءة بقوله: "من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف، سلام على الهداة من الولاية الذين يرعون حريم الله ويُرهبون نَعْمه. فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظْلَعَ به أهل السَّفال، وهدى به من الضلال، ونصرَ به عند استخفافك بحقه. كتبتَ إلى تذكر أنى أعرابى جلف أمى أستطعم الكسرة وأستشفى بالثمرة، ولعمري يا ابن أم الحجاج إنك لمَتِيَّةٌ في جِبِلَّتِكَ، مُطْلَخِمٌ في طريقتك، وإِِه في وثيقتك، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك. يئست واستيأست من ربك، فالشيطانُ قرينك، لا تجاذبه وثاقلك، ولا تنازعُه خناقك. فالحمد لله، الذي لو شاء أبرزلى صفحتك، وأوضح لى صلعتك. فوالذى نفس قطرى بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال، مع أنى أرجو أن يدحض الله حُجَّتَكَ، وأن يمنحنى مُهَجَّتَكَ". وقطرى سابق على عبد الحميد كما هو معروف. بل كان بعض الخطباء يعنون بالازدواج في خطبهم كما هو الحال في خطبة زياد بن أبيه المشهورة بـ"البترء"، إذ فيها كثير من العبارات المزدوجة كما شاهدنا قبلا.

وإذا كان د. شوقي ضيف يذكر لعبد الحميد أنه جعل الشر يؤدي وظيفة الشعر في الرثاء والوصف وما إلى ذلك فعندنا قبل ذلك مثلاً رسالة الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يصف فيها كيف هطل المطر من بعد جفاف فحيث به الأرض بعد موتها. ولا ينبغي أن يفوتنا ما في الرسالة من الازدواج الجميلة أيضاً: "أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وأبل منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا إلا ما بل وجه الأرض من الطش والرث والرداذ حتى دقت الأرض واقشعرت واغبرت، وثار في نواحيها أعاصير تذرو دماق الأرض من ثراها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغيرها، وشيك تنكرها، سيئ ظن أهلها عند قحوظ المطر حتى أرسل الله بالقبول يوم الجمعة، فأثارت زبرجاً متقطعة متمصراً، ثم أعقبته الشمال يوم السبت فطخطحت عنه جهامة، وألفت متقطعة، وجمعت متمصرة حتى انتضد فاستوى، وطما وطحا، وكان جونا مرنعاً قريباً رواعده، ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل يردف بعضه بعضاً، كلما أردف شؤبوب أردفته شأبيب لشدة وقعه في العراص. وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمى بمثل قطع القطن قد ملأ اليباب، وسد الشّباب، وسقى منها كل ساق. فالحمد لله الذي أنزل غيثه، ونشر رحمته من بعد ما قنطوا، وهو الولي الحميد. والسلام".

وها هو ذا أنس بن مالك هو أيضاً يصف في النص التالي شيئاً قريباً مما وصفه الحجاج: "أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الكراع، هلكت الشاء، فادع الله يسقينا. فمد يديه ودعا. قال أنس: وإن السماء لمثل الزجاجة، فهاجت ريح أنشأت سحاباً، ثم اجتمع، ثم أرسلت السماء عزاليها، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت، فادع الله يحسه. فتبسّم ثم قال: حوالينا

ولا علينا. فنظرتُ إلى السحابِ تصدَّعَ حوْلَ المدينةِ كأنَّه إكليلٌ". وفي القرآن الكريم من قَبْل الحجاج وغير الحجاج نصوص تصف الرياح والسحاب والبساتين والبحار. فعبد الحميد ليس ابن عذرتها إذن، بل هو يجرى على طريق ممهد لاحب.

أما بالنسبة إلى تطويل التحميدات في أول رسائل عبد الحميد فالتحميدات أوّلاً سمة أسلوبية عربية وإسلامية انتحها العرب والمسلمون في كثير جدا من خطبهم ورسائلهم، وليست فارسية. وثانيا يوجد في رسالة قطري للحجاج الآنفه الذكر تحميد طويل كما لا بد أن قد لاحظ القارئ. ويبقى إكثار عبد الحميد من استعمال الحال في رسائله، مما يعزوه د. طه حسين، في كتابه: "من حديث الشعر والنثر"، إلى تأثره بالأسلوب اليوناني مع أن الحال باب من أبواب النحو العربي، ويكثر في كلام العرب عموما، وليس هو شيئا يونانيا خاصا بلغة الإغريق كما يريد طه حسين أن يقنعنا. ومع هذا لم يحاول طه حسين أن يبين لنا الطريقة التي يستعمل بها الإغريق الحال حتى نستطيع أن نتابع فكرته ونفهم ماذا يريد أن يقول، بل اكتفى بالكلام المرسل دون أن يسوق شاهدا واحدا عليه. ثم رأيناه ينتقل بغتة إلى أناطول فرانس، الفرنسي لا الإغريقي، وإكثاره من استخدام الحال في كتاباته وتقديمه له أحيانا وتأخير له أخرى من غير أن يضرب مثلا فردا يتيما يوضح به فكرته. وقد تابعه د. أحمد الحوفي، في كتابه: "أدب السياسة في العصر الأموي"، في موضوع الحال هذا دون أن يضيف إليه شيئا، وكأنه كلام مقرر ثابت لا يحتاج إلى برهان يعضده. وكلام د. طه هنا قد يوحي لمن لا يعرفه أنه لا يدري شيئا عن باب الحال في النحو العربي ولا تعقيدات صوره التي نلقاها في النصوص المأثورة عن الشاعرين والناثرين أو المفترضة التي يبرع بعض النحاة في تصورها نظريا، رغم أن طه حسين قارئ متعمق في النحو العربي، ودرس في صباه وشبابه عددا من كتبه الشهيرة في الأزهر. لكنها الفتنة بالغرب وبالإغريق.

إن الحال في النحو العربي يستقل بباب كبير خاص به بعيدا عن ظرف الزمان وظرف المكان والتمييز والمفعول المطلق والمفعول معه والمفعول لأجله على عكس الوضع في اللغات الأوربية التى نعرفها والتى لا تملك مقابل كل هذه الأبواب سوى الأدverb(e)". كما أن هناك مرونة شديدة عندنا فى اختيار موضع الحال جراء تمتع العربية بميزة الإعراب كما نعرف: فقد يتقدم على صاحبه كقول الشاعر:

لَيْسَ مُوَحِّشًا طَلَّلُ يُلُوحُ كَأَنَّهُ خَلَّلُ

وكقولنا: "جاء راكبًا زيدٌ"، وقد يتقدم على ناصبه إذا كان فعلا متصرفا أو صفة تشبه الفعل المتصرف كقولهم: "مخلصًا دعا زيدٌ ربَّه" و "مسرعا إبراهيمٌ راحلٌ"، وقد يسد مسد الخبر كقول العرب: "أكثرُ شُرْبِي السَّوِيقَ ملتوتًا" وقول الرسول: "أقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"، وقد يحىء جامدا أو لازما كما فى المثالين التاليين: "باع فلانٌ منزله يدًا بيد" و "خلق الله الزرافة يديها أطولَ من رجليها"، أو مصدرًا كقولنا: "طلع زيدٌ بغتةً"، أو يأتى صاحبها نكرة (مخصصة بالإضافة) كما فى قوله تعالى: "فى أربعة أيامٍ سواءٍ للسائلين"، أو يكون صاحبها مضافا إليه مع كون المضاف جزءا منه كقوله تعالى: "ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين"، وقد تتعدد الحال وصاحبها مفرد أو متعدد كما فى هذين المثالين: "جاء زيدٌ راكبًا ضاحكًا" و "قابلتُ هندا مُصَعَّدًا منحدرًا" و "لقى ابْنى أخويه خائفًا مُنْجِدِيه" و "رأيت زيدا مصعَّدًا منحدرًا"... وهكذا.

ومع ذلك فإننى لم أجد شاهدا واحدا فى الأحوال التى قابلتها فى كتابات عبد الحميد تقدّم عن موضعه أو تعدّد على نحو يربك القارئ فلا يدرى إلى أى شىء أو شخص يتمى، بل كلها استعمالات عادية واضحة لا يضطرب فى فهمها أحد ولا تحتاج إلى تأويل. كما أن الحال يكاد يختفى من بعض رسائله كما فى رسالته إلى الكتاب رغم طولها الشديد. فكيف، بعد ذلك كله، يرى

طه حسين أن كثرة استعمال عبد الحميد الكاتب للحال في رسائله بوجه عام دليل على تأثره باليونانية رغم أن كلمة "يونان" أو "إغريق" لم ترد على لسان الرجل بته، فضلاً عن أن يقول هو أو يقول أحد ممن يعرفونه إنه كان يقرأ بلغة أولئك القوم أو حتى بالفارسية؟

نعم لم يؤثر عن عبد الحميد أى شىء يدل على أنه يدين للفرس أو الإغريق بشىء، اللهم إلا إشارته العارضة الخاطفة المدسوسة على نحو لا يلفت الانتباه بين عناصر الثقافة العربية والإسلامية إلى أنه ينبغي أن يستفيد الكتاب من أخبار العجم كما أوأنا من قبل. ومن الناحية الأخرى وجدتُ الكلمة التالية في "البصائر والذخائر" لأبى حيان التوحيدي: "قال عبد الحميد الكاتب: تعلّمتُ البلاغة من مروان بن محمد: أمرنى أن أكتب في حاجةٍ إلى أخٍ له، فكتبت على قدر الوسع، فقال لى: اكتب ما أقول لك: بسم الله الرحمن الرحيم، أما أن للحرمة أن تُرعى، وللدين أن يُقضى، وللموافقة أن تُتوخى؟". ولنلاحظ ما في هذه الرسالة القصيرة من الازدواج والسجع وقصر الفقرات، وهى من السمات التى يرى مؤرخو الأدب العربى أنها تميز رسائل عبد الحميد. وفي "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب" للثعالبي و"الوافى بالوفيات" لصلاح الدين الصفدى أنه سئل ذات مرة: ما الذى مكّنك من البلاغة وخرّجك فيها؟ قال: كلام الأصلع. يعنى على بن أبى طالب رضى الله عنه. فهذا هو ذا يعزو براعته إلى أصل عربى مسلم لا فارسى. وفي مناسبة ثالثة قال: "لم أسمع أعجب من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو أن الشكر والصبر مطيتان لما باليت أيهما ركبت". وهنا كذلك نراه لا يذكر أنه أخذ الكتابة أو بعض شياتها عن فارسى، بل عن شخص عربى، وأى شخص؟ إنه عمر، الذى يبغضه الفرس بغضا ساما!

أما قول أبى هلال العسكري إن "من عرف ترتيب المعانى واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له فى الأولى. ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى،

فحوّنها إلى اللسان العربى؟ فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال "أما قول العسكرى هذا فإنه كلام مرسل عام لم يحاول أن يطبقه على كتابات الرجل، ومن ثم ليس بمستطاعنا أن نعرف إلى أى مدى تصحّ هذه الدعوى، بله أن تصحّ أصلا. وبالمثل ينقص الدليل ما قاله د. أحمد الحوفى، فى "أدب السياسة فى العصر الأموى"، من أنه لا بد أن يكون قد تأثر بالبلاغة الإغريقية عن طريق سالم زوج أخته، والبلاغة الفارسية عن طريق صداقته لابن المقفع، إذ لم يقدم الأستاذ الدكتور برهانا من الواقع على ما يقول، بل هو مجرد كلام نظرى. ذلك أن أسلوب الرجل إنما هو أسلوب عربى صميم ليس فيه شىء يشذ عما نعرفه فى الأساليب العربية كما رأينا ووضحنا وشرحنا، وعلى هذا لا ندرى ماذا يقصد العسكرى بهذا الكلام.

ويبقى تطويل الرسائل، وقد سبق عبد الحميد أيضا إلى ذلك. فهناك مثلا رسالة من سليمان بن صُرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان، وهما من شيعة الحسين من التوابين الذين لذعتهم ضمائرهم جراء إغرائهم الحسين رضى الله عنه بالشخص إلى كى ينصروه ثم تخليهم عنه حتى قُتل وجُزّت رأسه، وهى رسالة طويلة تزيد على ثلاثين سطرا متوسط كلمات كل سطر منها ثلاث عشرة كلمة. وتسبق رسائل عبد الحميد بزمن طويل، بل تسبق ميلاد عبد الحميد نفسه. كما أنها تراعى الازدواج مراعاة تلفت النظر بقوة. إلا أن الحق يقتضينا أن نقول إن عبد الحميد يطوّل رسائله أحيانا إلى مدى أبعد كثيرا مما تعرفه تلك الشواهد، التى لا شك أنها قد مهدت له السبيل إلى التطويل وأغرته به، فاندفع فيه فى بعض الأحيان اندفاعه عارمة محبرا الصفحات تلو الصفحات، وكأننا بصدد تأليف كتاب وليس تحبير رسالة.

وهذه رسالة أخرى من ذلك النوع الطويل سابقة على رسائل عبد الحميد أيضا بزمن. جاء فى "تاريخ الطبرى" أنه "لما قتل يزيد بن الوليد الوليد بن يزيد، ووجه منصور بن جمهور إلى العراق

كتب يزيد بن الوليد إلى أهل العراق كتابا يذكر فيه مساوئ الوليد، فكان مما كتب به فيما حدثني أحمد بن زهير عن علي بن محمد: إن الله اختار الإسلام دينا وارتضاه وطهره، وافترض فيه حقوقا أمر بها، ونهى عن أمور حرّمها ابتلاءً لعباده في طاعتهم ومعصيتهم، فأكمل فيه كلّ منقبة خير وجسيم فضل، ثم تولاه فكان له حافظا، ولأهله المقيمين حدوده وليا، يحوطهم ويعرّفهم بفضل الإسلام، فلم يكرم الله بالخلافة أحدا يأخذ بأمر الله وينتهى إليه فيناوئه أحد بميثاق أو يحاول صرف ما حباه الله به أو ينكث ناكث إلا كان كيده الأوهن، ومكره الأبور حتى يتم الله ما أعطاه، ويدّخر له أجره ومثوبته، ويجعل عدوّه الأضلّ سبيلا، الأخسر عملا. فتناسخت خلفاء الله ولاة دينه قاضين فيه بحكمه، متبعين فيه لكتابه، فكانت لهم بذلك من ولايته ونصرته ما تمت به النعم عليهم، قد رضى الله بهم لها حتى تُوفى هشام.

ثم أفضى الأمر إلى عدوّ الله الوليد المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثّلها مسلم، ولا يُقدّم عليها كافر تكبراً عن غشيان مثلها، فلما استفاض ذلك منه واستعلن واشتدّ فيه البلاء، وسُفِكَت فيه الدماء، وأُخِذَت الأموال بغير حقها مع أمور فاحشة لم يكن الله ليُملي للعاملين بها إلا قليلا سرّت إليه مع انتظار مراجعته وإعذار إلى الله وإلى المسلمين منكرًا لعمله وما اجتراً عليه من معاصي الله، متوخيًا من الله إتمام الذي نويت من اعتدال عمود الدين والأخذ في أهله بما هو رضاء حتى أتيتُ جنّداً، وقد وغرت صدورهم على عدوّ الله لما رأوا من عمله. فإنّ عدوّ الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلا أراد تبديله، والعمل فيه بغير ما أنزل الله. وكان ذلك منه شائعاً شاملاً عريان لم يجعل الله فيه سترًا، ولا لأحد فيه شكًا، فذكرت لهم الذي نقيمت وخفت من فساد الدين والدنيا، وحضضتهم على تلافي دينهم والمحاماة عنه، وهم في ذلك مستريبون قد خافوا أن يكونوا قد أبقوا لأنفسهم بما قاموا عليه، إلى أن دعوتهم إلى تغييره، فأسرعوا الإجابة. فابتعث الله منهم بعضًا يخبرهم من ألى الدين والرضا، وبعثت عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك

حتى لَقِيَ عدوّ الله إلى جانب قرية يقال لها: البخراء، فدَعَوْهُ إلى أن يكون الأمر شورى: ينظر المسلمون لأنفسهم من يقلدونه ممن اتفقوا عليه، فلم يجب عدوّ الله إلى ذلك، وأبى إلا تتايعاً في ضلالته فبدّرهم الحملة جهالةً بالله، فوجد الله عزيزاً حكيماً، وأخذَه أليماً شديداً، فقتله الله على سوء عمله، وعُصْبَتُهُ ممن صاحبه من بطانته الخبيثة لا يبلغون عشرة. ودخل من كان معه سواهم في الحقّ الذي دُعُوا إليه، فأطفأ الله جمرته وأراح العباد منه. فُبُعْدًا له ولمن كان على طريقته!

أحببتُ أن أُعَلِّمَكم ذلك، وأعجّل به إليكم لتحمدوا الله وتشكروه، فإنكم قد أصبحتم اليوم على أمثل حالكم، إذ وُلّاتكم خيارُكم، والعدل مبسوط لكم، لا يسارُ فيكم بخلافه. فأكثروا على ذلك حمْدَ ربكم، وتابعوا منصور بن جمهور، فقد ارتضىته لكم على أن عليكم عهد الله وميثاقه وأعظم ما عهد وعقد على أحد من خلقه لتسمعنّ وتطيعنّ لى ولمن استخلفته من بعدى ممن اتفقت عليه الأمة. ولكم على مثل ذلك: لأعملنّ فيكم بأمر الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأتبع سبيل مَنْ سَلَفَ من خياركم. نسأل الله ربنا وولينا أحسن توفيقه وخير قضائه".

كما أن لعبد الحميد رسائل قصيرة جدا كما هو الحال حين سأله رجل أن يكتب له كتابا إلى بعض الأكابر يوصيه به، فكتب إليه: "حقُّ موصِّل كتابي إليك كحقه على، إذ رآك موضعاً لأمله، ورأى أهلاً لحاجته. وقد قضيتُ أنا حاجته، فصَدِّق أنت أمله". على أن طول رسائله لم يكن مقبولا على الدوام. يقول ابن عبد ربه في "العقد الفريد": "بعث إلى مروان بن محمد قائداً من قواده بغلام أسود، فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يلحاه ويُعَنِّفه، فكتب وأكثر، فاستثقل ذلك مروان، وأخذ الكتاب فوقَّع في أسفله: أما إنك لو عَلِمْتَ عدداً أقل من واحد ولونا شراً من أسود لبعثت به".

القصص:

على أن الأدب الثرى فى عصر صدر الإسلام لم يكن مقصورا على الخطب والرسائل والمعاهدات، إذ عرف الأمثال والقَصَص أيضا. بل لقد كان القصص معروفا فى الجاهلية، لكن لم يصل لنا شىء مكتوب منه، وإنما بدأ تسجيله كتابة بعد الإسلام، وبخاصة فى العصر العباسى حيث صاغه جامعوه بطبيعة الحال بأساليبهم هم، ولم يظلَّ على وضعه الأسلوبى القديم لأنه من المستبعد جدا أن تبقى النصوص القصصية الثرية، وهى بطبيعتها طويلة، دون تغيير خلال ذلك الوقت الطويل. وبالنسبة إلى عصر صدر الإسلام لدينا القصص القرآنى والقصص النبوى: فأما القرآن فقد سُجِّلَ أولا بأول، وعكف المسلمون عليه يحفظونه ويتلونه ويقدمونه، ومن ثم لم تكن هناك فرصة لتغير شىء منه. وأما الأحاديث النبوية فلم تُسجَّل كتابةً فى البداية بنفس الاهتمام الذى سُجِّلَ به القرآن، وإن كان هناك صحابة كتبوا منها الكثير رغم ذلك. وفى كل الأحوال فمن الطبيعى أن يهتم المسلمون بأحاديث نبيهم اهتماما شديدا لا على أنها مادة للتسلية كما كان الجاهليون ينظرون إلى قصصهم، بل على أنها كلام نبيهم الذى أتاهم بوحي السماء، وهو كلام شديد الأهمية.

وفى القرآن، كما نعرف، كثير من القصص كقصص الأنبياء وقصص الأمم السابقة وقصص الحيوان. وكلنا يعرف تلك القصص حق المعرفة، ولا أظن أحدا يحتاج إلى الاستشهاد عليها. ومع هذا سوف أسوق إحداها، وهى قصة موسى والعبد الصالح المذكورة فى سورة "الكهف": "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبَعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ

رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَأْتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَهُمَا رُحْبًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

أما القَصَص النبوي فمنه ما يلي: "ذهب ثلاثة نفرٍ رَادَةً لَأَهْلِهِمْ، فَأَخَذَهُمْ مَطَرٌ فَلَجَأُوا إِلَى غَارٍ، فَوَقَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَمِ الْغَارِ حَجَرٌ فَسَدَّ عَلَيْهِمْ فَمِ الْغَارِ، وَوَقَعَ بِمَتَجَافٍ عَنْهُمْ، فَقَالَ النَّفَرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: عَفَا الْأَثَرُ، وَوَقَعَ الْحَجَرُ، وَلَا يَعْلَمُ بِمَكَانِكُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. فَتَعَالَوْا، فَلِيدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَوْثَقِ عَمَلٍ عَمِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَسَى أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ مَكَانِكُمْ. قَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ بَرًّا بِوَالِدِي، وَأَنِّي أَرَحْتُ غَنَمِي لَيْلَةً، وَكُنْتُ أَحْلُبُ لِأَبَوِي فَاتِيَهُمَا وَهُمَا مُضْطَجِعَانِ عَلَى فَرَاشِهِمَا حَتَّى أَسْقِيَهُمَا بِيَدِي، وَأَنِّي أَتَيْتُهُمَا لَيْلَةً مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي وَجِئْتُ بِشَرَابِهِمَا فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، وَأَنِّي جَعَلْتُ أَرْغَبُ لَهَا فِي نَوْمِهَا وَأَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ بِالشَّرَابِ

فيسْتَيْقِظَانِ فَلَا يَجِدَانِي عِنْدَهُمَا، فَقُمْتُ مَكَانِي قَائِمًا عَلَى رُؤُوسِهَا كَذَلِكَ حَتَّى أَصْبَحْتُ، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا. فزَالَ ثُلُثُ الْحَجَرِ انْفِرَاجًا. قَالُوا لِلْآخِرِ: إِيهَا! أَيْ قُلْ. فَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي أَحْبَبْتُ ابْنَةَ عَمِّ لِي حَبًّا شَدِيدًا، وَأَنِّي خَطَبْتُهَا إِلَى أَهْلِهَا فَمَنْعُونِيهَا حَتَّى جَعَلْتُ لَهَا مَا رَضِيتُ بِهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ثُمَّ دَعَوْتُ بِهَا فَخَلَوْتُ بِهَا فَقَعَدْتُ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ، فَقَالَتْ: "لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَفْضُخَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ"، فَانْقَبَضْتُ إِلَى نَفْسِي وَوَفَّرْتُ حَقَّهَا عَلَيْهَا وَنَفْسَهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا. فزَالَ انْفِرَاجًا. وَقَالُوا لِلثَّلَاثِ: إِيهَا! أَيْ قُلْ. قَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي عَمِلْتُ عَلَى عَامِلٍ عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، فَانْطَلَقَ الْعَامِلُ، وَلَمْ يَأْخُذْ صَاعَهُ، فَاحْتَبَسَ عَلَى طَوِيلًا مِنَ الدَّهْرِ. وَإِنِّي عَمَدْتُ إِلَى صَاعِهِ أَحْرَثَهُ حَتَّى اجْتَمَعَ مِنْ ذَلِكَ الصَّاعِ بَقَرٌ كَثِيرٌ وَشَاءٌ كَثِيرٌ وَمَالٌ كَثِيرٌ، وَإِنَّ ذَلِكَ الْعَامِلَ أَتَانِي بَعْدَ زَمَانٍ يَطْلُبُ الصَّاعَ مِنَ الطَّعَامِ، وَإِنِّي قُلْتُ: إِنَّ صَاعَكَ ذَلِكَ مِنَ الطَّعَامِ قَدْ صَارَ مَالًا كَثِيرًا وَشَيْئًا كَثِيرًا وَبَقَرًا كَثِيرًا، فَخُذْ هَذَا كُلَّهُ، فَإِنَّهُ مِنْ ذَلِكَ الصَّاعِ. قَالَ لِي: أَتَسْخَرُ بِي؟ قُلْتُ لَهُ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنَّهُ الْحَقُّ. فَانْطَلَقَ بِهِ يَسُوقُ الْمَالَ أَجْمَعَ. اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَافْرِجْ عَنَّا. فَانْفَلَقَ الْحَجَرُ فَوْقَ، فَخَرَجُوا يَتِمَاشُونَ."

"إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَأَرَادَ أَنْ يَخْرِجَ مِنَ النَّارِ مَنْ أَرَادَ مَنْ كَانَ يَشْهَدُ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمَرَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَخْرِجُوهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِعَلَامَةِ آثَارِ السُّجُودِ. قَالَ: وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرَ السُّجُودِ. قَالَ: فَيَخْرِجُونَهُمْ قَدْ امْتَحَشُوا، فَيَصَبُّ عَلَيْهِمْ مَاءٌ يُقَالُ لَهُ: "مَاءُ الْحَيَاةِ"، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حِمِيلِ السَّيْلِ. قَالَ: وَيَبْقَى رَجُلٌ مُقْبِلٌ بَوَجهِهِ عَلَى النَّارِ، فيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ قَشَبْنِي رِيحُهَا، وَأَحْرَقَنِي ذُكَاؤُهَا، فَاصْرِفْ وَجْهِي عَنِ النَّارِ. فَلَا يَزَالُ يَدْعُو، فيَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: فَلَعَلِّي إِنْ أُعْطِيتُكَ ذَلِكَ أَنْ تَسْأَلَنِي غَيْرَهُ؟ فيَقُولُ: لَا وَعِزَّتِكَ، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ. فَيَصْرِفُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ، قَرَّبْنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ. فيَقُولُ جَلَّ وَعَلَا:

أليس قد زعمت ألا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرتك! فلا يزال يدعو، فيقول جلّ وعلا: فلعلك إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره. ويعطى الله من عهود ومواثيق ألا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنة. فلما قرّبه منها انفهقت له الجنة، فإذا رأى ما فيها سكّت ما شاء الله أن يسكّت ثم يقول: يا ربّ، أدخّلني الجنة. فيقول جلّ وعلا: أليس قد زعمت ألا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرتك! فيقول: يا ربّ، لا تجعلني أشقى خلّقت. قال: فلا يزال يدعو حتّى يضحك جلّ وعلا. فإذا ضحك منه أذن له بالدخول دخول الجنة، فإذا دخل قيل له: "تمنّ كذا، وتمنّ كذا"، فيتمنّى حتّى تنقطع به الأمانى، فيقول جلّ وعلا: هو لك ومثله معه. وذلك الرّجل آخر أهل الجنة دخولاً.

"رؤى أن النبي دعا فقال: اللهم أعزّ الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب. وكان عمر رجلاً شديد الشكيمة لا يرام ما وراء ظهره، وقد أسلمت أخته فاطمة بنت الخطاب وهى تحت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. وكان خباب بن الارت يتتابها ويقرئها القرآن. قال: فتذاكرت قريش فى ناديا أمر النبي صلى الله عليه وسلم وما يحدث من التفرق والالتمام، فانتدب عمر له وخرج من بينهم متوشحا بسيفه وهو يريد رسول الله، وقد ذكر أنه فى بيت الأرقم بن الأرقم عند الصفا، فلقية نعيم بن عبد الله النحام، فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد هذا الصابى الذى فرّق أمر قريش فأقتله. فقال له نعيم: لقد غرّتك نفسك! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض، وقد قتلت ابن عمهم؟ أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم؟ قال عمر: أى أهلى؟ قال: أختك وختنك. فعدل عمر عن الطريق إليهما، فإذا عندهم خباب يقرئهم القرآن ومعه صحيفة فيها سورة "طه". فلما أحسوا بعمر غيّبوا خبابا وخبأوا الصحيفة، فقال عمر: ما هذه الهينة التى سمعتها وأنا على الباب؟ قالوا: ما سمعت إلا خيرا. قال: بلى، وإنى قد أُخبرت أنكما

صَبَوْتُمَا. و بطش بخباب، فقامت أخته تكفّه عنه، فأصابته شجةٌ، فدبراً لذلك وأظهرها إسلامهما وقالوا: بلى قد أسلمنا، فاصنع ما بدا لك.

فارعوى عمر وقال لأخته: "أعطينى هذه الصحيفة أنظر ما فيها"، وكان عمر كاتباً، فقالت: إنى أخشاك عليها. فأعطاهما عهد الله وميثاقه أنه يردها، فقالت: إنك نجس، وإنه لا يمسه إلا طاهر. فقام عمر فاغتسل وأخذ الصحيفة وقرأ صدرها من السورة، فأعجب به وألقى الله في قلبه الإسلام، فخرج إليه خباب وقال: يا عمر، إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه. قال عمر: فأين محمد يا خباب؟ قال: في دار الأرقم عند الصفا. فجاء عمر حتى قرع عليهم الباب، فقام رجل من الصحابة فنظر من خلل الباب فرجع وهو فرح مذعور فقال: هذا عمر متوشحاً بسيفه. فقال حمزة بن عبد المطلب: إن كان جاء يريد خيراً بذلناه، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه. فأذن له ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقبه وأخذ بحُجْرَتِهِ ثم جذبه جذبة شديدة فقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أراك تنتهى حتى ينزل الله بك قارعةً. قال: جئت لأومن بالله ورسوله. فقال النبي: الله أكبر. وأسلم عمر وقال: كم أنتم؟ قال: أربعون. قال: والله لا نعبد الله بعده سرا. فخرج إلى الناس وأظهر الإسلام".

و ثم حديث إذا صحت نسبته إلى أبى هريرة كان نصاً آخر من نصوص الفن القصصى فى ذلك العصر من كلام أبى هريرة: "وَكَلَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَيَجْعَلُ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخْذُهُ وَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ: إِنِّى مُحْتَاجٌ، وَعَلَى عِيَالٍ، وَلِى حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ! قَالَ: فَخَلِّيتُ عَنْهُ. فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكََا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا، فَرَحْمَتُهُ وَخَلِيتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ. فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ:

لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: دعنى، فإنى محتاج، وعلى عيال. لا أعود! فرحمته وخليت سبيله. فأصبحت، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا، فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه قد كذبتك، وسيعود. فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: "الله لا إله إلا هو الحى القيوم" حتى تختتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: وما هى؟ قال: قال لى: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية: "الله لا إله إلا هو الحى القيوم"، وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أما إنه صدقك، وهو كذوب. تعلم من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك شيطان."

وكالحديث السابق الحديث التالى الذى روته فاطمة بنت قيس: "صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت فى صف النساء التى تلى ظهور القوم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتمكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إنى، والله، ما جمعتمكم لرغبة ولا لرغبة، ولكن جمعتمكم لأن تمياً الدارى كان رجلاً نصرانياً، فجاء فبايع وأسلم، وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثنى أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لحم وجذام، فلعب بهم الموج شهراً فى البحر، ثم أرفأوا إلى جزيرة فى البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا فى أقرب

السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابةٌ أهلك كثيرُ الشَّعرِ، لا يدرون ما قبَّله من دُبُرِه من كثرةِ الشَّعرِ، فقالوا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسةُ. قالوا: وما الجسَّاسةُ؟ قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجلِ في الديرِ، فإنه إلى خبركم بالأشواقِ. قال: لما سمَّت لنا رجلاً فرَّقنا منها أن تكون شيطانةً. قال: فانطلقنا سِراعاً حتى دخلنا الديرَ، فإذا فيه أعظمُ إنسانٍ رأيناه قطُّ خلقاً، وأشدُّ وثاقاً، مجموعةٌ يده إلى عُقْبِه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد. قلنا: ويلك! ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني: ما أنتم؟ قالوا: نحن أناسٌ من العربِ ركبنا في سفينةٍ بحريةٍ، فصادفنا البحرَ حين اغتلم، فلعب بنا الموجُ شهراً، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرةَ، فلقيتنا دابةٌ أهلك كثيرُ الشَّعرِ لا يدري ما قبَّله من دُبُرِه من كثرةِ الشَّعرِ، فقلنا: ويلك! ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسةُ. قلنا وما الجسَّاسةُ؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجلِ في الديرِ، فإنه إلى خبركم بالأشواقِ. فأقبلنا إليك سِراعاً، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانةً. فقال: أخبروني عن نخلٍ بيسانَ. قلنا: عن أى شأنها تستخبرُ؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمرُ؟ قلنا له: نعم. قال: أما إنه يوشك ألا تثمرَ. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أى شأنها تستخبرُ؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هى كثيرةُ الماءِ. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهبَ. قال: أخبروني عن عين زُعر. قالوا: عن أى شأنها تستخبرُ؟ قال: هل فى العينِ ماءٌ؟ وهل يزرعُ أهلُها بماءِ العينِ؟ قلنا له: نعم، هى كثيرةُ الماءِ، وأهلُها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميينَ، ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكةَ ونزل يثربَ، قال: أقاتله العربُ؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على مَنْ يليه من العربِ وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خيرٌ لهم أن يطيعوه، وإنى مخبرُكم عنى. إني أنا المسيحُ، وإنى أوشك أن يؤذَنَ لى فى الخروجِ، فأخرج فأسيرُ فى الأرضِ فلا أدعُ قريةً إلا هبطتها فى أربعين ليلةً، غيرَ مكةَ وطيبةَ. فهما مُحَرَّمتانِ على كلتاها. كلما أردتُ أن أدخل واحدةً أو واحداً منهما استقبلنى ملكٌ بيده

السَّيْفُ صَلَّتَا، يَصْدُنِي عَنْهَا. وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةٌ يَحْرُسُونَهَا. قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمَنْبَرِ: "هَذِهِ طَيِّبَةٌ، هَذِهِ طَيِّبَةٌ، هَذِهِ طَيِّبَةٌ"، يَعْنِي الْمَدِينَةَ "أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟" فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ. قَالَ: "فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ. أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ. لَا بَلَّ مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ، مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ، مِنْ قَبْلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ"، وَأَوْماً بِيَدِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ. قَالَتْ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

والقصة بديعة بلا أدنى جدال، ففيها سرد ووصف وحوار وتشويق ومغامرات، كل ذلك بأسلوب مفعم بالحياة والحرارة. ولو أردنا أن نأخذها على حرفيتها بوصفها قصة حقيقية لأرهقناها، وإلا فهناك الأسئلة التالية: كيف يمكث أولئك المسافرين المساكين في البحر المضطرب شهراً تائهين ثم يعودون مرة أخرى إلى بلادهم؟ فمن يترى دلهم على طريق العودة؟ وكيف اختزل الراوى تلك المغامرة المهلكة في كلمتين، ولم يفصل الأهوال التي خاضوها وهددت حياتهم بحيث كانت عودتهم حياة جديدة كتبت لهم بعد هلاك محقق؟ ترى لم لم يذكر الجهة التي كانوا يقصدونها، والغاية التي كانوا يتغيَّونَها من ذلك السفر؟ وما الذي دفعهم إلى ركوب البحر المتوسط؟ وإلى أى بلد كانوا مسافرين؟ وكيف يقول تميم إن البحر الذي لجأوا إلى جزيرة فيه ولقوا هناك المسيح الدجال هو بحر الشام، وقد قال الرسول عليه السلام ما نصه: "فإنَّه أعجبنى حديث تميم أنَّه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة. ألا إنَّه في بحر الشام أو بحر اليمن. لا بل من قبل المشرق. ما هو من قبل المشرق. ما هو من قبل المشرق. ما هو. وأوماً بيده إلى المشرق؟"

ثم لماذا تميم الدارى وحده هو الذى حكى لنا تلك القصة؟ أين بقية الثلاثين مسافراً؟ ومن هم أصلاً؟ إن أمراً مثل هذا لا يمكن أن يسكت عنه أحد ممن تورطوا فيه، ومن ثم لا يمكن أن

يمر مرور الكرام فلا ترتجّ له الجزيرة العربية، إذ ليس كل يوم يضل الناس طريقهم في البحر، ولمدة شهر كامل، ويشْفُون على الهلاك ويرمى بهم الموج الهائج إلى جزيرة غريبة يرون فيها تلك العجائب الأسطورية التي يرد فيها ذكر النبي العربي زعيم الأمة وباسط سيادته على البلاد جميعا. لقد أنفق ابن جبير الأندلسي مثلا الصفحات تلو الصفحات في وصف هياج البحر أثناء رحلته البحرية التي قام بها قاصدا مصر، ومنها إلى مكة بغية الحج، مع أن هيجان البحر في رحلة ابن جبير لم يكن بهذه الخطورة ولا شهد الرحالة الأندلسي ومن معه شيئا من تلك الغرائب الأسطورية. لكننا ننظر فنلاحظ أن الراوى لم يقف عند أى شىء من الأهوال التي عاشها وسائر الركاب سوى أنهم ضلوا طريقهم شهرا وصلوا بعده إلى الجزيرة المشار إليها. ثم كيف عاش أولئك المسافرين طوال ذلك الشهر في البحر الهائج المغتلم ليلا ونهارا دون طعام وشراب، إذ إن أمثالهم في سفينة كسفيتهم لا يحملون سوى طعام عدة أيام في العادة؟ وكيف كانوا يبصرون طريقهم ليلا؟ وكيف لم تغرق السفينة بهم إلى قاع البحر في هذا الجو الهائج المائج؟ ومن حمل ذلك المسيح إلى تلك الجزيرة وحبسه وقيده هناك بالأصفاد؟ ولماذا؟ وكيف يعيش وهو مصفّد ومكبّل طوال القرون والأحقاب دون طعام وشراب؟ وكيف تفاهم مع أولئك المسافرين الضالين، ولغته ليست لغتهم؟ بل كيف تفاهموا مع الدابة، وهى حيوان أعجم لا يعرف لغة بشرية، وفي ذات الوقت ليسوا هم سليمان بن داود؟ وماذا تفعل تلك الدابة هناك؟ لقد ورد الحديث في سورة "النمل" عن دابة يخرجها ربنا سبحانه وتعالى من الأرض حين يقع القول على الكافرين، وقيل إن تلك الدابة هى هذه، فكيف يقول المولى سبحانه إنه سوف يخرجها من الأرض حين يقع القول على الكافرين لتقول لهم إن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون، في حين أنها قد خرجت قبل ذلك وتعيش في جزيرة فوق الأرض ولم تتطرق في حديثها معهم إلى شىء من ذلك؟ ثم إن بعض الأحاديث تذكر بدلا من الدابة إنسانا، وبعضها تذكر امرأة على وجه التحديد.

كذلك تقول بعض الأحاديث إن المسيح الدجال يخرج من جهة المشرق، وبعضها: من خلة بين الشام والعراق، وبعضها: من خراسان. فكيف يتسق هذا وما جاء في بعض الأحاديث من أن البحر الذى تاه فيه تميم وأصحابه هو بحر الشام، فلا هو بين الشام والعراق ولا هو في المشرق ولا هو خراسان؟ وفي أحد أحاديث الدجال أنه سوف يتبعه عند ظهوره سبعون ألفاً من يهود إصبعان، وفي حديث آخر أنه سوف يتبعه ثمانون ألفاً من خوز كرمان. وفي حديث ثالث أنه سوف يخرج عند فتح القسطنطينية. وها هي ذى القسطنطينية قد فتحت منذ عدة قرون. ثم لماذا سألهم المسيح الدجال عن بحيرة طبرية ونخل بيسان وبثر زُغَر بالذات؟ أيمن أن يتوقف حدث كوني كخروج الدجال على جفاف بحيرة محلية أو ييوس عدد من صفوف النخيل لا راحت ولا جاءت؟ وبالمناسبة فالبيروني، في "الجماهر في معرفة الجواهر" يصف بحيرة زُغَر بأنها متناهية في المرارة، أى لا تُشْرَب. وهذا يناقض ما جاء في الرواية من أن أهلها يشربون ويسقون منها. وفي "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" نجد ابن فضل الله العمري يصف تلك البحيرة بـ "المتنة"، ذاكراً أن الناس يسمونها: "المتنة". وفي "معجم البلدان" يخصص لها ياقوت الحموي مادة بعنوان "البحيرة المتنة" ناعثاً إياها بـ "المقلوبة" و "الملعونة"، مع التأكيد بأنها لا يَنْتَفَع منها بشيء قط وأنها متنة الرائحة ولا يتولد فيها حيوان. ونفس الشيء يقوله النويري في "نهاية الأرب في فنون الأدب".

وهل من المعقول أن تقتصر رؤية الدجال على ثلاثين شخصاً في عصر واحد بل في وقت واحد دون البشرية جميعاً في كل العصور؟ ثم كيف تقول القصة عن المسيح الدجال إنه أجمل البشر مع أن الرسول قد وصفه وصفاً منفراً، إذ ذكر أنه أعور ناتئ حدقة العين فكأنها عنبه طافية، ومكتوب بين عينيه: "كافر"، وفي بعض الأحاديث الأخرى أنه قصيرٌ أفحجٌ جعدٌ أعورٌ مطموسُ العين؟ ولماذا كان يتحرق شوقاً إلى تميم الداري وأصحابه؟ أكان يعرف أنهم سيستقلون سفينة

ويضلون طريقهم في البحر ويأتون إليه؟ إذن فهو يعلم الغيب. فكيف لم يعرف إذن أن محمدا قد بُعث نبيا؟ ولماذا قال كلاما طيبا في حقه عليه الصلاة والسلام وكان يتحرق شوقا إلى معرفة ظهوره وأثنى على العرب لإيمانهم به رغم أنه، عند ظهوره، سوف يدعو إلى عكس ما دعا إليه الرسول عليه السلام بل سوف يدعى الربوبية، وستكون معه جنة ونار تناقضان جنة القرآن وناره على خط مستقيم؟

ومنذ متى كان الرسول عليه السلام يُستخَفَّ بهذه الطريقة لمجرد أن أحدهم ذكر شيئا يعضد صدقه وصحة دينه؟ إن رجلا مثله حول دفة التاريخ ومسيرته إلى الجهة التي يريد وعلى النحو الذي يريد، لا يمكن أن يكون بتلك الخفة لمجرد سماعه بحكاية ظريفة كهذه؟ لقد كان الإسلام قد انتشر في بلاد العرب، ولم يعودوا محتاجين إلى من يبرهن لهم على صدقه عليه السلام. ثم ما دمنا في الشهادات وأهميتها فهل تكفى شهادة رجل واحد في شأن خطير كهذا الشأن؟ لقد اشترط الإسلام أربعة شهود في الزنا، واشترط شاهدين أو شاهدا وشاهدين في الدين، فكيف يكتفى الرسول بشاهد واحد في مثل ذلك الأمر، وهو أكبر وأهم وأجل من الدين والزنا بمراحل شاسعة؟ وهناك ملاحظة أخرى، وهى أنه لم يرو ذلك الحديث سوى فاطمة بنت قيس من كل من كانوا حاضرين في المسجد ساعة جمعهم النبي عليه السلام لينبئهم بما حدث به تميم. فكيف ذلك، والموضوع من الغرابة بمكان مكين لا يمكن أن يقف إزاءه بقية الصحابة لامبالين؟ بل لماذا احتاج النبي أصلا إلى جمع الناس لإخبارهم بالأمر، وتميم قد قاله حين قدم مع قومه في عام الوفود، أى أمام الناس المحتشدين لشهود مثل تلك اللقاءات العامة الخطيرة؟ وأخيرا فلم يأتى لم يحاول الرسول أن يرسل أحدا لاكتشاف تلك الجزيرة وإحضار ذلك الكائن العجيب الذي يعد برهانا على صحة رسالته إلى المدينة؟ وهو نفس السؤال الذى أقوله دائما كلما جاءت سيرة المهدي المنتظر واختفائه في السرداب إياه حسبما يقول الشيعة! وعلى أية حال لا تزال الفرصة قائمة حتى الآن في

تدارك ما فات، إذ بإمكاننا أن نجهز حملة للبحث في عُرض البحر المتوسط من ناحيته الشرقية عن الجزيرة المذكورة والعثور على المسيح الدجال ما دام ظهوره لم يتم بعد بما يعنيه هذا من أنه ما فتئ محبوساً في تلك الجزيرة، ويمكن من ثم مقابله والحديث معه. يقينا لتكون هذه خبطة العمر، وسيظل العالم يتحدث عنها إلى أن يُنفَخ في الصور، وسوف تحسم الأمر لمصلحة الإسلام حسماً عظيماً.

ومن القصص الذي وقعت أحداثه في تلك الفترة، وإن كنت لا أظنه كُتِب حينذاك، بل بعده بزمان طويل عندما عرف العرب الورق والقلم والنسخ على نطاق واسع يسمح بتسجيل مثل تلك القصة، وأغلب الظن أن ذلك كان في العصر العباسي، القصة التالية التي تحكى لنا إسلام جبلة وتنصُّرهُ وموته على دين الصليب رغم أن جميع الأطراف كانت تريد أن يرتد إلى دين التوحيد مثلما انسلخ منه، وإن كان من الواضح أن القصة لم تبق كما وقعت بل دخلها التحوير الفني فجعل منها قصة شائقة ممتعة: "حدثني أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن الأجدع الكوفي بهيت قال: حدثني إبراهيم بن علي مولى بني هاشم قال: حدثنا ثقات شيوخنا: أن جبلة بن الأيهم بن أبي شمر الغساني لما أراد أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يعلمه بذلك يستأذنه في القدوم عليه، فسُرَّ بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أن أقدم، ولك ما لنا، وعليك ما علينا. فخرج جبلة في خمسمائة فارس من عك وجفنة، فلما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة، ولبس يومئذ جبلةً تاجه، وفيه قرط مارية، وهي جدته، فلم يبق يومئذ بالمدينة أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان. وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عمر بن الخطاب. فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من بني فزارة فحلَّه. فالتفت إليه جبلة مغضباً، فلطمه فهشم أنفه. فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب، فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزاري فهشمت أنفه؟ فقال: إنه وطئ

إزارى فحلّه. ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه عيناه. فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت. فإما أن ترضيه، وإلا أقدته منك. قال: أتقيده منى، وأنا ملك، وهو سُوقَة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تفضله بشيء إلا بالعافية. قال: والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية. قال عمر: دع عنك ذلك. قال: إذن أنتصر. قال: إن تنصرت ضربت عنقك. قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة، فكادت تكون فتنة. فقال جبلة: أخرنى إلى غد يا أمير المؤمنين. قال: ذلك لك. فلما كان جنح الليل خرج هو وأصحابه، فلم يئن حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر، وأقام عنده. وأعظم هرقل قدوم جبلة وسرّ بذلك، وأقطعته الأموال والأراضي والرباع.

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولا إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام أجابه إلى المصالحة على غير الإسلام. فلما أراد أن يكتب جواب عمر قال للرسول: أَلقيت ابن عمك هذا الذى ببلدنا (يعنى جبلة) الذى أتانا راغباً فى ديننا؟

قال: ما لقيته.

قال: القه، ثم اتنى أعطك جواب كتابك.

وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القهارة والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل. قال الرسول: فلم أزل أتلف فى الإذن حتى أذن لى، فدخلت عليه فرأيت رجلاً أصهب اللحية ذا سبال، وكان عهدى به أسمر أسود اللحية والرأس. فنظرت إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسحالة الذهب فذرّها فى لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أسود من ذهب. فلما عرفنى رفعنى معه فى السرير، فجعل يسألنى عن المسلمين، فذكرت خيراً وقلت: قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف.

فقال: كيف تركت عمر بن الخطاب؟

قلت: بخير.

فرأيت الغم قد تبين فيه لما ذكرت له من سلامة عمر. قال: فانحدرتُ عن السرير، فقال: لم تأبى الكرامة التى أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا. قال: نعم، صلى الله عليه وسلم، ولكن نَقَّ قلبك من الدنس، ولا تُبَالِ علامَ قعدت. فلما سمعته يقول: "صلى الله عليه وسلم" طمعتُ فيه. فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تُسَلِّم، وقد عرفتَ الإسلامَ وفضله؟ قال: أبعد ما كان منى؟

قلت: نعم، قد فعل رجل من بنى فزارة أكثر مما فعلت. ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقُبِلَ ذلك منه، وخَلَفْتُهُ بالمدينة مسلماً. قال: ذَرْنِي من هذا. إن كنت تضمن لى أن يزوجنى عمر ابنته ويولينى الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام.

قلت: ضمنت لك التزوج، ولم أضمن لك الإمرة.

قال: فأومأ إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعاً، فإذا خدام قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فَوَضِعَتْ وَنُصِبَتْ موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لى: كُلْ. فقبضت يدى وقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة.

فقال: نعم، صلى الله عليه وسلم، ولكن نَقَّ قلبك، وكُلْ فيما أحببت.

قال: فأكل فى الذهب والفضة، وأكلتُ فى الخليج. فلما رُفِعَ الطعام جىء بطِساس الفضة وأباريق الذهب، وأومأ إلى خادم بين يديه، فمر مسرعاً، فسمعت حِسًّا فالتفتُ، فإذا خدام معهم الكراسى مرصعة بالجواهر، فَوَضِعَتْ عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره. ثم سمعت حِسًّا، فإذا عشر جَوَارٍ قد أقبلن مطمومات الشعر متكسرات فى الحُلَى عليهن ثياب الديباج، فلم أر وجوها

قط أحسن منهن، فأقعدهن على الكراسى عن يمينه. ثم سمعت حسًا، فإذا عشر جوارٍ أخرى، فأجلسهن على الكراسى عن يساره. ثم سمعت حسًا، فإذا جارية كأنها الشمس حسنا، وعلى رأسها تاج، وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه، وفي يدها اليمنى جامٌ فيه مسك وعنبر، وفي يدها اليسرى جامٌ فيه ماء ورد. فأومأت إلى الطائر، أو قال: فصفرت بالطائر، فوقع في جام ماء الورد فاضطرب فيه. ثم أومأت إليه، أو قال: فصفرت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يرفرف حتى نفض ماء ريشه عليه، وضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجوارى اللواتى عن يمينه، فقال: بالله أطربننى. فاندفعن يتغنين، يخفقن بعيدانهن ويقلن:

لله دُرٌّ عصابة نادمتهم	يومًا بجَلَّتْ في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهمو	بردى يصفق بالرحيق السلسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهمو	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يغشون حتى ما تهرُّ كلاهم	لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم	شم الأنوف من الطراز الأول

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدرى من قائل هذا؟
قلت: لا.

قال: قائله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ثم التفت إلى الجوارى اللاتى عن يساره، فقال: بالله أبكيننا.
فاندفعن يتغنين، يخفقن بعيدانهن ويقلن:

لمن الدار أقفرت بمعان	بين أعلى اليرموك فالخمان؟
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهـ	ر محلاً لحادث الأزمان

قد أرانى هناك دهرًا مكينًا عند ذلك التاج مقعدى ومكانى
ودنا الفِصْحُ فالولائد ينظمـ — من سراعًا أَكَلَّةَ المرجانِ
لم يعللن بالمغافير والصمـ غ ولا نَقْفَ حنظل الشريانِ

قال: فبكى حتى جعلت الدموع تسيل على لحيته، ثم قال: أتدرى من قاتل هذا؟
قلت: لا أدرى.

قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:

تنصَّرتِ الأشراف من عار لطميةٍ وما كان فيها، لو صبرتَ لها، ضررُ
تكنفنى منها لجأجٍ ونخوةٌ وبعثُ لها العين الصحيحة بالعوُرُ
فيا ليت أُمى لم تلدنى، وليتنى رجعتُ إلى الأمر الذى قال لى عمرُ
ويا ليتنى أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيرًا فى ربيعةٍ أو مُضَرُ
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشةٍ أجالس قومى ذاهبَ السمع والبصرُ

ثم سألتنى عن حسان: أحي هو؟

قلت: نعم، تركته حيا.

فأمر لى بكُسُوةٍ ومالٍ ونُوقٍ مُوقرةٍ بُرًّا، ثم قال لى: إن وجدته حيا فادفع إليه الهدية وأقرئه
سلامى. وإن وجدته ميتًا فادفعها إلى أهله، وانحر الجمال على قبره.

فلما قدمتُ على عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه من الإسلام، والشرط الذى شرطه،
وأنى ضمنت له التزوج، ولم أضمن له الإمرة. فقال: هلا ضمنتُ له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به
الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل. ثم ذكرتُ له الهدية التى أهداها إلى حسان بن ثابت، فبعث
إليه، وقد كُفَّ بصره، فأتى به، وقائد يقوده. فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، إنى لأجد رياح آل
جفنة عندك.

قال: نعم، هذا رجل أقبل من عنده.

قال: هات يا ابن أخى. إنه كريم من كرام مدحتهم فى الجاهلية، فحلف ألا يلقي أحداً يعرفنى إلا أهدي إلى معه شيئاً. فدفعت إليه الهدية: المال والثياب، وأخبرته بما كان أمر به فى الإبل إن وُجد ميتاً. فقال: وددت أنى كنت ميتاً فُنحِرْتُ على قبرى.

قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

إن ابن جفنة من بقية معشرٍ لم يَغْذُهم أبائهم باللُّومِ
لم ينسنى بالشام إذ هو ربُّها ملَكَّا ولا متنصِّراً بالرومِ
يعطى الجزيل، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المذمومِ

فقال له رجل كان فى مجلس عمر: أتذكر ملوكاً كفرَ أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مُزْنَى. قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطَوَّقْتُكَ طَوَّقَ الحِمامة.

قال: ثم جهزنى عمر إلى قيصر وأمرنى أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غَلَبَ عليه فى أمِّ الكتاب".
ومن قصاصى صدر الإسلام كعب الأحبار اليمنى (ت ٣٢٢هـ)، وكان يهودياً قبل دخوله فى دين محمد. ويعزود. أحمد أمين، فى كتابه: "فجر الإسلام"، انتشار الإسرائيليات فى كتب قصص الأنبياء والتفاسير إلى كعب لاعتماده فى كثير من قصصه على العهد القديم كتابه المقدس السابق. ويروى عنه ابن جرير أنه جاء إلى عمر قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له: اعهد، فإنك ميت فى ثلاثة أيام. فسأله عمر: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب الله عز وجل فى التوراة. فعاد عمر يسأل باستغراب: وإنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال: اللهم لا. ولكن أجد صفتك وحياتك

وأنه قد فنى أجلك. ويعلق د. أحمد أمين على تلك الحكاية بأنها "إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر، ثم وضعها في هذه الصبغة الإسرائيلية".

أما أنا فلا أصدق هذه الرواية من أساسها، إذ المجرم القاتل لا يذهب إلى ضحيته ليحذره، فيكون التحذير سببا لفشله في تنفيذ جريمته، فضلا عن عقابه. ولن ينفعه الزعم حيثذ بأن هذا الكلام موجود في العهد القديم لأنه ببساطة لا وجود له فيه. ثم كيف سكت عمر طوال الوقت الذى عاشه بين طعن أبى لؤلؤة له وانتقاله إلى الرفيق الأعلى فلم يذكر لمن حوله تحذير كعب له ولم يكلفهم التحقيق معه؟ ولنفترض أن عمر، لأمر أو لآخر، سها أو نسي، فكيف فات ذلك أولاده أيضا؟ وإذا كان قد فات أولاده فكيف فات الخليفة الجديد عثمان فلم يفتح تحقيقا في هذا الموضوع؟ وهل كان عمر ليسكت أصلا على دعوى كعب بوجود خبره في التوراة؟ لقد رأيناه يصر على التحقق من صحة حديث قاله له أبو موسى عن استئذان الضيف لأهل البيت الذى يقرع بابه، وتشدد في ذلك أيما تشدد. فهل يمكن أن يتساهل في خبر مقتله ووجوده في كتاب يهود، وهو أهم وأخطر ألف مرة من أمر الاستئذان؟ ولنفترض أنه قد فاته هذا أيضا فكيف فاتة التشوق إلى معرفة نص الخبر الغريب المريب في العهد القديم، فلم يأمر كعبا بقراءة هذا النص عليه والتحقق من وجوده فعلا في الكتاب المذكور؟ لكل هذا أرانى أرفض تلك الرواية تماما.

ولم يقتصر القصص الإسلامى على نصوص الشر، بل امتد إلى الشعر أيضا كما في قول

الخطيئة مثلا:

وَطَاوَى ثَلَاثَ عَاصِبِ الْبَطْنِ مُرْمِلٍ	بِتَيْهَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنُ رَسْمًا
أَخَى جَفْوَةٍ فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَحَشَةً	يَرَى الْبُؤْسَ فِيهَا مِنْ شَرَّاسَتِهِ نُعْمَى
وَأَفْرَدَ فِي شُعْبٍ عَجُوزًا إِزَاءَهَا	ثَلَاثَةَ أَشْبَاحٍ تَخَاهُؤُهُمَا
رَأَى شَبَحًا وَسَطَ الظَّلَامِ، فَرَاعَهُ	فَلَمَّا بَدَا ضَيْفًا تَسَوَّرَ وَاهْتَمَّ

وَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِحَيْرَةٍ: أَيَا أَبَتِ، اذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُ طُعْمًا
 وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعُذْمِ. عَلَّ الَّذِي طَرَا يَطْنُنْ لَنَا مَا لَا فَيُوسِعُنَا دَمًا
 فَرَوَى قَلِيلًا ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا
 فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةً قَدْ انْتَضَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمًا
 عِطَاشًا تُرِيدُ الْمَاءَ، فَانْسَابَ نَحْوَهَا عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمًا
 فَأَمْهَلَهَا حَتَّى تَرَوْتَ عِطَاشُهَا فَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمًا
 فَخَرَّتْ نَحْوُصْ ذَاتُ جَحْشٍ سَمِينَةٌ قَدْ اكْتَنَزَتْ لَحْمًا، وَقَدْ طُبَّقَتْ شَحْمًا
 فَيَا بَشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ وَيَا بَشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلَمَهَا يَدْمَى!
 فَبَاتُوا كِرَامًا قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ فَلَمْ يَغْرَمُوا غُرْمًا، وَقَدْ غَنِمُوا غَنْمًا
 وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَا لَضَيْفِهِمُ، وَالْأُمُّ مِنْ بَشْرِهَا أُمًّا

كذلك عرف العصر الأموي أيضا فن القصص. ولدينا كتاب "أخبار عبيد بن شريفة
 الجُرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"، الذي سجل فيه عبيد ما كان يقع بينه وبين
 معاوية بن أبي سفيان من حوارات تاريخية، وكان معاوية قد استقدمه ليستمع منه إلى أخبار
 ملوك اليمن. ويذكر ابن النديم أن عبيدًا وقد على معاوية، فسأله هذا عن الأخبار المتقدمة
 وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان قد
 استحضره من صنعاء اليمن، فأجابه إلى ما سأل، فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد.
 وهو الكتاب الذي يؤكد المسعودي أن صاحبه هو الوحيد الذي صح وفوده على معاوية من
 رواة أخبار الجاهلية. قال: "ولم يصح عند كثير من الأخباريين من أخبار من وقد على معاوية
 من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين العرب وغيرهم من المتقدمين فيها إلا خبر
 عبيد بن شريفة وإخباره إياه عما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب
 الأنساب. وكتاب عبيد بن شريفة متداول في أيدي الناس مشهور".

والقصص فيه عبارة عن حوار بين عبيد ومعاوية: يسأله معاوية عن الشيء في القصة التى يرويها له فيجيبه عما يسأل موردا تفاصيل التفاصيل ذاكرا الأسماء كاملة مستشهدا بما قاله أبطال القصة من أشعار. ومن هذه القصص قصة هود عليه السلام وقومه عاد. ولا تحظى الأشعار المنسوبة إلى عاد في تلك القصة بثقة العلماء كابن سلام وغيره، الذى تقوم حجته على أن الله قد أهلك عادا وثمود عن آخرهما بنص القرآن الكريم، فكيف وصلنا شعرهم، ولم يكن هناك من يؤديه إلى الأجيال اللاحقة؟ وقد رددتُ في الفصل الأول من كتابي: "الأدب العربى - نظرة عامة لبيير كاكيا: عرض ومناقشة"، وعنوانه "ابن سلام والشك في العشر الجاهلى" على هذا الاعتراض بأن الله حين ذكر لنا أنه سبحانه قد أهلك عادا وثمود فالمقصود أنه أهلك المشركين منهم، إذ لا يعقل أن يهلك معهم نبيهم والمؤمنين به. وهذا منصوص عليه بوضوح تام في سورة "هود". ومن ثم فليست هناك مشكلة في وصول أشعار القوم إلى الأُخلاف. وإلى جانب ذلك من الممكن جدا أن تقوم القبائل المجاورة لعاد وثمود برواية ذلك الشعر لمن يلى من الأجيال. بيد أن هذا شيء، والقول بأن تلك الأشعار صحيحة بالضرورة شيء آخر. إنما هدفي هو إثبات أن حجة ابن سلام ليست مقبولة في ذاتها.

وتجرى قصة هود وقومه على النحو التالى. وقد أسقطتُ منها، بغية الاختصار، أشعارا كثيرة بعضها قصائد كاملة طويلة: "قال معاوية: فحدّثنى يا عبيد عن هلاك عاد، وكيف كان هلاكهم؟ قال عبيد: يا معاوية، إنه كان عاد بن عوص بن سام بن نوح، وهو الذى أحدث له عشرة من الولد. وهم شداد، وهو أول من ملك منهم وطال ملكه، وهو الذى عمل إرم ذات العِمَاد، والخلود، وهم رهط النبى هود صلى الله عليه وسلم، وتيم بن عاد وبر وبهار والعنود والحقود والصور، وهم رهط أبى سعيد المؤمن، وصد، وهم رهط لقمان بن عاد صاحب النسور، ووفد وثمود ومتاب، وهم رهط صاحب السحابات، وأس وفد غار ورميل. وكانت

عاد عشر قبائل وكانوا عربا، وكانت مساكنهم الأحقاف، وهى الرمال ما بين حضر موت وبحر عدن. وذلك قول الله تعالى: "واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف". وكانوا قد كثروا وانتشروا فى البلاد من أرض اليمن كلها وما قاربها من البلاد وقَسُوا فى البلاد. وكان الله قد أعطاهم بسطة فى الجسم وقوة فى الأبدان وسعة فى الأرزاق ومهلا فى الأعمار لم يعطه أحدا من الخلق من بعد قوم نوح. وذلك قول الله عز وجل: "وزادكم فى الخلق بَسْطَةً"، وقال سبحانه: "أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَاتٍ وَعَيْونَ"، فكفروا ربهم وطَغَوْا بما فضلهم به على غيرهم فأفسدوا فى الأرض وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا واغتروا بجهلهم وقالوا لنبئهم هود: "إن هذا إلا خُلُقُ الأولين". وقال الله عز وجل: "وأما عادٌ فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا: مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّة؟" ... الآية. فلما كثر عتوهم وكفرهم، وظهرت فيهم المعاصى بعث الله نبيه هُودًا صلى الله عليه حجة عليهم لينذرهم، وكان من أوسطهم بيتا وأكرمهم حسبا وأعزهم رهطا، ليمتنع من سفاهتهم حتى يبلغ رسالات الله. وقد سمعتُ ابن عمك عبد الله بن عباس يقول: إن الله لم يبعث نبيا قط إلى قومه إلا من أوسطهم بيتا وأعزهم ليمتنع من سفاهتهم حتى يبلغ رسالات الله. قال: صدقت يا أخا جرهم. فهل تعرف أحدا من شعراء العرب ذكر هودا فى شعره؟ وإن فى كتاب الله لشفاء من العمى وبياننا من الجهل، ونحب أن نزداد. فإننى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن من الشعر لحكمة. قال عبيد: يا معاوية، قال فيه حسان بن ثابت الأنصارى حيث يقول:

وإن أخا الأحقاف إذ يعذلونَه يجاهد فى دين النبى ويعذلُ

قال معاوية: صدقت يا ابن شَرِيَّة. فحدثنى حديثك عن عاد. قال: يا معاوية، وكان لعاد أصنام يعبدونها دون الله تسمى: صداء وبغاء وصمود. قال معاوية: فهل قيل فيها شعر؟ قال عبيد: نعم. قال أبو سعيد المؤمن، وهو من بيت سعيد، حيث قال:

لنا صنم يقال له: صمودٌ يقابله صداء والبغاءُ

قال معاوية: صدقت. فخذ في حديثك عن عاد. قال: فبعث الله إليهم نبيه هودا صلى الله عليه برسالته وداعيا إلى عبادته، فبلغهم الرسالة ونصح لهم ما استطاع، فردوا نصيحته وطرحوا قوله وكرهوا ما جاءهم به. وكان من قولهم ما ذكر الله في كتابه في غير آية ولا آيتين: "قالوا: يا هود، ما جئتنا ببينة. وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلِهتنا بسوء". قد سمعتُ ابن عمك يقول: أصابك بعض آلِهتنا بجنون. قال هود: "إني أشهد الله، واشهدوا أني برىء مما تشركون * منْ دونه..." الآية. وسمعتُ ابن عمك يقول: إني برىء من آلِهتكم الذين تزعُمون أنها أصابتني بسوء. فأصيبوني بأعظم من ذلك إن أحببتكم. وقوله تعالى: "أتنبون بكل رِيعٍ آيةً تعبثون"، يعنى بكل نجد. والرِّيع هو النجد مما ينصبون من الحجارة في النجاد، وهى للنائي. سمعت ذلك من ابن عمك أيضا. قال: صدقت يا عبيد وجئت بالبرهان الواضح، فحدثني عن هود. قال: نصح لهم هود بجهدته وأتاهم بالحق من ربه، فلم يزدادوا إلا طغيانا وكفرا وتماديا في معصيته. وأسلم مع هود منهم نفر يسير لا يبلغون أربعين رجلا، وأسلم رجل من أشrafهم وساداتهم وذوى أحسابهم يقال له: أبو سعيد بن سعد بن عفير، وكان يكتُم إيمانه. وهو رأس الوفود وصاحب البر والتقوى وودها. وقد بلغنى يا معاوية أنه كان سائرا ذات يوم، إذ مر بجماعة منهم في نادى قومهم فدعاهم إلى الله ووعظهم، فحمل عليه رجل من سفهائهم بحجر فأدمى كعبه، فدعا عليهم هود عليه السلام أن يتليهم الله بالقحط ويحبس القطر عنهم ثلاث سنين. فاستجاب الله له فحبس عنهم المطر وابتلاهم بالقحط ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك.

قال معاوية: لله أنت يا عبيد. فهل قيل في ذلك شعر؟ قال عبيد: نعم. قال: فأسمعني ذلك. قال: لما دخلت السنة الأولى عليهم علموا أنها سنة قحط وأزمة فسَمَّوها: حجرة. فقال في ذلك رجل من المسلمين يقال له: "حماد" هذا الشعر:

قد نزلت بأرض عاد حجرة	لهالهب، وعليها غبرة
فأرضهم جاذبة مغبرة	جاحمة، وحرثها مصفرة
ليس لها في يومها مسرة	ولا لعين بالنهار قُرة
حلاوة الإتراف فيها مُرة	لطاعة الله، وفيها عبرة
وفي معاصيه الردى والحسرة	فقد رَأَوْا منك عظيم القدرة
إذ أرضهم يابسة كالصخرة	موحشة دون البلاد قفرة
مستبدلين خيره مضرّة	إذ لم تزل تربتها مغبرة

وصادفت من ربها المعرة

فأجابه رجل من المشركين. قال: وما اسمه؟ قال: اسمه الخلعجان بن الوهم. فأنشأ يقول:

إن السنين حلوة ومُرة	فاخرة ولدنة مخضرة
فمرة جذب، وخصب مرة	ليست بنكر سنة مغبرة
معينهم ليست تدوم العرة	وعاد ألُوهمة وخبرة
محتالة للكسب ذات قدرة	وكلهم ذو وسعة يمرة
لهم بعز شوكة مسرة	كأنهم عند اللقاء جمرة

وهم معا في الخافقين عبرة

...

قال معاوية: لقد جئت بالبرهان في حديثك يا عبيد. فماذا فعلوا؟ قال: يا معاوية، لما تولت عليهن سنون بغمتها وحطمتها، فاشتد فيها قحطهم وهم في ذلك غير تائبين ولا مطيعين لنبيهم هود صلى الله عليه، ثم قام رجل من أشrafهم وذوى أنسابهم يقال له: زميل بن عنز أخو القيل بن عنز، وكان القيل رأس عاد وسيدها في زمانه وصاحب السحابات والريح التي أهلكت عاداً بإذن الله عز وجل، فقام زميل فنأدى قومه فقال: يا قوم، إني فكرت لما نزل بكم من هذا القحط ورأيت رأياً وقلت فيه قولاً، وأنا عارض ذلك عليكم إن رأيتم ذلك. فقالت له الجماعة: إن رأيك لأصيل، وإن فعلك لجميل. فقل نسمع ما تقول. فقام زميل فيهم منشداً هذا الشعر حيث يقول: ...

قال: فلما سمعوا مقالته أجمعوا على المسير إلى بيت الله الحرام يستسقون الغيث. قال معاوية: لله أنت يا عبيد! وكيف كانوا يطمعون أن الله يستجيب لهم، وهم مقيمون على الشرك بالله وعبادة الأصنام؟ قال عبيد: يا معاوية، كان الناس في ذلك الزمان: العرب وغيرهم من المشركين إذا نزل بهم فادحة أو ناهم نائبة أو جهدهم قحط أو غيره فزعوا إلى الله، فيأتون إلى البلد الحرام يطلبون من الله الفرج، فيضعون مسائلهم ويعرفون من الله الاستجابة عند بيته الحرام، فيجتمع بمكة بشر كثير مختلفة أديانهم يطلبون من الله حوائجهم، كلهم عارف بمكة وحرامها، فلا يبرحون حتى يعطى السائل سؤاله مما سأل.

قال معاوية: فهل كان في ذلك الوقت يعرف موضعه؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد كان موضعاً منذ وضعه الله لآدم إلى أن بناه إبراهيم عليه السلام معروفاً مكانه، ولم يزل مبيناً يومئذ. فلما أجمعت على المسير إلى مكة ليستسقوا جهزوا من عظمائهم وأشرافهم وذوى أحسابهم سبعين رجلاً، ثم وضعوا على السبعين أربعة منهم قيل بن عنز، وهو رأسهم وصاحب أمرهم، ولقمان بن عاد، وهو صاحب النور، وأبو سعيد مرثد بن سعد، وهو خير

النفر، وجلهمة بن الخبيري، فساروا حتى أتوا مكة، وسكانها يومئذ العماليق، وهم يومئذ ملوك الحجاز وأرضها، فنزلوا على رجل منهم يقال له: بكر بن معاوية بن بكر وجميع ولده. وكانت أخت لبكر بن معاوية، وهى هزيمة ابنة هزال بن معاوية، متزوجة فى عاد، وزوجها أبو سعيد المؤمن مرثد بن سعد، فولدت عمرا وعامرا وعميرا أبناء مرثد بن سعد. وهى وولدها التى نجت من العذاب يوم الريح. وبنو أبى سعيد هؤلاء هم عاد الآخرة.

فلما قدم وفد عاد إلى الحرم نزلوا على صهرهم بكر بن معاوية وابنه معاوية، وكان منزلهما بظهر مكة خارجا من الحرم، ففرحا بالوفد وأكرمهم وأحسنوا منزلتهم عند ابن أختهم معاوية بن بكر. وكان معاوية قد كبر وضعف، وكانت الرئاسة لابنه بعده، فأنزل أخواله وحبسهم عنده شهرا يأكلون الخبز واللحم ويشربون الخمر، وتغنيهم قيتتان يقال لهما: الجرادتان. ويقال إنه أول من اتخذ القينات فى الأرض للغناء. وكان أكثر العرب مالا فى زمانه. فأقبل وفد عاد فى اللهو والشراب وتركوا ما جاؤوا له. فلما رأى ذلك معاوية بن بكر غمه ذلك وقال: لأن تركت أخوالى وأصهارى إنها لهلككم وهلك من خلفوا من أهلهم وقومهم فى بلادهم، وهم أيضا ضيفى ووجوه قومى، وأنا أستحى أن آمرهم بالشخوص لما قدموا له. فلما طال مقامهم ولم ينظروا فى ما قدموا له قال شعرا، ثم حفظه لجاريتيه وأمرهما إذا انتشى القوم وأخذ فيهم الشراب أن تقوموا على رأس كبيرهم وشريفهم قيل بن عنز وتغنياه. فأضاف لهم الطعام والشراب، فلما انتشوا قامت الجاريتان على رأس قيل بن عنز، وأنشأتا تقولان: ...

قال معاوية: فما فعل الوفد يا عبيد؟ قال: إن الوفد لما أرادوا المسير إلى الكعبة سألوا بكرا وابنه أن يجسبا أبا سعيد، ففعلا وكلماه فى ذلك، فقال: نعم. ووقف عنهم هو ولقمان بن عاد، ومضى سائر الوفد إلى البيت يتقدمهم قيل بن عنز. وصَفَّ الوفد حوله ولاذ بالكعبة ودعا وتضرع، فسمع مناديا ينادى من السماء يقول: يا قيل بن عنز، ما جئت تطلب؟ فاسأل

تُعْطَ، فقال: جئت أطلب القَطْرَ الذى ينبت الشجر ويكثر الثمر ويحيا به البشر ويصلح به قومي وبلادي. قال: فأنشأ الله ثلاث سحباب: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم قيل له: اختر أيها شئت. قال: أما البيضاء فجهاً ليس فيها مطر ولا لغيثها روى. وأما الحمراء فجهاً غير أتيّ الذى ينفي السراء ويأتي بالضراء، ولا حاجة لنا فيها. وأما السوداء فكثيرة الماء والروى، معقبة الرخاء، مبلغة المنى، غائظة الأعداء. وقد اخترتها لقومي وبلادي. فناداه المنادى: رمادا أرمد. لا يبقى من عاد بن عوص أحد، لا والد ولا ولد، إلا القليل الأبعد.

قال معاوية: لله أنت. من يعنى بقوله: إلا القليل الأبعد؟ قال: من ولد عملوق بن لاوذ، وهى أخت بكر بن معاوية، يعنى هزيلة بنت هزيل العمليقة، وهى أخت بكر بن معاوية، وهى زوجة أبى سعيد المؤمن. وقد بلغنى يا معاوية أن هزيلة كانت امرأة فاضلة فى عقلها وأدبها، وكانت مُحِبَّةً لهُود عليه السلام وأصحابه، وتَلَطَّفَ بهم وتوسَّع عليهم فى مالها، وكانت كثيرة المال. وقد كان الإسلام وقع فى قلبها، وهى تكتم ذلك فى قومها، فنجأها الله من العذاب وولدها. وانصرف وفد عاد إلى منزلهم عند بكر بن معاوية فرحين مسرورين أنهم قد أصابوا الغيث. ولما رجعوا انطلق أبو سعيد المؤمن ولقمان إلى البيت العتيق، فقدم أبو سعيد المؤمن إلى البيت فلاذ بالكعبة ودعا وتضرع وقال: رب، إنى جئت فى حاجتى، فأعطنى سُؤلى. فسمع منادٍ من السماء يقول: يا أبا سعيد بن مرثد، ما جئت تطلب؟ سَلْ تُعْطَ. قال: جئت أطلب البر والتقوى. فنودى: ألا قد أُوتِيَتْهُما، ولك بهما الفضل الكبير.

قال معاوية: أَقِيل فى ذلك شعر؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد قالت العرب فى ذلك أشعاراً. فإن أحببت أنشدتُكها، وإن شئت فى آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك. قال معاوية: سَمِعَنيها فى آخر الحديث، فهو أحسن. قال: ثم تقدم لقمان بن عاد فلاذ بالكعبة ودعا وتضرع وقال: اللَّهُمَّ إِنى لم آتَكَ وافداً إلا لنفسى، فأعطنى سُؤلى. فسمع منادياً من السماء يقول: يا

لقمان بن عاد، ما جئت تطلب؟ وما تريد؟ فاسأل تعط. قال: جئت أطلب العمر. قال: فنودی: اختر عمر سبعة أنسر حين تنفلق عن الفرخ البيضة أحب إليك إلى أن تبقى كثيرا، فإذا هلك نسر أعقب نسر آخر، أو تبقى سبع بقرات سمر، من سنوات عفر، في جبل وعمر، لا يمسها قطر؟ فقال لقمان: بل عمر سبعة أنسر. فنودی أن قد أوتيت سؤالك، ولا سبيل إلى الخلود. فانصرف لقمان وأبو سعيد إلى الوفد في منزل بكر وابنه، وأقاموا معا حتى أتاهاهم هلاك عاد.

قال عبيد: وكان هلاك عاد يا معاوية أن السحابة السوداء التي اختارها قيل بن عنز لقومه جعلها الله سبحانه ريحا عقيما عقوبة من الله. وذلك قول الله عز وجل: "وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم". قال: سمعت ابن عباس يقول: إنما عَقُمْتُ من الرحمة ولقحت بالعذاب. قال الله سبحانه: "بريح صَرْصَرٍ عاتية". سمعت ابن عباس يقول: عَتَتْ يومئذ على خَزَنَتِهَا خَزَنَةُ الريح. خرج منها مثل منخر الثور، فبه أهلك الله عادا. قال: وسارت الريح يزجها أمر الله وقدرته معها جنود الله وملائكته، ملائكة العذاب يقودونها بأزمنة حتى انتهت إلى بلاد عاد، فأنتهم من قبل واد يقال له: "مغيث" كان يأتيهم من قبله الغيث. فلما رأوه فرحوا واستبشروا وطمعوا أنها غيث من قبل الله، ولم يعلموا أنها نكال عليهم وعقوبة. قال الله تعالى: "فلما رآوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارضٌ مُمطرٌنا. بل هو ما استعجلتم به: ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ * تدمر كل شيءٍ بأمر ربها"، وقولهم لنبيهم هود عليه السلام: "فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين". سمعت ابن عباس يفسر ذلك. قال: معاوية: صدقت. فماذا قال؟ قال: كان أول ما تبين به أنها ريح عقوبة من الله لهم جارية يقال لها: مهد، فإنها لما رأتها صاحت ثم صرخت ثم غشى عليها، فاجتمع إليها قومها. فلما استفاقت قامت تنوح وهي تقول:

البليّة البليّة ————— ما جنى الوفد عليه
 إن وفد الريح كانوا شروفاً في البريّة
 أرسلوا ييغون غيثاً تركت عاداً خليه
 سُخِّرَتْ سبعا عليهم فَأَتَوْهُمْ بِالْبَلْبِ —————
 سُخِّرَتْ رِيح عليهم تركت عاداً خليه
 سُخِّرَتْ سبعا عليهم لم تدع منهم بقيه

ويقال يا معاوية: إنها أول نائحة ناحت في الأرض. فقال لها قومها: ويحك! ماذا تَرَيْنَ؟ وماذا دهاك؟ قالت: الويل لعاد، التي طغت في البلاد، فأكثرُوا فيها الفساد. أرى رياحاً كأمثال الجبال، لها جُحْمٌ بأيدي رجال، كأن في وجوههم شهب النار. والرجال الذين ذكرت ملائكة الله عز وجل مع الريح. قال معاوية: هل قيل فيه شعر؟ قال عبيد: نعم يا معاوية. قد قال أمية بن أبي الصلت أو النابغة الذبياني في ذلك شعراً حيث يقول:

رأت ما رأت مهْدٌ، فقبل لها: ماذا تَرَيْنَ؟ فقالت: أَنْظُرِ العجبا
 أرى رياحاً كأمثال الجبال لها جُحْمٌ بأيدي رجال تشبه اللهب

قال معاوية: خذ في حديثك. قال: فلما تبين لهم أنها ريح عقوبة من الله عليهم قاموا إلى صعيد واحد ووضعوا العيال والذراري. قال: ثم بَنَوْا عليهم بالأبنية والمتاع كالردم العظيم فوقهم ليقبهم بزعمهم من الريح، فاجتمع جميعُ أُلَى القوة والجلد والبأس وصَفُّوا بينهم وبين الريح على فم وادٍ، وانتدب منهم رجال كالأطواد العظام، وهم عمرو بن خلى والحارث بن أسد والمقدم بن سفر والخلجان بن الوهم وصيد بن سعيد وزميل بن عمرو وزمر بن أسود، فبرزوا دون قومهم وقالوا: نردّ هذه الريح عنكم.

قال معاوية: فما كان من أمر هود عليه السلام؟ قال عبيد: إن هوداً كان فيهم، وكان يدعوهم إلى طاعة الله. فلما رأى أن العذاب قد نزل بهم وعلم أن الله مُهْلِكُهُم اعتزل عنهم في

ثلاثين رجلاً ممن أسلم معه، وانطلقوا حتى وقفوا على حظيرة على تل قريب من الوادي يسمعون كلامهم ويبتغون ما الله فاعل بهم. فلما انتهت الريح إلى عاد قام عمرو بن خلى أحد الجبابرة السبعة، وهو رأسهم، فبرز دون أصحابه يلقي الريح، وأنشأ يقول: ...
فسمع هود صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه المسلمون قوله، فأجابه رجل منهم وأنشأ يقول: ...

قال: ثم عصفت الريح بعمرو بن خلى، فقام مقامه الحارث بن أسد وأنشأ يقول:
يا عاد، إن العز فيكم قد رسخ وقد نشأ فيكمو وقد شمش
كسفرة عتقتها بعد الفتح

فصرعته الريح. قال: ثم قام مقامه المقدم بن السفر وأنشأ يقول: ...

فصرعته الريح. فقام مقامه زمر بن أسود وأنشأ يقول: ...

ثم صرعته الريح مع أصحابه، فهلك الجبابرة السبعة بإذن الجبار.

ولقد بلغنى يا معاوية أن أحدهم كان يلقي الجارى بيديه فلا يجرى. ثم عصفت الريح على جماعة آل عاد فأهلكتهم بقدرة الله تعالى، لم تدع منهم عينا تطرف لا صغيرا ولا كبيرا. ثم طفت الريح تقلب أجسامهم بين السماء والأرض في الجو مُصْعِدِينَ ومنحدرين سبع ليال وثمانية أيام حسوماً حتى تركتهم كأنهم أعجاز نخل خاوية. وذلك قول الله عز وجل: "كأنهم أعجاز نخل خاوية"، وهدمت البيوت وتركتهم كأنهم جذوع النخل اليابسة، وخربت القصور والحيطان والبساتين. اقتلعتها من أصولها حتى كأنها لم تكن على وجه الأرض ولم تترك منهم أحداً إلا هزيلة بنت هزال العمليقة وبنيتها، وهى امرأة أبى سعيد، فإن الله نجاهم من العذاب بإيمان أصحابهم. وأمر الله سبحانه وتعالى الريح فحملتهم برفق وشفقة هى

وولدها لم تؤذهم ولم تضرهم حتى أتت بهم مكة، فألقتهم في منزل بكر بن معاوية الذى فيه وفد عاد وأصحابه.

قال: فبينما القوم فى لهُوهم ولدتهم إذ أقبلت هزيلة بينيها حتى هجمت على عمها الشيخ بكر بن معاوية فى منزله. فلما رآها فزع منها فزعا شديدا وقال: ويحك! ما دهاك؟ وما وراءك؟ ومن قدم معك من أصحابك؟ فاستعبرت هزيلة باكية وقالت: الخبر أفضع وأوجع وأجزع من أن أصفه لك. قال: ويحك! خبرينى ما ذاك، فقد أكثرَ وَجْدَى؟ قالت: وأين وفد عاد؟ قال: هم أولاء فى منزل ابنى معاوية. قالت: ما فعلوا؟ قال: فزعوا إلى بيت ربهم، فأعطى السائل منهم سؤله. قالت: كلا ورب الكعبة. قد أُعْطُوا الخزى الطويل والذل الدليل. قال: ثكلتك أمك يا هزيلة! أخبرينى: ما ذاك؟ قالت: ما أنا مخبرتك بشيء حتى تحضر إلى جميع الوفد. فأرسل إليهم بكرا، فأخبرهم بمكان هزيلة، فأقبلوا يتدرون فزعين مرعوبين. فلما توافوا عندها قالوا لها: ويحك! أخبرينا: ما الذى جاء بك؟ ومن جاء بصحبتك؟ وما وراءك؟ وكيف تركت قومك؟ قالت: بل أخبرونى عن مسيركم وأمركم. فأخبروها، قالوا: سرنا شهرا، وأقمنا شهرا عند عمك وابنه، ثم فزعنا إلى البيت العتيق، فأعطى السائل منا سؤله، وقد توجهت السحابة نحوكم بالغيث. فما عندك من الخبر؟ فقالت هزيلة: إن الخبر أفضع وأشد وأوجع من أن أُسمِعكموه قِيلاً، ولكنى سأقول شعرا وأرويه الجرادة تُسمِعكموه. فقالت هزيلة هذا الشعر: ...

وقال أسد بن ناعض يذكر أمر الوفد والسحابات والتخيير على حديث مرثد بن سعد يقول فيه شعرا: ...

وقال المهيل بن ناعض المسلم رحمه الله تعالى رحمة واسعة: ...

وقالت هزيلة بعد مصيرها إلى عمها حين نظرها تبكى على عاد وهى تقول: ...

قال: فلما سمعوا قولها يا معاوية وعلموا ما أنزل الله بقومهم من العذاب والعقوبة ورأى أبو سعيد مرثد بن سعد ما صنع الله له إذ نجى أهله، وإذ هم إليه سالمون، ازداد إيماناً وبقينا بالله وأظهر إسلامه عند ذلك. وأنشأ يقول: ...

وكان لأبى سعيد أخ يقال له: جنحوى بن سعد، وكان كافراً غاشياً متبعاً لعاد، ولم يكن رأيته رأى أخيه. وكانت له امرأة من قومه يقال لها: جفينة، لها منه ابن يقال له: عفير، وابنة يقال لها: عنجهور، فسأل أبو سعيد امرأته عن أخيه وأهله، فأخبرته بهلاكهم وكيف رأت الريح تفعل بهم، فرّق لهم عند ذلك، وأنشأ يرثيهم وهو يقول: ...

قال معاوية: لله دُرّك! فقد جئت بالبرهان. فما فعل أبو سعيد؟ وما كان من هود وأصحابه؟ قال عبيد: يا معاوية، تحمّل أبو سعيد بأهله وولده حتى أتى هوداً وأصحابه مؤمناً مسلماً، ووجدهم على ساحل البحر مما يلي أرض عاد، فأقاموا جميعاً يعبدون الله على أحسن حال. ووهب الله لأبى سعيد المال والولد حتى كان أكثر العرب مالا وولداً في زمانه ذلك. وبلغنا يا معاوية أن عاداً الآخرة من نسله. قال معاوية: وهل من عاد غير هذه؟ قال: نعم يا معاوية. فإن أحببت أخذتُ في الحديث حتى أتى بحديثهم. قال: بل خذ في حديثك. قال عبيد: كان هود وأصحابه يعبدون الله حتى ماتوا وانقرضوا".

ومن قصاصى العصر الأموى أيضاً وهب بن منبه اليمنى (ت حوالى ١١٠هـ). وكان من أهل الكتاب وأسلم. ويحكى عنه قوله: قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتاباً. ولا ندرى أية كتب هذه. وكنا نحب أن يسمى لنا أسماء تلك الكتب، إن صح أنه هو الذى قال هذا الكلام فعلاً، ولم ينسبه أحد إليه على غير الحقيقة. ومما ينسب إليه من الأقاصيص الحكاية التالية: "سأل رجل وهب بن منبه عن رجل استُعْمِلَ على عمل ففُرِضَ له رزق، فلم يعدد الذى فرض له. قال وهب: إني سأضرب لك مثلاً. أخبرنى عن رجل تلصص زماناً، حتى إذا كبر وجلس فى بيته أتاه شاب فقال: إنك قد جربت اللصوصية، فعَلَّمْنِي، فما أصبْتُ من شىء فينى وبينك. فقال له الشيخ: إني

أخاف أن أعلمك فتصيب فلا تقسم لى. فجعلنا بينهما أمينا: ما أصاب من شىء فبين الشيخ واللس والأمين. أى هؤلاء شر؟ قال: كلهم سواء". ومن القصص المنسوبة إليه أيضا أنه "قرأ، فيما قرأ من الكتب، أن الله تعالى لما لعن إبليس وأخرجه من الجنة قال: يا رب، لعنتنى وجعلتنى شيطانا رجيمًا، وأنزلت الكتاب وبعثت الرسل، فما رسلى؟ قال: رسلك الكهنة. قال: فما كتابى؟ قال: الوشم. قال: فما حديثى؟ قال: حديثك الكذب. قال: فما قراءتى؟ قال: قراءتك الشعر. قال: فما مؤذنى؟ قال: مؤذنتك المزامير. قال: فما مسجدى؟ قال: مسجدك السوق. قال: فما بيتى؟ قال: بيتك الحمام. قال: فما طعامى؟ قال: طعامك كل ما لم يذكر اسمى عليه. قال: فما شرابى؟ قال: شرابك كل مُسكر. قال: فما مصائدى؟ قال: مصائدك النساء".

ومن قصصه كذلك أن "آدم عليه السلام لبث فى السخطة سبعة أيام، ثم إن الله تعالى أطلعه فى اليوم السابع وهو منكس محزون كظيم، فأوحى الله إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذى أراك فيه اليوم؟ وما هذه البلية التى قد أجحف بك بلاؤها وشقاؤه؟ قال آدم: عظمت مصيبتى يا إلهى، وأحاطت بى خطيئتى، وخرجت من ملكوت ربى فأصبحت فى دار الهوان بعد الكرامة، وفى دار الشقاوة بعد السعادة، وفى دار العناء والنصب بعد الخفض والدعة، وفى دار البلاء بعد العافية، وفى دار الظعن والزوال بعد القرار والطمأنينة، وفى دار الفناء بعد الخلد والبقاء، وفى دار الغرور بعد الأمن. إلهى، فكيف لا أبكى على خطيئتى؟ أم كيف لا تحزننى نفسى؟ أم كيف لى أن أجتر هذه البلية والمصيبة يا إلهى؟ قال الله تعالى له: ألم أضطفك لنفسى، وأحللتك دارى، واصطفتك على خلقى، وخصصتك بكرامتى، وألقيت عليك محبتى، وحثرتك سخطى؟ ألم أباشرك بىدى، وأنفخ فىك من روحى، وأسجد لك ملائكتى؟ ألم تك جارى فى بحبوحة جنتى تنبوا حيث تشاء من كرامتى، فعصيت أمرى ونسيت عهدى وضيعت وصيتى؟ فكيف تستنكر نقمتى؟ فوعزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك "يسبحون الليل والنهار لا يفترون" ثم عصونى

لأنزلتهم منازل العاصين. وإنى قد رحمت ضعفك وأقلتك عثرتك وقبلت توبتك وسمعت تضرعك وغفرت ذنبك، فقل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمت نفسي وعملتُ السوء، فتب على . إنك أنت التواب الرحيم. فقالها آدم، ثم قال له ربه: قل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمت نفسي وعملتُ السوء، فاغفر لي. إنك أنت الغفور الرحيم. فقالها آدم. ثم قال له ربه: قل: لا إله إلا أنت. سبحانك اللهم وبحمدك. ظلمت نفسي وعملتُ السوء، فارحمني. إنك أرحم الراحمين. قال: وكان آدم قد اشتد بكأؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة حتى أن كانت الملائكة لتحزن لحزنه وتبكي لبكائه، فبكى على الجنة مائتي سنة، فبعث الله إليه بخيمة من خيام الجنة فوضعها له في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة".

ومن أولئك القصاصين كذلك الحسن البصرى (ت ١١٠هـ)، ولم يكن يتخلل قصصه أية إسرئيليات. وكان يجلس في آخر المسجد بالبصرة ويقص على الناس ويعظهم ويحيب على أسئلتهم. وقد عظمت هيبة الحسن البصرى في القلوب، فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم. ويوصف بأنه كان غاية في الفصاحة، تتدفق الحكمة من فيه. وتُحكى له مع الحجاج بن يوسف الثقفى مواقف، وقد سلم من أذاه. وتروى عنه القصة التالية: "دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكان منزله بإزاء منزلى، وكان حسن الجوار، وكان حسن السيرة حسن الخلق، فرجوتُ الله تعالى أن يوفقه عند الموت ويميته على الإسلام، فقلت له: ما تجد؟ وكيف حالك؟ فقال: لى قلبٌ عليلٌ ولا صحّة لى، وبدنٌ سقيمٌ ولا قوة لى، وقبرٌ مؤحشٌ ولا أنيس لى، وسفرٌ بعيدٌ ولا زاد لى، وصراطٌ دقيقٌ ولا جواز لى، ونارٌ حاميةٌ ولا بدن لى، وجنةٌ عاليةٌ ولا نصيب لى، وربٌّ عادلٌ ولا حجة لى. قال الحسن: فرجوتُ الله أن يوفقه. فأقبلت عليه وقلت له: لم لا تُسلم حتى تسلم؟ قال: يا شيخ، إن المفتاح بيد الفتاح، والقفل هاهنا. وأشار إلى صدره، وغشى عليه. قال الحسن: فقلت: إلهى وسيدى ومولاى، إن كان سبَقَ لهذا المجوسى

عندك حسنةٌ فعجّل بها إليه قبل فراق روحه من الدنيا وانقطاع الأمل. فأفاق من غشيته وفتح عينه، ثم أقبل وقال: يا شيخ، إن الفتّاح أرسل المفتاح. أُمّدد يمينك، فأنا أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. ثم خرجتُ روحه، وصار إلى رحمة الله."

وتروى عن الحسن البصري كلمات سائرة منها قوله: إن قوما ألتهتهم أمانى المغفرة رجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة، يقول أحدهم: "إنى لحسنُ الظن بالله، وأرجو رحمة الله"، وكذب. ولو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة. يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك. وجاء شاب إلى الحسن فقال: إنى أعصى الله وأذنب، وأرى الله يعطينى ويفتح على من الدنيا، ولا أجد أنى محروم من شىء. فقال له الحسن: هل تقوم الليل؟ فقال: لا. فقال: كفاك أن حرمك الله مناجاته. وقال له رجل: إن قوما يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقعة فيك سييلاً. فقال: هوّن عليك يا هذا، فإنى أطمعتُ نفسى فى الجنان فطمعتُ، وأطمعتُها فى النجاة من النار فطمعتُ، وأطمعتُها فى السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سييلاً. فإن الناس لم يرَضُوا عن خالقهم ورازقهم، فكيف يرَضُونَ عن مخلوق مثلهم؟".

ومن هذه الكلمات أيضاً رده على عمر بن عبد العزيز عندما ولى الخلافة وكتب إليه: إنى قد ابْتُلِيتُ بهذا الأمر، فانظر لى أعواناً يعينوننى عليه. فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدُهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. ومنها أيضاً قوله: إذا أراد الله خيراً بعبد لم يشغله بأهل ولا ولد، وقوله: لا تشتتر مَوَدَّةَ ألف رجل بعداوة رجل واحد. وحين سئل: هل بالبصرة منافق؟ قال: لو خرج المنافقون منها لاستوحشتُ. وهذا الرد الأخير ردٌّ فكهُ على ما فيه من مرارة. ولا شك أن فى الكلام مبالغة كبيرة، ومفهومة أيضاً. فالمبالغة أسلوب من أساليب البلاغة يستعمل للتأكيد والتشديد. أما قوله إن الله إذا أراد بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا ولد فلا تتفق معه لأن اتخاذ زوجة وإنجاب أولاد هو تعمير للدنيا وانصياع لأمر الله ورسوله، علاوة على أن الإنسان السوى

لا يمكنه أن يعيش دون امرأة ولا يطيق ألا يكون له أولاد. ثم أية حياة تلك التى يعيشها الإنسان لنفسه وحده، إن استطاع ذلك، وهو غير مستطيع؟ كذلك لا يمكن الإنسان، مهما يكن حكيما صبوراً مسلماً محباً للآخرين حريصاً على البعد عن وجع الدماغ، أن ينجو من معاناة هذا وذاك وذلك، وإلا لكان الأنبياء والمرسلون أول من يستطيعونه. ونحن نعرف أنه ما من نبي إلا كان له أعداء كثيرون أكثر من سواه. ويبقى رده على عمر بن عبد العزيز، وهو رد ظريف لكنه لا يفيد بشيء، إذ معناه أنك يا عمر لن تجد من يعينك أبداً. فالله سبحانه لن ينزل من عليائه ليعين عمر معونة مباشرة، وإنما يعيننا الله من خلال الناس. فإذا عدم الناس فلا عون. ثم هل كان عمر ليصمت على تلك النصيحة اللامجدية بل العبثية فلا يعقّب عليها؟

الأمثال:

ومن فنون الأدب فى هذين العصرين أيضاً فن المثل، الذى يقول الأستاذ السباعى بيومى، فى "تاريخ الأدب العربى - فى العصر الإسلامى"، إنه "انعدم تقريبا لأنه كان قائما قبل الإسلام على ضعف الرابطة الاجتماعية ونمو الشخصية الفردية وفراغ الإنسان لنفسه يرقب أطوارها ويعنى بشؤونها. ولم يك هذا متوافرا فى صدر الإسلام إذ انسأقت الأمة إلى الغزو والجهاد ونشر معالم الشريعة والدين غير شاعرة أفرادها إلا أنها لبنات فى بناء تبنى شخصياتها فى مجموعته وتبقى متماسكة به لإقامة أركانه. هذا هو وجه انعدام المثل مع ما راعهم من أمثال القرآن وأمثال الرسول".

ويلاحظ القارئ كيف يردد الكاتب هنا ذات الأسباب تقريبا التى أوردها من قالوا بصمت الشعراء عن إبداع الشعر لدن مجيء الإسلام، وكأن الإسلام يوقف المراكب السائرة. ومن الغريب أن يعزو اختفاء الأمثال إلى انشغال المسلمين بالغزو والجهاد ثم يتحدث عن أمثال الرسول الكريم، وكأنه لم يكن يغزو أو يجاهد. وهل يحتاج المثل إلى احتشاد وفراغ كما يقول كاتبنا؟

وإذا كان الإسلام لم يشغل الشعراء عن الاستمرار في إبداعاتهم الشعرية، والشعر هو ما هو، فكيف نتصور أن يشغل الناس عن ضَرْبِ الأمثال، وضَرْبِ الأمثال أهون آلاف المرات من نظم الشعر؟ وبالمثل نستغرب قول الأستاذ بيومي إن الأمثال تقوم على ضعف الروابط الاجتماعية وعكوف الشخص على نفسه، رغم ما هو معروف من أنها تنهض على التواصل الاجتماعي، وإلا فكيف يتوصل الإنسان إلى صوغ المثل ما لم يتأمل أحوال الناس والمجتمع من حوله؟ وما فائدة المثل إذا ظل حبيس صدر الإنسان؟ ثم إن المثل لا نعرف له في معظم الأحيان صاحبا معينا، وهو ما يؤكد الصبغة الجماعية له. كذلك قلما كان العربي ينزل عن قبيلته وعشيرته، إذ لم يكن العرب قراء ولا متأملين في الكون متحشّين في الكهوف وعلى قمم الجبال لا يصلح أمرهم إلا مع الانفراد عن البشر. ثم كيف نوفق بين دعوى كاتبنا وبين كثرة ما أثير عن رسولنا صلى الله عليه وسلم من أمثال؟ أتراه، دون مَنْ حوله، كان منعزلا عن أمته عاكفا على نفسه لا يختلط بالمسلمين؟ ومن الطريف أنه لم يؤثر عنه شيء من الكلمات المأثورة أيام تحثه وانفراده بنفسه كثيرا في غار حراء، على حين كثرت أقواله السائرة المحفوظة بعد البعثة. وعلى أية حال فالأمثال للمجتمع كالماء والهواء لا يمكنه الاستغناء عنها.

وقد مرت طائفة من أقواله عليه السلام في هذا الفصل مما صار أمثالا مشهورة. أما الأمثال التي أتننا عن الصحابة الكرام فمنها على سبيل المثال قول بلال في غزوة بدر وهو يستعد لقتل أبي جهل معذّبه في الجاهلية: "لا نجوتُ إن نجا"، وقول الصّدّيق: "اصطناع المعروف يقى مصارع السوء"، وقوله عند موت الرسول وذهول عمر آنذاك: "من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"، وقوله لعمر عند اقتراحه تجنّب الاصطدام بالمرتدين: "أجبارٌ في الجاهلية وخوّارٌ في الإسلام؟"، وقول الفاروق: "مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كان الخيارُ في يده"، "أعقلُ الناس أَعذرُهم للناس"، "إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"، "لستُ بالخَبِّ، ولكن الخَبِّ

لا يخذعني"، "لو كان الشكر والصبر بغيرين ما باليتُ أيهما أركب"، وقوله يمدح فقهه على: "قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها"، وقوله لمعاوية واليه على الشام تعليقا على بعض تصرفاته السياسية: "لا أمرك ولا أناك"، وقوله لعمر بن العاص حين ضرب ابنه رجلا مصريا سبقه بالخیل: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟"، وقوله لبطنه حين كانت تقرقر من الجوع أيام الرمادة: "قرقر ما تُقرقر، فليس لك إلا الزيت"، وقوله: "ول حارّها من تولى قارّها"، أى المفروض أن يتحمّل ثقل الأمر من سبق أن استفاد من خيراته، وقول عبد الرحمن بن عوف له عندما طلب منه أن يمد يده لبياعه خليفة: "ما سمعتُ منك فهةً في الإسلام قبلها"، وقول أحد رعيته له حين صارحه بأنه لا يمكن أن يجبه أبد الدهر، لكنه لن يظلمه: "إنما ييكى على الحب النساء"، وقول عثمان: "ما يزغ الله بالسلطان أكثر مما يزغ بالقرآن"، "أنتم إلى إمامٍ فعّالٍ أحوج منكم إلى إمامٍ قوّالٍ"، وقول على: "من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه"، "أهون الأعداء كيذاً أظهرهم لعداوتهم"، "إلى الله أشكو بلادة الأمين ويقظة الخائن"، "الناس من خوف الذل في ذل"، "الوحدة خير من رفيق السوء"، "قيمة كل امرئ ما يحسنه"، "من فاز بفلان فقد فاز بالسهم الأخبى"، وقوله للزبير بن العوام حين لم ينصره في وقعة الجمل رغم مبايعته له قبلا: "ما عدا مما بدّا؟"، وقول عائشة له عند انتصاره في تلك الوقعة: "إذا ملكت فأسجج"، وقول خالد بن الوليد: "لا نامت أعين الجبناء"، وقول ابن مسعود: "ما شىء أحقّ بطول سجنٍ من لسان"، وقول معاوية: "أنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه"، "من طلب عظيما خاطرَ بعظيمه"، وقوله محبورا حين بلغه موت الأشتر النخعي، وكان من رجال على: "واها! ما أبردها على الفؤاد!"، وقول عمرو بن العاص: "إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مطرٍ وابلٍ"، "زلة الرجل عظمٌ يجبر، وزلة اللسان لا تبقّى ولا تذر"، "ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكنه من يعرف خير الشرّين"، وقول المغيرة بن شعبة: "في كل شىء سرفٌ إلا في المعروف"، وقول عبد الله بن العباس: "الهوى إلهٌ معبود"، "إذا جاء القدر عمى البصر"، وقول

عبد الله بن عمر: "الْبُرْشَى هَيْنَ: وَجْهُ طَلَّقَ، وَكَلَامٌ لَيْنٌ"، وقول الحسن بن عليٍّ: "أَكَيْسَ الْكَيْسِ التُّقَى، وَأَحْمَقُ الْحُمُقِ الْفَجُورُ"، وقول أخيه الحسين: "خير المال ما وُقِيَ به الْعِرْضُ"، وقولهم: "أَشْأَمُ مَنْ طُويسَ"، وهو مَخْنَثٌ كان يقول: "وُلِدْتُ يَوْمَ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفُطِمْتُ يَوْمَ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَبَلَغْتُ الْحَنْثَ يَوْمَ قُتِلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَزَوَّجْتُ يَوْمَ قُتِلَ عَثْمَانُ، وَوُلِدَ لِي لَيْلَةَ قُتِلَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ"، وقولهم: "تَقْيِسُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْحَدَّادِينَ؟"، الذى يفسره المفضل بن سلمة فى كتابه: "الفاخر" كما يلى: "الْحَدَّادُونَ: السَّجَّانُونَ. وَيُقَالُ لِكُلِّ مَانِعٍ: حَدَادٌ... وَمَعْنَى الْكَلَامِ: تَشْبَهُ خَزَنَةُ جَهَنَّمَ بِالسَّجَّانِينَ مِنَ النَّاسِ؟ وَيُقَالُ إِنْ أَصْلَ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" قَالَ رَجُلٌ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ...: أَنَا أَكْفَيْكُمْ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَاكْفُونِي وَاحِدًا... فَقَالَ رَجُلٌ سَمِعَ كَلَامَهُ: "تَقْيِسُ الْمَلَائِكَةُ إِلَى الْحَدَّادِينَ؟". فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: "وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً"...".

ومن هذه الأمثال قولهم: "نام نومة عبود"، وهو أوَّلُ النَّاسِ دَخُولًا الْجَنَّةَ حَسْبًا يَنْسَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذْ يُخَكِّى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ نَبِيًّا إِلَى أَهْلِ قَرْيَةٍ، فَلَمْ يَزُكْ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا ذَلِكَ الْعَبْدُ الْأَسْوَدُ، وَأَنَّ قَوْمَهُ احْتَفَرُوا لَهُ بئْرًا فَصَيَّرُوهُ فِيهَا وَأَطْبَقُوا عَلَيْهِ صَخْرَةً، فَكَانَ ذَلِكَ الْأَسْوَدُ يُخْرَجُ فَيَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ الْحَطَبَ وَيَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا وَشَرَابًا ثُمَّ يَأْتِي تِلْكَ الْحَفْرَةَ، فَيَعِينُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الصَّخْرَةِ، فَيَرْفَعُهَا وَيُدْلِي إِلَيْهِ ذَلِكَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَأَنَّهُ احْتَطَبَ يَوْمًا ثُمَّ جَلَسَ يَسْتَرِيحُ فَضْرَبَ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ بِشِقِّهِ الْأَيْسَرِ فَنَامَ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ فَقَامَ، ثُمَّ ضْرَبَ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ بِشِقِّهِ الْأَيْمَنِ فَنَامَ سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ وَهُوَ لَا يَرَى أَنَّهُ نَامَ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَحَمَلَ حُزْمَتَهُ فَأَتَى الْقَرْيَةَ فَبَاعَ حَطَبَهُ ثُمَّ أَتَى الْحَفْرَةَ فَلَمْ يَجِدِ النَّبِيَّ فِيهَا، وَقَدْ كَانَ بَدَأَ لِقَوْمِهِ فِيهِ فَأَخْرَجُوهُ، فَكَانَ يَسْأَلُ عَنِ الْأَسْوَدِ، فَيَقُولُونَ: "لَا نَدْرِي أَيْنَ هُوَ"، فَضْرَبَ بِهِ الْمَثَلَ لِكُلِّ مَنْ نَامَ نَوْمًا طَوِيلًا.

ولنضرب صفحا عن كل ما أوردناه من أمثال قالها مسلمون، ولنفترض أن ما قاله أ. السباعي بيومي عن تأثير الإسلام في انصراف أتباعه عن اختراع الأمثال صحيح، فهل هو ملزم للمشرّكين واليهود والنصارى؟ بطبيعة الحال لا. ومن الأمثال التي أبدعها آنذاك من لم يسلموا أصلا أو من لم يكونوا قد أسلموا بعد قولهم: "ويلٌ للشَّجِي من الخَلِي". وهذا المثل ينسب إلى أكثم بن صيفي، الذي ما إن سمع ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم بمكة حتى أرسل ابنه حبيشا يستطلع طُلْعَه، فلما عاد له بخبره وجد أن كل ما يدعو إليه نبيل كريم، فجمع قومه وأظهرهم على جليلة الأمر ونصحهم أن يسارعوا إلى الدخول في الدين الجديد بملء رضاهم قبل أن تلجئهم الحوادث إلجاءً إلى ذلك عند استفاضته وتمكنه، لكن أحد كبارهم رفض نصيحة الشيخ الحكيم واتهمه بأنه شاخ وغلبه الحَرَف، فقال لهم حينئذ: "ويلٌ للشَّجِي من الخَلِي".

ومن هذا الضرب أيضا المثل التالي: "لا في العير ولا في النّفير"، وصاحبه أبو سفيان بن حرب. وذلك أنه أقبل بعير قريش، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تحين انصرافها من الشام فندب المسلمين للخروج معه، وأقبل أبو سفيان حتى دنا من المدينة، وقد خاف خوفاً شديداً، فقال لرجل هناك: هل أحسست من أحدٍ من أصحاب محمد؟ فأجابه: ما رأيت من أحد أنكره إلا راكبين أتيا هذا المكان، وأشار له إلى مُنَاخ جاسوسى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ أبعاراً من أبعار بعيريهما ففتّهما، فإذا هى نوى. فقال: علائفُ يشرب! هذه عيونُ محمد! فضرب وجوه عيره فساخَل بها وترك بدراً على يساره. وقد كان بعث إلى قريش حين غادر الشام يخبرهم بما يخاف من النبي عليه السلام، فأقبلت قريش من مكة. فأرسل إليهم يخبرهم أنه قد أحرز العير ويأمرهم بالرجوع، فأبّت قريش أن ترجع. ورجعت بنو زُهرة من ثنية لَفْتٍ: عدلوا إلى الساحل منصرفين إلى مكة، فصادفهم أبو سفيان فقال: يا بنى زُهرة، لا في العير ولا في النّفير! قالوا: أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع. ومضت قريش إلى بدر فوافقهم النبي عليه السلام،

فَأَظْفَرَهُ اللَّهُ بِهِمْ. ولم يشهد بدراً من المشركين من بنى زُهْرَةَ أحد... إلخ. وهذه مجرد عينة سريعة عارضة من الأمثال والأقوال السائرة التي نعرف أصحابها، فما بالناس بجميع الأمثال والأقوال التي نعرفها، لكن لا نعرف لها صاحباً؟ والعجيب أن الأستاذ السباعي بيومى، بعد هذا كله، قد أورد، خلال كلامه عن مميزات الشر في صدر الإسلام، عددا لا بأس به من الأمثال والحكم التي قالها الصحابة.

نبذة عن المؤلف

إبراهيم محمود عوض

من مواليد قرية كتامة الغابة . غربية في ٦ / ١ / ١٩٤٨ م

تخرج من آداب القاهرة عام ١٩٧٠ م

حصل على الدكتورية من جامعة أكسفورد عام ١٩٨٢ م

أستاذ النقد الأدبي بجامعة عين شمس

البريد الضوئي: (ibrahim_awad9@yahoo.com)

المؤلفات:

معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين

المتنبى - دراسة جديدة لحياته وشخصيته

لغة المتنبى - دراسة تحليلية

المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (مترجم عن الفرنسية مع تعليقات ودراسة)

المستشرقون والقرآن

ماذا بعد إعلان سلمان رشدي توبته؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية

الترجمة من الإنجليزية - منهج جديد

عنتر بن شداد - قضايا إنسانية وفنية

النابعة الجعدي وشعره

من ذخائر المكتبة العربية

السجع في القرآن (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

جمال الدين الأفغانى - مراسلات ووثائق لم تنشر من قبل (مترجم عن الفرنسية)

فصول من النقد القصصى

سورة طه - دراسة لغوية وأسلوبية مقارنة

أصول الشعر العربى (مترجم عن الإنجليزية مع تعليقات ودراسة)

افتراءات الكاتبة البنجلاديشية تسليمه نسرین علی الإسلام والمسلمين - دراسة نقدية لرواية «العار»

مصدر القرآن - دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدى

نقد القصة في مصر من بداياته حتى ١٩٨٠ م

د. محمد حسين هيكل أديبا وناقدا ومفكرا إسلاميا

ثورة الإسلام - أستاذ جامعى يزعم أن محمدا لم يكن إلا تاجرا (ترجمة وتفنيد)

مع الجاحظ في رسالة «الرد على النصارى»

كاتب من جيل العمالة: محمد لطفى جمعة - قراءة في فكره الإسلامى

إبطال القنبلة النووية الملقاة على السيرة النبوية - خطاب مفتوح إلى الدكتور محمود على مراد في الدفاع عن سيرة ابن

إسحاق

سورة يوسف - دراسة أسلوبية فنية مقارنة

سورة المائدة - دراسة أسلوبية فقهية مقارنة

المرايا المشوّهة - دراسة حول الشعر العربى فى ضوء الاتجاهات النقدية الجديدة

القصاص محمود طاهر لاشين - حياته وفنه

فى الشعر الجاهلى - تحليل وتذوق

فى الشعر الإسلامى والأموى - تحليل وتذوق

فى الشعر العباسى - تحليل وتذوق

فى الشعر العربى الحديث - تحليل وتذوق

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية

منكرو المجاز فى القرآن والأسس الفكرية التى يستندون إليها

أدباء سعوديون

شعر عبد الله الفيصل - دراسة فنية تحليلية

دراسات فى المسرح

دراسات دينية مترجمة عن الإنجليزية

د. محمد مندور بين أوهام الادعاء العريضة وحقائق الواقع الصلبة

دائرة المعارف الإسلامية الاستشرافية - أضاليل وأباطيل

شعراء عباسيون

من الطبرى إلى سيد قطب - دراسات فى مناهج التفسير ومذاهبه

القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية

اليسار الإسلامى وتطاولاته المفضوحة على الله والرسول والصحابة

محمد لطفى جمعة وجيمس جويس

«وليمة لأعشاب البحر» بين قيم الإسلام وحرية الإبداع - قراءة نقدية

لكن محمدا لا يواكى له - الرسول يهان فى مصر ونحن نائمون

مناهج النقد العربى الحديث

- دفاع عن النحو والفصحى - الدعوة إلى العامية تطل برأسها من جديد
- عصمة القرآن الكريم وجهالات المبشرين
- الفرقان الحق - فضيحة العصر
- لتحيا اللغة العربية يعيش سيبويه
- التذوق الأدبي
- الروض البهيج في دراسة «لامية الخليج»
- المهزلة الأركونية في المسألة القرآنية
- سهل بن هارون وقصة النمر والثعلب - فصول مترجمة ومؤلفة
- «تاريخ الأدب العربي» للدكتور خورشيد أحمد فارق: عرض وتحليل ومناقشة (مع النص الإنجليزي)
- الأسلوب هو الرجل - شخصية زكى مبارك من خلال أسلوبه
- فنون الأدب في لغة العرب
- الإسلام في خمس موسوعات إنجليزية (نصوص ودراسات)
- في الأدب المقارن - مباحث واجتهادات
- مختارات إنجليزية استشرافية عن الإسلام
- نظرة على فن الكتابة عند العرب في القرن الثالث الهجرى (مترجم عن الفرنسية)
- فصول في ثقافة العرب قبل الإسلام
- بعد الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ماذا يقولون عن الإسلام؟ (نصوص وردود)
- دراسات في النثر العربى الحديث
- «مدخل إلى الأدب العربى» لهاملتون جب - قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)
- مسير التفسير - الضوابط والمناهج والاتجاهات
- «الأدب العربى - نظرة عامة» لبيير كاكيا: عرض ومناقشة (مع النص الإنجليزي)
- بشار بن بُرد - الشخصية والفن
- الحضارة الإسلامية - نصوص من القرآن والحديث ولمحات من التاريخ
- في التصوف وأدب المتصوفة
- النساء في الإسلام - نسخ التفسير البطريركى للقرآن (النص الإنجليزي مع دراسة موازية)
- الإسلام الديموقراطى المدنى - الشركاء والموارد والإستراتيجيات (ترجمة تقرير مؤسسة راند الأمريكية لعام ٢٠٠٣ م)
- عن الإسلام والمسلمين فى أرجاء العالم)
- محاضرات فى الأدب المقارن
- من قضايا الدراسة الأدبية المقارنة

- ست روايات مصرية مثيرة للجدل
- هوامش على «تاريخ العرب» لفيليب حتى
- أفكار مارقة: قراءة في كتابات بعض العلمانيين العرب
- موسم الهجوم على الإسلام والمسلمين - مع «قسمة الغرماء» ليوسف القعيد و«تيس عزازيل في مكة» ليوتا
- «القرآن والمرأة» لأمنية ودود - النص الإنجليزى مع ست دراسات عن النسوية الإسلامية
- عبد الحليم محمود - صوفى من زماننا
- د. ثروت عكاشة - إطلالة على عالمه الفكرى
- ثروت عكاشة بين العلم والفن
- إسلام د. جيفرى لانج: التداعيات والدلالات - قراءة في كتابه: «النضال من أجل الاستسلام»
- دراسات في اللغة والأدب والدين
- «مدخل إلى الأدب العربى» لروجر ألن - عرض وتقويم
- على هامش كتاب جوزيف هل: «الحضارة العربية»
- ابن رشد - نظرة مغايرة
- تاريخ الأدب العربى من العصر الجاهلى إلى نهاية العصر الأموى
- من ينابيع الثقافة الإسلامية فى العصرين الإسلامى والأموى
- علاوة على الدراسات والكتب المنشورة فى المواقع المشبكية المختلفة

الفهرست

٥	الثقافة الإسلامية
٣٨	القرآن الكريم
١٢٧	الحديث النبوي الشريف
٢٣٤	الشعر والنثر
٣٨٠	نبذة عن المؤلف